www.islamicbookscity.com

سلسلة المطبوعات رقم ٣٨

نفحة العنبر

في حياة إمام العصر الشيخ أنور

تحوي حياته العلمية ومفاخره السائرة ومآثره
الخالدة وشمائله الميمونة وآراء مشائخه وأماثل
عصره في نبوغه وكمالاته وشيء من
فوائد علومه وشعره

تأليف

محمد يوسف بن السيد محمد زكريا البنوري

خادم الحديث النبوي بالمدرسة العربية الإسلامية بكراتشي ومديرها

وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق عفا الله عنه وعافاه

وجعل آخرته خيرا من أولاه

قام بنشرها

المجلس العلمي في كراتشي باكستان

www.islamicbookscity.com

سنة الطبع : . . . . ١٣٨٩ هـ ـــ ١٩٦٩ م

تعداد النسخ : . . . . ١٠٠٠ (ألف نسخة)

المطبعة : . . . . القادر برنتنك سينتر
نورى مسجد - تين هتى
كراتشى - باكستان

ثمن الكتاب : . . . . . . من غير التجليد : عشر روبيات

" " . . . . . . مع التجليد : اثنتا عشرة روبية

الناشر : . . . . ادارة المجلس العلمى
بكراتشى
ص - ب - ٤٨٨٣

Printers:- AL - QADIR Printing Centre, Teen Hutti, Karachi.

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن إمام العصر المحدث الكبير الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى ثم الديوبندى رحمه الله تعالى كان من أفراد هذه القرون الأخيرة وأفذاذها ، ونابغة هذه العصور الذى يستحق هذه الأمة الحاضرة أن تتباهى به ، ما كان لمثلى أن يكتب حياة مثله ، وإنما يستحق أن يكتب حياته من كان متضلعاً من هذه العلوم والمعارف ، وسابر أغوارها وأنجادها ، ووصل من حقائق العلوم إلى غايتها القصوى وحماداها ، وأطال صحبة أنفاسه الطاهرة على محبة ووداد ، وبصيرة وسداد ، ولكن القدر المحتوم قدر لى هذه السعادة الأبدية ، فوفقت إلى تأليف فى حياته وترجمته قبل أربع وثلاثين سنة فى شرخ شبابى وعنفوان فتوتى ، وما كان لمثلى أن تنجلى أمامى خصائصه البارعة ومزاياه الساطعة ، غير أن غرامى بعلومه و ولوعى بخصائصه وإخلاص ودادى لشخصيته فتح أمامى حقائقه التى درستها بعد أكثر من ثلاثين عاماً ، ولم أزد غير وثوق وتأكيد لما أدركته من قبل وكشفت لى كرامته الباهرة أن أدركت حقائق من خصائصه ومزاياه فى ريعان شبابى ما لو كنت أدركتها وأنا ابن ستين سنة فصاعداً لكفى لى فخراً بحول الله وقوته ، ومن قدرة الله القدير على كل شئ أن سمعت شيئاً وسنى لم يبلغ إلى عشرين ، فذقته بثلج صدر وبصيرة مثل ما أذوقه وأنا فوق ستين عاماً ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

ألفت ترجمته المختصرة وحياته العلمية وسميتها : " نفحة العنبر فى هدى الشيخ أنور " ، عنيت فيها بآدابه وحياته العلمية أكثر من عنايتى بأحواله العامة وشمائله الطيبة كما هو دأب أكثر المؤلفين العصريين .

وقد لاقى جهدى الضئيل تقديراً وثناءً من الأكابر كأمثال حضرة حكيم الأمة التهانوى ومحقق العصر الشيخ العثمانى والمحقق الشيخ كفايت الله الدهلوى مفتى الهند الأكبر ، وهنئونى بهذا التوفيق ، كل ذلك بفضل الله وكرمه ما كان يخطر ببالى مثله ، ولما سافرت إلى القاهرة فى أول رحلة لى سنة ١٣٥٧ فى صفر الخير وتشرفت بزيارة بحاثة العصر المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثرى فقدمتها إلى حضرته ، فزارنى بعد يوم أو يومين فى منزلى بالقاهرة، وقال : قرأت كتابك " النفحة " ووجدت كأن الشيخ ماثل أمامى يخطب ، ومن العجيب أن حضرة شيخنا مولانا شبير أحمد العثمانى كتب فى جملة ما كتب عن الرسالة مثل هذه الكلمة ما لفظه بالأردوية :

> ''کتاب کے موضوع اور اسلوب جمیل نے مجھکو بالکلیہ اپنی طرف جذب کر لیا ، پڑھتے وقت بلا مبالغہ یہ معلوم ہوتا تھا کہ گویا مرحوم کی تصویر آنکھوں کے سامنے کھڑی ہے ، اور خود گویا علامہ مرحوم اپنے خاص لب و لہجہ اور طرز ادا میں اپنے عقیدت کیشوں سے خطاب کر رہے ہیں'' .

ومن المبشرات أن صديقنا العالم الصالح مولانا عبد العزيز المرحوم قد رأى رؤيا حين فرغت من تأليف "نفحة العنبر" قبل أن يعلم أحد بإتمامه وأن يفض مسك ختامه : " أن شيخنا رحمه الله جاء غرفتى التى كنت أسكنها فى "جامعة دابيل" وجلس خارجها ، وأخذ يثنى على عضواً عضواً ، ثم طلب طيلساناً لى يشد على الرأس بدل العمامة فأخذه وشده على الرأس مثل العمامة وأثنى على ذلك الطيلسان بأنه فى غاية الجمال " .

وأرى أن هذه البشرى رؤيا صالحة دلت على قبول هذه النفحة بحضرته ، فهبت عليها نفحات من قبوله ، فلله الحمد والنعمة ، وكفى لى بها سعادة وفخراً :

جهد المتيم أشواق فيظهرها * دمع على صفحات الخد ينحدر

وأنا أدرى أن حياة إمام العصر العلمية يحتاج إلى توسع أكثر من هذا، وقديماً قلت : إن كان طرف ضئيل من حياته موضوع بحث فالمجال واسع جداً ، فكيف يمكن أن يحوى جزء وهو غير كبير حياة مثله نابغة الدهر وعبقرى الأمة الحاضرة ، ثم أنى لمثلى فى شبابى وفتوتى ! ثم كل ذلك فى ظروف ضيقة وفرص مختطفة من أعمالى الدراسية . بيد أن الله سبحانه القادر على كل شئ جعلها مقبولة واختطفته أيدى طلبة العلم فى برهة غير طويلة ، وكم كنت أود أن أطيل البحث عن شئونه العلمية وشمائله العامة ، وكان أرباب المجلس العلمى يحبون أن يعيدوا طبعها ، ولكن لم أوفق لما كنت أود ولم يوفقوا إلى ما أحبوا ، فطال الترقب وزادت الأشواق إلى أن جاء عهد الإعادة للنشر مرة أخرى فى وقت وهنت قواى وازدحمت على الأشغال ، وفترت الداعية ولم أتمكن من الزيادة غير النظر فى غضونها وشجونها ، نعم رغبت فى أن يلحق بها ما كتبت عن إمام العصر الشيخ رحمه الله فى مقدمة " فيض البارى " أو كلمات فى محل آخر ليكافئ هذا الوهن ، أو شئ من فوائده الفقهية والعلمية ليجبر هذا الكسر ويلم هذا الشعث ، وكنت احتذيت بعض قدماء الأئمة مثل المبرد فى " كامله " والجاحظ فى " بيانه " ، فجاءت فيها أمثال عربية أدبية جعلتها أرق أدباً فى أنظار وأغمض وأدق فى أنظار أخرى ، ولكن قل مقام إلا وذكرت فيه بعد المثل أو قبله كلمة من كلامى يشرحه أو يكون سياق يوضحه ، فمن غاب عنه المثل ومعناه وما حواه لم يغب عنه مفهوم الكلام

وفحواه ، ومهما يكن من شئ فإتيان شئ يتفق عليه الأمة جمعاء خارج من طوق البشر ، وهكذا الدنيا . وصدق أبو الطيب حيث يقول :

لحى الله ذى الدنيا مناخاً لراكب * فكل بعيد الهم فيها معذب .

ولنعم ما قال هو نفسه وأجاد ، وكان شيخنا رحمه الله يتمثل به أحياناً ، وهى هذه الأبيات :

تخالف الناس حتى لا إتفاق لهم   إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل تخلص نفس المرأ سالمة   وقيل تشرك جسم المرأ فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته   أقامه الفكر بين العجز والتعب

فإذن نقدم لمن له ولوع بحياة إمام العصر الشيخ وغرام بها تلك النفحة التى هى نفحة من نفحاته رحمه الله فى حديقة أبهى من السابقة ورقاً وطباعة وصحة فى زى قشيب وجمال بديع ، نرجو الله سبحانه أن يجعلها سلوة للمغرمين بحب الشيخ ، كما نرجو أن يجعلها نزهة أدبية للذى يريد التنزة فى رياض من الأدب والشعر واللغة ، فيشمون منها نفحة ذكية عنبرية بفضل الله ، والله سبحانه ولى كل توفيق ونعمة .

محمد يوسف البنورى
٢ صفر الخير سنة ١٣٨٩ هـ
المدرسة العربية الإسلامية
كراتشى رقم ـ ٥

* * *

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تواضع كل شئ لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شئ لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شئ لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شئ لقدرته .

اللهم اجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك على سيدنا محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفاتح لما أغلق ، هديت به القلوب بعد خوضات الفتن والإثم بموضحات الأعلام ومنيرات الإسلام ونائرات الأحكام ، فهو أمينك المأمون وخازن علمك المخزون ، وعلى آله وصحبه الذين هم الآثار الباقية والباقيات الصالحات ما دامت العيون تسمح بالعبرات والقلوب بالحسرات.

أما بعد : فهذه نفثات صدر وقطرات قلم ، بل عبرات عين وحسرات ألم نهديها إلى علماء الأمة الحنيفية ، ولا سيما إلى فضلاء الممالك الإسلامية وأماثل البلاد العربية لتصدع لهم بكلمات من كتاب حياة رجل عظيم ضنت بأمثاله القرون وجادت بمثاله بعد دهور متطاولة .

كان برقاً تألق فى ساهرة الهند فأضاءت منه أقطارها ، وانبعث شعاعه إلى أكناف الدنيا ، فاستنارت منه أنجادها وأغوارها ، فاشرأبت إليه الأعناق ، وأقنعت الرؤس وطمحت إليه الأعين ، فانطوى على عجل وغادرهم سامدين حيارى لادراك لهم ولا حراك ، هو : الشيخ الإمام ، نسيج وحده ونابغة دهره ، إمام العصر ، ابن دقيق الأمة الحاضرة فى دقة النظر ، ابن تيمية عصره فى الاستبحار والتغلغل فى العلوم ، عسقلانى الحديث فى الحفظ والإتقان،

جرجانى البلاغة ، وسيبويه العربية سيدنا ومولانا الشاه محمد أنور الكشميرى ثم الديوبندى ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

جاء والناس فى غفلة من مزايا علوم الحديث ومن تخريج مناط الأحاديث وتنقيحه وتحقيقه ، راقدين عن فقه الحديث وأغراض الشارع ؛ حماداهم أن يحفظوا ما راج بين القوم من التأويلات الركيكة والمحامل الواهية للنصوص ، غير منتقدين لها على محك الفكرة الصائبة والبصيرة النافذة .

أتى رحمه الله والمشتغلون بالدرس والتأليف فى زاوية الاقتناع من بحار الأقوال ببرض النقول يسبحون فى ضحضاح من المعقول والمنقول ، لادراك لهم من اجتناء الأزاهير الفائحة من مريع رياض القدماء والاقتطاف من ثمارها اليانعة .

نبغ والعاكفون على العلوم فى دلجة مطبقة من سبل الإرتقاء إلى ذرى المجد السامى والشرف الأقصى ، غير منتفعين بمعادن السلف ودفائنهم القيمة وتحقيقاتهم المضنونة ، والمكبون على الزبر كانوا يرجمون بالغيب ويرمون فى الليل ، لايدرون طبقات المؤلفين ودرجاتهم ومواليدهم ووفياتهم ، فأضاء رحمه الله مناهج التقصى عن المعضلات الغامضة والمشكلات الدقيقة حتى أصبح لهم التحقيق والتدقيق على طرف الثمام وتغلغل فى حقائق المدارك ومعارفها ودقائق الأبحاث وغوامضها ، فقيد شواردها واستأنس أوابدها ، وغاص البحار وشق الجبال ، فأخرج اللآلى الفاخرة والجواهر المضيئة فأصبحت اليواقيت والجواهر أرخص ما يكون فى أسواق الدروس وأندية التأليف والمجامع العلمية .

وبالجملة فقد سحت مزنته الهطالة فساحت بحار وسالت أودية من غرر نقول أكابر القدماء وأماثل السلف فى معضلات العلوم ، فسبح فيها بتحقيق

نافذ واجتهاد مصيب وانتقاد رائق ، فاخضرت بقاع الهند وراحت فى البلاد نسائمها وتنضرت رياضها النضرة ، حتى فاحت الأزاهير وصاحت حمائمها ، فقد هز القلوب وهيج الأفكار ولذّ الأسماع وأرهف البصائرُ والأبصار ، حيث بث الجواهر الغالية ونشر المعارف العاليــة ، ونفخ فى الأمة الحاضرة روح نهضة العلوم الإسلامية . تبدت له الدنيا بدلها وحديثها ، وغردت لــه بما تشتهيه الأنفس وتلذ بــه الأعين كعتان كشمير وحمامها ، وعطرت معاطسه شمائم أزهارها وكمامها ، فتولى عنها وتركها وراءه ظهرياً وأقبل إلى التوشح بمطارف العلم والفضل بحرص صادق وقلب زكى وطبيعة وقادة ، تقياً نقياً ، حتى أضحى العلم له دثاراً وتقوى الله له شعاراً ، وصدق فيه ما خاطب بــه الشيخ الإمام النووى الإمام تقى الدين ابن دقيق العيد رحمهما الله بقوله :

لكل زمان واحد يقتدى به * وهذا زمان أنت لا شك واحده

فهذه قطرات ورشحات من غزير وابله وفوحات ونفحات من جميل شمائله وفضائله ، أتيمن بذكرها الميمون استذرافاً للعبرات ، واستذكاراً بالعبر ، واقتداءً بمن سلف من أعيان الأمة وغبر ، وادكاراً لنعم الله تعالى على الورى ، واعتباراً بمآثر أفراد الملــة فيما مضى . ولله در الخليفة الراشد الإمام عمر بن عبد العزيز الأموى رحمه الله حيث قال :

أنظر لنفسك يا مسكين فى مهل ... مادام ينفعك التفكير والنظر
قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها ... لله درك مــاذا تستر الحفــر
ففيهم لك يا مغرور موعظـــة ... وفيهـــم لك يــا مغتر معتبر

ومما قلت :

فآثار علم أو مآثر فضلهـــم ... مدى الدهر تبقى لا تزال كغرة
وقد فارقوا عنا وأبقوا عيونهم ... فهل من عطاش تشتهى نقع غلة

أسائل دهراً من شمائل فضلهم فهل نظرة فى الغابرين بعبرة
فدع ذكر سلمى أو حديث سعادهم وهات حديث الراحلين ببرهة
وذر حب ليلى ثم سعدى وذكرها وهاك حديثا من كتاب وسنة

اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ونستعينك على فساد فينا ، ونسألك صلاح أمرنا كله ، وصلى الله تعالى على إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة سيدنا محمد وآله وصحبه وتبعه أجمعين .

هذا ، ثم إنى كنت عزمت بأن أقتنع من هدى الشيخ رحمه الله وحياته العلمية بما فيه مقنع وكفاية للمتفقدين ، بيد أن أصحاب المجلس العلمى قد أشاروا على بإفصاح حياته العلمية بنوع بسط وإيضاح وإيراد شئ من سيرته العلمية ، ليكون مقدمة مقنعة لكتاب "مشكلات القرآن" من مؤلفات الشيخ رحمه الله ، بل لسائر مؤلفاته مبصرة فى آدابه وخصائصه ، فمن أجل ذلك أجلت قداح نظرى الكليل فى أرجاء من باديته الفسحى ، والله الموفق ، ولتسم بـ : " نفحة العنبر من هدى الشيخ الأنور" ، وإن شئت فسمها بـ : "نفائس الدرر من أنفاس الشيخ الأنور" . والله المستعان ، وعليه الثقة والتكلان (١) .

* * *

(١) ولتسم فى هذه الطبعة : "نفحة العنبر من حياة امام العصر الشيخ انور".

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة" نسبه، نشاته وحياته الجمليه"، اعماله بعد الفراغ، تدريسه للعلوم وافتتاحه "مدرسة" عربيه" بدهلى "عود الشيخ الى وطنه وتاسيس مدرسة" دينيه" سماها الفيض العام، زيارة الحرمين ولقاء صاحب الرسالة" الجميديه"، عزم التجرد والعزلة"، اقامته بدار العلوم الديوبنديه" وازدواجه، رحيله منها الى كجرات الهند و اقامته بدابيل، مرض الشيخ، اجله المحتوم دفنه بديوبند

سلسلة نسبه .

هو : ابن الشيخ معظم شاه ، بن الشاه عبد الكبير ، بن الشاه عبد الخالق ، بن الشاه محمد أكبر ، بن الشاه محمد عارف ، بن الشاه حيدر ، بن الشاه على ، بن الشيخ عبد الله ، بن الشيخ مسعود النروري الكشميري رحمهم الله تعالى .

وفى "المكتوبات" الخطية عند خلف الشيخ (مسعود) : أن سلفه جاءوا من " بغداد " إلى الهند ، ودخلوا " ملتان " ، ثم ارتحلوا إلى بلدة " لاهور " ، ثم إلى " الكشمير ". هذا ما ذكره شيخنا رحمه الله نفسه فى أواخر بعض رسائله ، وكان كما قال سيدنا كعب رضى الله عنه :

ورثوا الكرامة كابراً عن كابر إن الكرام هم بنوا الأخيار

نشأته وحياته الجملية .

كانت ولادته صبيحة يوم السبت السابع والعشرين من الشوال سنة ١٢٩٢ الهجرية بقرية " ودوان" (١) على زنة لبنان . من كورة "لولاب"

(١) بالواوين بينهما دال مهملة .

بناحية شمالية من مضافات "الكشمير" (الواقع فى أعدل أقاليم البسيطة ، أعنى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة) .

تربى فى حجر والدته التى كانت يتيمة دهرها فى الورع والزهد والعبادة ، فى ظلال حنو والده الراشد المسترشد العابد الزاهد ملجأ القوم فى النوائب وملاذهم فى المهمات الدينية والدنيوية ، إلى أن قضى أربع سنين من عمره ودخل فى الخامسة فأخذ فى القراءة فختم التنزيل العزيز ، وفرغ من عدة رسائل بالفارسية فى عامين على حضرة والده ، ثم شرع الكتب الفارسية حسب ما توارث فى أهل بلدته وتعاملوا بـه من كتب الأدب الفارسى من النظم والنثر ورسائل الإنشاء وكتب الأخلاق من مؤلفات الشيخ سعدى الشيرازى والنظامى والأمير خسرو الدهلوى والعارف المحقق الجامى والمحقق جلال الدين الدوانى وغيرهم ، فبرع فيها ما شاء الله وحوى علماً بتلك الكتب الفارسية والعلوم المتعارفة فيها حتى فاق الأمثال والأقران ، وأشير إليه فى فضلاء بلده بالبنان ، وحصلت له ملكة فى صياغة النظم الفارسى وإنشاء النثر ولم تتم له بعد عشر حجج .

ثم شرع فى تحصيل العلوم العربية ، ففرغ من الصرف والنحو وقدر صالح من أكثر العلوم المتداولة من الفقه وأصوله والمنطق وغيرها فى حولين فصاعداً . فلما ارتوى وتضلع من علوم الكشمير أزعجته لواعج الإرتقاء على الرحيل وأغراه جذبات الوجد والإشتياق على تكميل العلوم واكتساب المعارف لبرد الهيام وإطفاء الغليل فشحذ غرار العزيمة الصادقة للرحلة عن وطنه ومأمنه ، فودعته أمه الحنون وأباه العطوف فودع بلدته الطيبة التى تحى القلوب والأرواح بنسائمها ، وتهتز الأعطاف بأسجاع حمائمها إلى أن وصل إلى بقاع "هزاره" (من حدود الفنجاب بالمغرب الشمالى) وكان محطاً لرجال مهرة العلوم الدرسية والأساتذة المتقنين وحذاق الفنون المتداولة ، فمكث فيها من أقطار شتى نحو

ثلاثة أعوام يطئ وحره ويشفي صدره ، بيد أنه لم تقنع بذلك القدر نفسه ولم تنقع به غلته بل كان يزداد ظمأ وأواماً إلى درك حقائق العلوم ، وما كان أن يطمئن ما لم يصل إلى درك البحر الزاخر ، وهكذا حقيقة المعارف والعلوم إذا سرت في العروق وخالطت بشاشتها القلوب وامتزجت بالقرائح والأفكار لا ينطفئ الضرام والغليل ، وتنادى القريحة : هل إلى مزيد من سبيل .

وكان رحمه الله سمع صيت بعض الأفاضل بالديار الهندية ، فامتطى إليها صهوة الإرتحال ، وأخذ بيده عصا الترحال ، فقدر له التوفيق الإلهي ، وساقته الحكمة السرمدية والسعادة الأزلية إلى محط رجال الأكابر ومحطة أعيان الأماثل مهد العلماء الربانيين والأحبار الربيين ، شموس المعارف الإلهية وبدورها ، ونجوم العلوم الدينية ونورها ، إلى بقعة أضاءت منها بقاع الهند بعد ما أظلمت ، وانمحت منها ظلمات البدع بعد ما تراكمت ، إلى بقعة جرت منها ينابيع القرآن والسنة في الفيافي المجدبة ، وفلق بها صديع العلم والهداية بعد ما أحاطت بأكنافها دياجر المحدثات والجهل ، وأرخيت بها سدول الغواية ، أعني : دار العلوم الإسلامية والجامعة العظيمة الدينية بقرية "ديوبند" من مديرية "سهارنفور" (على شقة مائة ميل من بلدة "دهلي" عاصمة الهند إلى الجانب الغربي الشمالي) . وكان ساحتها مستنيرة بجهابذة العلوم النقلية والعقلية وفطاحلها ، وكان أكبرهم وأجلهم شيخ العالم مسند الوقت رحلة الأقطار شيخ العرب والعجم مولانا الشيخ محمود حسن الديوبندي رحمه الله تعالى ، وكان هو مرتوياً من علوم القرآن والسنة والحقائق والمعارف من قدوة الأمة وقطب الإرشاد حكيم الأمة المحمدية وزعيمها معلم الناس الخير والحكمة شيخ السنة مولانا رشيد أحمد الكنكوهي قدس سره . ومن بحر المعارف والحقائق من أوتي الحكمة وفصل الخطاب حبر الأمة ولسان الحكمة حجة الإسلام مولانا

محمد قاسم النانوتوى (١) ثم الديوبندى قدس الله روحه .

وقد خص الله المحدث العارف الكنكوهى بإصابة الفكرة وإعلاء كلمة الحق ، ونشر السنة فى الأمة علماً وعملاً صار مداراً للفتيا ، وارتفعت إليه مشكلات القضايا ومشتبهات المسائل والأحكام ، فهداه الله إلى الحق الأبلج ، ودار معه الحق حيثما دار ، وكان شيخ الطريقة دارت عليه طريقة السادة الچشتية ، وتواترت قطبيته عند العرفاء وأصحاب الكشف الصحيح .

وكان عندهم قطب الإرشاد ، فجرت منه أنهار السنة النبوية ، ونبعت من قلبه ينابيع السلوك والعرفان ، فجعله الله إماماً فى الشريعة ، إماماً فى الطريقة ، جرد الشريعة عن البدعات الممتزجة بها ، وجرد طريقة السادة الچشتية عن الرسوم المحدثة فى أهلها من محافل السماع واستعمال آلات الطرب واللهو من المعازف والمزامير وغيرها من المحتفلات المبتدعة فيهم بالهند ، ومزجها بالسنة الصافية حتى بدت فى قالب السنة زهراء ساطعة تطابق بها ظهرها وبطنها .

وأما الشيخ العارف النانوتوى رحمه الله فكان بحراً لأسرار الشريعة والتكوين ومعارف السنة النبوية ، ذب عن عقائد الشريعة المحمدية صولات الملحدين وسورات الزائغين والمبتدعين ، لم يكن علومه ومعارفه من الزبر والأسفار والصحف والأوراق ، بل الله أودع فى قلبه نوراً أضاء منه علوم الشريعة والحقيقة ، إذا توجه إلى إلقاء معرفة أو إيضاح سر خفى نرى أن قلبه انفتحت كوته إلى عالم القدس فيتلقى منه ، ثم يجرى منها تلك المعارف والعلوم على لسانه الصارم بما يبهر العقول ويحير الألباب ، وقد آثره الله بمعارف سامية خلت عنها كتب أكابر المحققين وأعاظم الصوفية كأمثال الغزالى والشيخ الأكبر أعرف المغاربة ، والفخر الرازى ، ثم ساعده

---

(١) نسبة الى ''نانوته'' - بالنونين - قرية من كورة ''سهارنفور''، و''گنگوه'' ايضاً قرية من قراها .

التوفيق الربانى لإيضاح المشكلات وتفهيم الغوامض حتى يجعلها مشاهدة رأى العين ويخال أخفى النظريات عند بيانه من أجلى البديهيات حتى وقائع الحشر وأمور المعاد حتى الجنة والنار وكمالاته الباطنة خارجة عن إحصاء أمثالى ، بل عن إدراك نظرائى ، وكان شيخ طريقته قطب العصر العارف إمداد الله الهندى مهاجر مكة يتعجب من إرتقاء مداركه ومدارجه ، ويقول : إن مثله كان قد يظهر فى القرون الماضية المباركة ، وكان العارف الكنكوهى والعارف النانوتوى رضيعى لبان فى تحصيل العلوم ، وخليلى صفاء ، وفرسى رهان فى طى منازل السلوك ، بايعا على يد ذاك الشيخ العارف الهندى ثم المكى الذى سلف ذكره قدس سره . وكان يقول : انعكس الأمر ، فكان من بدائع القدر أن بايعا على يدى وكانا هما أحق وأحرى بأن أبايع بأيديهما ، صدع به فى آخر رسالته "ضياء القلوب" (١) .

وبالجملة فكان العارف المحدث الكنكوهى شيخ السنة شريعة" وطريقة" ، هدياً وسمتاً ، علماً وعملاً ، ذوقاً وحالاً . والعارف النانوتوى إمام الحقيقة ولسان الحكمة . وأقرب المثال بهما ما قصه العارف الجامى رحمه الله فى "النفحات" عن "تاريخ اليافع" : أن تلاقى يوماً فى الطريق شيخ الطريقة العارف شهاب الدين السهروردى والشيخ الأكبر محى الدين ابن العربى ، فرنا كل إلى الآخر ومضى لسبيله ولم ينطقا بشئ ، فسئل الشيخ الأكبر عنه : كيف وجدته ؟ فقال : وجدته سنة مصطفوية من الرأس إلى القدم ، وسئل العارف السهروردى عنه ، فقال : وجدته بحر الحقائق . هذا وقد لقب فى الأمة الشيخ أبوبكر الباقلانى

---

(١) وارى انه قال ذلك تواضعاً ، فان العارف امداد الله لاشك انه وصل فى قوة نسبته الباطنيه الى حد بعيد ، واقامته بمركز التجليات الالهيه" وهبته من المعارف الالهيه" ما لا ينتطح فيه عنزان ، وماظهر من العلوم والمعارف من العارف النانوتوى كل ذلك انعكاس للمعارف الامداديه" على قلبه وقلمه ولكن على كل حال مثل هذا الثنا وان كان مبالغه" ولكن يعلم منه مقدار كمالاتهما الباطنه" والظاهرة وترغيب الشيخ العارف فى الاستسقاء من ينابيعهما الفياضه" . منه .

المالكى رحمه الله بـ: "شيخ السنة" و" لسان الأمة"، فليلقب العارف الكنكوهى بـ"شيخ السنة". والعارف النانوتوى بـ" لسان الأمة" . وأزيد عليه فى تلقيبه بـ"لسان الحكمة" . ولإمام العصر شيخنا فى مآثر كل منهما قصيدة سأتبرك بها فى سياق أخر إن شاء الله تعالى .

وبالجملة فكانا رحمهما الله نيرين فى سماء بلاد الهند الداجية ، أحيا الله بهما آثار السنة النبوية بعد ما عفت أو كادت أن تعفو ، لتهاجم جمهور الناس على البدعات المتراكمة والرسوم المحدثة الفاشية ، فرأب الله بهما الثأى ولم الشعث ولأم الصدع حتى أشرقت كواكب السنة والملة الإبراهيمية فى دياجى المحدثات المدلهمة ، فالحمد لله على ما استأصل بهما شأفة أهل البدعة والهوى ، وأثمر سعيهما المبارك فى هذا القرن بالهند ، فاستوى الدين على الساق ، وملأت بركاتهما الآفاق. فكان العارف النانوتوى قد وصل إلى الرفيق الأعلى من قبل سنة ١٢٩٧ الهجرية، وأما القطب الكنكوهى فكان بـ"كنكوه" يتداوى القلوب بإرشاده ويسترشد الضالون بنور رشاده ، فقرأ ما بقى له من كتب خواتم العلوم وأسفار الحديث، واستفاد ما قدر له من العلوم والمعارف ، واصطاد ما سنح له من السوانح والبوارح ، واستقاد ما تأتى له من الشوارد والأوابد ، وسمعت من حضرة شيخنا رحمه الله هذا صاحب الترجمة أنه يقول : قرأت "صحيح الإمام البخارى" "والسنن" للإمام أبى داؤد السجزى "والجامع" للإمام أبى عيسى الترمذى والجزئين الأخيرين من "الهداية" على شيخ العالم شيخنا المحمود قدس سره . وقرأت " الصحيح " للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى و " سنن الإمام النسائى الصغرى" و"سنن الإمام ابن ماجه القزوينى" على الشيخ محمد اسحاق الكشميرى رحمه الله . وأخبرنى بعض أساتذتى عن الشيخ رحمه الله أنه قال : اشتغلت خمس سنوات بتحصيل الكتب الفارسية ، وخمسة أعوام بقراءة كتب العلوم العربية ، تلك عشرة كاملة .

أعماله بعد الفراغ من التحصيل ، تدريسه العلوم ، وافتتاحه مدرسة عربية بدهلى .

فنبغ الشيخ رحمه الله فى العلوم روايتها ودرايتها فى شرخ فتوته وإبان شبيبته ، فترعرع شاباً تقياً ، حبراً ذكياً ، لايدرك شأوه ولا يبلغ مداه ، فاستشرفت إليه العيون بل القلوب ، فذهب إلى "دهلى" وفوض إليه الدرس بـ"مدرسة عبد الرب" ، فدرس عدة شهور ، ولم يلبث حتى أن بعضاً من صلحاء معارفه وأصدقائه ممن تفرس فى الشيخ مخائل النجابة الباهرة ، وظن أنه عسى أن يكون نظير نفسه فى المآثر العلمية أصر عليه وأبرم بأن يقوم وينتهض لتأسيس مدرسة عربية بدهلى ، فاستجاب دعوته بعد ما شرح الله لها صدره ، فقام لها بإخلاص نية مشمراً لها عن ساعد الهمة ، وافتتح مدرسة عربية فى بلدة "دهلى" وساعده على ذلك بعض أهل الهمم العالية من أولى الخير وأرباب الفضل ، فاصطفى ذلك الصديق لها مديراً وناظماً ، وسماها : "مدرسة عربية أمينية"(١) حسب اسمه : محمد أمين غفرله ، وشاع صيتها بهذا الإسم فى أقطار الهند إلى يومنا هذا ، فشرع هو نفسه فيه درس العلوم من أعاظم كتب الفنون من علوم شتى من : الحديث والتفسير والبيان والمعقول ، ولما خصه الله بقريحة وقادة ومادة غزيرة ، وتغلغل فى مشكلات العلوم وعكوف على المطالعة ليلاً ونهاراً ما لبث إلا وقد شاع قدره وفضله فى الأرجاء وهمى وبله فى الجدباء ، فشدت إليه الرحال وتهافت عليه أصحاب الكمال ، وبقى على ذلك برهة يروى الهائمين بزلال علومه ومعارفه حتى طالت فروع المدرسة وأينعت ثمارها ،

---

(١) هذه المدرسة من اشهر المدارس اليوم ببلدة "دهلى"، وقد عم فيضها وبعد صيتها تطوى مدارج الارتقاء، وقد مضى عليها بضع وثلاثون عاماً . وازيد عليه: الان قد انقلبت الاحوال وانقسمت الهند الى بهارت وباكستان، والمدارس بدهلى اكثرها قد اندرست آثارها وانطفئت انوارها وبقيت عدة مدارس منها هذه المدرسة، وقد مضى عليها سبعون عاماً . منه .

وانتشرت أضوائها وأنوارها ، فتخرج عليه المتخرجون ، وتروى من فيضه المشتاقون .

عود الشيخ إلى وطنه ، وتأسيسه مدرسة دينية سماها : "الفيض العام" .

ثم جذبته نفحة وطنية وأزعجه حنين إلى زيارة الوالدين ، ونزوع إلى القيام بواجب حقهما ، فعزم الرحيل إلى مألفه ومهواه ، وامتطى هوجاء الوجد والغرام ، وودع قلوب المحبين حسرة ، لابل شخص مغادراً للإشباح ومستصحباً معه القلوب والأرواح ، وقد قال قائلهم :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الفؤاد هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ثم لما أقام برهة "بكشمير" وعجم عودها واختبر أهلها خبراً وخبراً أحس أنه حواهم الجهل ، وشغفوا بالبدع ، وعضوا بالنواجذ على الرسوم المحدثة ، واندرست فيهم مآثر العلم ، وعفت معالم السنة ، وأجدبت رياضها ذات نضرة ، واقفرت حدائقها ذات بهجة حتى بلغ السيل الزبى وبلغ الدماء الثنن ، فلو لم يتدارك الأمر سيكون ما يكون ، فأقلقه جداً ، فقام مستعيناً بالله لبناء مدرسة لتعليم الدين الحنيفى وتأييد المذهب الحنفى وخدمة السنة النبوية وتجديد معالمها وتشييد مراسمها ، فقدح الله زنده وأنجح مسعاه الجميل ، وبنى مدرسة سماها : "الفيض العام" أقام بها ثلاث سنوات ، يحمى زمار الشريعة ويجدد معالم السنة ويعمر أطلالها ورسومها ، فدرس وأفتى ، ونصح الأمة قلماً ولساناً ، وأرشدهم إلى الصراط السوى والهدى المستقيم ، فانشعب صدعهم واستقام عوجهم ، وانقشعت سحائب الجهل المتراكمة ، وتلألأت آثار السنة النبوية بعد ما اختفت ، واستوصلت عروق البدعة بعد ما تأصلت .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله نفسه شيئاً من حال هذه المدرسة فى كتاب له

إلى بعض معارفه ، وقد ظفرت به بما لفظه بالفارسية :

"كه فقير حقير در قصبه "باره موله از كشمير" بخيال خود بغرض اشاعت علم دين واعانت مذهب امام اعظم رحمه الله طرح تعليم فقه وحديث نهاده بود ، اكثر نيك نهادان اين امر را نيك نهادند وبعض اهل توفيق بقليل وكثير زاد سعادرا امداد دادند الخ"

نعم ، وهكذا أولو العزائم العالية ، والهمم الجلية ، وأصحاب المآثر والجهود المباركة إذا استشعروا ملمة بالدين وحادثة فى الإسلام قاموا لحسم عروقها ودفع مكيدتها ، لا يمنعهم قلة ذات يدهم ولا يصدهم عوز أنصارهم ، فنجحوا وفازوا بجدودهم المثمرة التى تبقى على صفحات التاريخ على انقراض الأعصار وتعاقب الأدوار ، فنالوا وجاهة عند ربهم ، وحازوا شرفاً فى الخلق أى شرف . وصدق المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

فتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

زيارة الحرمين ، ولقاء صاحب "الرسالة الحميدية".

ثم كان يزداد غرامه كل حين إلى حج بيت الله الحرام ، ويحرك أحشائه تباريخ الوجد إلى روضة سيدنا ومولانا نبى القبلتين ورسول الثقلين على صاحبها ألف ألف تحية وسلام حتى وفق لقضاء منيته الميمونة بمصاحبة من أعيان "كشمير" ، فمكث "بمكة" — زادها مجداً وكرامة — عدة شهور يطفأ ضرامه بالطواف والهاً باكياً ، ويلتجئ متشبثاً بأستار الكعبة الطاهرة المقدسة فى دلج الليالى داعياً ومنادياً . ثم حثه حادى الشوق إلى المدينة الطيبة - زادها الله شرفاً وحرمة - فاستحث شملال العزيمة وشد الرحال إلى روضة النبى الأمى القرشى الهاشمى محمد ﷺ ، فلبث برهة من الدهر يستفشئ حياه برياها ، ولقى هنا الشيخ الفاضل حسين الطرابلسى الجسر ، مؤلف "الرسالة

الحميدية" و"الحصون الحميدية" ، بل جاوره مدة ، ولاقى فى عهده المبارك هذا رجالاً من أكابر علماء البلاد الإسلامية وذاكرهم فى مهمات المسائل ، واغتنم نوع فرصة لمطالعـــة أسفار نادرة ، ولاسيما من الحديث والتفسير فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله الحسينى والمكتبة المحمودية ، وكانتا فى ذلك العهد مشحونتان بالكتب النادرة فى كل فن ، وقد ضاع الآن منهما كثير من الذخائر النفيسة ، فشهدوا بفضله ونوهوا بجلالة قدره ، ونال لديهم منزلة سامية(١) . وأجازه الشيخ الجسر بأسانيده فى الحديث ، وكتب له ورقة الإجازة بيده ، وأثنى عليه فيها ثناء حسناً ، ونوه بشأنه ما يدل على أنه وقع منه بمكانة علياء . وكنت قد طالعت تلك الورقة عند الشيخ ، وسأذكر تفصيل سند تحتوى عليه عند ذكر أسانيد الشيخ رحمه الله ، ثم عاد إلى وطنه يطوى فى ضميره الرجوع إلى الحرمين والعود أحمد . وذلك سنة ثلاث وعشرين من هذا القرن الرابع عشر .

عزم التجرد والعزلة عن الناس .

فاجتمع إليه أعيان القوم ، واكتنفه شرفاء الناس ، وتعاوروه من كل جهة ، وألحوا عليه بالإزدواج ، وعرضوا له بناتهم ، وتنافسوا فى الإيثار ، واستأثروه بعرض المزارع والحدائق ونقود الأموال ونفائس الأعراض ، ولم يكن أن يلحظ إلى عرضها ، فطوى عنه الكشح وأعرض وأبرم على تجريد نفسه من أمثال هذه العوائق والعلائق ، وخالها أغلالاً فى عنقه وسداً منيعاً دون مآربه ، فاستوحش عن الخلق واستأنس بالحق ، وحاول أن يصرف همه بشراشره إلى طى مراحل العلم الشامخ ومنازل المعرفة القاصية ، حتى

(١) وكان من المكاتب الحكوميه" مكتبه" شيخ الاسلام عارف حكمه" المدنى من اغنى مكاتب البلاد العربيه" تحوى على نفائس مخطوطه" من بدائع الاسفار ، والمكتبه" المحموديه" ،وقد تضلع منهما جميعاً ورتب مذكرة من غررهما ،وما عداهذين كانت مكاتب شخصيه" .

هجر زهرة الحياة الدنيا وبهجة نعيمها الزائل وعزم الهجرة عن أسرته ومنشأه ومنماه إلى الحرم النبوى على صاحبه صلوات طيبة وتحيات مباركـــة ، ولله در القائل :

إن لله عـــباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنـــا
جعلوها لجـــة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

إقامته بـ"دار العلوم الديوبندية" وتوظيف التدريس بها .

فبلغ إلى "ديوبند" يريد زيارة شيخه الشيخ العالم مولانا محمود الحسن قدس سره ووداعه ، فأخبره بما يريد من الهجرة إلى الحرمين ــ زادهما الله تشريفاً وتعظيماً ــ وكان شيخه رحمه الله تفرس فيه آثار النجابة الباهرة ، وآنس منه مخائل الكرامة من قبل ، وسابر علمه وفضله وتقواه وورعه ، وشاهد ما فطر عليه من الأخلاق الفاضلة والمناقب العالية ، من حسن صورته وسيرته ، ونقاء طويته وسريرته ، ورأى أن معالم الحديث على وهى كاد أن ينقض منارها ، وأن مراسم العلوم الدينية على خفاء عسى أن تعفو آثارها ، وأنه لم يبق اليوم من حقائق العلوم الإسلامية وروح المعارف الشرعية إلا نقعها ومثارها ، فلو لم يقم باعباء هذا الأمر الجليل ضليع عسى أن يحكم عليها بالزوال والدثور ، وأن الفائت لايستدرك ، وأنى يؤوب القارظ الغنزى ، وكيف يرد الدر فى الضرع ؟ فلا جرم أن يؤخذ الأمر بقوابله ، فهكذا قشر له العصا وأبصر أن الشيخ ممن يرتجى منه أن ينجبر منه الكسر وتنسد بـــه الثلمة ، ويقوم به هذا الأود ، نعم ! وفى بعض القلوب عيون ، وأحس أن أهل الهند أحوج إليه من غيرهم ، فأمل وجوده المبارك لخدمة الدين ومصائب المسلمين ، فتكلم معه فى دواعى الإقامة بديوبند ومصالح فسخ العزيمة ،

ورغبه فى ذلك حتى أبرم عليه الأمر ، وكان رحمه الله لايجتاز من أمره أدباً واحتراماً ، فألقى الشيخ عصاه واستقر بالإقامة رأيه ، وكان شيخه رحمه الله يدرس فى تلك الأيام "صحيح الإمام البخارى" و"سنن الإمام أبى داؤد السجستانى" و"الجامع للترمذى" من الصحاح الستة ، وفوض إليه درس الكتب الثلاثة الباقية من الستة من "صحيح مسلم" و"سنن النسائى" و"سنن ابن ماجه" فكانت هذه فاتحة درسه بدارالعلوم الديوبندية إلى أن عزم شيخه الرحلة إلى الحرمين . وكان من أمره ما كان ، فاستخلفه على مقامه ، وجعله شيخ الحديث وصدر المدرسين بها ، فودع الأمانة أهلها ، وأعطى القوس باريها ، فبقى أعواماً مكباً على مطالعة الكتب ، سابحاً فى بحارها ، متنزهاً فى رياضها بورع وتقوى وقناعة وزهد ، مؤثراً للخمول فى الناس ، ومستنكفاً عن نباهة الدنيا و وجاهتها ، فاستأنس بمرابع التوحيد والتفريد فى عزلــة وتجريد ، فكان ربه تبارك وتعالى أنيسه ، والكتاب سميره وجليسه ، وكان كما قيل :

ألقى الصحيفة كى يخفف رحله … و الزاد حتى نعله ألقاها

داعية تأهله بديوبند .

ثم إنه لم يكن أهل دارالعلوم على ثقة بإقامته ، وحاذروا منه أن يهاجر هذه المشغلة ، وعسى أن يقبل إلى ما أدبر إليه اليوم من الهجرة إلى الأرض المقدسة من الحجاز ، فخطب له حضرة ناظم الجامعة الديوبندية ومديرها خطبة فى بيئــة شرف وفضل من بيت السيادة الفاطمية ، ليكون سداً دون عزائمه وشعباً لصدع الخطرة التى كانوا يحسونها ، فزوجوه بعد ما انقضت برهة وجعلوه صاحب أهل وعيال ، بل صاحب شكال وعقال(١) .

نعم : ع بذا قضت الأيام ما بين أهلها … مصائب قوم عند قوم فوائد

---

(١) قد اصر على الشيخ رحمه الله مرا رأ قبله للتزويج ولم يرض به .

فهكذا غلب القدر وحان القضاء رجف القلم بما هو كائن ، فقضى فيها ثلث عمره ، والثلث كثير ، فجرت من قلبه وفيه ينابيع الحكمة ومناهل العلم والمعرفة ، حتى استفاد منها رجال من الأفاضل وأماثل العصر ، وتضلع من لا يحصى عدداً من الأصاغر والأكابر ، وتمتعوا بما وصل إليه كابراً عن كابر ، وتخرج عليه فى تلك البرهة نحو ألفى خريج ونيف ممن قرأ عليه أسفار الحديث .
وبالجملة خدم الحديث والسنة ، وبث الجواهر والدرر بها ، وذب عن حوزة الملة الإسلامية ، ودافع عن حريم الديانـــة ، وسل فى عهد إقامته بديوبند صارمه العضب لكمع عروق الثلة الباغية الطائفة المرزائية القاديانية(١) بلاغاً وإرشاداً ودرساً وتأليفاً ، واستحث الهمم المتوانية ، وحرض الجهود المتقاعدة من العلماء والطلبة وعامة الأمة المسلمة إلى مقاومة هذه الفئة الضالة المضلة ، ومكامعة هذه الكارثة الدهياء والبلية العمياء حتى أيقظ الرقود ونبه الغفلة من أصحاب الجرائد والمجلات بمكائد هذه الحادثة الفظيعة ودسائسها ، وسأعود إلى إيضاح هذه الأثرة الجليلة التى بها له منة عظيمة على رقاب الأمة المحمدية ما لا ينسى على تقادم الأزمان وتمادى الأعصار ، وكيف لا ؟ وقد عصم الدين عن فتنة عظيمة ، وداهية مفظعة ، وحمى حماه عن رزء مجحف وطامة كبرى ، والله المستعان فى سائر طوارق الحدثان .

رحيلـه من دار العلوم الـديوبنديـة ، ووصوله إلى الجامعة الإسلامية السورتية .

ثم نشأ نوع تشاجر فى ساحة دار العلوم الديوبندية ، وأصبح سبباً لأمور رأينا تركها أولى حذار أن يفرط القلم أو أن يطغى فتزل قدم بعد ثبوتها ، وصيانةً لعجالتنا هذه عن صمات وكس أو شطط فيتخذها الناس مهجورة

(١) طائفة تعتزى الى زعيمها الدجال الكبير المرزا غلام احمد القاديانى وستشعر بعجرها وبجرها فيما سيلقى ان شاء الله تعالى .

ولم يكد أن يأمن الملهوف فى إظهار شكاته عن شطط أو فرط ، كيف ؟ وقد قيل : «إذا قرح الجنان بكت العينان» ، «وإنما الأعمال بالنيات» ، والقلوب عنا محجوبة ، فنكل إلى الله ذوات الصدور . وقد قال عز من قائل : « ألا إلى الله تصير الأمور » . علا أن القلب لا يحتمل ذكر تلك الملمات التى نزلت بساحتها ، فإنها فجعت قلوباً وأكباداً ، بيد أن على ذلك تدور رحى الأيام، وتجول دون قطبها نوائب الزمان ، وإليه المفزع والمشتكى : ولله در القائل :

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائك ويحدث من بعد الأمور أمور

وقد تأذى الشيخ رحمه الله بتلك النوائب الكارثة ، وتألم بها قلبه حتى لم يلتئم جروحه الثاعبة إلى آخر عمره ، وكان لا ينبس بها إلا قليلاً ، ومع هذا إذا ذكر منها شيئاً تراه كأن قلبه يقطر دماً ، مع كونه صبوراً وقوراً ، يقاسى الملمات ، ويعانى المرمات ، لم نر له نظيراً ولا مثيلاً فى هذه المزية كسائر مزياه . وإلى هذا أشار فى بعض أشعاره فيما أرى ، حيث قال :

وهل من كسير البال آذاه دهره لقاءك إلا بالدموع السوائل
وقال: فقدت به قلبى وصبرى وحيلتى ولم ألق إلا ريب دهر تصرما
وقال: ومن عبرات العين ما لا أسيغه ومن غلبات الوجد ما كان دمهما
وقال: ومن نفثات الصدر ما لا أبثه ومن فجعات الدهر ما قد تهجما
وقال: تكففت دمعى أو كففت عنانه وصار بجارى الدهر حتى تقدما

وأظن أن فتنة الثلة المرزائية كانت أذابت مهجته من قبل ، ثم أذاب ما بقى منها هذه الوقائع الداهية ، فصار ضغثاً على إبالة ، وجميع ذلك أصبح سبباً — إن شاء الله تعالى — لرفع درجاته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فاستقال الشيخ رحمه الله لأجله منصب درسه ، واستعفى عنه وانزوى

عازماً للعزلة والتجريد ، ولكن لم يقتض القدرة الإلهية أن تذره ، والناس أصدى إلى علومه ، والقلوب مجذبــة مشتاقة إلى صوب مزنته ، فأكب عليه الناس من كل جهة ، وتهافتوا عليه من كل صوب، وكيف لا ! وشعاع الشمس لا يخفى ، ونور الحق لا يطفئ إلى أن علمنا، واطمئنت به قلوبنا ، إن ذلك التشاجر والتفرق كان من المصالح الكونية والأسرار الربانية ، وخير الأمور أحمدها مغبة ، فبزغت شمس السعادة فى فلك الكونيات ، واقتضت الحكمة الأزلية أن تسقى مزنته بسيطة "الكجرات" .

كانت بسيطة "الكجرات" بقعة جرت منها ينابيع الحديث، وكانت هى أول بقعة تميزت بهذه المزية العظمى من بين سائر بقاع الهند وخططها ،وهذه البقعة هى التى جادت بـ : الشيخ العارف بالله المحدث مولانا على بن حسام الدين المتقى المتوفى سنة ٩٧٥ الهجرية ، صاحب "كنز العمال" ، وهو كتاب حافل فى متون الأحاديث النبويــة ، رتب فيه "جمع الجوامع" للشيخ الإمام جلال الدين السيوطى على الأبواب ترتيباً أنيقاً ، والشيخ رحمه الله تلميذ الشيخ ابن حجر المكى صاحب "الصواعق المحرقة" أولاً وشيخه آخراً ، ولبس ابن حجر الخرقة بيده .

ومن تلامذته : الشيخ عبد الحق الدهلوى المحدث ، صاحب "اللمعات" و" أشعة اللمعات" و" مدارج النبوة" وغيرها من زبر نافعة . ثم : الشيخ المحدث محمد طاهر الفتنى (١) الشهيد المتوفى سنة ٩٨٦ الهجرية ، صاحب " تذكرة الموضوعات" و" المغنى" فى أسماء الرجال ، و" مجمع البحار" فى غريب الحديث بل فى لطيف شرح الأحاديث ، وهو حنفى لا شافعى ، كما زعمه بعض الأفاضل . ثم الشيخ المحقق الشيخ وجيه الدين الكجراتى المتوفى

---

(١) الفتنى - بفتح الفاء وتشديد التاء المفتوحة "المثناة الفوقانية" - نسبة الى : "پيران پتن" موضع بقرب احمدآباد من بلاد كجرات .

سنة ٩٩٨ الهجرية ، صاحب التصانيف والحواشى على "المطول" و"التلويح" و"تفسير البيضاوى" و" شرح التجريد " للإصفهانى و" شرح المواقف" و" شرح المقاصد " و" شرح المختصر " للعضد وغيرها وغير هؤلاء العلماء الأعلام من العرفاء والمحدثين حتى غارت وغاضت هذه البحار الزاخرة ببقعتها ، وفقدت هذه الجواهر الفاخرة بساحتها ، فكان من سعادتها وحسن حظها أن عادت إليها الإرادة الأزلية منعطفة فأنزل عليها مزنة الحديث هطلاء بعد ما ظلت محلاء ، فأصبحت ناضرة خضراء تترنم بحدائقها الزاهرة طلبة العلوم النبوية يضربون إليها أكباد الإبل من كل فج عميق مستفشين بمناهلها العذبة ونميرها السائغ لواعج هيامهم وغرامهم ، فيا لزهائها وبهائها ، ويا لروائها وروائها ، وكيف لا ؟ وقد نهضت بعد كبوتها الطويلة وآلت إلى سالف مجدها الباهر ، وكان كما قال الإمام حجة الإسلام الغزالى قدس سره :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فأنزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

فكانت فى قرية " دابهيل " من مديرية " سورت " مدرسة تدعى بـ"تعليم الدين" ، فأصر بعض أصحاب الهمم العالية والعزائم السامية على الشيخ رحمه الله بأن يشتغل بها فى خدمة الملة ودرس الحديث حتى أجاب الشيخ رحمه الله مأمولهم وأسعفهم بمرامهم .

ومن المبشرات المباركة ههنا : أن مولانا الأمجد الورع العابد الشيخ أحمد مدير تلك المدرسة (طالت حياته) رأى فى المنام —(١) بعيد تعزل الشيخ رحمه الله عن دار العلوم الديوبندية وقبيل عزم أهل الكجرات بدعوته إلى

(١) فى اواخر العشرة الاخيرة من شهر رمضان سنه ١٣٤٦ الهجريه .

تلك المدرسة ـ : أن سيدنا ومولانا محمد الهاشمى رسول الله ﷺ قدمات بدهلى ونعى إلى سائر الأقطار والناس فى هياط ومياط ، حواهم اضطراب شديد ، ووضع ﷺ على النعش ، فبينا هو فى ذلك إذ يرى أنه ﷺ حى مستلق على سرير فى بقعة بين قريتى "دابيل" و"سملك" لكنه مريض ، فحاول أن يرفعه ﷺ فى حجره استحصالاً لليمن بمساس بدنه المقدس ، فكلما يرفعه شيئاً ينوء به بدنه المبارك حتى يعيي بأعبائه ، بيد أنه رفعه وناء به شيئاً بجهد ومعاناة . فقص رؤياه هذه على الشيخ العارف الورع الزاهد شيخنا ومولانا المفتى عزيز الرحمن الديوبندى قدس سره فقال : يا أسفى! مات علم الحديث بديوبند ، وعسى أن يكون له نشأة بـ"دابيل" و"سملك"(١) فكان كما قال ، فكانت هذه النائبة ثم قدوم الشيخ رحمه الله تأويل رؤياه وبشراه ، وكان هذا الشيخ أحمد — زادت مآثره — ذهب بعده بشهر إلى ديوبند لأجل دعوة الشيخ ، حتى فاز بأربه السامى ، ونال ما نال ، فبارك الله له فى هذه السعادة الباهرة والمزية الزاهرة . وأولئك أولو العزائم العزيزة الحاج الفاضل محمد بن موسى السورتى ثم الإفريقى ، ووالده صاحب الشهامة والهمة العالية ، والحاج يوسف الكاردى من مشاهير أهل الثروة والدثور ذوالصدر الرحيب والسماحة الغالية ، كلهم تكفلوا ألوف روبية كل شهر لمرافق المدرسة ومصالحها ، ولم تلبث تلك المدرسة حتى سميت واشتهرت بـ"الجامعة الإسلامية" ، وأصبحت اليوم من أكبر الجوامع العلمية وأشهر المعاهد الدينية بساهرة الهند ، وامتازت من بين سائر المجامع الدينية بحسن نظامها وإجادة أبنيتها وتشييد قصورها فى بهاء منظر وزهاء ساحة ناضرة ، وأضحت اليوم مشيدة المبانى رفيعة المغانى تنبعث أشعة قماقمها البرقية فى الدياجر نوراً وضياءً ، وتهتز بها أفنان الشجر

(١) وكان هذا بعد شهر إذ ذهب بعزم دعوة الشيخ فقصها عليه مستعبراً إياها.

نضرة وبهاء ، وهبت فى زوايا الهند روائح نسيمها حتى سمت بكمال درسها وحسن تعليمها ، لا يوازيها ولا يدانيها جامعة علمية دينية غير "دار العلوم الديوبندية" ، ولا غرو فتلك دوحتها وهذى فروعها ، وتلك أديمها وهذى نسوعها ، وكيف لا؟ فمنها طالت فروعها ومنها نبوعها ، وقد أصبحت — والحمد لله — مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ، ينثال إليه الطلبة بل العلماء والفضلاء ، يشدون إليها الرحال ويضربون لها أكباد الإبل ، وأفئدة من السياحين تهوى إلى حج حرمها ، ورؤس من المشتاقين تقنع لمشاهدة علمها . ونحن نشكر عن جذر القلوب وصميم الأفئدة مساعى هؤلاء الكرام الذين أسدوا إلى جميع الأمة الإسلامية بإسناء هذه المدرسة وإعلاء منارها ونشر العلوم الدينية وإخراج ضمارها ، ولا سيما حسن تولية مدير الجامعة بنقاء نية ، فشكر الله مسعاهم الجميل و إنفاقهم الجزيل ، و زادهم توفيقاً إلى الخيرات والبركات (آمين) .

هذا ، وبقى الشيخ — رحمه الله — فيها خمس سنين ، يجود بحره الزاخر بحقائقه ومعارفه الإلهية ، وتجرى ينابيع السنة النبوية من فيه وصدره ، ويعظ الناس فى الجمعات والمجامع الحافلة بعظات بليغة مؤثرة فى النفوس ، حتى كنا نشاهد أن العيون تذرف دموعها ، وأن القلوب تكاد تطير صدوعها ، إلى أن أصبح كثير من الرسوم والبدعات المحدثة ببركته هباءً منثوراً ، ونبتت فى كثير من القلوب محبة أهل العلم وخدمة الدين والذب عن حريمه بما تيسر وأمكن ، وكيف لا؟ وقد حضض الناس على الخير ، ودعاهم إلى الحق ، وأضحى نفسه لهم أسوة ، ورعاً وتقوى ، وعلماً وعملاً ، وزهداً فى الدنيا وإيثاراً للآخرة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

مرض الشيخ و أجله المحتوم .

وفى أثناء إقامته بهذه الجامعة غلب عليه داء الباسور ونزفه الدم ، فاستولت

الصفراء ووهنت القوى وسقطت شهوة الغذاء إلى أن حان أجله المحتوم، وتاقت نفسه إلى مرابع الحق وأحب لقاء الله ، فانتقل إلى الرفيق الأعلى بديوبند حين كان ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ليلة الإثنين الثالثة من صفر سنة ١٣٥٣ الهجرية، فهكذا حان القضاء وضاق الفضاء وأصبحت الأماني المنوطة بوجوده غثاءً وهباءً ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، أللهم ارحمْه ، وعافه ، واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، وأفض عليه شآبيب قدسك ، وآنسه بجوار أنسك . ع (١) :

مضى فأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له فى الناس يخلفه
تلك الرزية تستوهى قوى جلدى ... فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فما لــه خلــة فى الزهد منكرة ... وما لــه شبهــة فى العلم تعرفه

وصلى عليه بالناس صلاة الجنازة فى ساحة "دارالعلوم" الشيخ الورع الزاهد الفقيه المحدث مولانا السيد أصغرحسين الديوبندى طالت حياته النافعة ، شيخ "سنن أبى داؤد" بدار العلوم ، وشيعت جنازته فى عويل يذيب القلوب ، وصياح يزعج الأحشاء ، قل ما شاهده الناظرون مثله ، وكانت قاعة "دار العلوم" ونواحيها غاصة بعصائب الواردين من بلاد شاسعة ، مثل "لاهور" و"وزيرآباد" و"أمرتسر" و"دهلى" وغيرها . ووصل إليهم هذا النبأ المفظع والرزء المجحف بوسائل التليفون والأسلاك التلغرافية فى دلج الليالى ، فأزعجهم على الفرش الوطيئة والمضاجع الوثيرة ، وقل مثل هذا المزدحم على صلاتــه بديوبند ، وكان كما قال هو نفسه (٢) :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى علمه فوق الركاب ورفعا
وشيعه المخلوق من كل جانب ... فــلم أر إلا الفضل كان مودعا
ولم أر مثل اليوم كم كان باكياً ... وما كان دمع القوم دمعاً مضيعا

---

(١) هذه الابيات من قصيدة رثى بها ابو المظفر الابيوردى الامام حجة الاسلام الغزالى.
(٢) فى قصيدة طويلة فى رثاء شيخه مولانا شيخ الهند رحمه الله .

فدفن هذا البحر الخضم بـ"ديوبند"، بالجانب الجنوبي من المصلى، في بقعة كان وصى بشرائها. وحدثني صديقي الحبر النحرير النطاسي الفاضل مولانا عبد الحق، المدعو. بـ" نافع"، أستاذ فنون الهيئة (١)، وكتب الكلام وغيرها بدار العلوم الديوبندية: أني كشفت عن محيا الشيخ رحمه الله عند صلاة الجنازة فرأيت أن أسارير جبهة الشيخ تتهلل في طلاوة وبهاء، كأنه يتبسم ويكاد يفتر ضاحكاً، ويخيل أن سيفتح فاه بالنطق، قال: فأعجبني هذا المنظر الرائع الجميل.

قال الراقم: وكأنه يتبسم من بشارة الملأ الأعلى بروح وريحان، وبلقاء رب غير غضبان، ولا أدري هل ذلك كان شأناً مثالياً من شئون عالم المثال فأوثر به صديقنا الفاضل، أو لمعة انجلت في عالم الشهادة. ومن بدائع ما اتفق أن الفاضل الأديب الطبيب محمد يامين أحد أساتذة الجامعة الإسلامية كان أنشد في حق الشيخ رحمه الله قوله من قصيدة طويلة له هذا:

لبى مجيباً لداعي الموت مبتسماً   مستسلماً لقضاء الله فرحانا

وما كان له من علم بهذه الواقعة، وليكن عجز الشعر عندي هكذا:

مستبشراً بلقاء الله فرحانا

ورثاه فضلاء العلم والأدب وأماثل العصر وأصحابه بقصائد رنانة ترق القلوب وتهيج اللواعج، وسأزف للفضلاء من عرائسها ما يستجلب الدموع ويجذب للقلوب والله الموفق. فهذه حياة جميلة لهذا الإمام عبقري الأيام، وشذرة من مآثره الجليلة، وعبرة من عبرات العين، وبعد فعبرات حارة في العين وحسرات في القلب وزفرات في النفس ستهدى منها شذرات للأفاضل إن شاء الله، وقد حان لي أن أشير إلى نبذة من مزاياه وخصائصه التي صار بها فرداً وحيداً في الأمة الحاضرة، وبالله التوفيق.

---

(١) هذه الفنون اكثر ما يدرسها والا فقد يدرس كتب التفسير وغيره ايضاً كـ"البيضاوى" واجزاء من "ابن كثير".

ايماض الى مزاياه ، صلاحه الفطرى و عزلته عن الملاهى، قوة ذكائه فى ايام طفولته، وبشارة بعض العرفاء بانه سيكون غزالى عصره ورازى دهره، افتاء الشيخ ،وشروعه مطالعة الشروح،استبحاره المدهش وحافظته المحيرة،وسرعة مطالعته ودقة نظره ودابه فى المطالعة. الشيخ و''مشكلات القرآن''، الشيخ وخصائصه فى الحديث،ذكر بعض الوقائع وسرد مقالة للشيخ ،الشيخ واسانيده فى الحديث،الشيخ والفقه، الشيخ والمذهب الحنفى،درجته فى سائر العلوم و مطالعة كتب اكابر المحققين، وعلمه ''بالتوراة'' و''الاناجيل''.

إيماض إلى مزاياه و رشحة من مآثره .

و ليعلم أن للشيخ رحمه الله مزايا نبيلة ومآثر جليلة فطرية و كسبية من الصلاح ، والزهد ، والورع ، والتقوى ، والصبر على المكاره ، وحسن السمت، وعظيم الوقار ، والمواساة مع أهل الدين وحملة العلم ، والنفور من أهل الدنيا وأصحاب الثروة ، والقناعة على الكفاف ، وقوة الحافظة ، وكياسة الذهن ، وفرط الذكاء ، والاستبحار المدهش فى العلوم المتداولة القديمة والجديدة ، والإطلاع التام على العلوم الغريبـــة ، واستحضار جميع مشكلات العلوم وغوامضها ، والعلم الحافل الواسع بدقائق الكتب النادرة الغريبـــة المطبوعة والمخطوطة ، وعلو كعبه فى الحقائق العالية والمعارف الإلهية التشريعية ، والملكة الراسخة فى صياغة الشعر المعجب الرائع فى العربية والفارسية ، وإدمان النظر فى الكتب ليلاً ونهاراً ، وحسن إلقاء الكلام فى الدرس ، كأنه در منثور ولؤلؤ مكنون يتناثر من مبسمه ، والإنصاف البديع فى اختلافات مذاهب الأئمة المتبوعين والمجتهدين من علماء الأمصار ، وظرافة الطبع مع مهابة وجلالة ،

وغيرها من مآثر بديعة فائقة لاينتطح فيها عنزان من غير مدافع ومزاحم بحيث لايفرى فريه ولايبارى عبقريه ، وحقاً أنه لايناضل ولايبارى ولايساجل ولايجارى ، ولو سردنا نماذج من جميعها لطال بنا الخطب ، وأعيانا الحصر ولاتسع المجال ، وضاق نطاق البيان ، ولشططت مما أنا بصدده من الإيماضات والإيماءات إلى نفحاته وفوحاته محاولاً للإختصار ، وكيف فإن ذلك يفتقر إلى سفر كبير ، وأنى يتسنى فى عجلة المستوفز وفرصة المستنجز ، بيد أنى لما وجدت مكان القول ذا سعة حاولت أن أبث القول فى مآثره السامية ، وهذا كما قال الجاحظ فى "بيانه" : " ولكن المعانى إذا كثرت والوجوه إذا افتنت كثر عدد اللفظ وإن حذفت فضوله بغاية الحذف" . فأنا الآن أستغنى بالطل من وابله والبرض من عده ، بل بقطرة من حياه ، ورشحة من داماء فضائله ومزاياه . ولله در القائل :

إن الذى قلت بعض من مناقبه　　ما زدت إلا لعلى زدت نقصانا

وأجاد القائل :

إنما يبلغ الإنسان غايتـه　　ما كل ماشية بالرحل شملال

وفقنى الله لإيفاء الموعود وبذل المجهود لنيل المقصود ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

صلاحه الفطرى ، وعزلته عن الملاهى من بدء نشأته .

سمعت عن إخوان الشيخ دام فضلهم : أن الشيخ لم يرتع ولم يلعب فى أيام صباه كعادة الصبيان ، ويكون صامتاً مطرقاً رأسه لم ينازع أحداً ولم يشتمه ، وإذ شرع فى القراءة يكون مجتهداً فيها مشتغلاً ليلاً ونهاراً ، من غير أن يعروه سآمة وملال ، فكان الناس يتحيرون من شغفه بالعلم ورغبته عما يرغب إليه الصبيان ، حتى اشتهر فيهم أنه سيكون مهدياً موعوداً .

أقول : فإن لم يكن مهدياً موعوداً فلعمرى كان مجدداً لعلوم القرآن والسنة وسائر فنون الرواية . نعم ! إذا أراد الله أمراً يسر له أسباباً وأقام له رجالاً يذبون عن حوضه ويحمون حوزته ، فهكذا شهرته بالصلاح وشغفه بالعلم كانت من بدأ نشأته وصغره .

نعم نغس عصام سودت عصاماً * وبغير اللـــهو ترتنق الفتـوق

طفولته وبشارة بعض العرفاء بعاقبته السامية .

سمعت عن بعض إخوان الشيخ رحمه الله تعالى أن والده ـــ أطال بقاؤه ـــ انطلق به وبأخيه الأكبر " يسين شاه " إلى عارف معتكف فى بعض نواحى "كشمير" ليدعولها بالبركة ، فلما رآه قال لوالده : ولدك هذا ـــ مشيراً إلى الشيخ رحمه الله ـــ سيكون عالماً كبيراً ، وعسى أن يكون له شأن ، وقال مشيراً لأخيـــه : وسيكون هذا شاعراً عظيماً . فكان الأمر كما قال العارف رحمه الله . فصار الشيخ أعلم عصره فى العلوم لايشق غباره ، وكان أخوه أشعر وقته فى العربية والفارسية لايدرك شأوه ، حتى سمعت من بعض إخوانه ـــ ولعله المولى المحترم عبد الله شاه طال بقاؤه ـــ : أنه نظم متن "السراجى" فى الفرائض فى بضع وعشرين شعراً .

قوة ذكائه فى أيام طفولته ، وبشارة عالم ذى فراسة وبصيرة بأنه سيكون غزالى عصره و رازى دهره .

سمعت من والد الشيخ ـــ رحمه الله فيما أحفظ ـــ : أنه لما افتتح عندى " مختصر القدورى " فكان يسأل عن مسائل كنت أعيي عن جوابها من غير أن أراجع الكتب المبسوطة ، فكنت أمنعه عن إلحاح الأسئلة حتى أعيانى صنيعه ، وفوضت أمره إلى عالم آخر ، فهكذا كان يشتكى منه . وبلغنى أنه حين كان يقرأ رسائل النحو والمنطق مر أمام عالم مضطبعاً كتبه التى يقرؤها

فدعاه وأخذ كتبه فرأى على هوامش رسائله أنه كتب عليها حواشي ما يورث العجب من شأنه ، فتحير من قوة ذكائه وحدسه ، وجودة فهمه وبراعته ، فجرى مرتجلاً على لسانه : بأنه سيكون غزالى عصره ورازى وقته . فصدق الله فيه فراسته الاياسية ، وبصيرته ونوره . ومما قلت :

زمخشرى عصره بل شيخ جرجان ‏ ‏ ‏ رازى عصر لنا حاشاى اطراء

الشيخ والإفتاء ، ومطالعة الشروح .

أخبرنى الفاضل المحترم الورع مولانا بدر عالم دام فضلهم (١) أحد أساتذة الجامعة عن الشيخ رحمه الله نفسه أنه قال : كنت أفتى للناس بكشمير حين بلغت من عمرى اثنتى عشرة سنة ، وكنت أطالع الشروح من كتب الفقه والنحو حين تم من سنى "تسع حجج" . نعم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

استبحاره المدهش فى علوم الرواية والدراية ، وحافظته المحيرة للألباب ، وسرعة مطالعته ، ودقة نظره .

كان الشيخ رحمه الله آية من آيات الله العظام ، ونادرة من نوادر العصر ، إماماً فى الحقائق والمعارف ، لايساهم ولايزاحم ، وقدوة لأماثل العصر الحاضر فى حل الدقائق ومشكلات العلوم وغوامض الأبحاث العلمية والعرفانية ، بحيث لايناضل ولاينازع ، كان إماماً حجة فى علوم القرآن وعلوم الحديث ، متقناً فى كشف مغزاها ومرماها ، وكان مداراً للأمة الإسلامية فى إيضاح معناها ومبناها ، كان حافظاً موعياً لمذاهب علماء الأمة المحمدية مع التغلغل فى تخريجها وتنقيحها ، واعياً لأقوالهم المختلفة الشتيتة ، قادراً على اختيار بعضها

(١) وقد توفى رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد فى سنه "١٣٨٥ الهجريه" فى المدينه "المنورة على صاحبها الف الف تحيه".

من بعض بترجيحا ، أحاط بالعلوم العقلية والفنون الحكمية الحديثة والقديمة بالرأى الثاقب والحكم النافذ ، كان نقيب العلوم العربية والفنون الأدبية غائصاً فى بحارها وغمارها ، فكم من عوارف هو أبو عذرتها ، وكم من معارف هو ابن بجدتها ، وكم من لطائف وغوامض قد أبدعها ، وكم من أسرار وحكم قد اخترعها ، وكيف لا ؟ وقد نشأ فى بيت التقوى والعلم ، وامتاز بسلامة الطبع وفرط الذكاء وبراعة الفهم ، بل رزق أعدل الطبائع فى بقعة تعد من أقاليم البسيطة ، ثم غذى بلبان الحكمة والعلم ، وساعدته سائر الأسباب المحتاج إليها للعلم . وقاده التوفيق الربانى إلى مهاد العلماء الربانيين ، فارتدى من مطارف أنواع العلوم والكمالات ، واعتم عمائم الفضل والمزية ، وتضلع من بحار الفضائل والفواضل فى سائر أقطار الهند ، حتى ترعرع شاباً إماماً فى العلوم ، بل بحراً ذخاراً ومزنة هاطلة ، فنال من علوم التفسير وعلوم الحديث ثرياها ، وبلغ فى علوم اللغة أمداً بعيداً ، وسامى فى العلوم الحكمية وفنون الدراية مكانة الجوزاء ، ووصل فى علوم البلاغة على طرف شاسع ، ورزق من علوم الحقائق حظاً عظيماً . ع :

شرف ينطح النجوم بروقيه * وعز يقلقل الأجبالا

وبالجملة كان إماماً فى التفسير والحديث ، إماماً فى الأصول والفروع ، مجتهداً فى علوم الدراية ، حافظاً مستوعباً للطبقات والتاريخ والسير ، حتى صار رحلة فى الأقطار لشرح مشكل الآثار ، ومسنداً ثبتاً لمعانى منتقى الأخبار ، فأصبح لكل علم وفن عذيقه المرجب ، وجذيله المحكك ، لو كان فى عصر الغزالى أوالرازى أو ابن دقيق العيد أو ابن تيمية الحرانى أو ابن حجرالعسقلانى لكان درة فاخرة من عقد تلك القرون المباركة ، بل شمساً نيرة من الشموس

المستنيرة اليوم على سماء التاريخ الإسلامى فى عهد الإرتقاء وعروج العلوم ، فجمع الله له من شمل الفضائل والفواضل ما نكل الألسنة عن تفصيلها ، وتتلعثم عن بيانها، ويتكفكف سنا المزبر عن تسطير جميعها ، فآثره الله بالقريحة الوقادة ما خلت القرون عن أمثالها ، وأردفه بقوة الحافظة ما بلغ غاية ليس دونها غاية ، حتى علمنا علم يقين ما أثر لنا من قوة الحافظة للمحدثين وسائر السلف الصالح فى العهد الغابر فى كتب الطبقات والرجال والتاريخ ، بل كأنا رأيناهم رأى العين ، فلم تبق لنا ريبة ولا خطرة من الوهم ، فقد أبدى الصريح لنا عن الرغوة . بلغنى عن الشيخ الفقيه المحدث مولانا حسين أحمد المهاجر المدنى — شيخ الحديث اليوم بدار العلوم الديوبندية دام فضلهم — أنه قال : سمعت حضرة الشيخ رحمه الله أنه قال : إذا طالعت كتاباً مرتجلاً ولم أرد ادخار مباحثه يبقى فى حفظى إلى نحو خمس عشرة سنة ، ثم مع هذه الحافظة وفق لغزارة المطالعة وسرعتها ما يتحير منها العقول ، حتى تطوى من بين يديه ذخائر من المكنونات العلمية كل يوم ، حتى سمعت من بعض خواص معارفه : أنه أول ما كان يطالع "مسند أحمد" المطبوع بمصر ، كان يطالع كل يوم نحو مائتى صفحة منه ، مع غور وإمعان فى أسانيده وحل مشكلاته . وسمعت من حضرة الشيخ رحمه الله: أنى طالعت أولاً "مسند أحمد" فلخصت منه أدلة الحنفية والأحاديث المفيدة لهم فى عدة أيام ، ولكن مع هذه السرعة كان ينقل أحاديثه أينما احتاج له فى المشكلات والمعضلات مع ضبط تام لأحوال رواتها وطبقاتها ، ثم طالع "مسند أحمد" مرة ثانية فى أواخر عمره لإلتقاط أحاديث نزول سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام منه ، ثم مكنه الله من حسن الإلقاء على الطلبة والإملاء على الإشهاد بجزالة التعبير ونفاسة التحبير .

وهاك أمثلة يسيرة من سرعة مطالعته ودقة نظره واستبحاره فى سائر العلوم النقلية والعقلية :

١- طالع فى سنــة ١٣٢١ من الهجرة كتاب " فتح القدير " للشيخ المحقق العارف كمال الدين ابن الهمام رحمه الله مع التكملة فى بضع وعشرين يوماً ، وكتب تلخيصه إلى كتاب الحج ، وأجاب عن إيراداته التى أوردها على صاحب " الهداية " ، وناقش فيها فى جزء لطيف ، كل ذلك فى تلك البرهة القصيرة ، ثم استغنى عن المراجعة لنقل مباحثه فى جميع المسائل مدة عمره ، وكان رحمه الله حكى لنا هذه الواقعة فى سنة ١٣٤٧ الهجرية تحديثاً بنعمة ربه ، وحثاً لأشواق الطلبة ولو أعجبهم إلى مطالعة الكتب ومقاساة الشدائد فيها . ولفظه بالهندية :

" چھبیس سال ہوئے پھر مراجعت کی ضرورت نہیں پڑی ، اور جو مضمون اسکا بیان کروں گا اگر مراجعت کروگے تفاوت کم پاؤگے " انتهى.

هكذا سمعته أذناى ووعاه قلبى ، هذا وأنت تعلم أن كتاب " فتح القدير " من أصعب كتب الفقه وأدقها ، يغوص مؤلفه المحقق رحمه الله فى مسائل أصول الفقه والجدل والخلاف ومباحث الكلام وغيرها من نفائس العلوم بتخريج وتنقيح كتاب لا نظير له فى مزاياه وخصائصه ، فادره الآن تذقه فإن من لم يذق لم يدر ، وكان الشيخ رحمه الله يقول : إنه ليس أصولياً نظاراً فى علماء المذاهب الأربعة مثل المحقق ابن الهمام ، وكتابه " التحرير " فى أصول الفقه من أصعب كتب الأصول .

٢- اختلف علماء "كشمير" فى جواب مسألة وأفتوا بعضهم خلاف بعض ، وكان من حسن الاتفاق أن ورد الشيخ رحمه‌الله بـ"كشمير" (١) فحضر

(١) ولا ارى باساً بان اشير الى شئ من حكاية هذه الواقعة : كان علماء كشمير انقسموا فرقتين ، فرقة الى جهة فى مسالة و فرقة الى جهة اخرى ، والمسالة كانت مسالة وقوع الطلاق و عدمه ، و كان فصل الامر يحتاج الى تحقيق الواقعة ، وكان اراده الشيخ وجاء الفرقتان الى حضرته يرجو كل فريق الموافقة ،

الفريقان منهم لزيارته ثم انفصام تلك المعضلة التى تشتتت فيها آرائهم وعرض كلا الفريقين فتاواهما مكتوبة فى حضرته ، فأمرنى الشيخ رحمه الله بتحرير الجواب بعد ما فصل لى الأمر ونقح ووضح ، وكان فريق منهم استدلوا لفتواهم بعبارة كانوا يأثرونها عن " الفتاوى العمادية " (المخطوطة) ، فقال لى الشيخ رحمه الله : واكتب فيــه : " إنى قد طالعت " الفتاوى العمادية " بنسخة مخطوطة صحيحة فى " مكتبة دارالعلوم الديوبندية " فليس فيها هذه العبارة قط ، فلعل ما يأثرونه إما تصحيف لعبارتها أو تدليس منهم لتأييد فتواهم " فكتبت ذلك ، فتحير الناظرون ، وبهت المستدلون بها . وأمثال هذه الواقعــة أكثر من أن يحصر ويستقصى ، ولو أردنا استيعابها لأعيانا الالتزام وسئم الناظرون ، وإنما أردنا رشحة من رشحاته ونموذجاً من بدائع خصائصه . ولله در العالم العامل الورع الزاهــد الشيخ المحدث مولانا محمد ادريس الكاندهلوى شارح " المشكاة " حيث قال فى وصف حافظته وأجاد :

وقد صح عند الناس آثار حفظه ❊ وقد حسنوها جل أهل التفضل(١)

وكان مضطراً الى السفر من كشمير ، و ما كان ينتهز فرصة للبقاء و تحقيق الواقعة ، فرايته متفكراً الى الغاية ،فقلت للشيخ : ان وقتكم لا يتسع للقضاء حيث يحتاج الى تحقيق الواقعة فى نفس الامر ، فاكتفوا بالافتاء ، فتهلل وجه الشيخ وزال تفكره ، ودعانى ، وبين تحقيق الحكم فى الجانبين بادلة من ظهر قلبه على راس لسانه ، فكتبت ما اراده الشيخ بتفصيل ، فاعجبه ولم يغير فيه حرفاً وانما غير ما كتبت من وصف الشيخ بقولى : ''و قد طالع الشيخ الحبر البحر مولانا محمد انور شاه '' الفتاوى العماديه'' ، و قال فيه : الخ ''. فقال : هات القلم؟ واخذه فمحا منه كلمة : ''الحبر البحر''،وقال بلهجة الغضب : لا اسمح لک فى كتابة وصف لى غير '' مولانا محمد انور شاه''، ولفظه : (آپ كو صرف '' مولانا محمد انور شاه'' لكهنے كى اجازت هے) سبحان الله العظيم، هكذا كان تواضعه،فلم يمح شيئاً غير وصفه . فرحمه الله ورفع قدره . منه .

(١) ولو قال مقامه : ''وحسنها الاعلام اهل التفضل'' لكان احسن .

ولكن أرى فيه الغرابة واضحاً ❊ أقول كقول الترمذى المجالل
حديث غريب ما عرفناه أسندا ❊ سوى وجه شاه الأنور المتهلل
وفى الباب عمن لا يعد ويحصر ❊ ولا خلف فيه للمحق ومبطل

٣ـ سمعت من حضرة الأستاذ محقق العصر الحاضر المفسر الحاذق والمحدث البارع مولانا ومقتدانا الشيخ شبير أحمد العثمانى ـ طال بقاؤه ، شيخ الحديث اليوم بـ" الجامعة الإسلامية " صاحب " فتح الملهم شرح مسلم " وغيره ـ أنه قال : قد اعتاص على حل فتنه سيدنا داؤد على نبينا وعليه الصلاة والسلام عند تحرير " فوائد التنزيل العزيز " فتصفحت أسفار القوم من جميع مظانها ، وأجلت قداح النظر فى أنجادها وأغوارها ، واستنفدت جهدى فى الاستقراء البالغ ، حتى بقيت فى حل هذه العقدة العويصة نحو خمسة عشر يوماً ، فما صادفت ما يشفى صدرى وينقع غلتى بما يناسب جلالة شأن الأنبياء عليهم السلام وعصمتهم ووجاهتهم ، وما يلائم نظم التنزيل المعجز وسياقه البليغ ، حتى عييت بها فراجعت حضرة الشيخ الأنور ـ رحمه الله ـ وكان مريضاً ذا فراش ، وكشفت له عن الحال والداء العضال ، فقال رحمه الله مرتجلاً مقتضباً :

أخرج أبو عبد الله الحاكم فى " مستدركه " أثراً لابن عباس رضى الله عنه، وهو يفيد فى انحلال هذه العقدة ، فراجعه لعله يشفى صدرك ، وهو أحسن ما روى فى هذا الباب وأقرب إلى سياق التنزيل . قال شيخنا المحقق : فراجعته وتأملته ، فسقى غلتى وشفى علتى وانحلت به عقدتى ، وجعلت فى فوائد التنزيل عليه مدار حل العقدة ، وقررته وفصلته ، ثم أريته الشيخ رحمه الله ففرح واستبشر واستحسن تطبيقى له بنظم التنزيل العزيز . هذا وكم حل من مثل هذه العقد المعضلة أشكل انحلالها على الأفاضل والأذكياء من المدرسين والمؤلفين ، بل على شيوخه وأكابره ، فله منة عظيمة على رقابهم ، وكم

هكذا أصاب المحز ، وطبق المفصل ، فكفى وشفى ، وروى وأروى ، ولله در صديقنا الفاضل مولانا محمد يوسف الكاملفورى ، حيث قال فى حقه :

كم هكذا صدرت خوارق عادة ✲ عنــه و جاحدها من العميان

فهذا أكبر مؤلف فى العالم فى العصر الحاضر ، تربو مصنفاته على مئين ، حتى فاق فى كثرة التصانيف على الشيخ جلال الدين السيوطى حكيم الأمة الشيخ الفقيه العابد الزاهد مولانا الشاه محمد أشرف على التهانوى طال بقائه(١) ، كان يسئله عن أمور فى غوامض المسائل ومشكلات الفتاوى ، وسنشير إلى شئ منها . وهذا الشيخ الفقيه الحبر المحدث مولانا خليل أحمـد السهارنفورى ثم المدنى رحمه الله (٢) صاحب "بذل المجهود شرح سنن أبى داؤد" كان يسأله فيما يشكل عليه فى تأليفه شرحه هذا من باب الرواية والدراية ، وهذا شيخه المحقق العارف مولانا محمود الحسن الديوبندى قدس سره، المعروف بـ"شيخ الهند"(٣) كان ربما يقول له: هل لأحد فى ذلك قول؟ وهل عثرت لأحد على حل هذه المشكلة ؟ اعترافاً بسعة علمه وغزارة مطالعته وتبحره واطلاعه الواسع . وهذا الشيخ مولانا محمد ظهير حسن النيموى(٤) رحمه الله المحدث الشهير ، صاحب" آثار السنن" كان يستفيد من الشيخ رحمه الله بالتراسل والتكاتب فى غوامض الحديث ، وكان يستعين منه فى تأليف كتابه " آثار السنن " ، وكان يعرض عليه ما يؤلفه قطعة قطعة ، هكذا سمعت عن حضرة الشيخ رحمه الله . وقال فى كتابه " نيل الفرقدين "(٥) :

"وقد كان الشيخ (النيموى) المرحوم حين تأليفه ذلك الكتاب يرسل إلى قطعة قطعة حتى إنى كنته مرافقاً فيه، وزدت عليه أشياء

(١) وقد توفى رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد فى سنة" ١٣٦٢ الهجريه" .

(٢) المتوفى سنه" ١٣٤٦ الهجريه" . (٣) المتوفى سنه ١٣٣٩ الهجريه" .

(٤) وقد توفى رحمه الله فى حدود سنه" ١٣٢٢ الهجريه" . (٥) ص - ٥٦

كثيرة بعده اهـ" (١) .

فناهيك بأمثال هؤلاء أعلام العصر شهوداً عدولاً قولاً وعملاً ، وكثيراً ما رأينا فى جملة من أسفاره فى بلاد الفنجاب أنه كان يجتمع لزواره طوائف من المشائخ والعلماء المدرسون المكبون على مطالعة الفنون ليلاً ونهاراً ، ويسألونه حل ما أشكل عليهم فى أى كتاب من أى علم كان ، فرجل يسأل فى الفقه ، ورجل فى الحديث ، وعالم فى معضلات النحو ، وآخر فى دقائق العلوم الإلهية والطبيعية وغيره فى العلوم الآلية ، وواحد فى التاريخ بل فى مبهماته ومشكلاته ، وآخر فى سير المصنفين وعاداتهم ، هكذا واحد بعد واحد ، فتارة يخاطب هذا وتارة يجاوب هذا ، وتارة ذلك ومرة ذاك ، فيشتفى ويشفى ، حتى ترى أنه بحر يموج ، أو مزنة تهمى ، أو واد يسيل ، إذا شرع فى الحديث خلت أنه لايحسن غيره ، وإذا شرع فى استطراد غوامض الفقه ظننت أنه لايعلم غيره ، وإذا شرع فى البلاغة ودقائقه حسبت أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله عاد منشوراً ، هكذا كان حاله فى دقائق العلوم ومعارفها ، فما ظنك بقواعدها العامة ومسائلها المشهورة ، وذكرنى حاله هذا ما ذكر الحافظ ابن القيم فى " هداية الحيارى" (٢) فى حق حبر الأمة عبد الله بن عباس حيث قال : قال عطاء بن أبى رباح : ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم جفنة ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر ، يصدرهم كلهم فى واد واسع .

وقال(٣) : وقال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيته قلت : أجمل الناس ،

---

(١) كان الشيخ رحمه الله اذ ذاک شاباً لم يظهر للناس صيته ، والمحدث النيموى كان شيخاً بازلاً ، ومع هذا كان هذه معاملته ، ويدل هذا على تواضعه العلمى وتقديره للرجال ، فرفع الله قدرهما . منه .

(٢) ص - ١١٨ المطبوع بمصر . (٣) فى ص - ١٩٩

فإذا تكلم قلت : أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس . وقال الحافظ ابن القيم نفسه فى حق هذا الحبر (١) : وكان بحراً لاينزف : لو نزل بـه أهل الأرض لأوسعهم علماً ، وكان إذا أخذ فى الحلال والحرام والفرائض يقول القائل : لا يحسن سواه ، فإذا أخذ فى تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع : لا يحسن سواه ، فإذا أخذ فى السنة والرواية عن النبى ﷺ يقول القائل : لا يحسن سواه ، فإذا أخذ فى القصص وأخبار الأمم وسير الماضيين فكذلك ، فإذا أخذ فى أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك ، فإذا أخذ فى الشعر والغريب فكذلك ، انتهى كلامه .

ولعمرى ما وجدت أحسن ولا أوضح مثالاً بالشيخ رحمه الله ومآثره وخصائصه من هذه العبارة الجامعة لهذا الحافظ فى حق حبر الأمة ، فلا ريب أن شيخنا رحمه الله كان حبر الأمة وبحرها ، فكان عالماً بمنابت القصيص جمع الله له شمل الفضائل والفواضل ، ولقد صدق القائل :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحـد

نعم ! لو لم تكن هذه النظائر بين أعيننا لما تيقنا ما أسلف لنا علمائنا الغابرون فى حق السلف ، والآن بحمد الله كشف الغطاء عن أبصارنا فبصرنا اليوم حديد ، نرى صدق جميع ذلك ، وثلجت بها صدورنا ويلم بها شعثنا ، فيالها من أمة هذه الأعلام والأحبار فى آخرها ، فماذا يكون الظن بأولها ، وهذا معنى قوله ﷺ : « مثل أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه ، أو كما قال ، فنظر ﷺ إلى مآثر هذه الأمة وفضائلها فى آخرها فاستكثرها فأعجبته فتناسى فضائل أولها ، وكيف لايكون فضل باهر وشرف زاهر لعهد النبى ﷺ وقد قال ﷺ : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، فالسابقون السابقون أولئك

---

(١) فى ص - ١١٦

المقربون » فسبحان من أقام فى الأمة لخدمة كتابه ودينه والذب عن حريمه وحماه رجالاً فى بدء هذه الأمة المختارة ونهايتها ظاهرين على الحق ينشرون العلم ويخدمون الإسلام ويصلحون ما أفسده الناس حتى يأتى أمر الله ، هذا وكانت قد انعقدت حفلة تأبين عظيمة بالجامعة الإسلامية بعد وفاة الشيخ رحمه الله تعزية ورثاء، وقد ألقى شيخنا محقق العصر مولانا العثمانى ـ طالت حياته(١) ـ فيها خطبة باللغة الأردية مؤثرة بليغة ناجعة، فبكى وأبكى حتى ذرفت العيون ووجلت القلوب ، وقد قيل : « عين عرفت فذرفت » ، أريد أن أهدى للناظرين طرفها وأزف إليهم عرائس أبكار الكلمات التى التقطتها من تلك المقالة الناجعة ، فإنها كلمة كشفت عن وجوه مخدرات مآثر الشيخ لثام الشك والارتياب ، بحيث يرتاح لها أولو البصائر والألباب ، فدونك كلمة جامعة ملخصة مترجمة إلى العربية ترفل فى أذيالها وتبدو للمشتاقين بحسنها وجمالها . قال أطال بقاؤه :

أيها السادة ! قد أرخيت اليوم على العلم والفضل سدول الظلام ، إذ قد نزلت داهية عظيمة أصبحت أرباب الفضل والعلم قاطبة بها يتامى ، ما أريد أن الطلبة وأصحاب التحصيل أصبحوا يتامى بل العلماء والشيوخ وأساتذة الطلبة أضحوا يتامى ، فقدوا من يقوم بحل مشكلاتهم ، بلية قد غشيت العالم الإسلامى بأسره ، لم يبق لنا اليوم من يحل لنا مشكلات القرآن وغوامض الحديث ، فإلى من يرجع فى المعضلات ، وممن نستطب سقامنا ، قد تزلزل اليوم أساس العلم ، وانهد عمود الملة الإسلامية ، فهذه ثلمة لا يرجى سدادها . رب مسائل معضلة قد أعوزنى دوائها فاستقريت لها أسفار القدماء

(١) وقد توفى رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد فى سنة ١٣٦٩ الهجرية فرحمه الله ورضى عنه وارضاه .

وتصفحت بها زبر كبار المحققين، فلم أفز بما يشفى غليل صدرى، فراجعت حضرة الشيخ الأنور — أنار الله مرقده — فشفى صدرى بكلمات مختصرة جامعة منقحة تطمئن به النفوس وتقر به الأعين وتسكن إليه القلوب ، أو أرشدنى إلى زبر وأسفار يكون هنا المحيص عنها ، فيكون الأمر كما يقول ، وهكذا كلما كان يسأل عن دقائق المسائل ما بلغ الغاية دقتها ومما تعسر على الأذكياء المتبحرين انفصامها ، يجيب عنها ارتجالاً من غير روية وإمعان نظر ، كأن قد حل جميع هذه المشكلات من زمان مديـد ، وفرغ عنها مطمئن القلب ، فقد رزقه الله علماً وسيعاً أحاط بسائر مشكلات العلوم من جميع جهاتها . اشتهر فى الناس أنه كان قوة حافظته ومواظبته المطالعة ليلاً ونهاراً وتبحره فى العلوم فقيد المثل وحيداً ، ولكن الذى هو أكبر مزاياه عندى أنـه كان خبيراً مطلعاً على أرواح العلوم وحقائقها ، وهذه هى غاية معارج العلم ونهاية مدارجه . لو سألنى أحد : هل رأيت الحافظ ابن حجر العسقلانى ؟ وهل لاقيت الحافظ تقى الدين ابن دقيق العيد ؟ أو سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمهم الله ؟ فلو أجبتـه بقولى : نعم ، لكنت صادقاً تشبيهاً واستعارة ، ولا غرو ، فإنه كان متصفاً بتلك المزايا التى امتازوا اليوم بها فى الأمة ، ولو سمحت الأيام بوجوده فى تلك القرون المباركة لعد فى طبقتهم ، ولكان مثلهم اليوم فى الأمة الحاضرة ، فأحس أن اليوم قد توفى الحافظ ابن حجر ، والحافظ ابن دقيق العيد ، وسلطان العلماء ، وأحرمنا من استفادة علومهم وبركاتهم اليوم .

ثم فوق ذلك ما جمع الله فيه من الورع والزهد والتواضع وحسن

الخلق شمائل كريمة قلما تجتمع فى عالم ، وإن اتصف بها أحد واجتمعت فيه هذه الملكات والشمائل الحسنة فمن أين لنا وجه كوجه الشيخ الأنور ؟ حيث تنبعث أشعته ويتهلل جبينه ، وتقر العيون بمرآه ، وتنشرح الصدور بزورة محياه ، وكثيراً ما رأينا فى الأسفار أن الناظرين فى الحفلات والمواعظ والمناظرات كما كانوا يتحيرون من تلاطم علومه وسعة معلوماته كذلك يندهشون من حسنه البارع وجماله المعجب ، بل الكفرة والمشركون كانوا يتأثرون من نظرة إلى محياه . ولقد صدق القائل :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

كان فى بدء عمره لا يتوجه كثيراً إلى حقائق التصوف ، ولكن غلب عليه فى آخر العمر الإنهماك والاستغراق فى بيان الحقائق والمعارف ، حتى قد يصدع بحقائق عالية ومعارف مضنونة تحير البصائر وألباب الفحول ، ثم فوق جميع ذلك مصابرته على الشدائد ومكابدته فى المصائب ، وقد جربنا ذلك فى فتنة اختلافات "دارالعلوم الديوبندية" فتحيرنا لضبط نفسه وشدة صبره واستقامته واستقلاله ، فاعتقدنا كمالاته بعد المسابرة والتجارب أزيد مما كنا نعتقدها من قبل . وقد صدق القائل :

الصدر من يلقى الخطوب بصدره * وبصبره وبحمده وبشكره

انتهت كلمة الشيخ العلامة الحبر العثمانى دامت بركاته ملخصة وقد استوعبت فنصعت وجمعت فأوعيت ، وكشفت الحجب فصدعت ، ولا تلحقك غفلة من أن هذه المقالة ليست من أحد تلامذة الشيخ رحمه الله ولا من مسترشديه وأصحابه ، بل هذه مقالة من بلغ الغاية القصوى فى كمالاته وفضائله ، ومن

هو مساهمه فى شيخ ومعاصره ، فى عمر شجرتان من روض واحد ، سقيتا بماء واحد (١) ، فلله دره ثم لله دره ، كيف صدع بالحق وكشف بالصدق ، جزاه الله عنى أولاً ثم عن سائر المسلمين خير ما يجازى به عباده المحسنين ، وسنذكر كلمته الجامعة الأخرى مما ذكره فى " فتح الملهم شرح الصحيح لمسلم " فى سياق آخر إن شاء الله تعالى .

الشيخ ودأبه فى المطالعة .

لم يكن دأبه فى المطالعة كأكثر علماء هذا العصر من أن يطالعوا الكتب عند الافتقار إليها فى الفتوى أو التأليف أو التدريس ، فيراجعون فيما يحتاجون إليها من ذلك الموضوع خاصة ، أو يتفقدون ما أرادوه من مظانه ، بل كان دأبه فى المطالعة أنه كلما تيسر له كتاب ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، سقيماً كان أو سليماً ، فى موضوع علمى، أى موضوع كان ، من أى مصنف كان ، فيأخذه ويطالعه من أوله إلى الآخر بتمامه ، من غير أن يبقى شيئاً أو يذر ، نعم كان حل جهده ومسعاه فى أن يطالع كتب المتقدمين ثم كتب أكابر المحققين من القرون الوسطى . وقد حان أن ألقى على الناظرين نماذج من علومه وتوغله فى المضائق .

الشيخ رحمه الله ومشكلات القرآن .

قد أومضت إلى دأب الشيخ رحمه الله فى المطالعة ، وحاولت بحول الله أن أبدى شيئاً من دأبه فى حل مشكلات القرآن وبيان المشكل منـــه ، ثم إهداء نفحات مسكية من معدنه وفوحات شذية من حديقته الغناء لانتشاق أرواح الناظرين، والله الموفق والمعين .

(١) اشارة الى تفاوت المراتب مع كون منبعهما واحداً مشياً على ما اراده الله سبحانه فى تنزيله العزيز فى قوله: "يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل" . منه .

وليعلم أن "القرآن المجيد" كلام الله، خضعت لعلومه ومعارفه أعناق عقلاء العالم فى كل عصر من الأعصار ، وسجدت لآياتها جباه الفضلاء من أولى الألباب والأفكار ، فأبصار العلماء قد قصرت دون معارفها ، وبصائر العرفاء قد حسرت وراء عوارفها ، فإنه لعلو شأنه الأسمى فى الغاية القاصية التى ليست ورائها غاية ، فأصبح عزيز المنال صعب المدارك وراء الإدراك ، وأعيان من الأمة قد بذلوا جهودهم المثمرة وجدودهم المنجحة فى شرحه ما يتعلق ببلاغته المعجزة ، وغريب اللغة ، وعلوم العربية ، والفقه ، والرواية ، والأسرار التكوينية ، والحقائق الإلهية ، ما لا يكاد يحصر ويستقصى ، وأتوا ببدائع وروائع ما يخرع العقول ويشده الفحول ، بيد أن الكلام كلام الله . أين مقدور البشر من إيفاء حق كلام خالق القوى والقدر ، وقد قال نبينا ﷺ : «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : "إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به" ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» رواه الترمذى فى "جامعه" من حديث الحارث الأعور (١) . فانظر إلى هذا الوصف الجامع الذى خرج من مشكاة النبوة ، فلم يترك رسول الله ﷺ شيئاً من وجوه محاسنه إلا وقد أشار إليه ، فالذى هذا شأنه كيف تنقضى بدائعه وعلومه .

وكان شيخنا رحمه الله هذا إمام العصر ، يقول : لا ريب أن حق القرآن

---

(١) كذا فى "جمع الفوائد" للفاضل المغربى .

ليس مما يقوم بإيفائه المخلوق ، ولكن مع هذا لم ينفد ، وأوسعهم فيه ما كان أحق هو به وأهله .

وكان يقول : والأعنى فى تفسيره هو حل نظمه الجزيل بحيث يستغنى عن تكلفات وتقديرات ، ويبقى تعبيره المعجز على سذاجة فطرية ، أوفى بالغرض بما يقتضيه جزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل .

وكان يقول : حوار القرآن لم يجئ على سرد الجزئيات على نسق كتب الفتاوى أو تقسيمها على المواد والتعداد ، كما فى الكتب الجديدة من مؤلفات العصر ، وإنما جاء على حوار العرب بعطف بعض على بعض ، فكثر الاختلاف فى أن موضوع الآية الثانية مثلاً أهو موضوع الأولى ؟ أو أعم ؟ أو أخص ؟ أو متعلق به بتعلق آخر ؟ ولا يخفى أن الأمر المهم فيه هو هذا .

وكان يقول : ليس موضوع القرآن استيعاب التاريخ والوقائع كلها ، فالإيجاز فى مقام والإطناب فى آخر ، والتقديم فى أجزاء الواقعة فى موضع والتأخير فى آخر لحكم وأسرار ربما تقصر عنها الأفكار ، وللتنزيل فى ذلك خصائص دقيقة تحتاج إلى غور بعيد وتدبر طويل .

وكان يقول : إن مشكلات القرآن تربو على مشكلات الحديث ، بيد أنى أتأسف على أنه لم تخدم الأمة "القرآن" مثل خدمة الحديث ، وكان الاعتناء به أهم منه بالحديث .

وكان يقول : إعجاز نظم القرآن أقطع عندى من طلوع ذكاء حين ذر شارقها ، لا يتزعزع بتشكيك مشكك ، وهذا لأن الذكاء ينجلى قرصها للأبصار قبيل شروقها من الأفق الحقيقى بعدة دقائق ، كما حققه أهل الفلسفة الجديدة ، فيحتمل أن الذكاء لم تطلع عند شروقها ، غير أن القرآن لا يحتمل لدى شيئاً مما يأبى عن إعجازه .

وكان يقول : إعجاز القرآن عندى يحوى إعجاز تراكيبه وأساليبه فى

إيجازه وإطنابه ودلالته على المغزى وافتنانه على وجوه شتى ، ليس فيه للشبهة مساغ ولا للريبة مجال ، فإعجاز القرآن عندي يقين لا يدوره شك ، وثلج صدر لايشوبه ريبة ، " وليست وراء عبادان قرية " ، بل اللفظ المفرد الذى نزل به القرآن لو اجتمع الثقلان وتظاهر عليه أهل الأكوان بأنْ يأتوا بالأوفق منه فى موضعه لعجزوا وخابوا .

وأن القرآن ربما يكشف الحقائق الغامضة بتغيرات مفردة يتحير لها أولو الأذواق السليمة العالية(١) :

إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

فيجل شأنه الجليل من أن يكون فيه حرف زائد أو تقديم وتأخير من غير رعاية نكات دقيقة تدق عن الافهام ، فحاشاه ثم حاشاه عن ركاكة لفظ أو زيادة حرف ، وحقاً ما يقول الشيخ رحمه الله : فإنه كان من البلاغة بمنزلة علياء شامخة ،تشخص دونها الأبصار والبصائر ، فكانت البلاغة خلطت بلحمه

(١) وكان يقول: نظم القرآن العزيز لايستوفى الالفاظ لمحض العبارة والتعبير بعد ما فهم المقام و المصداق . وقال فى "تحية الاسلام" ص - ٣٩ : ومن رزقه الله ذوقاً فى القرآن وحظاً فى العربيه" يعلم انه ليس يجرى على الحوار العامى بل له طريقة" تميزة فى انتقاء الالفاظ ، واللحظ فيها الى اصل وضعها ورعايه" حقائق ما وضع لها ، و لذا يتعذر وضع لفظ فيه بدل لفظ ، و ذلك للجهل بحقائق الاشياء و ما يفى بحق المقام اه . وكان يقول : التكرار فى القرآن انما يكون بقدر مشترک وبقدر مغاير ،وقلما يكون مكرراً محضاً،ولو لم يكثر الاول لما سهل تفسير بعضه ببعض ولا توفير مآخذ الاحكام و الفوائد، اريد به انه يؤخذ من لفظ حكم و من لفظ آخر آخر فى موضوع مشترک فيصير كمتن صرف ، و يؤخذ من التكرار الاعتناء والاهتمام بشان ذلک المضمون كما يقال : ذكرت الصلاة ازيد من تسع مائه" مرة . وكان يقول : و يدل القرآن العزيز بما لا يرتبط بعضه ببعض علماً و هو ان الامور التى قصر علمنا عن ابداء المناسبه" فيها بينها ارتباطات وعلائق لا يحيط بعلمها الاعلام العيوب ، ونظيره الادون قصورنا عن فهم مناسبات بين احكام الفقه ، وان بينها سلسله" و يفهمها المجتهد الفقيه ، فهى عندنا جزئيات منتشرة و عنده منضبطه" تحت اصل . منه .

ودمـــه ، وأضحت له صفة نفسانية سرت فى عروقه حتى أصبحت غذاء لروحه السامى .

وكان يقول : قد أودع الله فى طبيعتى معياراً لمعرفة البلاغة ، فلا أقلد فيها أحداً ، وربما إذا حكى قولهم : "لم يدر إعجاز القرآن إلا الأعرجان" عقبه بقوله : "وأنا ثالثهما" ، وربما قرنه بسجعة : أحدهما من زمخشر والآخر من جرجان (١) .

ثم اعلم أن الشيخ رحمه الله كان يثنى كثيراً على "نظم الدرر فى تناسب الآى والسور" للشيخ إبراهيم بن عمر البقاعى الشافعى ، من أرشد تلامذة الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى ، وكان يرشدنا إلى مزاياه البارعة ، وينوه بشأنه ويقول : لا يوازى خدمته للقرآن فيما أرى خدمة غيره له ، وهو فى ذلك سباق غايات وصاحب آيات بينات ، وكذا كان يثنى على "كشف الأسرار" لبعض أفاضل المعتزلة (وكلاهما غير مطبوعين) .

وكان يثنى على "مفاتيح الغيب" أى "التفسير الكبير" للإمام فخر الدين خطيب الرى ، ويقول (٢) : إن الإمام يغوص فى علوم القرآن ومشكلاته ، لم أر مشكلاً من معضلاته إلا والإمام تنبه له ، غير أنـــه ربما لا يظفر بما تقنع به النفوس الصادية وتنشرح به الصدور الصافية . فهكذا كان الشيخ رحمه الله ينبهنا على تلك التحقيقات المتينة والتدقيقات الرصينة . سألته عما قيل فى تفسير الإمام : "فيه كل شئ إلا التفسير" كما حكاه الشيخ جلال الدين السيوطى فى "إتقانه" ؟ فقال : لعله قول من غلب عليه الرواية ، كان يريد رحمه الله كأنه قول محدث همه استطراد الروايات من الأخبار والآثار فقط ، من غير ملاحظة إلى سائر مزايا التنزيل العزيز . ولفظـــه بالأردية : «كسى راوى مزاج شخص كا قول هوگا» . وبلغنى أنه قال مرة :

(١) قد جاء هذا البيان بابسط من هذا فى مقدمتى لـ"مشكلات القرآن" : "يتيمة البيان" فلتراجع منه . منه .

(٢) ومن لفظه بالهندية : "قرآن كے مشكلات ميں كهبتا ہے" . منه .

ذلك القول ظلم فى حق الإمام ، هذا ، فلعلك دريت من هذا التفصيل شدة عنايـــة الشيخ رحمه الله بمشكلات التنزيل العزيز والغوص فى حقائقه الفائقة ومزاياه الرائقة ، فهكذا صرف برهة من عمره فى حل مشكلاته .

وكان يتلو القرآن فى رمضان بغاية تدبر ، فكان يمضى يوماً قميطاً من بعد صلاة الفجر إلى الأصيل فى جزء واحد ، وربما كان يتوقف فى آية عدة ساعات يمرى اخلاف فكره ، وربما كان يبقى سنين فى التأمل فى بعض المشكلات حتى يبلغ إلى درك البحر فيخرج اللآلى المكنونة ، وكان من شريف دأبه إذا عن لـــه مشكل من مشكلاته يتوخى لحله أسفار أعيان من الأمة الذين لهم عناية قوية بأمثال هذه العويصات ، فإن فاز بشئ أحال عليه فى مذكرته ، وإلا فكان يطيل الفكر ويرسل النظر ويبعد الغور والتأمل ، فإذا سنح له سانح أو بدا بارح قيده ، فاجتمعت فى "مذكرته الخاصة بالقرآن" مادة جمة غزيرة . ولم أحاول ههنا استقصاء الكلام واستيفاء الجهد واسترسال القلم ، بل أردت أن آتى بشذرات من صريفها ، تمثيلاً لما أسلفته ، ودليلاً لما ألقيته . وقد عزم "المجلس العلمى" القائم بـ"دابيل" أن يخرج للأمة هذا العلق النفيس والمضنون الغالى ، بعد أن يقاسى العناء ويبلغ العنت فى ترتيبه وجمع حوالاته الغزيرة ، بيد أن ذلك أمر خطير يحتاج إلى سعة المدة ، فنرتقب متى يسطع هذا البدر اللامع على جبين العلم فى دياجر الهند (١) .

والآن أريد أن أذكر ههنا مثالين من ذخيرة مذكرته بلفظه على الهيئة الموجودة فى مذكرته ، ليكون للناظر حجة وبرهاناً على ما ذكرته ، وإنما

---

(١) والحمد لله قد ظهر ذلک العلق النفيس و سمى بـ"مشكلات القرآن" ، ولى عليه مقدمة مبسوطة فى نصف حجم "نفحة العنبر" ، ولكن بالأسف فقدت نسخه ويحتاج الى اعادة الطبع . منه .

اقتنعت بالمثالين منها فقط ، ثم ما كان فيها مختصراً اختصاراً للبحث . والله الموفق والمعين .

١- قوله تعالى: «وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين»

هو بالنصب ، عطف على المغسولات ، بتقدير فعل يصل إليه ، أو باختيار التضمين ، كما خرجوا عليه آيات ، وأسلوب القرآن عليه كثير بالإحالة على الفهم فى تقدير ما يصدق فى المقام ويرتبط به الكلام ،لا استيعاب ما لا يحتاج إليه لمحض تصحيح الإطلاق .

وإن كان بالجر فالمسح هو الإفضاء بالماء إلى المحل ويصدق على الغسل ، وليس ههنا اشتراك لفظى بل معنوى يعين جزئياته خصوصية المحال ، كالنضح للبحر بموج بالنسبة إليه ، وللبعير وللثوب مثلاً ، ومنه النقل عن أبى زيد الأنصارى: "تمسحنا"، أى توضأنا ، وقول العرب : "مسح الأرض المطر" . والباء للإيماء إلى الماء ، كما فى "فتح البارى" عن "القرطبى" . وأما إمرار اليد المبتلة فعرف حادث بعد ما تعورف المسح على الرأس والخفين ، وإنما عبر بالمسح ليدل على أن هذا القدر لابد منه ، وإنه أقل ما يجب فى وظيفة الرجلين ، وليبقى مادة لمسحها فى بعض الحالات ، وهو حال التخفف والوضوء على غير حدث للقيام إلى الصلاة ، وكان ﷺ يتوضأ لكل صلاة ، فلذا لم يقيد الآية بالحدث ليبقى مادة له ، وهو قول على رضى الله عنه عند الطحاوى وغيره : «وهذا وضوء من لم يحدث» ، وأصله عند "البخارى" (١) — من الأشربة من باب الشرب قائماً — فقسم الأربعة إلى مغسولين وممسوحين، وهذان سقطا فى التيمم . وفى

(١) ص - ٩٣٤

وضوء بين وضوئين فى لفظ عند "مسلم"(١) فى صلاة الليل عن ابن عباس رضى الله عنه ، وفى لفظ : «ثم غسل وجهه ويديه ثم نام» ، فحسن جمع الرجلين مع الرأس فى العنوان ليبقى مادة هذه الصور ، فوظيفة الرجلين الغسل ، ولهذا غياه بقوله : "إلى الكعبين" ، ولا يرتبط بالمسح أصلاً ، لكن عبر عنه بالمسح ، وهذا العنوان أثر وظهر فى صور ، لا أن المراد فى قراءة الجر هو حالة التخفف إبتداءً ، نعم لو لم تكن هذه القراءة وكان صرح بلفظ "الغسل" كان فيه توهم إن لم تبق للمسح صورة ، ثم لو جاءت الأحاديث بعد التصريح به فى الآية بالمسح كانت معارضة وجرى تشاجر ، فأبقى بالعنوان مادة له وعدة وإيماء يظهر فى محله ، وهذا أسلوب معجز .

والحاصل أنه لو لا هذه القراءة لم يذهبوا إلى المسح فى بعض الصور أيضاً ، كما لو لم يكن قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» — وإن كان منسوخاً — لم يذهبوا إلى الفدية فى بعض الصور ، فإبقاءه ولو منسوخاً يفيد ويظهر فيها ، فما من منسوخ إلا وفى إبقاءه فى التلاوة فوائد . ثم إن فريضة غسل الرجلين كان قبل نزول الآية بنحو ثمانية عشر سنة ، فأتت بالإيماء إلى صور ، وقد تردد بعض السلف بعد نزولها فى المسح على الخفين حتى بلغهم الأمر فلم يفهموا غير الغسل ، وأخذوا المسح من الأحاديث (١) . هذا ويجوز على تقدير الجر إضمار فعل مناسب أو اعتبار التضمين أيضاً ، وقيل : النصب على المعية ، وتكون أمراً واحداً معتبراً بين اثنين فى القيام أو الوقوع لا أمرين .

وكنت ويحيى كيدى واحدٍ * نرمى جميعاً ونرامى معا

(سوارد)

---

(١) ص - ٦٢٠ (٢) ص - ٥٦ خ

ومنه: "جاء محمد والخميس" و"جاء البرد والجبات" و" استوى الماء والخشبة" و"لو تركت الناقة وفصيلتها" "لو خلى وطبعه" و"ما لك وزيداً" و" لو خلى وشأنه"، مما اعتبر فيه المجموع من حيث المجموع لا الجميع . ولعله منه: «إن أراد أن يهلك المسيح عيسى بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً» وجميعاً بمعنى معاً . «فأجمعوا أمركم وشركاءكم» (١) . «يا جبال أوبى معه والطير»(٢). كأنه على مسألة القدوة عندنا بالجواب بعده ، ونحوه من سورة "ص" . ولعله منه : « فذرهم وما يفترون » ، « ذرني ومن خلقت وحيداً » ، «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث» و«ذرني والمكذبين» . ولعل من هذا الباب : إياك والأسد ، نحو ما في "جمع الجوامع"، شأنك والحج ، إغراءً وتحذيراً ، ولم يسند الإستواء إلى الخشبة والطريق والنيل لكونها من قبل كذلك فنصب .

وبالجملة هو في النصب على المفعول معه ، وفي الجر أيضاً على المعية لا التشريك فاعلمه ، وتكون في عطف المفردات أيضاً كما في واو الصرف والمعية كما في : "ولما بلغ معه السعي" وكما في "أسلمت مع محمد" . ثم رأيت سيبويه صرح به (٣) . فتدل على أنهما قرينتان تثبتان معاً وتسقطان كذلك ، وقد ظهر هذا الاعتبار في حديث: « يكفيك الوجه والكفان » عند البخاري وغيره . ولعل الجر على الجوار لمثل هذه النكتة ، لا مجرد توجيه إعراب ، بل على حد: "أنت أعلم ومالك"، بالرفع ، نحو مالك وزيداً ، من حذف الخبر في "المغني" وبحث الواو ، و"العمدة" من إيجاب التكبير وافتتاح

---

(١) "البحر" ص - ١٧٩ ج - ٥ (٢) "البحر" ص - ٢٦٣ ج - ٧

(٣) في صفحة ١٥١ و ١٣٨

الصلاة، والقسطلانى . وراجع "الفواتح" (١) و "تنوير الحوالك" (٢) مرفوعاً من كتاب عمرو بن حزم . و "المسند" (٣) . وإنما اختار لفظ "المسح" لأن الغسل على صرافة معناه ، وقد كان معمولاً عندهم فى الوجه واليدين من قبل ، وليس تعبدياً بخلاف الرأس والرجلين ، فإنهما تعبديان ، فيناسب هناك لفظ يقرب الإصطلاح كالوضوء ، فيقال: تمسح بالماء اغتسل ، وللصلاة توضأ . قال أبوزيد : المسح فى كلام العرب يكون مسحاً ، وهو إصابة الماء ، ويكون غسلاً ، يقال : مسحت يدى بالماء إذا غسلتها ، فهو كالألفاظ الشرعية المصطلحة عليها ، لأنه لم يكن مسح الرأس وغسل الرجلين معمولاً عندهم ، ولا يقال أن الإعتبار لمناط الحكم لا لصورة اللفظ كما فى "التحرير" (٤) ، لأنه قد يكون خلاف ذلك كما فى "المسلم" (٥) وهو فى "التحرير" (٦) . والغسل باب واحد ، والمسح يخرج على وجوه من إزالة الأثر (والتبريك كما فى «فسبح باسم ربك العظيم» ، «اجعلوها فى ركوعكم» مع أن الأسماء الحسنى كثيرة ، ذكره فى " نيل الأوطار" ، وكاختيار صاحب "الهداية" ، أستعيذ بالله ، وبراجع "المسند" (٧) ، وهو توسع وإختصار) "على وجه مى مسحة من ملاحة" ، راجع "المستصفى" (٨) ولابد وذلك كلفظ الصلاة ، وفى "الفتح" من الوتر : واستحباب غسل الوجه واليدين لمن أراد النوم وهو محدث ، ولعله المراد بالوضوء للجنب (٩) .

---

(١) ص - ٣٨٥ ج - ١ (٢) ص - ٢٠٤ (٣) ٢٢٣ و ٣٦٦ ج - ١
(٤) ص - ٢٢٥ ج - ٣ (٥) ص - ٢١٨ و ٢٢٧ ج - ١
(٦) ص - ٢٢٠ ج - ١ (٧) ص - ٧٨ ج - ١ (٨) ص - ٣٣١ ج - ١
(٩) ص — ٣٣١ ج — ٣

٢- قوله تعالى : « **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** » . وهو نحو قوله تعالى فى " المائدة " : « **قل يآ أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم** » ، ونحوه لايرد على من قال : أن التحريف قد وقع فى كتب العهد القديم والجديد ، لأن القرآن العزيز مهيمن على الكتب السابقة ، فما صدقه منها كالنبوات وأحكام الجنايات وغير ذلك فهو صادق ، وما كذبه منها كقولهم : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله فهو كاذب ، وما سكت عنه نسكت عنه ، وكذا علمنا فى الحديث . ثم لو قال تعالى : إيتوا بالحصة الفلانية من "التوراة" لكان تطويلاً بلا طائل ولم يكن نافعاً فى الإلزام ، إذ كانوا يقولون : يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ولو أعلن أنا لا نسميه "توراة" لمكان التحريف فيه لانسحب على كلها وهو خلاف الواقع ، فكان الأنفع الأخصر أن يلزموا بما كان صحيحاً من تلك الكتب ، ويكذبوا فيما حرفوا منها لا ترك أسمائها . وراجع " ذيل الفارق "(١) و" الفتح "(٢) و " هداية الحيارى " (٣) من هامش " الذيل " . والحاصل أن المراد : فأتوا بالتوراة من هذا المقام . وقال قبله فى " المائدة " أيضاً : « **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** » ، ولعله لهذا جمعها البخارى فى التفسير وفى ما نحن فيه ولا يريد جميعها ، واسمها يطلق على الكل والجزء كاسم القرآن فاعلمه . والواقع أنها إسم لكتاب الله الحق من جانبه لا للصحيفة الموجودة فى أيديهم ، فكل موضع كان منها

(١) ص — ٤١ ج — ٢٨ (٢) ص — ٤٣٦ ج — ١٣ (٣) ص — ٤ و ٥ .

حقاً استشهد به ، وما كان مدسوساً كشف حاله ، أو الكتاب نوع من علمه وكلامه تعالى لا الصحيفة ، كما ذكر فى قولـه تعالى : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب » أو المراد أحكامها بعضها ، كما ذكره فى مقدمة " الحقانى " . والوجه فى تعظيم " التوراة " حين أتى بها كالوجه فى طواف عمرة القضاء مع كون الصور فيه ، وكتعظيم كتاب من الفنون الباطلة فيـه آيات من القرآن ، لا كما زعمه صاحب " أنوار أحمدى " وعلى هذا فمن استدل على اطلاق الإبن بالكتب السابقة فقد ألحد . وراجع " الفتح " (١) و" الرسالـة الأولى " من رسائل الحافظ ابن تيميـة(٢) ، وراجع " الفتوحات " (٣) و" اليواقيت "(٤) و" روح المعانى "(٥) .

هذا ، وياليت شعرى بمن يقدر فى سويداء قلبه هذه المكابدة البالغة والتفقد الأقصى ، والتصفح الذى ينتهى إليه مقدرة البشر ويستوقف لديه مطايا الفكر ، فهل فى النادية من يقع ذلك فى قلبه موقعاً عظيماً ؟ وهل من مقسط يحكم بالعدل ؟ فكم من ليال بات فيها مسهداً لمشاهدة دقاق الكواكب من سماء التحقيق ! وكم من ساعات أصبح فيها مضطرباً متململاً لحل هذه العقد ، واستقادة هذه الشوارد القاصية ، بتدقيق أنيق وحدس مصيب ! فمن لى بقلب ذكى حساس أحاطت به أضلاع حنيـة فيحس أنه كيف استخرجها من مدافنها ؟ وكيف أثارها من أماكنها ؟ وكيف نسقها ونضدها ؟ وأرجع كل شبه إلى موقعه الملائم ، فيا لمجهود بشرى استغرق فى بحار كلام الله جل شأنه وعظم برهانه ، فجزاه الله عنا وعن سائر المستفيدين خير ما يجازى عباده

---

(١) ص — ٣٧٦ ج — ٣ (٢) ص — ٨٠ (٣) ص — ٤٦١ ج — ٣ (٤) ص — ١٠٥
(٥) ص — ٦١٥ ج — ١

المحسنين ، وصلى الله تعالى على خاتم النبيين وصفوة الخلائق سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ والحديث .

طالع رحمه‌الله من الحديث وما يلحق به ما تيسر له من كتب متون الحديث بعد الصحاح الستة من : " مسند الدارمى " و" مسند أحمد " و" منتقى ابن الجارود " و"مستدرك الحاكم " و" سنن الدار قطنى " و"مصنف ابن أبى شيبة " و" مجمع الزوائـــد " للحافظ نور الدين الهيثمى و" جامع الصغير " للسيوطى " وكنز العمال " للشيخ العارف المحدث حسام الدين على المتقى ، وما قدر له الله مطالعته من كتب الحديث من المطبوعات والمخطوطات فى زوايا الهند وديار الحرمين مالا يعلمه إلا الله .

علا أنى لم أرد الإحصاء والحصر ، ولو أريد حصر جميع ما وصل علمى إليه من سماعى عن الشيخ صراحـــة أو إشارة ، أو ثبت عندى من إلقائه وإملائه فى الدروس ، أو الحوالة عليه فى رسائله ومؤلفاته لضاق بنا النطاق ، وإنما أردنـــا إبراز جمل وقطع منتشرة تنظيراً وتمثيلاً ، ليكون للمشتاقين الغافلين عن هديه وهداه هداية وبرهاناً ودليلاً .

وطالع من شروح الحديث ما يربو عددها على مئين . وقد طالع مما يتعلق بـ "الصحيح " للإمام البخارى فقط نحو ثلاثين شرحاً بين كبير ذى أجزاء ضخيمة وبين صغير وبين ناقص وكامل ومطبوع ومخطوط ، وفيها مثل " فتح البارى" فى ثلاثة عشر جزءً ، وجزء من مقدمته ، و"عمدة القارى" للحافظ العينى فى أحد عشر جزءً ، و" إرشاد السارى" للقسطلانى فى عشرة أجزاء . وكان طالع " العمدة " فى شهر رمضان من العام الذى أراد قراءة " الصحيح " على شيخه من شهر الشوال بـ" ديوبند " . ثم كان يطالع مع

درس الصحيح في عهد تعلمه " فتح الباري " درساً درساً ، وكانت مطالعته تجري مع الصحيح سواء بسواء ، بل قد كان يسبق مطالعة " الفتح " على درس الصحيح بكثير ، وسمعت من الشيخ رحمه الله نفسه: أني مرضت في تلك الأيام سبعة عشر يوماً ولكن لما حضرت في الدرس رأيت أنه لم يصل الدرس إلى موضع بلغت إليه مطالعتي . وكان طالع " الصحيح " للإمام البخاري ثلاث عشرة مرة متنه من غير أن يلاحظ ما بين السطور وما في الهوامش، فكان يطلع كل مرة على علوم وحقائق لم تخطر بباله في المرة السابقة ، وكان يحسب كل مرة أن نفدت دقائقه ومزاياه ، وكانت ما لها من نفاد، حتى عجز عن استنباط حقائقه محصاة محصورة ، إذ كان بحيث تفتح عليه كل مرة أبواب علم ومعرفة مالم تفتح سابقاً ، كان يقول رحمه الله : فكأنه (أي " صحيح البخاري ") كانت عيناً ثرثارة من المعارف والعلوم تنبع منها ساعة فساعة ، فتركته إذ أيست عن نفادها ، فسبحان الله ذي الآلاء يعطي ما يشاء لمن يشاء ، فجرى المذكيات غلاء ، وقطعت جهيرة قول كل خطيب . ولله در القائل :

لا تحسب المجد تمراً أنت تآكله ＊ لن تلعق المجد حتى تلعق الصبرا

وكان يثني كثيراً على " شرح الحافظ ابن حجر " ويفضله على سائر الشروح على " الصحيح " للحفاظ المتقنين من الحنفية والشافعية ، وكان يقول له : حافظ الدنيا ، وهذا اللفظ اشتهر اليوم بألسنة الطلبة والمدرسين ، وكان تعجبه سعة اطلاعه ، ثم تناسق كلماته ونظام تحريره واتقان صناعته ، ومع سعة اطلاعه وتبحره المحير للأنظار يتعقب عليه بأمور لا تحصر مما يتعلق بالرواية، ويستدرك عليه أشياء نفيسة في أكثر المباحث ، ثم قد يتعجب من ذهوله

وغفلته فى بعض المواضع ، وربما يقول : ههنا شئ كذا وكذا لم يذكره الحافظ فى " الفتح " ، وتنبه له فى " التلخيص الحبير " فقال كذا. وكذا ، أو يقول : تنبه له فى " تهذيب التهذيب " فى ترجمة فلان . وهكذا كان صنيعه فى الدرس والتأليف ما تحار له العقول والأفهام ، ولكن كان يشكو ويشتكى منه صنيعه فى اعتصام مذهبه فى كل صحيح وخطأ ، والتزام إحقاق رأى الشافعية فى كل مقام ، وكان يستنكره من جلالة قدره ونباهة أمره ، وهذا مع أنه ينكر فى مواضع على الحافظ البدر العينى بأنه لم يصب فى الرد على الحافظ ،حتى إنه رأى فى المنام فيما يراه النائم الحافظ البدرالعينى فشكا إليه صنيعه مع الحافظ ابن حجر وقال : لم تنتفع الأمة بصنيعك هذا مع الحافظ . ولفظه :

"آپ کے اس طرز سے امت کو کچھ نفع نہیں پہنچا" .

فأجابه الشيخ العينى بأن سل عن الحافظ (ابن حجر) أولاً : لماذا اختار صنيعـــه ذلك ؟ يعنى أنا الدافع وهو البادى ، فقال الشيخ : فسكت إذن ، وكان يجيب الحافظ فى المواضع التى لم يقدر الشيخ العينى على الجواب ، أو لم يوف حق الإيفاء ؟ وكان يقول : الحنفى لا يستغنى عن "العمدة". وكان يقول : إنـــه يأتى بغرر النقول من كتب القدماء ما تقر به الأعين . وكان يقول : إن المجلدات الأول تحتوى على علوم وحقائق ومزايا لا توجد فى أى شرح . وكان يقول : لم يقدر عالم على أن يأتى من عنده بشئ جيد نفيس، فليأت بنقول من كتب أعيان الأمة مثل ما يفعله البدر العينى .

خصائصه ومميزاته فى شرح الاحاديث التى تتعلق بمسائل مذاهب الائمة وغيرها

اعلم أن للشيخ رحمه الله مميزات بديعة وخصائص فائقة فى شرح النصوص التى تتعلق بالمذهب من " القرآن " والسنة ، تدل على تغلغل الشيخ فى دقائق الكلام ، وغوصه فى المزايا اللطيفة ما يكفى على براعة هذا الشيخ البارع للمتبصر الحاذق والمتفكر الماهر الخبير بعلوم المشائخ الغابرين والسلف الصالح رحمهم الله تعالى برهاناً وإيقاناً ، ذوقاً ووجداناً ، نومض إليها إيماضاً بالارتجال والله المؤفق .

١ـ منها : أنه كان حماداه وجل مسعاه فى مثل هذه النصوص التى يعتصم بعراها أهل كل مذهب من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية أن يطلع أولاً على غرض الشارع منها وتعيين محط الكلام وتحقيقه ثم تنقيح مناطه وتخريجه غير محتفل بعدم وفاقها مع المذهب الحنفى ، فلم يكن صنيعه كعامة علماء العصر بأن ينفد وسعه ويستفرغ جهده فى توفيقه مع المذهب ويأول فيه تأويلاً وإن لم يساعده صرافة نظم الكلام ، وخرج عن حاق اللغة ، بل كان التأويل عنده غير جائز بحيث يخرجه عما يتبادر إليه الطبع السليم ، فكان ينزل نظم القرآن وسياق الحديث بأعلى ما ينزل عليه من الفصاحة والبلاغة ، ويتفقد له محملاً صحيحاً يقتضيه سوق الكلام وأصل اللغة ، ولا يقدر فيها تقديرات ، فإن ذلك كان ينزلها عن السذاجة الفطرية والبلاغة المعنوية ، نعم لو لم يوافق المذهب الحنفى الحديث فإن وجد فى الباب ما كانت للمذهب مسكة وعروة بغيره فكان يستدل به بالمعارضة ، وإن كان هنا عنده شرح لطيف فيشرحه به بحيث تبقى على صرافة اللغة وحوار العربية . وهاك نبذة من أمثلته حتى يتضح المقصود وينكشف الغطاء ويبدى الصريح عن الرغوة :

المثال الاول : أول حديث فى " صحيح البخارى " حديث النية ، قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات الخ » ، طال فيه نزاع القوم وكثر فيه الشغب بين الحنفية والشافعية ما هو مشهور ، حتى إن الحافظ البدر العينى فى "العمدة" حبر أوراقاً كثيرةً تأييداً لمذهبه ، فقال الشيخ رحمه الله : إن كل ذلك تكلفات لم يردها الشارع ، وجميع ما سطروه وحبروه بمعزل عن غرض الشارع ، ومراده الصحيح المنقح : أن اعتبار الأعمال عند الله بحسب النيات والعزائم القلبية ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، يعنى إن صورة أعمال الخير تعتبر إذا كانت من نية خالصة وقلب سليم ، فالعمل الصالح فى الظاهر إذا لم يرد به صاحبه وجه الله كالعلم أراد به صاحبه المباهاة والمراء ، أو الجهاد أراد صاحبه إظهار شجاعته وبسالته أو محض الغنيمة ، أو الإنفاق أراد صاحبه رياء الناس ، فلا عبرة لها ، بل قد حبط كل ذلك عند الله ، فليس له أجرها ، بل عليه وزرها ، ويتفاوت مراتب الاعتبار بتفاوت مراتب النية قوةً وضعفاً وخلوصاً وغشاً ، فهذا لا تعلق له بمحل النزاع ومورد الجدال من تقدير الصحة أو الثواب ثم التفريعات عليه . ثم كان يبدى الشيخ ههنا فى شرحه نكات لطيفة ومباحث شريفة ليس هذا موضع بيانها .

المثال الثانى : قوله ﷺ : « المستحاضة تتوضأ لكل صلاة » فاستدل به الشافعية أن المستحاضة يجب عليها الوضوء لكل صلاة ، والحنفية قالوا بالوضوء عليها لوقت كل صلاة ، واختاروا أن " اللام " للوقت ، ويؤيده رواية فى " مغنى ابن قدامة " ، ولكن كان للشوافع فيه مساغ بأن يقولوا : المراد من الوقت الساعة التى تشغلها الصلاة ، لا مطلق الوقت الذى هو ظرف للصلاة ، فلذا أجاب الشيخ جواباً نفيساً ، وشرح الحديث شرحاً لطيفاً ، وقال : الغرض من الصلاة هنا وقتها ، وإنما سمى الشارع وقتها بإسم

الصلاة لأجل تسمية الأوقات بأسماء الصلوات حسبما جرت به عادة أهل العرف، فلا حاجة إلى التقدير فى نظم الكلام ، وصار التعبير أفصح ما يكون ، وبقى مراد الحنفية على حاله ، وأصبح الحديث لهم دليلاً واضحاً .

المثال الثالث : من التنزيل العزيز قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة» الآية ، فعامة أهل التفسير من العلماء لما رأوا أن الوضوء غير واجب على غير المحدث فلا يستقيم الأمر مطلقاً لكل أحد فقالوا بالتقدير فى نظم الآية الكريمة، وصدعوا بأن المراد : إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون الخ . فقال الشيخ رحمه الله : القول بالتقدير فى نظم الآية مما يفضى إلى انحطاط النظم القرآنى عن البلاغة التى بلغ هو إلى ذروتها العلياء والغاية القصوى ، بحيث ليس فوقها غاية للمتطلب ، فلو قلنا بالتقدير فيها وزعمنا أن المعنى لا يستقيم بدونه لانجر هذا إلى القول بقصور التعبير القرآنى فى تأدية المعنى المراد ، وذلك عوار بين فى الكلام البليغ ، وكيف بالذكر الحكيم الذى لا مطمح للعقول وراء فصاحته ، ولا مطمع للبلغاء فى الوصول إلى أدنى مرتبته ، بل المراد عندى الأمر بالوضوء لكل أحد مطلقاً ، ثم يختلف مراتب هذا الأمر بحال المأمور المكلف ، فإن كان المأمور محدثاً فلا جرم يجب عليه الطهور ، وإن كان غير محدث فاستحب له ، وكيف كان هو مأمور على كل حال ، واختلف مراتب الأمر باختلاف أحواله ، فليس هذا قول بعموم المشترك وإن كان سائغاً عند الإمام الشافعى ، ولا قول بعموم المجاز كما جوزه الحنفية ، ولا قول بالتقدير ولا حكم بالتأويل، فاعتبره ترشد إلى الحق إن شاء الله تعالى . وسيأتى لذلك تحقيق وبسط فى فوائد الشيخ رحمه الله .

المثال الرابع : قوله ﷺ : « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر » . واختلاف الأئمة فيه مشهور شائع فى الزبر . قال الشيخ رحمه الله : غرض

الشارع منه توبيخ وتهديد ، فكأنه كفر صورة إذ لم يبق بينه وبين الكفر فرق ، وبين العبد وبين الكفر الصلاة ، فحكم الشارع بكفره زجراً له وتوبيخاً وتقريعاً له على ارتكاب هذا الفعل الشنيع ، لا أنه كفر فى الواقع ، فإن الشريعة ناطقة على الأمور التى عليها مدار الإيمان ومناط التصديق والإذعان ، فلو أولنا حكمه الصريح بتقدير الاستحلال لفات غرض الشارع من الترهيب والتهديد المطلوب ، ولو أبقيناه على الظاهر من غير إبداء هذه النكتة البديعة لبطل ما صدعت به النصوص الكثيرة والأدلة المتظافرة . هذا توضيح غرض الشيخ فيما أرى والله أعلم . وناهيك بهذه الأمثلة والنظائر إيضاح المرام .

٢- ومنها : أنه كان رحمه الله لا يعتد بعموم العبارات والمدلولات اللغوية ، فكان يدير مناط الكلام على الأغراض لا الألفاظ ، فكان لا يجيب الشافعية من جانب الحنفية بالعمومات فى مقابلة الخصوص ، فإن العام عنده ظنى كما هو عند الشافعية وطائفة من محققى الحنفية ، فكان لا يستحسن العام فى مقابلة الخاص .

وقال رحمه الله فى "نيل الفرقدين"(١) : "والوجه أن العمل بالعمومات والاطلاقات إنما ينبغى حيث لا يكون لخصوص النوع عدة من الدليل ، وإذا كان لنوع منضبط عدة من الدليل فى خصوصه فلا ينبغى هناك أن يترك الخصوص لعموم" .

وأيضاً قال : والرجوع إلى العموم عند فقد الخصوص قد استنبط مما قاله النبى ﷺ للسائل فى زكاة الحمر ، ومع هذا فقد يعذر من عمل بالعام مع وجود الخصوص ، كما وقع لبعض الصحابة فى ترك الصلاة عند ذهاب إلى بنى قريظة ، ولم يكن ينشأ احتمالاً محضاً فى النص للرد عليهم بحيث يرده

---

(١) ص – ١٣٢

الطبع السليم ويمجه الذوق الصحيح ، فإن ذلك عنده كان شنيعاً جداً ، وكان يقول : غرض المتكلم إما أن يكون أعم من المنطوق والمدلول المطابقى أو أخص أو مساوياً ، فكان يحمله على محمل صحيح يوافق الغرض المسوق له الكلام .

٣- ومنها : إنه إذا تكون فى مسألة روايتان على الإمام أبى حنيفة رحمه الله (١) أو قولان من المشائخ الحنفية ، كان يختار منهما ما يوافق الحديث الصريح الصحيح من غير تكلف وتأول ، وربما كان هو من النوادر ، فإن لم يكن فى الباب حديث صريح ، أو كان الأمر دائراً فى البين يرجح ما يوافق مذهباً آخر من المذاهب الأربعة ، ولعله كان المقدم حينئذ مذهب الشافعى ثم مالك رحمهما الله فيما أرى والله أعلم ، فإن لم يكن لذلك مساغ كان يجتهد ويسعى فى تقريب المذهب إليه ليرتفع أمر الخلاف رأساً ، أو يهون أمره ويخفف وقره ، وهذا خلاف صنيع أكثر علماء العهد الغابر والعصر الحاضر ، فإنهم يشمرون عن ساعد الهمة للنزاع ويقرمون للجدال ، ويأخذون عند الإختلاف ما كان أبعد كل البعد من أقوال المذاهب الأخر ، ثم يضطرون إلى التكلفات الباردة التى لامساغ لها فى الباب ، ويضربون فى الحديد البارد ، فيصبح الفريقان على طرفى النقيضين ، نعم المعتبرون فى كل عصر تكون ثلة ، والمتبصرون أقل عدداً ، "وخالات الناس بالدهناء قليلة" . ولقد صدق السموأل حيث قال :

تعيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها : إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا * شباب تسامت للعلى وكهول
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم * وليس سواء عالم وجهول

---

(١) ومن مصطلحات الشيخ رحمه الله اذا كانت المسالة ماثورة عن الامام سماها : بـ"الروايه" ، واذا كانت من المشائخ سماها : "قولا" ، ولذا قد راعيت تعبيره فى الافصاح . منه .

ودونك أمثلة مختصرة ليتضح المقصود اتضاحاً ، والله المستعان :

المثال الاول : إنه اختلف العلماء فى تثليث المسح كتثليث الأعضاء المغسولة ، فأثبته الشافعية ونفاه الحنفية ، ثم قال الشوافع : إنه سنة كتثليث غسل سائر الأعضاء . ومن الحنفية من قال بكونـــه مكروهاً ، كما فى "المحيط" و"البدائع" ؛ وقال بعضهم : إنه بدعة ، كما فى "الخلاصة" ؛ وقال بعضهم : ليس مكروهاً ولا سنة ولاأدباً ، كما فى "الفتاوى الخانية" ؛ ورجحه فى "البحر الرائق" ، حكاها الطحطاوى فى "شرح مراقى الفلاح" ؛ فقال الشيخ رحمه الله : روى حسن بن زياد عن الإمام : أنه مستحب ، فاختار هذا لا ما ذكروه .

المثال الثانى : إن الترجيع فى الأذان كرهه عامة الحنفية ، وذهب الشافعية إلى سنيته . قال : والمختار عندى الجواز من غير كراهة ، وإنما هو مرجوح لما قامت عنده دلائل من السنـــة والآثار وغيرها ، ليس هـذا موضع إحصاءها .

المثال الثالث : قوله تعالى : «أو لامستم النساء» الآية . اختار الحنفية أن الملامســـة بمعنى الجماع فيوجب الغسل ، وذهب الشافعية إلى أنها بمعنى المس واللمس فيوجب الوضوء عندهم ، وهو عند الحنفية غير ناقض للوضوء . فقال الشيخ رحمه الله : الشافعية وإن أخذوا منها اللمس ولكن قيدوه ببعض القيود والشرائط ولم يذروه مطلقاً ، فقيل : إن هذا إذا كان بشهوة ، وقيل : إذا كان بغير ظهر الكف أو بلا حائل إلى غير ذلك ، فلنا أيضاً أن نخصص مراده ببعض الماصدقات ، فقال رحمه الله : المختار عندى أنها بمعنى المباشرة الفاحشة ، فيجب الوضوء على كلا المذهبين ، فارتقى رحمه الله درجة

من مسلك الشافعية ونزل درجة من مختار الحنفية ، واختار حداً مشتركاً بين المذهبين ليرتفع الخلاف بين البين . وقال : ثم يندمج عندي في المباشرة الفاحشة الجماع والملامسة بالمباشرة الفاحشة ، فالمباشرة أعم منهما ، ففي الأولى الغسل ، وفي الثانية الوضوء ، وليس هذا اشتراكاً ، وإنما هو قريب من عموم المجاز ونوع مستقل ، قال به الشيخ . وسيمر بك بعض تفصيله في ضمن فوائد الشيخ رحمه الله فارتقبه .

٤ - ومنها : إنه إذا ثبت أمر في حديث وكان ظاهر الرواية مخالفاً له استمساكاً واحتجاجاً بحديث آخر ، فمن عادات عامة المشائخ الحنفية أنهم لا يجوزون العمل به في مرتبة من المراتب ، وكان الشيخ رحمه الله يجوز العمل به في مرتبة خلاف الأولى . ومن أمثلته : الترجيع في الأذان ، والجهر بالتأمين ، والإسرار به ، والفاتحة خلف الإمام للمؤتم في السرية ، ورفع اليدين عند الركوع والقيام عنه ، وما شاكلها ، كل ذلك كان جائزاً عنده ولكنه كان خلاف الأولى . قال الشيخ رحمه الله : كنت رأيت في "البدائع" أن رفع اليدين في غير التحريمة مكروه تحريماً — كما يشهد به سياقه من غير خفاء — فكان في قلبي منه شيء ، وكنت أتمنى أن أفوز بنقل من الأكابر خلافه حتى رأيت بعد خمس وعشرين حجة أن الإمام أبابكر الرازي الجصاص صرح في "أحكام القرآن" في ضمن بحث استطراداً من مسائل رؤية الهلال : أن الخلاف فيه في الأولوية ، فبرد غليل صدري وسكن جأشي . ولفظ الشيخ رحمه الله :

"حق تعالى جزاء خير دے دل ٹھنڈا کر دیا"

وقال : ثم رأيت في نقول أخر من الأكابر أن الخلاف في سائر المذكورات

فى الأولوية . فذكر الشيخ البدر العينى فى "مبانى الأخبار شرح معانى الآثار" (مخطوط) عن أبى عمر صاحب "التمهيد" : أن الاختلاف فى التشهد وفى الأذان والإقامة وعدد التكبير على الجنائز وعدد التكبير فى العيدين ورفع الأيدى عند الركوع والرفع فى الصلاة ونحو ذلك كله اختلاف فى مباح آه . قال الشيخ رحمه الله : ومثله ذكر الحافظ ابن تيمية فى "فتاواه" و"منهاج السنة" ، وابن القيم فى "الهدى" . وربما كان يقيم الشيخ المراتب فى شئ تشديداً وتخفيفاً ، فيحمل كل حديث على محمله . مثاله : مسألة العورة ، هل الركبة من العورة أو ليست منها ؟ والخلاف فيها مشهور . فقال الشيخ رحمه الله : الركبة عورة فى نظر الشريعة ولكنها أخف من الفخذ ، ثم الفخذ أشد منه ، فكشفه يكون أشنع وأقبح من كشف الركبة ، ثم ما فوق الفخذ أغلظ منه فيتحمل كشف الركبة فى بعض المواضع لا ما فوقها ، فهكذا كان يطبق فى الأخبار .

٥ـ ومنها : إذا وردت روايات عديدة من الإمام فى مسألة ولم يترجح أحد منها عنده بدليل قوى وبرهان بين فكان يوفق بين سائر روايات الإمام كما يوفقون فى روايات النصوص المتعارضة إذا لم يعلم بينها التقدم والتأخر ، نعم هناك مسالك ، قيل : بتقديم الترجيح ، وقيل : بتقديم الجمع ، كما فى "التحرير" للشيخ العارف المحقق ابن الهمام . ثم بالنسخ ، كما تقرر فى موضعه .

مثاله : قال الشيخ رحمه الله — فيما ألقاه علينا فى درس "المؤطا" لمالك ، وفيما أملاه على الطلبة فى درس "الجامع الترمذى" — : اختلفت الروايات عن أبى حنيفة رحمه الله فى وقت الظهر على أربعة وجوه :

الأول : ما ذكره أصحاب المتون من الفقه الحنفى : أن آخر وقت الظهر إلى

المثلين ، يعنى إلى أن يصير ظل كل شئ مثليه سوى فيئ الزوال ، وذهب صاحب " النهاية " شارح " الهداية " إلى: أنها ظاهر الرواية ، وتبعه ابن عابدين الشامى فى " رد المحتار" . وقال الشيخ رحمه الله : هذا غير صحيح ، إذ صرح صاحب " البدائع " بأن آخر وقت الظهر ليس فى ظاهر الرواية ، والعبرة " للبدائع "، وكيف يصح فإنى لم أجده فى " الجامع الصغير " و" الكبير "، ولا " الزيادات " و" المبسوط " من كتب محمد رحمه الله . هلا أنه قد صرح شمس الأئمة فى " مبسوطه " بأن محمد رحمه الله لم يذكره فى " مبسوطه " .

الثانى : إن وقت الظهر إلى المثل الأول فقط ، وبعده وقت العصر ، وعزى هذا فى عامة كتب الفقه الحنفى إلى حسن بن زياد عن أبى حنيفة ، وعزاه شمس الأئمة إلى محمد بن الحسن رحمه الله .

الثالث : إن وقت الظهر ينتهى بانقضاء المثل الأول ، ثم العصر من الثالث ، والمثل الثانى مهمل ، وعزوه إلى أسد بن عمرو .

الرابع : إن وقت الظهر إلى المثل الأول فصاعداً ما لم يصل إلى المثلين، ومتى وصل الظل إلى المثلين دخل وقت العصر ، حكاه الشيخ البدر العينى فى " شرح الصحيح "، وصححه الإمام الكرخى .

فقال الشيخ رحمه الله : قد تنقح عندى بعد تنقيب وبحث تام أن المثل الأول مختص بالظهر ، والثالث بالعصر ، والثانى مشترك بينهما (١) واشتراك الوقت ثبت عن بعض السلف أيضاً ، كما حكاه الطحاوى ، وكذا ثبت عن مالك والشافعى وأحمد رحمهم الله فى عدة صور ، وههنا تفصيل لا يسعه المقام ، وذكر نبذ منه فى "العرف الشذى" من شاء فليراجع (٢) .

---

(١) وهذا عين ما ذكره ابو عمر فى ''التمهيد'' ، وكأنه هو . منه .

(٢) قد استوفيت هذا البحث و امثاله من الابحاث فى ''معارف السنن'' فى شرح ''جامع الترمذى'' فليراجع . منه .

٦ ـ ومنها : إنه ربما كان يختار فى شرح الحديث شرح الشافعية أو ما يقرب منه ، ثم كان يجيبهم عن الحنفية ليكون الجواب أوكد وأقوى ، ويكون ألزم لهم ، وهذا بخلاف دأب عامة علماء الأحناف ، فإنهم يختارون لأجل التفريعات على شرحهم نقيض ما اختاروا فى شرحهم .

مثاله : قوله ﷺ فى زكاة الإبل والغنم : « ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع مخافة الصدقة » ، هل المراد من هذا الجمع فى الحديث الخلطة فى الجوار فقط ــ أى الإتحاد فى المسرح والمراح والمحلب وغيرها ــ أو المقصود خلطة الشيوع ؟ ــ أى الإشتراك فى الملك ــ فذهب الشافعى ومالك وأحمد إلى الأول ، وأبوحنيفة والبخارى وابن حزم إلى الثانى ، فخلطة الجوار مؤثرة فى الحكم عندهم لا عندنا .

فقال الشيخ رحمه الله : المراد عندى ههنا الأول ، لا كما قاله الشيخ ابن الهمام وغيره : أن المراد الثانى . والغرض من النهى : أنه أمر لغو لا يجديهم شيئاً ، فإنها غير مؤثرة لا أنها مؤثرة ، فمنعهم لذلك . قال الشيخ رحمه الله : ومما يدل على ذلك ويستأنس به قوله ﷺ بعده : « وما كان من خليطين فيتراجعان بالسوية » ، فالمراد من الخلطة فى هذه العبارة خلطة الشيوع ، ولعل الشارع غير أسلوب التعبير لهذه النكتة ، فعبر عن خلطة الجوار بقوله : « ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع » ، وعن خلطة الشيوع بقوله : « وما كان من الخليطين » ، وسماها خليطين ، ولعل هذا التعبير يرشدك إلى ما أردناه إن شاء الله تعالى .

وأيضاً من أمثلته : أنه اختلف الحجازيون والعراقيون فى حرم "المدينة" ، فأثبته الحجازيون وأنكره العراقيون ، ثم جعل الفريق الأول حكم حرم المدينة كحرم مكة سواء بسواء ، فقال الشيخ : قد نطقت الأحاديث بحرم

المدينة ، فإنكاره مما لا يليق ، ولكن أحكام الحرمين غير سواسية ، فلحرم مكة من الأحكام ما ليس لحرم المدينة ، والتفصيل لا يحتمله المقام .

٧- **منها** : إنه كان رحمه الله لا ينيط شرح الأحاديث المشكلة أو المتعارضة على لفظ واحد أو طريق واحـــد ، بل كان يتفقد جميع ألفاظه المروية ويتوخى فيها لفظ الشارع عليه السلام ، فإن الرواية بالمعنى شائعة فى الأحاديث ، وإنكارها مكابرة جلية ، وكم من أحاديث فى " صحيح البخارى " نجده لألفاظها روعة وبهاء وفصاحة تدل على أنها من كلمات من أوتى جوامع الكلم ، ومن هو أفصح من نطق بالضاد ، ثم هذه الأحاديث نفسها إذا رويت فى السنن لم يبق لها تلك الروعة ولا ذاك الجمال مثل ما كان لها حين رويت بلفظ " الصحيح " للبخارى أو مسلم ، كل ذلك لإتقان رواة " الصحيحين " . فكلما كان الراوى أتقن وأحفظ كانت الطلاوة فى لفظه أكثر ، فالأحاديث المشتركـــة فى الصحيحين والسنن تفاوتت بالفصاحة والنصاعة تفاوتاً بيناً ، وامتازت من بينها امتيازاً جلياً ، بل قد تتفاوت الفصاحة فى " صحيح البخارى " و" الصحيح " لمسلم ، وقد أرشدنا إلى ذلك شيخنا رحمه الله ، وكم من اختلافات المذاهب نشأت هكذا من إناطة كل فريق مذهبه على لفظ خاص وطريق خاص . فكان الشيخ رحمه الله يجمع سائر الألفاظ المختلفة من طرق شتى ، ثم كان يشرح الحديث شرحاً لطيفاً تنشرح منه الصدور وتطمئن به القلوب .

مثاله : قوله ﷺ : « من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح الخ » اختلف الأئمة والعلماء فى مراده الصحيح ، فذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد إلى أن هذا خاص بالمعذور كالنائم وغيره ، وأنه لا تفسد الصلاة بطلوع الشمس وغروبها فى أثناءها .. واضطربت فيه أقوال الحنفية من المحدثين والأصوليين ، كما هو مشهور فى الشروح لفقهائنا

الحنفية . فقال الشيخ رحمه الله : إن ما ذهب إليه الأئمة الثلاثة فمشكل ، فإنه لا قرينة على تخصيص الحديث بالمعذور قط ، وما أجاب به الحنفية فلا يشفي الغلة . والذي يظهر لي أن الحديث صدع بمسألة الجماعة لا الأوقات ، فليحمل على المسبوق . ويدل عليه أن الحديث روي بطرق في مواضع :

الأول : ما رواه مسلم في "صحيحه" عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة» ، وفي طريق آخر له بلفظ : «من أدرك ركعة من الصلاة مع الإمام الخ» ، فهذا صريح في أنه أراد به المسبوق .

الثاني : ما رواه أبو داؤد في "سننه" بلفظ : «من أدرك الركعة فقد أدرك الصلاة» ، وصححه ابن خزيمة .

الثالث : ما رواه النسائي في "سننه" بلفظ : «من أدرك ركعة من الجمعة الخ» .

الرابع : ما ذكر أولاً ، أخرجه الترمذي بذلك اللفظ . وقد اتفقوا في المواضع الثلاثة أنه في حق المسبوق ، فليكن في هذا الموضع الرابع أيضاً في حق المسبوق ، ثم كان الشيخ رحمه الله يبين تخصيص الصبح والعصر في ذلك الحديث ، وكانت لـه على ذلك المحمل شواهد وقرائن لا يتحمل المقام ذكرها (١) . وكان الحافظ ابن حجر رحمه الله استدل لذلك الحديث تأييداً لمرادهم بحديث عزرة بن تميم عن أبي هريرة مرفوعاً : «إذا صلى أحدكم ركعة من الصبح ثم طلعت الشمس فليصل إليها أخرى» ، وعزاه إلى النسائي في "الكبرى" . فقال الشيخ رحمه الله : قد سها الحافظ في بيان مراده ، وهذا حديث واحد قد روي بطرق كثيرة تزيد على عشرين طريقاً ، واختلفت

---

(١) ومن اراد استيفاء البحث فليراجع الى "معارف السنن" من تاليف الفقير الى الله تعالى البنوري يجد هناك ما يشفي الغليل، وبالله التوفيق . منه.

ألفاظه . فخمس منها فى "مسند أحمد"، وخمس منها فى " سنن الدارقطنى "، وثلاث فى " سنن البيهقى " ، وطريقان فى " صحيح ابن حبان " ، وطريقان فى " المستدرك " ، وطريق عند النسائى فى " الكبرى "، وطريق عند الطحاوى ، وطريق عند الترمذى ، وطريق فى " طبقات الحافظ شمس الدين الذهبى " . ومدار الكل على قتادة ، وتبين عندى بعد الفحص البالغ والتتبع الكثير : أن الحديث يتعلق بسنة الفجر ، فمن لم يدرك وقتها قبل طلوع الشمس فليصلها بعد طلوعها ، ولفظ عزرة بن تميم عن أبى هريرة لا يوفى المقصود ، وفيه شئ ولم يتنبه له الحافظ فى " الفتح " وتنبه له فى " تهذيب التهذيب " فى ترجمة : عزرة بن تميم (١) ، فقدح فى رواية تميم بتفرد قتادة عنه ، يريد أنه لم يخرجه بهذا اللفظ عن تميم غيره ولم يتابعه أحد ، فرواية قتادة عن تميم غير محفوظة عنده .

٨- ومنها : إنه كان يعتنى كثيراً بأن لا نضطر إلى تخصيص المورد من حكم النص وإن كان مدار الحكم على التعليل على سبيل الطرد والدوران ، لئلا يلغو حكم النص فى بادى الرأى ، وأما جمهور شراح الحديث من الحنفية لا يحتفلون به مهما كان التعليل على الدوران ، فكان الشيخ رحمه الله إذا تيسر له مرجح من رواية نادرة من الإمام أو قول من أحد من صاحبيه وإن كان غير معروف بينهم وغير متوارث فيهم يستمسك بـه فى مثل هذه المواضع وإن كان العمل به فى مرتبة من المراتب . مثاله : قوله تعالى : « فلا يقربوا المسجد الحرام » الآية . اختلف الأئمة فى دخول الكافر المسجد على ثلاثة أقوال : أجازه الإمام الشافعى فى غير المسجد الحرام ، ومنعه مالك فى المسجد الحرام وغيره سواء بسواء ، وجوزه الحنفية فيه ، وبالأولى فى غيره اعتباراً

---

(١) فى ص — ١٩١ ج ٧ المطبوع بدائرة المعارف بالهند . منه .

بالتعليل ، وإذ ليس فليس . فقال الشيخ رحمه الله تعالى : قال محمد رحمه الله في "السير الكبير" : لا يجوز دخول المشرك في المسجد الحرام ، فليستمسك ههنا بقول محمد رحمه الله ، فإنه ألصق بالقرآن ، وأقرب إلى مذهب مالك ، وأوفق بمذهب الشافعي .

٩ - ومنها : إنه كان لا يدير حكم الحديث على حال الرواة فقط ، فإن ذلك ليس له كثير اعتبار ، فأهل كل مذهب يهدمون حجج أهل المذهب الآخر بجرح الرواة ويحملون به الطرف المقابل ، وإن الحرب بينهم سجال ، ومن ذا الذي نجا من رواة الحديث عن جرح وتعديل ، فلو كان المدار على هذا القدر لأشكل على أهل كل مذهب إثبات مقصودهم ، ولضاق عليهم نطاق الاستدلال ، فلذا كان الشيخ رحمه الله لا يكثر في بحث الأدلة هذا القيل والقال ، وقد قال رحمه الله في أول رسالته "نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين" : ولم أكثر من نقل كلامهم في الرجال وما فيه من كثرة القيل والقال ، لأنه ليس له عندي كبير ميزان في الاعتدال ، وبعضهم يسكت عند الوفاق ويجرح عند الخلاف ، وإذا دعيت نزال ، وهذا صنيع لا يشفي ولا يكفي ، وإنما هو سبيل الجدال إلى آخر ما قال رحمه الله .

وقال في رسالته هذه (١) : والناس فيه (أي في عد مواضع الرفع) على آرائهم يتعللون في ما لم يأخذوا بـه ويناضلون عما أخذوا به ، والذي ينبغي أن يعتقد فيه أن ما صح سنده اصطلاحاً ثم وجد عمل بعض السلف به فهو صحيح في الواقع لا يسمع فيه إعلال وتعلل ، كما يفعله الناس من النقد عند الخلاف والمسامحة عند الوفاق آه .

وقال رحمه الله في "فصل الخطاب" : وبعضهم يأخذ الخصم بالاحتياط

(١) "نيل الفرقدين" ص - ١٣٥ و ١٣٦ .

ويحاسبه بالنقير والقطمير ، فإذا جاء وقت قضائه أخذ بالسخاوة والسماحة ، فيماكس فى الاقتضاء ويسامح فى القضاء ، وهو أيضاً سمج من المعاملة اهـ .
فلله دره ما أنفذ نظره ! وما أعدل فكره ! .

١٥ = ومنها : إن الشيخ رحمه الله كان يعتنى أشد اعتناء فى إفصاح منشأ ما وقع بين الأمة من الاختلاف البين فى الأعمال التى جرى التعامل بها متوارثاً فى الأمة على رؤس الأشهاد . مثاله : مسألة رفع اليدين وتعيين مواضعه ، ومسألة الوتر وتعيين ركعاته ، ومسألة صلاة الجمعة وشروط أدائها ، وماشاكلها . فهذه عبادات توارثت فى الأمة ، وشاع بها التعامل من عهد النبوة ثم وثم إلى عهدنا هذا ، فتقضى كل يوم أو كل أسبوع مرة أو مرات على أعين الناس وعلى رؤس الأشهاد ، فكيف اختلفت فيها الأمة سلفاً وخلفاً قديماً وحديثاً ، وكيف تشعبت آرائهم ، وكيف تطرق إليها الاحتمالات البعيدة مع كونها مشاهدة محسوسة عياناً ، ولم لم تنفصم عراها ؟ فقال إمام : رفع اليدين عند التحريمة فقط ، وقال آخر : وكذا عند الركوع وبعده . وقال إمام : الوتر ركعة وثلاث وخمس إلى تسع ، وقال آخر : ثلاث لا تزيد ولاتنقص . قال إمام : الجمعة لاتصح إلا فى المصر ، وقال آخر : تصح سواء كانت فى الأمصار أو القرى سواء بسواء . فكان الشيخ رحمه الله يعتنى فى انفصام هذا الاختلاف المدهش ويقربه إلى أذهان العامة حتى يعرف ويعلم كل أحد أنه لم يكن بد من هذه الاختلافات ولم يكن محيص عنها ، وأن أصحاب المذاهب معذورون فيها ، وهذا أمرمهم جداً ، وكيف لا ؟ فلو لم يكن عنها مخلص لأفضى إلى سوء الظن بالتعامل والتوارث ، وإنه أقوى حجة فى الباب ، فانهدام ما بنى عليه أساس الملة ضرر عظيم فى الدين ،

فوضع لذلك رسائله حتى بين الصبح لذى عينين ، وحصحص الحق لكل هين ولين ، وانجاب ما حدث فى البين ، ولكن الأسف كل الأسف أنه لم يتم ما أراده فى الجمعة ، فحال قضاء الله دون الأمانى ، فتوفى الشيخ وبقيت الرسالة بتراء ناقصة . ع :

وكم حسرات فى بطون المقابر

فهذه عشر خصائص للشيخ رحمه الله تنقحت عندى بارتجال واستعجال من غير تنقيب رسائله والمراجعة إلى أماليه ومذكراته ؛ فخذها تلك عشرة كاملة .

فهذا ما تيسر لى من إحصاء آدابه وعاداته فى شرح الحديث بالإجمال ، مستفيداً لها من دروسه ومستنبطاً من رسائله،لم يصدع بجميعها الشيخ رحمه الله صراحة وإنما أنا تنبهت لها ولله الحمد . ولم أرد فيها إنهاء البيان ، علا أنى كتبت هذه السطور وأنا على خجل مما عرانى محل من مزايا الحديث ، وقد مضت أعوام على ما كنت تمتعت أياماً من فيوض الشيخ رحمه الله ، فخلت برهة ولم أوفق بعد إلى شغل علم الحديث ، فمثلى كمثل رجل صفر الراحة خاوى الوطاب ليس عنده قوت يومه ولا كفاف وقته وقد هم أن يبسط للناس مأدبة جفلى ويهيئ لهم من أطعمة منوعة ما كان منها ألذ وأحلى . فرحم الله امرءاً عذرنى ولم يعذلنى . وما أغرانى على هـــذا إلا الحرص بإبراز بعض جواهر الشيخ رحمه الله إلى العالم الإسلامى ليعرفه من لم يعرفه ويقدره من لم يقدره ، فإن قصرت فى إفصاح المرام فمن ضعف وفتور ساقه العجز إلى ، وإن كفيت قدراً وأديت أمراً فذلك من فضل الله على . وكيف ما كان فليس أقل من تكون إيماضات إلى مآثر الشيخ رحمـــه الله ، ورواعد وبروقاً تنبئك عن سحب هطالة ووبل مدرار ، وقد قيل فى المثل : "الجحش لما بذك الأعيار" وناهيك بها أيها المتبصر الخبير دليلاً وبرهاناً على نباهة قدره وجلالة

أمره ، وإنه كان إمام الأمة الحاضرة بعصره ، ومع هذا فأرجأت التفصيل والبسط إلى فرصة أخرى إن ساعدتنى الهمة والحال والله الموفق والمعين(١) .

تنبيــــه :- اعلم أن تلك المحامل للأحاديث الممثلة بها وإن جنح إليها البعض فى بعض منها فإنما هو من إبداء احتمال وتصوير مقال من غير برهان ودليل أو استناد إلى أصل جليل . وأما الشيخ رحمه الله فابتكر أصولاً وآداباً منه ثم فرع عليها ما رآها انفصاماً لعرى الاختلافات وتضييقاً لساحة النزاعات، فأسند كل شئ إلى أصله وشكلاً إلى شكله . علا أن أكثرها مما تفرد بـــه الشيخ رحمه الله وسبق إليه ، وكثيراً ما رأينا أن الشيخ رحمه الله اختار مسلكاً من عنده ثم نجده فى بعض كتب القوم مالم يطبع ولم يصل إلى مطالعة الشيخ رحمه الله فخلناه من توارد الخواطر ، وحاشاه أن ينتحل من كلام غيره ، فقد جربنا تثبته واحتياطه وورعه تجربةً قاطعةً ، ولا يقوم جهل أحد حجة علينا وعلى علمنا ، وكم من متواردات للشيخ رحمه الله ، فكان يقول : ظننت كذا وكذا ثم رأيته من فلان وفلان ، علا أن مجرد التعبيرات الرائقة المؤثرة مما يرفع الكلام منزلة سامية ويلبسه أبهة و رونقاً ، ويخلف فى النفوس الزكية أثراً جميلاً حميداً ، وقد رأيناه فى ذلك سباق غايات قاضيـــة ، ودونك شيئاً منها :

قال الحنفية : "لايجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد" ، وكان فى التعبير نوع جفاء وإخلال ، فقال الشيخ رحمه الله : وليعبر بأنه يجوز الزيادة بخبر الواحد على كتاب الله ، ولكن لا فى مرتبة الركنية والشرطية بل فى مرتبة الوجوب ، أى لا فى مرتبة القطعية بل الظنية . فمراده أنه إذا ثبت أصل شئ

(١) وقد وفقت والحمد لله فى ''معارف السنن'' الى قدر غير قليل من افكاره الصائبة، فمن اراد استيفاء امثال هذه المسائل فليراجع ''معارف السنن'' ، وقد تم طبع الى الان منها طبع اربعة اجزاء . منه .

بدليل قطعي فليثبت شرائطه وأركانه أيضاً بقاطع ، نعم إذا ثبت أصل شئ بالظني فإثبات أركانه وشرائطه بالظني صحيح عندنا ، فافهمه والمقام لا يتسع التفصيل .

قال الحنفية : " إن القدر القليل من الأشربة والأنبذة ما عدا الطلاء والسكر والنقيع والخمر يحل على قصد التقوى على العبادة ويحرم على قصد التلهي " . ومرادهم من القليل الغير المسكر ، فغير الشيخ تعبيرهم وقال : " إنه يحرم ما عدا الأربعـــة أيضاً إلا القدر القليل منها لغرض التقوى على العبادة " ، فتأمل مناط التعبير ومحط الفائدة بينهما ، أين تعبيرهم من تعبير الشيخ ؟ وإن البون بينهما لبعيد ، فتعبيرهم مشعر بأن الأصل في القدر القليل من غير الأربعة هو الإباحة ، وإن الحرمة بعارض التلهي ، وتعبيره يشعر بأن الأصل فيه أيضاً الحرمة ، وإنما الإباحة بعارض التقوى على العبادة ، فإذن أضحى التقوى مثل التداوي ، فليدار الكلام فيه ، فهل يجوز التداوي بالمحرم ؟ فلو استقريت وجدت أكثر الأحاديث فيه مؤيدة للإمام أبي حنيفة رحمه الله إن شاء الله ، فأين تعبيرهم من تعبيره ؟ وأنى سهيل والسها ؟ نعم وإن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحراً . ثم إنه ليس مدار تلك الخصائص على تلك الأمثلة ، بل إني أوردتها حسب ما تسنى لي ارتجالاً مما كنت شنفت به أذني عنه رحمه الله . بيد أن تلك الخصائص الرائعة إنما الشيخ أبو عذرتها ، وهو الذي طبق عليها الغوامض من معاني الأخبار ، وجعلها مناطاً ومداراً لشرح جملة من الآثار بعد ما قلب فيها أفكاره اللطيفة للاكتناه بحقائقها وأغراضها دون ظواهر ألفاظها ، فعين محامل صحيحة صريحة من غير تكلف وتأول ، ولا إخراج لها عن صرافة اللغة أو العرف الشائع ، بل لأجل إبقائها على سذاجة فطرية وحلاوة ذوقيـــة يطرب لها العقول ويهتز لها الفحول ، فاعرف قدرها في جذر قلبك وجذل فؤادك ، وإنما هي قطرة من بحاره

الزاخرة ونفحة من شميم أزهاره الناضرة ، فلا أحد يباريه فى هذا المضمار ، ولا يجاريـــه فى هذا المجال ، هذا وصلى الله تعالى على سيد الكونين نبى الحرمين رسول الثقلين سيدنا محمد وآله وصحبه وبارك وسلم إلى تكور الملوين واختلاف الجديدين .

تذييل وتكميل

واقعـــة من مآثر الشيخ رحمه الله ، ناسب سردها بالإجمال فى هذا الباب.

كان الشيخ رحمه الله يؤثر الخمول ، ويجتهد أن لا يشتهر صيته ، وله فى ذلك وقائع بديعة غريبة ، فكانت جواهره لم تتلألأ بعد فى بدء عمره وشرخ شبابه ، فاتفق أن انطلق إلى بعض نواحى " دهلى " ، وكان هناك رجل يدعى العلم ، بل كان أذاع : «أنى حافظ عصر فى الحديث» ، وكان لا يقلـــد أحداً من الأئمة ، وكان يشنع كثيراً على متبعى الأئمة المجتهدين ، وكان وقاحاً جريئاً ، طويل اللسان ، ينال من الأئمة ، ولا سيما كان يقع فى شأن الإمام أبى حنيفة ، فكان أعلن فى تلك الأيام للمناظرة مع الحنفية ، فصادف قدومه تلك الأيام ، فذهب إليه للمناظرة ، فقام الشيخ رحمـــه الله فى حفلة غاصة بالعلماء ، وأعلن على رؤس الأشهاد وقال : أيها المدعى سل منى ما بدا لك من الفقه والحديث وغيرهما ؟ وكل ما سأجيبك به يكون من اجتهادى، فأنا مجتهد هذا العصر (١) ، ولكن من عجيب الإتفاق أن وافق اجتهادى فى جميع مسائل الشريعة الإسلامية الإمام أبا حنيفة رحمه الله ، فسل ما شئت ترى بديعاً إن شاء الله ؟ فأطرق رأسه مفحماً واجماً ، فبهت ودهش ولم يستطع أن يلوك كلمة . فقال الشيخ : بلغنى أنك تقعقع بالشنان: "أنى حافظ الحديث"،

(١) ان الشيخ لم يكن مدعياً للاجتهاد ، بل قال ذلك تبكيتا له والزاماً كما سيأتى عليك بيانه . منه .

ويحك ، وهل رأيت حافظاً ؟ وهل تستطيع أن تسبر قدر الحافظ ؟ فهذا أصح الكتب بعد كتاب الله " الصحيح" للبخارى ، فكم لك فيه من أحاديث وعيتها ؟ وكم لك علوماً فيه دريتها وتليتها ؟ فاقرأ أنت علينا من " الصحيح" عن ظهر قلبك ، أو أقرأ أنا ؟ فقال ذلك المدعى : اقرأ أنت ؟ فقال الشيخ رحمه الله : استمع أيها المدعى ، فأخذ الشيخ رحمه الله يقرأ من بدء "الصحيح" عن ظهر قلبه كما هو بين عينيه حتى قرأ منه أوراقاً متسقة منتظمة ، فقال : هل يكفيك أو أزيدك ؟ فحير العقول وأدهش الفحول . وقال : سبحان الله رجل يدعى حفظ الحديث وفقه الدين وطال لسانه فى الطعن على أئمة الدين وهذه بضاعته بين أيديكم وأيدى سائر المسلمين ، فأخزاه الله على رؤس الحاضرين ، فولى هارباً من الحفلة ، واختفى وكواه فوق النواظر ، فكفى وشفى . فهكذا نجى الله المسلمين من شره ببركة هذا الحبر الوحيد فى العالمين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين . واشتهر بهذه الواقعة صيته من بعد ، فكانت هذه أول مناظرة له ، وكم هكذا وقعت له وقائع كثيرة هى له منن على رقاب الأمة الإسلامية .

واقعة أخرى : تشتمل على نماذج من علوم صدره رحمه الله عند قدوم الشيخ العلامة السيد رشيد رضا المصرى بـ " دار العلوم الديوبندية " .

قدم العلامة الفاضل السيد رشيد رضا مدير مجلة " المنار" وصاحب " التفسير" إلى " دار العلوم الديوبندية " سنة ١٣٣٠ الهجرية ، فانعقدت عند قدومه حفلة ترحيب ، فسأل هذا الفاضل من أحد أساتذة الجامعة الديوبندية قبيل انعقاد الحفلة عن طريقة درس الحديث بها ؟ فأجابه : إذا فرغ القارئ من قراءة الحديث يبين الشيخ ما يتعلق به من المباحث العلمية والنكات الرائعة ، فإن كان الحديث متعلقاً بالأحكام الفروعية الفقهية يبين الشيخ مذاهب الأئمة

وأدلتهم ، فإن كان مذهب الإمام الكوفى مخالفاً من الحديث فى بادى الرأى يوفق مذهبه به ويبين تطبيق المذهب بالحديث ، فاستبعد ذلك هذا الفاضل وتعجب منه وقال : وهل ذلك فى كل حديث ؟ فقال : نعم ، فاستنكر واستشكل هذا الصنيع وقال: هل الحديث حنفى ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ وهل هذا إلا عصبية ما لها من سلطان ؟ فانعقدت حفلة ، وكان الشيخ رحمه الله أراد أن يشهدها وحكيت له فى أثناء طريقه هذه الحكاية ، ولعل الشيخ أراد إلقاء شئ مما زوره فى نفسه ملائماً لإكرام الضيف ، ولكن تبدل دأبه وأراد أن يلقى كلمة تكشف له الستر عن تلك الطريقة السنية الفائقة ، فأخذ الشيخ فى البيان بعربية ناصعة فصيحة ، فكان كالبحر الذخار أو الغيث المدرار ، حتى وقع ذلك فى قلب الشيخ رشيد رضا ، وأريح ما اختلج فى صدره ، حتى قام واعترف بمآثر الشيخ رحمه الله وتأثره من علومه وفضائله ، ومدحه مدحاً سنياً ، وأثنى عليه ثناءً وافياً ، وأقر بأن تلك الطريقة طريقة حسنة مثلى . وقال فى مقالة طويلة ألقاها : لو لم أر هذه الجامعة العلمية ومثل هؤلاء الأحبار والأعلام لرجعت من الهند حزيناً ، ولما رجع إلى مصر صدع بكل ذلك فى جريدتــه " المنار " ، ومما قال فى جريدة " المنار " : علا أننى رأيت فى " مدرسة ديوبند " التى تلقب بـ" أزهر الهند " نهضة دينية علمية جديدة ، أرجو أن يكون لها نفع عظيم ، وقال : ما قرت عينى بشئ فى الهند كما قرت برؤية " مدرسة ديوبند " ، ولاسرت بشئ هناك كسرورها بما لاح لها من الغيرة والإخلاص فى علماء هذه المدرسة ، وكان كثير من إخوانى المسلمين فى بلاد الهند المختلفــة يذكرون لى هذه المدرسة ، ويصف رجال الدنيا منهم علماءها بالجمود والتعصب ، ويظهرون رغبتهم فى إصلاح تعميم نفعها ، وقد رأيتهم ــ ولله الحمد ــ فوق جميع ما سمعت عنهم من ثناء وانتقاد ، إلى آخر ما قال .

فدونك الآن ملتقطات تلك المقالة المرتجلة الرائقة وتلك الكلمة الرائعة التى ألقاها الشيخ رحمه الله فى تلك الحفلة ، وهى تحتوى على جواهر غالية من نفحة : " هدى الشيخ الفقيه العارف القطب الكنكوهى رحمه الله " ، ورشحة من " مآثر الحجة العارف مولانا القاسم النانوتوى رحمه الله " ، وفوحة من "مناقب الشيخ الإمام الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله" و"تذكرة أولاده" . وفيها إيضاح : " تنقيح المناط " و" تخريج المناط " و" تحقيق المناط " مع الشواهد والأمثلة ، بتنقيح وتحقيق أنيق ، وفيها : البحث على حديث القلتين ، والكشف عن مسألة الفاتحة خلف الإمام ، وحل العقدة من مسألة رفع اليدين ، والتأمين ، وصلاة الكسوف ، وبيان أصول الأئمة الأربعة ، وطرق استدلالاتهم ، وبيان أن الحق فى موضع الاجتهاد واحد أم متعدد ، وغيرها من الإشارات بإجمال موضح واختصار معجب موعب .

قال الشيخ رحمه الله :

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد :
يقدم الخويدم فى الحضرة السامية تحية الإسلام حياكم الله تعالى ، إنا آنسنا منكم مخائل الكرم والاعتناء بحالنا ، وأحسسنا بنهضة إسلامية عطفت عليكم وعلينا ، وأنا أحوج إليكم منكم إلينا ، هؤلاء أساتذتى وأكابرى وذخائرى عند الله فى يومى وغدى ، أمرونى بأن أمثل لكم شكراً على إسداء الخير ، وتشريفكم إيانا بالقدوم المبارك ، أحسن الله إليكم وإلينا ، ورفع درجاتكم فى الدين والدنيا والآخرة ، آمين وبه نستعين .

مولانا ! إن حديثنا حديث ذوشجون ، والشئ بالشئ يذكر ، إن بلادنا هذه على شقة بعيدة ومسافة شاسعة من بلاد الإسلام ،

كـ" العراق " و" الشام " و" مصر " ، فكانت شعائر الإسلام على وهى ومنائر العلم على خفاء إلا ما شاء الله وقليل ما هم ، وإن عصابتنا هذه عصابة على طريقة قديمة ليست بحديثة ، إسنادنا فى الدين متصل بالصدر الكبير ، والبدر المنير ، والإمام الشهير ، الشيخ الأجل ولى الله بن عبد الرحيم الفاروقى الدهلوى ، وحال الشيخ أظهر من أن يذكر ، فقد شرقت تصانيفه وغربت ، لكن بعض أحوال الشيخ يحتاج إلى أخبار شفاهية وواقعات تلقيتها من مشائخنا .

كان من أمر الشيخ رحمه الله أنه أتقن العلوم الدينية ومبادئها أولاً على والده العلامة الشيخ الهمام عبد الرحيم ، ثم رحل إلى الحرمين زادهما الله شرفاً وتكريماً واستفاد من علمائها وفقهائها ، ولازم الشيخ أبا طاهر الكردى فى الحديث ، واجتهد فيه حتى صار الطرد والعكس فى الباب ، وكان الشيخ أبو طاهر يقول : تلقن الألفاظ منا وتلقنا المعنى منه ، يريد بذلك تبيين ملاحظ الحديث وتعيين مراد الشارع ، ثم رجع الشيخ ولى الله إلى بلاده واشتغل بإصلاح ما أفسد الناس من سنة النبى الكريم ﷺ ، وكان الله أودع فى صدره نوراً ينظر به عواقب الأمور ، فتفرس أنه ستقوم الحرب بين الحق والباطل ، فاستعد رحمه الله للدفاع عن الدين والذب عنه ، فمما أعد لذلك أن ترجم " القرآن العزيز " باللسان الفارسية سماه : " فتح الرحمان " ، جرده عن الإسرائيليات بأسرها ، أراد بذلك تمهيد التوحيد ، ثم شرح " المؤطأ " لمالك

رحمه الله) وسماه : " المسوى " على طريقة فقهاء الحديث مع تحقيق المناط وتنقيحه وتخريجه ، أريد بذلك ما اصطلح عليه علماء الأصول .

فتحقيق المناط : أن يصدر حكم من الشارع فى صورة جزئية ثم يثبت ويحقق ذلك فى سائر الجزئيات من نوع تلك الصورة ، مثاله : تقويم جزاء الصيد ، فتعرف القيمة فى جزئى جزئى هو تحقيق المناط ، وليس ذلك بقياس ، فلذا يشترك فيه الخاص والعام ولا يحتاج إلى الاجتهاد .

وتنقيح المناط : أن يصدر حكم من الشارع فى صورة قد اجتمعت هناك أمور ، واتفقت بعض تلك الأمور مناط ذلك الحكم وبعضها لا دخل لها فيه ، فتعرف الأمر الذى هو العلة تنقيح المناط . مثاله ما فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: « أتى رجل النبى ﷺ فقال : هلكت ! قال: ما شأنك ؟ قال : وقعت على إمراتى فى رمضان ، قال : فهل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال: لا ، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا. » الحديث . فنقح أبو حنيفة ومالك مناط ذلك الحكم وجوب الكفارة كون ذلك الفعل مفطراً ، كان جماعاً كما فى هذه الصورة أو أكلاً أو شرباً بعد أن يكون عمداً ، فكونه جماعاً فى هذه الصورة أمر اتفاقى كسائر الإتفاقيات . وذهب أحمد والشافعى إلى أن المناط هو كونه جماعاً ، فلا يعدى الحكم إلى الأكل والشرب . واحتج بحديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ ، « من أفطر يوماً من رمضان فى غير رخصة رخصها الله لم يقض

عنه صيام الدهر » حمله على الأكل والشرب عامداً ، وقال : لم يقض عنه صيام الدهر .

وتخريج المناط : أن يصدر حكم من الشارع فى صورة تجتمع هناك أمور يصلح كل واحد منها للعلية ، فيرجح المجتهد أمراً من بين تلك الأمور للعلية ويجعله مناطاً . مثاله : حديث النهى عن الربا فى الأشياء الستة ، اجتمع هناك أمور : القدر ، والجنسية ، والطعم ، والثمنية ، والاقتيات ، والادخار . فذهب أبو حنيفة إلى : أن مناط الحكم هو الوصف الأول ، والشافعى إلى : أنه الثانى ، ومالك إلى : أنه الثالث ، على ما أدى إليه اجتهادهم . فالفرق بين تحقيق المناط وتخريجه أن فى الأول اجتمعت أمور لا دخل لها مع المناط ، فنقح المجتهد المناط ، وفى الثانى اجتمعت أمور كل منها صالح لأن يكون مناطاً ، فرجح المجتهد أحدها لأن يكون مناطاً . وتنقيح المناط وتخريجه وظيفة المجتهد يزاحم فيه بعضهم بعضاً .

ومن الأمثلة فيه أيضاً حديث : « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » . فذهب أكثر الأئمة إلى ركنية صيغة التكبير والتسليم ، وخرج أبو حنيفة المناط فيه كون الأول ذكراً مشعراً بالتعظيم وكون الثانى خروجاً بصنع المصلى وقال بفرضية هذين ، لكن ثبتت مواظبة النبى ﷺ على صيغة التكبير وصيغة التسليم ، فليكونا واجبين . وقد التزم الشيخ ابن الهمام وجوب صيغة التكبير ، والمشهور أنه سنة ، وقد تحقق فيهما الذكر المشعر بالتعظيم والخروج بصنع المصلى ، كتحقق الكلى فى الجزئى ، فليكونا فرضين ، وعلى هذا القياس أمثلة كثيرة ، فهذا ما

راعاه الشيخ ولى الله فى شرح "المؤطأ"، واختار فيه أيضاً فقهاً جامعاً ، وقد حقق الشيخ أيضاً فى كتابه " الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف" و" عقد الجيد فى مسائل الإجتهاد والتقليد" : أن الحق فى موضع الاجتهاد متعدد ، وحكاه عن الأئمة الأربعة وارتضاه ، وأريد بموضع الاجتهاد أن لا يكون هناك كتاب ولا سنة متواترة ، فالحق هناك متعدد ، وإذا كان هناك قاطع فليس بموضع اجتهاد ، والحق هناك واحد وهو الموافق لذلك القاطع ، فمن وافقه وافق الحق ، ومن خالفه خالف الحق .

وصنف الشيخ رحمه الله فى حكم التشريع والعقائد الحقة تصانيف صارت لكل آت نبراساً ومقياساً ، منها : "حجة الله البالغة" و"البدور البازغة" و" التفهيمات الإلهية" و" الخير الكثير" وغير ذلك ، ثم تبعه على ذلك أولاده وأحفاده ، فمن أولاده : الشيخ الأجل والصدر الأكمل الشيخ عبد العزيز ، ثم الشيخ رفيع الدين ، ثم الشيخ عبد القادر. ثم خلف الشيخ عبدالعزيز حفيده مفيد العصر ومسنده المشتهر فى الآفاق الشيخ محمد اسحاق ، وابن أخيه محيى السنة العلامة الجليل الشيخ محمد اسماعيل ، وكان الشيخ عبد العزيز يتلو : «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل و اسحاق» نفع الله بهما هذه البلاد. دارس الشيخ محمد اسحاق حديث النبى ﷺ فصار رحلة الأقطار . وصنف الشيخ محمد اسمعيل كتباً فى الفرق بين السنة والبدعة الظلماء ، فأحيى السنة حين كانت أميتت، ومات شهيداً رحمه الله . وقد تلمذ على الشيخ محمد اسحاق شيخ مشائخنا الشيخ عبدالغنى ، صار مداراً لرواية فى عصره ، وارتحل آخراً إلى

المدينة الطيبة وصار سند تلك البلاد وكثر الأخذ عنه هناك(١) ، وتلمذ على الشيخ عبدالغنى شمس الإسلام والمسلمين العارف الحافظ المحقق الشيخ محمد قاسم النانوتوى ، مؤسس هذه المدرسة العالية وبانيها ، والفقيه الحافظ المجتهد الولى الشيخ رشيد أحمد . صنَّف الشيخ محمد قاسم كتباً فى المعارف والحقائق ، وكتباً فى الرد على المخالفين من الماديين والدهريين ، فنفع الله به كثيراً ، وقد كنت أنشأت هذه الأشعار فى منقبته :

قفا يا صاحبى على الـديار * فمن دأب الشجى هو ازديار(٢)

وكثرت الفتيا ، وازدحمت المسائل على الشيخ رشيد أحمد حين التبس الحق بالباطل ، فأجاب فيها بالصواب ، كان فقيهاً مجتهداً ، وأخذنا ذلك إماماً فى الأصول ، وهذا إماماً فى الفروع . وتنقح لنا منهما علم منقح مبيض .

ثم لما استولت الأجانب على هذه البلاد وقامت الحرب بين الحق والباطل أسس الشيخ محمد قاسم هذه المدرسة العالية ، فنفع الله بها كثيراً جزاه الله خير الجزاء .

وغاية المدرسة درس الحديث وفقه الحديث ، وكان يرى أن المبادئ ضرورية ، والضرورى يتقدر بقدر الضرورة ، حتى إن الشيخ رشيد أحمد حظر الفلسفة وحجر عنها فى بعض السنين

(١) سبحان الله ، ما ابدع حكمته فى بريته ، جاء الشيخ ولى الله بعلوم الحديث الى الهند ثم ذهب بها من الهند الى المدينة الطيبة الشيخ عبد الغنى! فاعتبر ثم اعتبر ، فان لله حكماً وصالح خفية دقيقة غامضة فى خلقه وامره يخلق ما يشاء ويختار . منه .

(٢) هذا مطلع قصيدة طويلة للشيخ رحمه الله فى مناقبه . منه .

فى هذه المدرسة . فهذا إسنادنا وطريقة مشائخنا فى الحديث وفقه الحديث طريقة معتدلة مثلى يتوسطون بين الأطراف . أزيد بذلك أن للأئمة الأربعة أصولاً أربعة أكثرية ، وذلك أن الإمام مالكاً يأتسى بعمل أهل المدينة ، بل قد يرجحه على الحديث المرفوع . والشافعى يأخذ بأصح ما فى الباب . وأحمد يأخذ بالأصح والصحيح والحسن والضعيف إذا كان ضعفه يسيراً ، ويجوز هذا وذلك ، وعلى هذا وضع "مسنده" ، وأبو حنيفة يأخذ بهذه الأقسام وينزل الأحاديث على محمل ، فلذا كثرت التأويلات عند الحنفيــة ، وكثرت الجروح على الرواة عند الشافعية ، والشافعى رحمه الله أول من أبطل الاحتجاج بالمرسل إلا إذا اعتضد ، وإمام ذلك الصنعة الإمام الهمام البخارى رحمه الله قد أخذ أصل مالك والشافعى رحمهما الله وركب بينهما ، فيأتى بأصح ما فى الباب ، ويراعى مساعدة عمل السلف ، فلذا لم يأت بحديث يعارض حديثاً فى كتابه ، ولم يخرج فى الكسوف إلا حديث الركوعين ، مشياً منه على أصله . واعتمد مسلم رحمه الله على ثقة الرواة ، فأخرج حديث ثلاث ركوعات وحديث أربع ركوعات ، بل حديث خمس ركوعات أيضاً موقوفاً على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، فالبخارى قد انتقى واتبع مسلم القاعدة.

فمشائخنا يتوسطون فى مثل هذا ، لا يأخذون بالتشدد ولا بالتساهل ، ويوجهون الأحاديث المتعارضة بتوجيهات يكاد يقبلها من يسمعها . مثاله : حديث القلتين ، فقد رواه يزيد بن هارون ، وكامل بن طلحة ، وهدبة بن خالد ، وإبراهيم بن الحجاج ، عن حماد بن سلمة ، وهؤلاء حفاظ أثبات ورواة ثقات ، بلفظ :

« إذا بلغ الماء القلتين أو ثلاثاً لم يحمل الخبث » ، فيقال فيه : إن هذا ليس بتحديد شرعى ، فقد قال : " القلتين أو ثلاثاً " بالتنويع ، فهو تقريب وإحالة على خلوص أثر النجاسة من جانب إلى جانب ، وذلك أصل مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ، صرح بــه الشيخ ابن الهمام والشيخ ابن نجيم ، وقد سلمت الأحاديث المتعارضة لحديث القلتين ، كحديث النهى عن البول فى الماء الراكد ، وحديث النهى عن إدخال اليد فى الإناء إذا استيقظ ، وحديث ولوغ الكلب فى الإناء . ومثاله أيضاً أحاديث القراءة خلف الإمام ، فإنهم لما استدلوا على ترك القراءة خلف الإمام فى الصلاة بقولـه تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا لـه وأنصتوا لعلكم ترحمون » وبقوله ﷺ : « وإذا قرأ فانصتوا » وبحديث : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة » أَوّلوا حديث : « لا تفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها » ، وذلك أنه لم يصح فى شأن نزول الآية شئ من الروايات ، فالعبرة لعموم اللفظ ، وأيضا فقد روى البيهقى فى كتاب القراءة عن عن الإمام أحمد أنه أجمع العلماء على أن هذه الآية فى القراءة فى الصلاة . وحديث : « إذا قرأ فانصتوا » حديث صحيح ، صححه أحمد بن حنبل ، ثم صاحبــه أبوبكر الأثرم ، ثم مسلم فى باب التشهد من حديث أبى موسى الأشعرى ، وأحال به على حديث أبى هريرة ، ثم صححه ابن خزيمة ، والحافظ أبو جعفر ابن جرير الطبرى ، والحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، والحافظ ابن حزم الأندلسى الظاهرى ، ثم الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، ثم خاتم الحفاظ الحافظ ابن حجر العسقلانى فى " الفتح " ، وهذا

من حيث الإسناد . وأما من عمل السلف والأئمة فقد عمل بـه جماعات من الصحابة ، ومالك ، وأحمد ، وأبو حنيفة . والحديث إذا كان رواته ثقات ثم ساعده العمل عمل السلف فهو صحيح بلا ريب ، لا يقدح فيه قدح ولا يؤثر فيه جرح ، وحديث : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة » حكاه الشيخ ابن الهمام عن "مسند أحمد بن منيع" وصححه ، فإن سنده على شرط الشيخين ، ولم نقف إلى الآن على علة فيه . وإسناده : أخبرنا اسحاق بن يوسف الأزرق ، قال حدثنا سفيان وشريك عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ الحديث ، وقد ساعده الموقوف عند الترمذى ، والمرسل عند آخرين ، فإذن هو صحيح ، فوجه شيخ مشائخنا الشيخ رشيد أحمد حديث عبادة من طريق محمد بن اسحاق ، وسياقه : « لعلكم تقرأون خلف إمامكم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله نهذه هذا ، قال : لا تفعلوا » الحديث . فقال : هذا دليل الإباحة لا دليل الوجوب ، وإنهم كانوا يقرأون بغير أمر منه ﷺ ، ولذا سأل بقوله : « لعلكم تقرأون خلف إمامكم ؟ » ، فلما قالوا : نعم ، قال : « فلا تفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنها سورة متعينة من بين سائر القرآن لا غيرها من السور » ، فعلل النبى ﷺ إباحتها خلف الإمام بكونها متعينة من بين السور لاصلاة بدونه ، وظهر عدم كون الصلاة بدونها فى حق الإمام والمنفرد ، وأثر ذلك فى الإباحة فى حق المقتدى ، ومسألـة الإباحة والكراهة مختلف فيها عند الحنفية ، وإن اتفقوا على عدم الوجوب وقالو فى مسألة رفع اليدين وجهر آمين : أنه

قد صح الرفع والجهر عن النبي ﷺ وعن الصحابة ، وقد صح ترك الرفع بإسناد صحيح عند أبي داؤد ، والإخفاء وقد صح ترك الرفع عن أمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين علي رضي الله عنهما ، وكذا صح الإخفاء بآمين عن جماعة من الصحابة والسلف الصالح ، فليكن كلا الأمرين سنة ، وإنما يبقى الشأن في الترجيح ، هذا والله الموفق للسداد في المبدأ والمعاد .

ثم تلمذ على الشيخ محمد قاسم شيخنا العدل الحجة مسند وقته الشيخ محمود حسن متع الله المسلمين بطول بقائه ، وهو شيخ المدرسة الآن ، وعليه المدار في الإسناد في هذه البلاد ، وهو على طريقة مشائخه ساعده التوفيق الإلهي في التوفيق بين المتعارضات وحل المشكلات . مثاله ما قال لي مرة : إن تعدد الركوع في الكسوف قد ثبت عن النبي ﷺ لأمر اختص به ، ولكن أرشد الأمة إلى وحدة الركوع فقال : « صلوا كأحدث صلاة صليتموها من المكتوبة » فراجعته وقلت : إن السادة الشافعية يحملون التشبيه على عدد الركعتين لا على وحدة الركوع ، فقال : إن هذا هو جعل البديهي نظرياً ، فإنه إذا كان النبي ﷺ قد صلى الكسوف بتعدد الركوع بنفسه على أعين الناس ورؤس الأشهاد وكان يشرع تعدد الركوع للأمة فلم ترك الإحالة على ما شاهدوه وعدل إلى التشبيه بالصبح ؟ وما ذلك إلا أن التعدد كان لعارض ، وأرشد الأمة إلى المعروف في الصلاة ، والله الموفق والمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين " .

انتهت تلك المقالة البليغة الجامعة لشتات المباحث النفيسة ، فاغتنمها

فإنها غنيمة باردة ، ولا تقس أيها المتبصر الدارى والمتفكر الوارى هذه المقالة بعلوم الشيخ التى حوته صدره ، فإنه قطرة من بحر لاساحل له ، وهل تغنى القطرة من البحر الخضم ؟ هيهات ذلك ، بل أريناك نموذجاً من مكامن صدره وشذرة من معادن قلبه ، هكذا كان يسمح بها قطرة قطرة عند الحاجة ، فالجرع أروى والرشيف أنقع ، ولكن إن فتحت عين بصيرتك ورطنت بالنصفة سريرتك علمت أن تلك القطرة بحر ، أوتنبئك عن بحر يمده من بعده أبحر ، وهو القائل :

متى ما جئت تستسقيه قطراً ✻ تجد بحراً يطم على البحار

وليكن منك على ذكر أن الشيخ رحمه الله هذه مقالته المرتجلة المحتوية على إتقان صنعته وحذاقته وتغلغله فى مزايا الحديث وأسرار اختلاف الأئمة والرأى الصائب فيها ، وهو فتى يافع ، بلغ من عمره ثلاثين سنة ، فما ظنك بما أبدعته قريحته الوقادة ؟ وإلى أى منزلة بلغت همته السامية فى دوره الأخير؟ فكان يزداد فضله وعلمه ساعةً فساعةً ، وينبغ يوماً فيوماً ، وقد استكمل بعده نحو هذا العمر ، فلتكن على بصيرة . ولنعم ما قيل :

تناهت علاءً والشباب رداؤها ✻ فما ظنكم بالفضل والرأس أشيب

فرحم الله امرأ ذاق وادرى ، فله العبر والبصائر ، ومن لم يذق لم يدر مثل سائر . ولله در شيخنا حيث هو نفسه القائل :

وما هى إلا عبرة ، ثم عبرة ✻ تجدد عهداً بالديار المواثل

ومـا هى إلا ذكرة ثم فكـرة ✻ تمثل شيئاً من حديث الأماثل

نعم عند ما قد هبت العيس واسترت ✻ يدار حديث من شجون الأوائل

وأمثال هذه المزايا والخصائص الحديثية التى ذكرناها كانت بين عينى العلامة الفاضل السيد رشيد رضا المرحوم ، حتى صدع فى مقدمة ” مفتاح

كنوز السنة " بكلمات صادقة حيث قال :

" ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث فى هذا العصر لقضى عليها بالزوال من أمصار الشرق ، فقد ضعفت فى " مصر " و " الشام " و " العراق " و " الحجاز " منذ القرن العاشر للهجرة حتى بلغت منتهى الضعف فى أوائل هذا القرن الرابع عشر آه " .

ثم إن هذه ملتقطات من تلك المقالة ، فما ظنك بأصل المقالة ؟ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ولنكبح شكيمة المزبر عن هذا البحث ، فهذا ختام الكلام والله الموفق .

الشيخ وأسانيده فى الحديث .

اعلم أن من خصائص هذه الأمة الإسناد فى الدين ، فيسندون كل ما يدينون به عن كبار الأمة كابراً عن كابر وماجداً عن ماجد طبقةً بعد طبقة حتى ينتهى السلسلة إلى قائد الخير ورسول الرحمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين خاتم النبيين إلى جبريل الأمين إلى رب العالمين جل ذكره وعز اسمه وعظم برهانه ، لم تجد أمة من الأمم فى أكناف البسيطة ومناكبها بهذه المثابة ، فحملة العلم فى كل عصرٍ بذلوا جهودهم بل مهجهم لهذه الأثرة الجليلة والخدمة العالية والمزية السامية ، وهذا الذى أوصل علوم الحديث إلى ثمانين علماً فصاعداً ، وقد أشار إلى ذلك إلهنا الحق وربنا الخبير العليم فى فاتحة "سورة النجم" من نظم التنزيل العزيز ، وفى "سورة التكوير" حيث يقول الله جل ذكره فى "سورة النجم" : **(علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى)** وقال : **(ما كذب الفؤاد ما رأى)** ، وقال فى "سورة التكوير" : **(إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين)** . فكل هذا تعديل للسند

وتوثيق للراوى . ألا فليراعه البصير على مغزاه والفاضل الخبير على مرماه ! وكذا أشار إليه مولانا ونبينا الصادق المصدوق رسول الله ﷺ بقوله : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، ولذلك ترى أولى الأرواح القدسية والنفوس الطيبة والأنفاس المباركة يتهافتون على الأسانيد تهافة العطاش الهيم على الزلال السائغ والنمير البارد فى الهواجر الحارة والظهائر ، فقد شرقوا لها وغربوا ، يتروّون من سلسبيلها العذب ، ويتنعمون بنسائم روضه الرحب ، وكان قصارى أمانيهم أن يفوزوا بسند عالٍ ، حتى إن هذا إمام دار الهجرة الذى كان تضرب إليه أكباد الإبل ، كان يقول : سند عال وبيت خال ، وشيخنا الأجل قدس سره نظير من نظرائهم ، اقتفى بهديهم واقتدى بهداهم رحمه الله ورحمهم ، وأفاض علينا من بركاته وبركاتهم ، ولهذا نشير ههنا إلى أسانيده التى اطلعت عليها والله المستعان .

الاسناد الاول : لسائر كتب الحديث عن شيخه وشيخ العالم المحدث البارع مولانا الشيخ محمود حسن الديوبندى المدعو بـ" شيخ الهند " قدس سره ، ثم لإسناده طرق :

الأول : عن الحجة العارف مولانا محمد قاسم النانوتوى الديوبندى ، وعن المحدث الحجة مولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، كلاهما عن الشيخ المحدث الشاه عبدالغنى الدهلوى نزيل المدينة المنورة .

الثانى : عن الشيخ المحدث مولانا أحمد على السهارنفورى محشى " صحيح البخارى " .

الثالث : عن الشيخ العارف مولانا محمد مظهر النانوتوى .

الرابع : عن الشيخ المحدث القارى مولانا عبد الرحمن الفانى فتى .

وهؤلاء الأعلام الشاه عبدالغنى ، والمحدث السهارنفورى ، والمظهر النانوتوى ، والمحدث الفانى فى كلهم عن الشيخ الأجل المحدث الشاه محمد اسحق الدهلوى ، عن حبرالأمة المحدث العارف الشيخ عبدالعزيز الدهلوى، عن والده الشيخ الإمام الحجة قطب‌الدين أبى الفياض أحمد المدعوب "الشاه ولى الله الدهلوى" ، عن الشيخ أبى طاهر المدنى ، عن والده الشيخ ابراهيم الكردى، عن الشيخ المزاحى ، عن الشهاب أحمد السبكى ، عن الشيخ النجم الغيطى ، عن الشيخ زين الدين زكريا ، عن عزالدين الشيخ عبدالرحيم ، عن الشيخ عمر المراغى ، عن الفخر بن البخارى ، عن عمر بن طبرزد البغدادى ، بإسناده إلى الحافظ الحجة أبى عيسى الترمذى صاحب "الجامع" . ومن شاء الاطلاع على أسانيد الشيخ عبدالغنى وأحوال رجالها فليراجع إلى "اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبدالغنى" : وقد طبع بحيدرآباد مرة، وأخرى بديوبند .

الاسناد الثانى : عن شيخه الشيخ المحدث الصالح محمد اسحق الكشميرى المتوفى بالمدينة مهاجراً سنة ١٣٢٢ هـ ، عن الشيخ السيد نعمان الآلوسى ، عن والده أعلم بغداد الشيخ الحبر مولانا محمود الآلوسى البغدادى صاحب "روح المعانى" بالإسناد المثبت فى ثبته ، وهذا هو الإسناد الذى يقول لأجله شيخنا رحمه الله فى بعض مؤلفاته: "قال شيخى بواسطتين محمود الآلوسى فى "روح المعانى" فاغتنمه" .

الاسناد الثالث : عن الشيخ حسين الطرابلسى الجسر صاحب "الرسالة الحميدية" و"الحصون الحميدية" بإسناده إلى الشيخ السيد أحمد الطحطاوى المصرى شارح "الدر المختار" و"مراقى الفلاح" ، استجاز عنه الشيخ رحمه الله بالمدينة المنورة زادها الله شرفاً وتعظيماً ، كما أومأنا إليه فيما سلف .

فهذا ما اطلعت عليه من أسانيده من هؤلاء المشائخ الذين كانوا غرر عصرهم ومسانيد وقتهم قدس الله أسرارهم وأشاع فى العالمين أنوارهم وبركاتهم . وقد أجازنى شيخى رحمه الله بأسانيده هذه كلها فلله الحمد والمنة، ثم له جزيل الشكر وحسن الثناء ، وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الجزاء .

الشيخ والفقه ، ونبذة من خصائصه فيه .

طالع من الفقه وما يتعلق به تصانيف الإمام محمد بن الحسن الشيبانى من كتب ظواهر الرواية و" المؤطا " وكتاب " الآثار" وكتاب " الحجة " له، بضبط وإتقان وغاية فكر وإمعان، ثم شرح الإمام شمس الأئمة السرخسى " المبسوط" ، وهو شرح لكتب ظاهر الرواية التى جمعها الحاكم الصدر الشهيد فى كتابه " الكافى" و" شرح السير الكبير " له ، ثم ما تيسر له من تصانيف الإمام الطحاوى من " شرح معانى الآثار " و" مشكل الآثار " و"المختصر" له فى الفقه ، وقد قال فيما أحفظ والله أعلم : إنى طالعت "مختصر الطحاوى" نحو عشرين مرة ، ومع ذلك لم يشتف صدرى فى مواضع كثيرة، فهكذا طالع من كتب الفقه هذه الكتب المطبوعة بمصر والهند المتداولة بين أيدينا اليوم، ثم من الكتب الخطية ما تيسر له، حتى سمعت عنه نفسه رحمه الله: أفتيت بكشمير للمفتيين والعلماء فى الفتاوى المشكلة وفى التى تكون آراؤهم فيها مختلفة ثلاث سنين كاملة ولم أفتقر لمراجعة كتاب فى تلك البرهة . ثم لم يكتف فى الفقه بمطالعة الفقه الحنفى بل طالع من كبار كتب الفقه المالكى والشافعى والحنبلى ما يقضى العجب ويورث الحيرة ، وكانت أكثرها غير مطبوعة عند ذلك ، فهذا كتاب " بدائع الصنائع" لأبى بكر الكاسانى و"البحر الرائق" لإبن نجيم و" النهر الفائق " لأخيه و" رد المحتار" للشامى و" كتاب

الأم " للإمام الشافعي وغيرها من مبسوطات الفقه كلها كانت بمرأى عينيه، طالعها وأمثالها سطراً سطراً حرفاً حرفاً ، وكان يثني كثيراً على كتاب " الأم " وعلى ذكاوة الإمام الشافعي حتى قد يقول : إني كلما أطالع كتاب " الأم " يقع في قلبي أن الإمام الشافعي رحمه الله من أذكياء الأمة .

وكان يقول : أقدر على تلخيص كتبهم أيّ كتاب كان إلا كتاب " الأم " ، وكان يثني على " البدائع " كثيراً ، فكان يقول : إن مؤلفات العراقيين من الفقهاء الحنفية أثبت وأتقن من تصانيف الخراسانيين ، ولكن " البدائع " مع أن مؤلفه ملك العلماء أبا بكر الكاساني من الخرسانيين ولكنه في التثبت والإتقان مثل مؤلفات العراقيين ، بل فاق حسناً على سائر كتب فقهائنا الحنفية رحمهم الله ، كتاب بديع إن طالعه عالم بالغور والإمعان لصار فقيه النفس ، وهو أنفع للمدرسين والمؤلفين منه للمفتيين .

وكان يقول : لا يجوز لأحد أن يفتي ما لم يطالع " البحر " أو " رد المحتار " بأسره أو كتاباً مبسوطاً آخر من مبسوطات الفقه الحنفي ، نعم صدق من قال : لا تقعن البحر إلا سابحاً .

وكان رحمه الله يقول : إذا ثبت في أمر قول أبي حنيفة رحمة الله فلا أرجع إلى قول الصاحبين ، وإذا لم يرو عن الإمام شيء فما وجدته مروياً عن الإمام أبي يوسف آخذه ولا أنتظر قول الإمام محمد ، وإذا لم يثبت شيء عن أبي يوسف فأعمل على قول محمد ولا ألتفت حينئذ إلى أقوال باقي المشائخ الحنفية، وإن لم أجد عنه قولاً فإن كان عن الإمام الطحاوي قول فأتمسك به . وإذا اختلف العراقيون ومشائخ ما وراء النهر فأختار ما ذهب إليه العراقيون ولا ألتفت إلى تصحيح المشائخ وترجيحهم عند الإختلاف ، إذ ربما يختلف التصحيح، بل العبرة عندي إذن لقوة الدليل .

وكان يقول رحمه الله : لا أقلد أحداً من الأئمة فى سائر الفنون النقلية والعقلية إلا الفقه ، فإنى أقلد فيه الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ، فلى رأى مستقل فى كل علم إلا الفقه ، وكثيراً ما إذ أغوص فى تخريج أقوال الأئمة المجتهدين فقد يقصر خبى عن إدراك مدارك الإجتهاد وأتحير لدقة مداركهم وبعد كنهها .

قال الراقم : تبصّر واعتبر بهذا القول من هذا الشيخ الذى كان حبر الأمة فى عصره ، لو رأيته حين كان يخوض فى غمار الفقه ويغوص فى بحاره وطفق يبين تخريج أقوال الأئمة ومنشأ إختلافاتهم وترجيح بعضها على بعض لرأيت سيلاً يهمى أو بحراً يموج . وتمثل لديك قول المتنبئ :

ووجه البحر يعرف من بعيد * إذا يسجو فكيف إذا يموج

ولقلت : كأن روح فقيه الأمة إمام الدين والدنيا نعمان الكوفى تدندن فى حلقوم الشيخ الأنور ، ولكن مع هذا الفضل الباهر الذى كان يدهش العقول ويحير الفحول يعترف بهذا ، فما ذلك إلا لغور كنه مدارك الفقه ، ووعور مسالكه وصعوبة مراحله . وهذا دليل بين وبرهان ساطع على وصول هذا الفقيه الحبر إلى أقصى مدارك العلم ومعارج الديانة ومدارج الإنصاف ، فدع السفهاء والجهلة الذين زعموا أن الاجتهاد أمر سهل هين لين يقدر به كل من أحاط بكتاب " بداية المجتهد " لإبن رشد الفقيه المالكى أو الحمقى الذين يزعمون أن كل أحد يقدر على الاجتهاد بالعبور على " القرآن " وظواهر الأخبار ، فيحرم عليه تقليد مذهب أحد من أعيان الأمة ، فيطنطنون هؤلاء فى كتاباتهم ومؤلفاتهم طنين الذباب ، ويرمون العلماء الربانيين بعوائهم كالذئاب . ومنشأ كل ذلك الجهل عن معرفة مراتب السلف والقصور عن فهم مداركهم ، وفوق كل ذلك الحمق والسفه البين العوار . وهذا داء أعيى

الأطباء دواءه ، فيقال لهذا الذى يقعقع بالشنان ويجعجع من غير طحين : هلا ادعى ابن رشد الفقيه الاجتهاد بسبب هذا الكتاب ؟ ولم لم يعد فى زمرة المجتهدين ؟ ولم يعزو نفسه إلى المذهب المالكى ؟ وكيف يقلد فى الفروع ؟ وهل يسوغ التقليد لمن بلغ رتبة الإجتهاد (١) . نعم هو رجل فقيه النفس بعيد الغور ، له مزايا جليلة هو فريد فيها ، وقد أحسن إلى الأمة الإسلامية بإبراز هذا العلق النفيس ، غاص فى منشأ اختلافات الأئمة ، ونبّه على أنه كيف تشعبت الآراء وتطرق الاحتمالات وتنوعت الأدلة ، فعرفها وفهمها ، لا أنه صار مجتهداً مطلقاً فى المذهب بهذا القدر ، فإنه لا يكفى هذا القدر فقط ولا يشفى ، نعم وليس القوادم كالخوافى ، فإذا لم يكن هو نفسه مجتهداً فما ظنك بمن يستفيد منه حتى يبلغ به قلة الإجتهاد الشامخة التى تبقى العين دونها حسرى وما تنفع الشعفة فى الوادى الرغب ، فليستقم المرء وليتزود التقوى ، ولا يتبع الهوى ، فإنه قد أضل وأردى ، وليعرف لكل شئ قدره ، وليعط كل ذى حق حقه . علا أنه لخص كتابه هذا من كتاب "الإستذكار" لحافظ المغرب ابن عبد البر ، فالفضل أصله يرجع إلى أصله وإن كان هو موفقاً فى التلخيص والإجادة ، وهو إمام وفضله أكثر ولم يعد هو فى المجتهدين بل عد من كبار المالكية وحفاظ المحدثين وكفى به مزية وفضلاً . وأما الفريق الآخر فنطوى الكشح عن خطابه ، فإن هؤلاء بلغت سفاهتهم إلى غاية وأمد بعيد حيث يستنكفون عن إتباع الإمام أبى حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد فقهاء الأمة المحمدية ، ثم يقلدون أقوال ابن حزم وابن تيمية وابن القيم ، بل القاضى الشوكانى ، وبل النواب المعزول البهوفالى من هو أدون منهم

(١) ولم يصر جده الفقيه صاحب "المقدمات" مجتهداً وهو كان احسن به .

بمراتب من حيث لا يشعرون، فيستمسكون بعراهم ويعتصمون بأقوالهم وآرائهم الشاذة ويزعمونها وحياً سماوياً لايتغير ولايتبدل ، وكأنهم معصومون عن الخطأ والسهو ، وأن الحق لا يتجاوز رأيهم ولا يعدو مظنونهم ، فيا للعجب ويا للأسف! هداهم الله وإيانا بفضله ، ونجانا من غوائل الهوى، ووفقنا لإتباع أئمة الهدى، ولو لا مخافة التطويل والخروج عما أنا بصدده لصدعت بالبحث وبينت عوار هذا القول الشنيع وسقيت الصدى وشفيت الصدر وبردت الغليل، والله يقول الحق ويهدى السبيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ودونك الآن مثالين ليتضح لك دأب الشيخ رحمه الله فى أبحاث الفقه :

المثال الأول : قال شيخنا المحقق فى "فتح الملهم شرح صحيح مسلم":

قال علامة عصرنا الفاضل الكشميرى أطال الله بقائه (رحمه الله) : أن قولهم : " الكفار مخاطبون بالمعاملات" إن كان المراد به الخطاب ثواباً وعقاباً فى الآخرة فمسلم لا شك فيه ، وإن كان المراد الخطاب صحةً وفساداً فى أحكام الدنيا فليس هذا عندى على الإطلاق ، فقد صرح فى " الهداية " : إن الكافر إذا تزوج بلا شهود أو فى عدة كافر — وذلك فى دينهم جائز — ثم أسلما أقرّا عليه عند أبى حنيفة رحمه الله ، لأن الحرمة لا يمكن إثباتها ههنا حقاً للشرع ، لأنهم لا يخاطبون بحقوقه ، ولا وجه لإيجاب العدة حقاً للزوج ، لأنه لا يعتقده . وصرح الشيخ ابن الهمام رحمه الله أن المسلم إذا باع من الحربى ميتة أو خنزيراً أو قامره وأخذ المال يحل كل ذلك عند أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى ، ولو كانوا مكلفين بالمعاملات بحسب الصحة والفساد لم يصح النكاح فى الصورة الأولى ولم يحل ذلك المال فى الصورة الثانية ، ولهذا نظائر أخرى تقف عليها بعد التتبع البالغ ، فكما أنهم استثنوا من العقوبات حد الشرب كذلك ينبغى تقييد المعاملات أيضاً بشئ يخرج أمثال هذه الفروع المنصوصة عليها فى كتب

الفقه اه . وهذا تفصيل لابد من المصير إليه والله أعلم انتهى (١) .

المثال الثاني: اختلف الأئمة في مسألة المصرّاة، والحديث فيها مشهور، فذهب مالك والشافعي وأحمد وأبويوسف إلى : أن التصرية عيب يرد به المبيع ، ثم عن أبي يوسف روايتان في رد صاع من التمر معها أوقيمة اللبن ؟ وقال أبوحنيفة ومحمد : لايرد ، والحديث وارد عليهما . فاختار الحنفية في الجواب مسالك واضطروا إلى العمومات في مقابلة الخصوص من الآثار والنصوص ، وأحسن من أجاب منهم الإمام الطحاوي في "شرح معاني الآثار" ، وهو أول من أجاب منهم ، فعارضه بحديث « الخراج بالضمان » ، وهوحديث قوي ، وليراجع تفصيل جوابه من كتابه ، فقال الشيخ رحمه الله : جواب الطحاوي وإن كان أحسن مما استدلوابه من العمومات والقياس واتبعه المتأخرون غير أنه أيضاً لايجدي حسب تفصيل فقهائنا الحنفية رحمهم الله، حيث قسموا العيب في مسألة خيار العيب إلى ثمانية أقسام ، فإن الزيادة إما متولدة من المبيع أوغير متولدة ؟ وكل منهما إما متصلة أومنفصلة . فهذه أربعة أقسام، وكل منها إما قبل القبض أوبعده ، فصارت ثمانية . والذي يحمل عليه حديث الخراج بالضمان عندهم هي الزيادة الغير المتولدة ، فكيف يجدي استدلاله العام الذي يحتمل وجوهاً ومحامل ؟ ثم قال : والذي تحقق عندي أن الحديث من باب الديانة لا من باب القضاء ، فتجب الإقالة على البائع ديانةً ، فإن مدار القضاء على الظواهر لاالسرائر ، فالسرائر لاسبيل إلى علمها ، وحينئذ يوافق الحديث مسائل الحنفية أيضاً ، فقد صرح الشيخ ابن الهمام في "الفتح" من باب الإقالة : أن الغرر قولي وفعلي ، وعلى الأول تجب الإقالة قضاء ، وعلى الثاني ديانة ، ولاريب أن ههنا غرر فعلي ، فتجب الإقالة ديانة ، ولم أرمن تنبه له ، وقد صرح في "الوجيز" و "التهذيب" و "الحاوي" : أنه يرد في

(١) فتح الملهم ص - ١٨٨

مثل هذا عند التراضى ، (فصار من باب الديانة أوقريباً منها) . ومماقات :

بزيـادة المنفصـل المتـولـد * أوعـكسـه متعيب لم يردد
ثم فى "التهذيب" و"الوجيز و"الـ * حاوى" الجواز بالتراضى يحمل

والفرق بين القضاء والديانة قد سلمه الشافعية أيضاًفى كثير من المسائل . هذا ما استفدته ولخصته من " العرف الشذى" و" فيض البارى" من تقاريز الشيخ رحمه الله فى درس الحديث ، ومن شاء التفصيل فليراجعها ، والله الموفق وبه نستعين .

الشيخ وسعيه فى خدمة المذهب الحنفى .

لعلك فهمت مما أسلفنا من آداب الشيخ ومزاياه الخاصة أنه قد تغلغل فى فقه الحديث النبوى ووصل إلى أسرار الفقه وأغراض المجتهدين بالذروة العليا والغاية القصوى ، فهذا الشيخ الإمام حبر الأمة قد خدم المذهب النعمانى برهة طويلة فى دروس الحديث،دروس "سنن أبى داود" و"جامع الترمذى" و"الصحيح" للبخارى وغيرها،وفى رسائله المؤلفة فى المواضع المهمة ما سنذكرها إن شاءالله تعالى، وفى مجالسه ومحافله ومواعظه وخطبه،فكم من أحاديث قد استدل بها له ! وكم من آثار احتج بها له ! وكم من المسائل الجزئية فى الفقه الحنفى قد رصص بنيانها ! وكم من قواعد كلية وضوابط عامة للمذهب أسس عمرانها ! وكم من غوامض ودقائق وصل إليها فكره ! وكم من سوانح وقتية جاد بها نظره وسمح بها لسانه ، وقد قضى نحو ثلاثين عاماً وهوشطرعمره الشريف فى خدمة مذهب إمامنا ومقتدانا الإمام القطب الذى تدور حوله رحى الفقه من فقهاء الأمصار الإمام الكوفى أبى حنيفة التابعى رحمه الله ، فحاز كنوزاً وذخائر من الدلائل والشواهد والآثار والمتابعات، وكان قد يجرى على مقوله كأن الله خلقنى لتأييد مذهبه ، وقد يقول : قدأسست بنيان الحنفية بحيث

لا يفنى مذهبهم مائة سنة إن شاء الله . وضبط ذلك فى مضابطه وجمع فيها ذخائر لو بسطت اليوم مرتبة منتظمة مفصلة على الطريقة التأليفية على الأوراق، وجمعت نقول الأسفار التى أحال عليها برمز صفحاتها لبلغت أجزاء كبيرة مما يتعلق بالفقه الحنفى فقط دون سائر العلوم ، فلو أمعن خبير عاقل فى مساعيه الجميلة وآثاره الباقية الصالحة لاعترف بمنن هذا الشيخ ، ولاعترف بأن وجوده كان تأييداً ربانياً للمذهب النعمانى بدا فى هذه القرون المجدبة والعصور الماحلة . وكان يقول : ما رأيت مسألة فى الفقه الحنفى لم تكن له حجج مؤزرة أزيد من مذاهب الأئمة أو مساوية لها ، اللهم إلا فى مسألة الخمر ، فإن دلائل الجمهور فيها غالبة كثيرة لم أفز لقول الإمام بشئ يقاوم براهينهم ، وكان يذكر مسألة أخرى نسيتها الآن . وكان ينبه الطلبة تنبيهاً عظيماً بأن لا يذهب وهلكم إلى ضعف مذهب إمام من الأئمة المجتهدين ، فكلهم أئمة قدوة ، ولنا فيهم أسوة ، ولكل وجهة هو موليها . فهذا حاله من خدمة المذهب الحنفى ، نعم جذب الزمام بريض الصعاب ، ومن طلب عظيماً خاطر بعظيم . ع :

إذا كانت النفوس كباراً * تعبت فى مرادها الأجسام .

درجته فى سائر العلوم العقلية و العلوم الغريبة والعلوم العربية، و مطالعته زبر المحققين ، و بيان بعض فوائده.

لما كان التعطش إلى درك حقائق العلوم والوصول إلى ذروة سنامها دأبه الطبعى وعادته الفطرية أنفد وسعه وسعى سعياً حثيثاً فى مطالعة كتب أئمة الفنون من سائر العلوم من كتب الفلسفة الطبيعية وأسفار الفنون الإلٰهية وكتب الحقائق والتصوف وتحصيل العلوم الغريبة من: النجوم ، والرمل ، والجفر ، والموسيقى ، والقيافة ، وفنون الهندسة ، والرياضى بفنونه من : فن الربع المقنطر ، والربع المجيب ، والأسطرلاب ، والمناظر ، والمرايا ، وما عداها مما يتعلق به .

وهكذا فى علوم العربية وعلوم البلاغة ، فطالع "كتاب سيبويه" وعدة شروحه ، وكان يعده من أصعب كتب العربية بل أصعبها على الإطلاق ، وطالع من الفلسفة "الشفاء" و "النجاة" و "التعليقات" و "الإشارات" لابن سينا وشروح "الإشارات" للإمام الرازى و"المخذول الطوسى" و"المحاكم". وطالع "القبسات" و "الأفق المبين" من تصانيف باقرداماد الفيلسوف الحاذق الرافضى ، وطالع تصانيف الصدر الشيرازى الشيعى من كتاب "الأسفار الأربعة" وغيره . وكان يقول : هو حاذق فى الفلسفة والتصوف بلغ فيها الغايــة ، وطالع "دائرة المعارف" للبستانى و "دائرة المعارف" لفريد وجدى حرفاً حرفاً . وكان يطالع "تفسير الطنطاوى" جزءاً جزءاً كلما يطبع منه جزء ويصدر ، وطالع من كتب الفلسفة الجديدة مما ترجم إلى اللغة العربية من اللغة الفرنساوية والإنجليزية كالدروس الأولية وغيرها ، فحوى علماً عظيماً بالفلسفة الجديدة وآراء المعاصرين ، ويقول : "تفسير الطنطاوى" احتوى على ذخيرة عظيمة من العلوم الحديثة والفنون الجديدة ، وكان يقدره من هذه الجهة فحسب ، وكان رحمه الله حصل اللغة الإنجليزية فى نحوستة أشهر حتى قدر على التحاور فيها والاستفادة من كتبها ، بيد أنه رسخت عنها نفرة عظيمة فى قلبه ، فما نبس بعده بكلمة منها ، ولم يطالع شيئاً منها حتى لقى الله تعالى . وأحاط علماً بكتب المحققين من جميع العلوم من تصانيف الحافظ ابن تيمية والحافظ ابن القيم فى جميع الفنون ما تيسر له ، وتصانيف الحافظ ابن حجر العسقلانى وتصانيف الشيخ الأكبر الإمام محى الدين ابن العربى ، وطالع "الفتوحات المكية" من تصانيفه مرتين بغاية الإمعان وإتعاب النفس ، وطالع تصانيف الإمام حجة الإسلام الغزالى ، ومؤلفات الإمام فخر الدين الرازى ، ومصنفات الإمام الحجة الشاه ولى الله الدهلوى ، ومؤلفات المحقق العارف مولانا القاسم النانوتوى وغيرهم من المحققين قبلهم

وبعدهم ، فاكتحل السهاد لمطالعة أسفار هؤلاء المحققين الراسخين ، وكابد وقاسى الشدائد حتى أتعب نفسه ، فكم من ليال لم يوطئ فيها جنبه الفراش وتجافى عن المضجع فى خوض غمارها ، وله فى ذلك خوارق يتحير منها العقل والخيال . نعم وقد قيل فى المثل : و" بالمخض يبدو الزبد". ولقد صدق القائل :

لا تحسب المجد تمراً أنت تأكله * لن تلعق المجد حتى تلعق الصبرا

فحصل من ذلك على علوم منقحة صحيحة . ثم وفقه الفيض الإلهى لطريقة سوية معتدلة بين اختلافات العلماء ، و رزق فهماً ثاقباً ورأياً صائباً فى جميعها . وصدق فيه قول قائلهم :

وكان من العلوم بحيث يقضى * لــه من كل علم بالجميع

وقد أحاط بكتب الأناجيل وأسفار العهد العتيق مع شروحه وما يتعلق بها من الكبارى والتالمود ، وكان يفهم العبرية ، وكان طالع " التوراة" بالعبرية ، وكان يحفظ عدة آيات من التوراة مما يتعلق ببشارة رسالة سيدنا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، وقد جمع مائة بشارة من العهد العتيق والجديد فى ليلة واحدة احتاج لها صبيحتها فى مناظرة مع بعض القسيسين بكشمير حتى بهره فأفحمه فظل واجماً . وهاك بشارتين مما سمعت منه رحمه الله من تلك البشارات بالعبرانية فى درس " صحيح البخارى" :

١- " نابى مقربخ مئخيخ كاموخ يأقيم لخ ألوهخ إلا وتشماعون "(١) .

٢- " يهو مسينائى باوظارح مساعير كوفيعه مهر باران "(٢) .

---

(١) يعنى : نبى من قربك من اخيك كمثلك يقيم لك الهك اليه تسمعون .

(٢) يعنى : جاء الله من سيناء (اشارة الى "توراة سيدنا موسى عليه السلام") وظهر من ساعير (جبل بالشام اشارة الى نبوة سيدنا عيسى عليه السلام) واستعلن من فاران (جبل بمكة اشارة صريحة الى نبوة سيدنا خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) .

ولذا قد شاهدنا أن كل من سأله فى أىّ علم من العلوم التى أسلفنا ذكرها حتّى الطب وغيره وجد عنده علماً عظيماً منه ما يثلج به صدره وتقر عينه، وكان يرجع منه على شفاء وطمأنينة فائزاً ، وكثيراً ما رأينا أنه إذا سأله أحد عن مشكل فلم يتأمل فيه بل كان جوابه على رأس لسانه و مقوله ، وربما أطرق كبرق خاطف ثم يشرع فى التحقيق وحل أطرافه ما كان يورث الحيرة . ولله در القائل :

أبداً على طرف اللسان جوابه * وكأنما هى دفعة من صيّب
يغدو مساجله بعز صافح * ويروح معترفاً بذلة مذنب

وقد رأينا غير مرة: إن كان يحضر عنده أحد من الأفاضل بتأليف له فى موضوع خاص قد طالع له جميع المظان بتنقيب تام، ثم كان يفوز منه بعلم جديد لم يدركه ولم يصل إليه مع التتبع البالغ والاستقراء التام ، و"عند النطاح يغلب الكبش الأجم" وكان يثنى كثيراً على تبحر الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن مع هذا كان يقول: هو عندى غير حاذق فى المعقول، نعم عنده ذخائر فى المنطق والفلسفة ، وفى كل علم من النقول ما يدهش العقول، وعلمه بالعربية غير ناضج ، ولفظه بالأردوية (عربيت كچی ہے) (١) . وكان يتعجب من تغاغل الشيخ الأكبر فى العلوم قاطبة وحذاقته فى الفنون الحكمية العقلية . وكان يقول : لا يفهم أحد الجزئين الأولين من كتابه ما لم يكن له باع واسع فى العلوم الغريبة أيضاً . نعم: "العلم داماء لا يقطع بالإرمات" . وكان له رأى بديع فى المحاكمة بين العلماء ، فكان يوفى كل أحد حقه ويقدره قدره بغاية عدل ، وكان يقول : قد تعصب ابن رشد المالكى فى رد "تهافة

(١) وكان يقول : انه ذخار ولكن يظن رايه وحياً سماوياً ، وتارة كان يقول باللغة الاردويه : "اپنى كہتے ہيں دوسرے كى نہيں سنتے ہيں" يعنى: يقول ولا يسمع كلام غيره . منه .

الغزالى "(١) ، وتحكم ولم يصب فى بعض المواضع . نعم الإمام الغزالى أيضاً لم يؤد حق الرد فى بعض المواضع . وهكذا كان له بدائع عجيبة واستدراكات على الفنون والعلماء وتعقبات لطيفـة عليهم ، وسنذكر نبذاً منها . ويبين رحمه الله لكل أحد من هؤلاء المحققين خصائص عجيبة مما تحققت عنده بممارسة مؤلفاتهم بعد التجربة الكاملة . وبالجملة كان إماماً محققاً فى العلوم كافة خبيراً مطلعاً على مشكلات الفنون ، كان قد تدارس جميع هذه المشكلات برهـة طويلة وحققها ونقحها . وقد قلت سابقاً وأقول ثانياً : إن الشيخ رحمه الله كان آية من آيات الله العظام لو لم نره لما اطمئنت نفوسنا بما يؤثر إلينا من هدى علماء الأمة الذين مضوا ولم نتيقن بأنه كيف يوفق أحد لمطالعة مجلد أو مجلدين كبيرين فى يوم واحد أو ليلة واحدة . نعم وكم من أسرار وحكم فى العالم لله العلى العظيم يبسط لعباده الأيام ويبارك لهم فى الأوقات ، وقد قال هو رحمه الله فى قصيدة له فى حقائق إسراء النبى ﷺ :

وأبدى له طىّ الزمان فعاقـه * رويداً عن الأحوال حتّاه ما جرى

فكان الله خلقه لذلك وكل ميسر لما خلق له . ومن العجائب أنـه مع كثرة مطالعته بهذه المثابة لم يطالع قط مدة عمره متكئاً ولا مستلقياً ولا مضطجعاً،

(١) "تهافة الفلاسفه" كتاب للامام الغزالى ، الفه رداً لاباطيل الفلاسفه، بحث فيها عن عشرين مساله من خزعبلاتهم ، واكفرهم فى ثلاث مسائل: مساله قدم العالم ومساله انكار حشر الاجساد ومساله علم الواجب بالجزئيات على الوجه الكلى ، ثم جاء ابن رشد المالكى الفقيه الفلسفى المتوفى سنه ٥٩٥ هجريه فرد على الامام وسمى كتابه: "تهافه التهافه"، ثم جاء الشيخ خواجه زاده وحاكم بينهما بامر السلطان محمد الفاتح الاول. وطبعت هذه الثلاثه مجموعه بمصر ، وللمحقق العارف الجامى ايضاً محاكمه بينهما، وللشيخ علاء الدين ايضاً رساله فى المحاكمه سماها: "الذخيرة"، وانها طبعت بدائرة المعارف حيدرآباد دكن . منه .

هكذا سمعته أذناى منه وجرَّبته فى عهد المزاملة والملازمة بل كأين ما رأيناه جالساً على صدور قدميه نحو أربع ساعات فصاعداً فى مجلس واحد . وأصبح ذلك سبباً لداء الباسور وابتلائه به ، وقد كنت أنشأت أبياتاً فى بعض مآثر الشيخ قدس سره فى عهد الاشتغال بالتحصيل ، وأحاول أن أهدى منها نبذة للناظرين والله الموفق والمعين .

ابيات الراقم فى مآثر الشيخ رحمه الله تعالى

بحر العلوم فما بحر يشاكلـه — يروى الأغلَّة منه كيفما شاءوا
حبر وحيد فما حبر يناطحـــه — بحر يموج إذا الصادين ما جاءوا
بحر عميق فما شئ يسابره — ويستقر بأقصى مائـــه الماء
فى العلم أقدامه تعلو ذرى قلل — لـــه الوجاهـــة عند الله علياء
حنادس الجهل من إرشاده محيت — فالليل منهزم والشمس شرقاء
تشفى سحائبـــه أكباد صاديـــة — يطفى بزورتـــه وجد وحراء
أحيى القفار بمزن العلم هامية — إن الفلاة بجود المزن خضراء
ثبت وقدوة أعلام وعمدتهم — وحجة لهم فى الأرض بيضاء
شيخ إمام وثبت حافظ ثقـة — حاز المآثر فينا وهى زهراء
شيخ الشيوخ إمام القوم قاطبةً — ورحلة لهم فى العصر قصواء
كم من بحور علوم غاص لجتَّها — علم الحديث له فى القوم سيماء
فسمته الصمت أو فكر لمعرفة — درس ونصح وإرشاد وإفتاء
فلا تعـــد ولا تحصى مآثره — وكيف تحصى سحب الفضل وطفاء
لو نقَّبوا الأرض لم يوجد له شبه — والعين من مثله عشواء حسراء

هذا وقد تبين لك كفلق الصديع إن شاء الله أن الشيخ رحمه الله وصل فى المآثر العلمية الباهرة إلى الذروة العلياء ، فإنا قد بثثنا لك ، وسننبث نماذج

عن استبحاره الجامع فى العلوم قاطبة ، ولكن ساعدته المراحم الإلهية والألطاف الخفية الربانية بأن فوض إليه درس كتب حديث النبى ﷺ. فكان يدرس فى دارالعلوم الديوبندية "صحيح مسلم" و"سنن النسائى" و"سنن ابن ماجه" عند وجود شيخه رحمه الله، ثم فوض إليه "صحيح البخارى" و"السنن الجامع" للترمذى و"سنن أبى داؤد"، ثم اقتصر درسه على الأولين فقط نحو عشرين سنة ، ثم بقى فى آخر عمره درس "الصحيح" للبخارى فقط، فكانت من سعادته وحسن حظه أن مضت أنفاسه الطيبة فى الأنفاس القدسية النبوية فصحبت أنفاسه المباركة الأنفاس الطاهرة النبوية . ولله در القائل :

أهل الحديث هم أهل النبى وإن * لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

فلذا اشتهر فى العالم الإسلامى بـ"المحدث" و"شيخ الحديث"، فصار له الحديث شعاراً ودثاراً ، وإن فوض إليه درس علم آخر من علوم البلاغة أو علوم الفلسفة والمنطق وغيرها لصار فيها علماً مفرداً شامخاً فى العالم ، ودعى فى العلماء نظاراً أصولياً أو فيلسوفاً محققاً ، وإلى هذا أشرت فى أبيات لى فى رثائه :

وقد كانت سعادتــه بحق * تبدى فى الحديث لذى ادكار
وإلا كان نحريراً وحبراً * وغواصاً سبوحاً فى البحار

وهذا أمر قد انجلى عند مستفيديه كالشمس فى رابعة النهار ، فلا تلحقك ريبة ومرية ، فإن الحق أبلج والباطل لجلج . والله الموفق والمعين .

* * *

الشيخ وخصائص درسه، الشيخ والتاليف، الشيخ وبعض فوائده العلميه"، الشيخ والشعر، الشيخ والفتنه" المرزائيه"، الشيخ ونبذ من شمائله العامه"، مقاله" تاريخيه" لبعض الافاضل، الشيخ وثناء اماثل العصر .

الشيخ وخصائص درسه وشيوع طريقته المبتكرة .

كان للشيخ رحمه الله مبتكرات طبعية فى الدرس ما يحار له العقول وتأخذ بمجامع القلوب والعقول، ولا بدع فإنه كان محققاً ومتقناً فى العلوم والمعارف كافة، فكان رحمه الله إذا أخذ فى الإلقاء يواصل الكلام، فلا يتلعثم فيه ولا يتلجلج من غير أن يلحقه فتور أو احجام، ولم يكن يفتقر إلى استدراك عثرة فى اللفظ أو تكرار فى النطق، ولا يتخلله سكوت ولا حصر ولا بهر، فكان يحدر المسائل الدقيقة حدراً ويسرد المباحث الأنيقة سرداً، تراه بحراً يموج بعبابه حتى تعجز مهرة الكتاب عن ضبط كلامه واستيعابه، ينتقل حدسه من مسألة إلى مسألة ومن علم إلى علم، وينشأ بينهما تناسباً ذقيق اللحام، ويفرغه فى بديع أسلوبه بحسن سبك وانسجام .

وأمهات خصائصه التى وعاها قلبي ووصل إليها فكرى أصدع بها محصاة منقحة :

الأولى : إنه كان يذكر جميع المباحث المتعلقة بالحديث من بيان مذاهب علماء الأمة وأدلتهم مع ترجيح بعضها على بعض بغاية إنصاف وعدل، وبيان فوائده ومزاياه، ثم إن كان له أدنى تعلق بمسائل علوم أخر يذكرها، والشئ بالشئ يذكر .

الثانية : إنه كان يأخذ المسائل والمباحث من كلام أكابر علماء تلك الفنون فيذكر نحو سيبويه وأقوال معاصريه ، ولا ينحط من نحو ابن هشام والمحقق الرضى ، ولا يذكر فى البلاغة إلا قول الشيخ عبد القاهر الجرجانى والعلامة الزمخشرى ، ولم يكن ينحط إلى أقوال العلامة التفتازانى والخطيب، بل كان لا يرضى بتعبيرات السكاكى فى "المفتاح" ، نعم ربما يذكر أشياء فى البلاغة للشيخ تقى‌الدين السبكى وابنه الشيخ بهاءالدين السبكى من كتابه "عروس الأفراح" فتعجبها ، وكان يقول : قد فاق التقى‌السبكى على ابن تيمية فى علوم البلاغة والعربية ، بل كان لا يقدر رأيه فى هذه الفنون مع اعترافه بتبحره المدهش ، وكان يأخذ اللغة من كلام الأئمة ، كالجوهرى فى " الصحاح" ، والأزهرى فى "التهذيب"، والراغب فى " المفردات" ، والزمخشرى فى " الفائق" ، ولم يكن ينزل عن طبقة " القاموس" ، وهكذا فى سائر العلوم مع تعقبات واستدراكات لطيفه برأى صائب يقبلها الذوق الصحيح ويذعن لها المنصف البصير .

الثالثة : إنه كلما أحال على كتاب أو مصنّف — وكان ذلك أول مرة — فكان يذكر جملاً نفيسة بحال ذلك المصنف أو ذلك الكتاب ، ويذكر خصائصه البديعة التى لا يجدها المتفقد فى مطاوى كتب الطبقات ، ليكون الطالب على خبرة وبصيرة نافذة ، وينبه الطلبة على ما كان فيه من المزايا ليكون له عوناً عند الحاجة .

الرابعة : إنه كان يعتنى بأن يحل مشكلات العلوم والعقد التى اعتاص انحلالها على القوم ، فيجر الكلام إليها بأدنى مناسبة .

الخامسة : إنه كان يحاول أن ينشأ فى الطلبة ملكة راسخة فى العلوم وسوادد كامل يتمكن به من حل المعضلات ، وكان ينبّههم على أنه كيف ينبغى الإرتقاء إلى مدارج شامخة فى المعارف والعلوم .

السادسة : إنه كان يهيج رغبتهم إلى خدمة الدين ، وأن لا يجعلوا العلم وسيلة إلى معاشهم ولا ذريعة إلى المباهاة والتمارى ، وأن يبذلوا مجهودهم فى نصرة الحق والذب عن حياضه بكل ما أمكن ، ويمكن فى قلوبهم أن المطلوب من العبد العمل الصالح دون العلم فإن العبد لم يخلق له ، وكان عنده رحمه الله شرف الإنسان بالعبودية دون العلم .

فهذه أمهات أغراضه فى درس الحديث ما تنقح عندنا ، ولا نستطيع أن نستقصى محاسن درسه الجزئية من حلاوة الكلمات ، وعذوبة الفقرات ، وجزالة التعبيرات ، وتنقيح المشكلات ، بنمط بديع مفهم ملخص ، وجذب الأفكار والتوجيهات إلى درسه بشراشرها ، وغيرها من المزايا الرائعة ما يحصر اللسان ويقصر القلم عن البيان ، بحيث يطرب الآذان وينشط الأذهان مما يتعلق بمشاهدة الأبصار ، وتعيي دونها مهارى الأنظار ، بل رمزنا إلى ما كان يجرى مجرى الأصول والأمهات الموضوعة والقواعد الكلية المتقررة .

وبالجملة فكان بحراً ينحدر أو وادياً يسيل أو برقاً يسرى ، قصارى جهده أن يقيـّد شوارد المسائل ، ويفتح المغلقات التى أقفلت أبوابها على الأماثل والجهابذة . فكانت درراً تتناثرن من فيه وصدره بحر يقذف بمكامنه وخوافيه ، ولله دره حيث قال نفسه مشطراً لبعض الأشعار :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * وسالت بطاح عنـدها بالمسائل
وقفت بها صحبى وما ثم موقف * ولكنـه من عهـدنا بالمنازل
فدع عنك نهباً صيح فى حجراته * وهات حديثاً ما حديث الرواحل

وهذا الذى صدعنا به من خصائصه فى الدرس صار سبباً لحرمان كثير من الطلبة والمستفيدين ومنشأ لإخفاقهم ، فإنه كان يضيق نطاق فهمهم عن درك تلك المسائل ولا يتسع وعاؤهم لضبطها ، ومع هذا فأعلن بكل واد وناد

على رؤس الأشهاد لكل حاضر وباد من غير مخافة لوم العاذلين والحاة : أن البصيرة النافذة والتجربة العلمية والحذافة التامة التى تستفاد فى عدة دروسه للبصير الحاذق والذكى المتفقد لا يفوز بها أحد فى درس آخر وإن صرف عمره وبذل مجهوده ، فكانت دروسه نزهةً للخواطر وبهجة المسامعَ والنواظر ، تحتوى على غرائب الكلام وطرف الأبحاث ما نأخذ بالألباب ، وتحير القلوب ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

فهـــذه مآثرها الفائقة التى انتهت إليها المشاهدة بالأنظار والأبصار ، وأسندت للناس بصحاح الأخبار والآثار ، وما يوم حليمة بسر والله المستعان . ثم لم يكن عليك غمة من أن هذه الطريقة التى ابتكرها من نقل نقول متكاثرة فى الدرس وجمع مواد وافرة فى الباب لم تكن رائجة فى الهند قبله ، فرحمه الله كان هو أبو عذرتها وابن بجدتها ، وكان قبله المدرسون يذكرون شيئاً ولا يذكرون مأخذه ، بل كانوا يضمنون به ويحسبونه متاعاً فاخراً ، ذلك مبلغهم من العلم إلا من شاء الله وقليل ما هم ، فجاء رحمه الله وأيقظ الناس من رقاد الغفلة ، ونبّههم على تحقيقات أكابر المحققين مما سبقت إليـــه أقلامهم ، وبث فيهم جواهر علومهم التى سمحت بها أذهانهم وأفهامهم ، فكشفت الحجب وزال الغطاء وانشق الظلام وفلق الصديع وأضاءت لهم سبل التحقيق وطرق البحث والتدقيق ، مع تشذيب وتهذيب وتثقيف وتقويم ، فهذا هو الذى طبق الخافقين ذكره ، وأظهر فضله وقدره ، فشاعت اليوم بأكثر المعاهد العلمية طريقتـه العذراء فى الدروس والتأليف ، فيحذون حذوه ويقتفون أثره ، ولكن أين الاستبحار كاستبحاره ؟ وأين الاستحضار كاستحضاره ؟ وأين ذلك الرأى الثاقب والقريحة الوقادة ؟ ثم أين تلك النصفة والديانة ؟ فماء ولا كصداء ، وفتى ولا كمالك ، ومرعى ولا كالسعدان . وقال قائلهم :

وما كل زهر ينبت الروض طيب * ولا كل كحل للنواظر إثمد

وقيل :

وما كل مخضوب البنان بثينة * ولا كل مصقول الحديد يمان

ومن العجائب والعجائب جمة أن الشيخ رحمه الله لم يكن من دأبه المطالعة بالليل لما يدرسه بالنهار كما هو دأب عامة المدرسين ، فلم يكن يطالع لشئ مما كان يلقيه فى الدروس، حتى سمعت منه : "أنى ما طالعت الكتاب الذى يقرأ على فى عمرى قط" ، فقوة الحافظة كانت أغنته عن ذلك ، فكفاه ما طالع فى بدء عمره ، وأغناه الصباح عن المصباح ، لا أنه كان يلحقه الونى أو الكسل أو الملال من المطالعة ، بل جميع أوقاته كانت عامرة بمطالعة الأسفار وزبر المحققين . نعم قد كان يزور فى نفسه هنيهة لئلا ينتشر الكلام ولئلا يتسع مجال البحث كثيراً ، وليكون ما يلقيه منضبطاً محدوداً حتى يستطيع المستمعون والمستفيدون أن تنهضوا بأعبائها ، ولو لا ذلك لأعجز القوم عن التلقى ، فإنه كيف يسد البحر الذخار ، وكيف يوكأ على العيون الثرثارة .

فائدة : قال ابن خلدون المغربى فى مقدمة "تاريخه" : "ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله تعالى يقولون : شرح كتاب البخارى دين على الأمة ، يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار الخ" قال الحافظ شمس الدين السخاوى ـ تلميذ الحافظ ابن حجر العسقلانى ـ فى "الضوء اللامع" : إن ذلك الدين قضاه شيخنا الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله بشرحه لـ "صحيح البخارى" "فتح البارى". وبلغنى عن شيخ العالم مولانا شيخ الهند محمود الحسن رحمه الله يقول : لم يوف الحافظ حق تراجم الصحيح . قال الراقم : لو كمل ما حاوله مولانا شيخ الهند رحمه الله من شرح أبواب الصحيح وتراجمه لقضى دين التراجم إن شاء الله ، والأسف أنه لم يكمل ما حاوله ، ومع هذا فالقطعة التى ألفها وطبعت

اليوم صارت للمستفيدين نبراساً ومقياساً . وهكذا قال الراقم : أن درس "صحيح البخارى" بحيث يكون حاوياً لمزاياه الكامنة ومعارفه الرائقة لم يكمل فى كثير من الأزمنة، ولا سيما الأزمنة المتأخرة حيث طارت مآثر الآثار أدراج الرياح ، وسالت بأعناق مطاياها البطاح ، فكان درسه بحيث يكشف خباياه ويعم مزاياه ديناً فى رقاب علماء الأمة المحمدية ، فقضى هذا الدين شيخنا رحمه الله وأوفاه ، ونقح مبناه ومعناه، وحقق مرماه ومغزاه ، فكم من المسائل الكلامية كانت فيه مخبوئة،وكم من مزايا الحديث كانت محجوبة،وكم من لطائف وأسرار رائعة وحكم ومعارف عالية كانت فيه مكنوزة ، فرحم الله شيخنا حيث شنّف آذان الأمة الحاضرة بحليها ، وسمح بمضنوناته التى هى جواهر غالية كانت فى صدره . وصدق فيه قول البحترى :

وإذا تألق فى العيون كلامه الـ * محمود خلت لسانه من عضبه
وإذا دجت أقلامه ثم انحنت * برقت مصابيح الدجى فى كتبه
حكم فسائحها خلال بنانه * متدفق وقليبها من قلبه
فكأنها والسمع معقود لها * شخص الحبيب بدا لعين محبه

هذا وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ والتأليف ، وبيان خوضه فى الحقائق .

اعلم أن الشيخ قدس سره لم يرد قط من ريعان عمره أن يؤلف رسالة أو كتاباً ، بيد أنه لم يبرح عاكفاً فى جمع الأوابد وقيد الشوارد فى برنامجته ومذكرته ، وكان ينفذ وسعه فى حل المشكلات التى لم تنحل من أكابر المحققين، فكلما سنح له شئ من مثل هذه المعضلات كان يستمرى لحاه أخلاف طبعه

وفكره ، فكان يكتب ويقيد من سوانح الوقت وبوارحه ، وإن كان فى كتب القوم شئ ينحل به عقدتها أحال عليه برمز الصفحة إن كان مطبوعاً ، وهكذا كان ديدنه ودأبه من شرخ عهده بمطالعة كتب القوم ، فلم يغادر علماً إلا وله فى حل عقده تحريرات وبدائع تحقيقات ، واجتمعت لديه نفائس من ذخائر ثمينة على تحقيق مشكل واحد ما يحير الألباب والأفكار. وقد أسلفنا ذكر دأبه الشريف فى مطالعة الكتب ، فكلما تيسر له كتاب من أى مصنف كان من أى علم كان يطالعه من البدء إلى الختام ، وكان رحمه الله يقول : " ربما طالعت مجلدات ضخيمة من كتاب ، غير أنى لم أفز بشئ جديد وعلم حديث ، فكنت أتأسف على ذلك، وربما ظفرت بشئ يسير أو فائدة جديدة فاغتنمت وحسبت أن سعيي أثمر"، حتى سمعت منه رحمه الله يقول: "طالعت جميع مؤلفات الشيخ المحدث عبد الحق الدهلوى المطبوعة وما تيسر لى من المخطوطة، ولم أحصل فيها بشى من علم جديد إلا مسألة واحدة (١)" .

فهكذا كان دأبه فى المطالعة لا كعلماء العصر يطالعون مؤلّفات علم أو علمين أو مما يفتقرون إليه فى التدريس أو التأليف أو الإفتاء ، نعم وليس القوادم كالخوافى ، فكلما اطلع على شئ نفيس وتحقيق عال وحاول ضبطه فى مذكرته كان يقيده بالكتابة ، وله فى ذلك أصول :

الأصل الأول : إنه كان يقيد ما ينحل به عقدة من مشكلات القرآن والحديث أو الفقه والأصول وعلم الحقائق والكلام والتوحيد وغيرها ، أو يفيدها فى الحل استشهاداً وتنظيراً .

الأصل الثانى : إنه إذا سنح له دليل للمذهب الحنفى أو ما يفيده فى التأييد والإستشهاد ، أو كان له نوع ارتباط به على ما انتقل إليه حدسه وربما

(١) قال الراقم : وهذه المسالة كنت حفظتها من الشيخ وقيدتها فى مذكرتى وهى ليست عندى وقد نسيتها الان . منه .

يخفى على الناس فكان يقيده .

الأصل الثالث : إذا كان له تحقيق خاص فى مسألة أو حل مشكل خلاف ما ذهب إليه الجمهور ثم سنح له فى أثناء مطالعته شئ يفيده أو يؤزره أو كان دليلاً على ما يرومه كان يقيده ، كمسألة العماء ، ما ماهيــة العماء ؟ وهل هو قديم أو حادث ؟ وهل هو الوجود المنبسط أو غيره ؟ وماذا أريد به فى قوله ﷺ : «كان الله فى عماء» من حديث رزين العقيلى فيما رواه الترمذى فى "جامعه" ؟ وكمسألة الروح والنفس وما يتعلق بهما من تحقيقات وتنقيحات لم تسمعها الآذان ، وكحقيقة التجلى ، ومسألة المعية الدهرية ، والسبقة الدهرية ، والمعية السرمدية الأزلية ، والمعية الزمانية ، وكيفية إفاضة الوجود من البارى جل ذكره على المقدورات الأزليــة ، ومسألة صدور الحادث المادى من القديم المجرد ، وحقيقة عالم المثال ، وحقيقة درجات الجنة، وطبقات النار ، وكيفية تكونهما ، وتحقيق استحالة هذه الأعمال الدنيويــة بإشباح جزائها فى الآخرة سواء بسواء ، وصيرورة هذه الأعراض بعينها جواهر فى دار الآخرة ، وعدم فناء الأعراض ، وحقيقة التشكلات البرزخية وتصويراتها ، وتحقيق عدم انقراض الذكر من العباد المؤمنين فى القبر وفى الجنة إلى أبد الآباد وغيرها من باب الحقائق الغامضة والمعارف الإلهيــة ، ومشكلات العلوم ومعضلات الفنون مما يشكل استقصاؤه . فهذا ما تنقح لى ملخصاً من ضبط أصوله وعاداته ، وأشياء أخر هنا يمكن اندراجها فيها .

ثم له فى تقييده وجوه :

الوجـه الأول : إنه إن كان شيئاً سمح به صدره يذكره بلفظ موجز وتعبير منقح من غير مزيد البسط والإطناب .

الوجه الثانى : إنه إذا كان تحقيقاً لغيره ففيه وجوه : فإما كان ينقله

بلفظه ، أو كان يلخصه فى عبارته ، أو كان يحيل عليه بالمراجعة برمز الصفحة إن كان المنقول عنه مطبوعاً ، وإلا يكتفى بمجرد الحوالة . فهكذا قد اجتمعت عنده ذخائر من حل جميع المعضلات العلمية ، وعلى ذلك جبلت فطرته السليمة من بدء نشأتها ، لم يحاول تأليفاً للإشتياق أو لإفادة القوم أو لإذاعة صيته فى العالم ، بل كأنه لم يتفرغ له أو لم يرده إيثاراً للخمول . وربما يقول : كفى لهم من التحقيق والعلم أن خاضوا فى بحار علوم السلف واستفرغوا جهودهم وأتعبوا نفوسهم ، علا أنه قد ندرت البضاعة العلمية وخمدت اللواعج الطبيعية ، فماذا يغنيهم ما نذكر لهم اه . فلو عزم على تأليف لغرض من تلك الأغراض التى بيناها لك لسالت بطحاء العالم بعلومه وتحقيقاتـــه ، ولاستنارت أنواره اللامعة فى أرجاء البسيطة ، ولملأت الدنيا معارفه شرقاً وغرباً ، ولنالت فضلاء العصر ضالتهم عجماً وعرباً ، فدار الكنانة على معلاها ، وفخار الحلبة بمحرز مداها . بيد أنـه قد بعثته على تأليف عدة رسائل الضرورة الدينية والخدمة الإسلامية لما تألم قلبه وتصدعت كبده ، وسنذكرها . ورتب رسائل فى بعض مهمات الحديث من المسائل الإختلافية بين أرباب المذاهب ، ملتقطاً لها من ذخائر مذكرته بإصرار وإلحاح من تلامذته وأصحابه ومستفيديه ، ذباً عن حريم المذهب الحنفى ، ودفعاً لطعن الحسّاد والجاهلين . وبالجملـــة هذه الرسائل المذهبية كانت درراً مبعثرة فى مذكرته وبرنامجته ، رتبها نوع ترتيب على شكل تأليف ، ولذا تراها مشحونة بالإحالة على الكتب من غير سرد جميع عباراتها ، ولو رتبت رسائله تلك على عادة مؤلفى العصر الحاضر أو على عادة المولعين بالبسط والتفصيل لصار كل رسالة منها فى مجلدات ولا ريب ، علا أن طبيعته أيضاً كانت مولعة بالإيجاز والإختصار ، ولعل رحمه الله قد ظن أن الإيجاز كمال فى التحبير ، فبلغ إلى ذروة سنامه وأقصى غايته حتى صار فيه نسيج وحده ونظير نفسه ، وربما تشمئز منه الطبائع التى لم تستأنس بالمشكلات والغوص

فى الغمار، ووقع بعض فى صنيعه هذا وعابوا عليه ديدنه هذا ، نعم هان على الأملس ما لاقى الدبر . وقد صدق المتنبى حيث قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً * وآفتـه من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منـه * على قدر القريحـة والعلوم

وأيضاً قال :

إذا كانت النفوس كباراً * تعبت فى مرادها الأجسام

ومع هذا الإيجاز والإكثار من الإحالة قد بث فى كل مؤلَّف علوماً ومعارف وحكماً وحقائق ما يطرب المسامع والآذان ، وينشط القلوب والأذهان وأنا أعلن على رؤس المنائر أن كل موضوع ألَّف الشيخ فيه لو توخى أحد شيئاً زائداً فى الباب من جميع كتب القوم ونقَّب ونقَّح وتفحَّص وتصفَّح لخاب وعجز إلا ما شاء الله، فإن الشيخ رحمه الله قد أوعب واستوعب وأتى بالعجب العجاب فأغرب وأطرب، وزاد على كل موضوع على من سلف، وأبدع من عنده بدائع وغرائب لمحت بها أفكاره اللطيفة حتى لم يترك لشفرة محزاً ، ولا فى الأمر مساغاً ، والعيان أصدق شاهد ، فترى إن شاء الله تعالى كل مسألة ألَّف فيها الشيخ رحمه الله كلأ الحابس فيه كالمرسل إذ أمعنت فيها بصرك وبصيرتك ونقَّيت عن كدر الحسد سريرتك والله الموفق والمعين .

ثم إنه لما خصه الله بالقريحة الوقادة والنظر الدقيق والفكرة اللطيفة ذكر شيئاً بشئ لأدنى تأييد أو استشهاد عميق ، أو لوّح إلى تزييف وعرض إلى إسقاط قول وأكثر من الإحالات على الكتب واستغزر من الدلائل والشواهد، فلذا قد يشكل الوصول إلى غور مرامه والبلوغ إلى كنهه ، لأنه كلما وسع العلم وسال فى المناكب والأطراف ودق الفهم وغار الفكر فى الدقائق ولطفت الطبيعـة وقوى الحدس واستشعر بالخبايا فى المقام لا محالة يتسع مجال الكلام

ونطاق البحث بحيث تنوء بالعصبة أعبائه وتنشأ فى المقام المناسبات اللطيفة والإرتباطات البديعة حتى يتعسر تعيين المناط وعماد الكلام ، نعم يحتوى مثل هذه التصانيف على فوائد شريفة وأسرار عالية وحقائق مضنونة ومعارف سامية ككتب شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى ، ومؤلفات أرشد تلامذته الحافظ ابن القيم الجوزية ، وكلام الله تبارك وتقدس، وأصح الكتب بعده بمرئ منا ومشهد ، فالمتكلم يتكلم حسب ما يليق برتبته وجلالة قدره وسعة علمه وجودة ذهنه ودقة فهمه وغناء طبيعته.. وفوق ذلك إن الله تعالى جعل مخلوقه على أنواع غير محصورة، ثم خص كلاً منها بخصائص ومميزات، فالطبائع مختلفة والأذهان متفاوتة ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ولكن يا لهفى ويا أسفى على أن الشيخ رحمه الله قضى نحبه ولم يخلف على أثره نادرة من تصانيفه من شرح "صحيح البخارى" أو "جامع الترمذى" ، أو أماً من الأمهات الست ، أو كتاباً كالتذكرة له على نحو "بدائع الفوائد" للحافظ ابن القيم ، و"التذكرة" للقرطبى ، أو "الأمالى" للسيد مرتضى الزبيدى ، و "الحاوى" للسيوطى ، و"الأمالى" للشيخ ابن حاجب المالكى ، ولو كان لكفى وشفى، وأغنى عن إتعاب النفوس ، ولقرت به العيون وبرد الغليل ، فمات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تطلق عتاق خزائنه ، وقد عزم على شرح مبسوط على "جامع الترمذى" فى آخر عمره ، غير أنه لم يمهله هجوم الأمراض وقلة الفرص حتى اخترمته المنون وحان أجله المحتوم ودفنت منيته فى جدث الثرى معه، فحال الأجل دون الأمل، وحال الجريض دون القريض :

ولم يتفق حتى مضى لسبيله * وكم حسرات فى بطون المقابر

ومع هذا إن الرسائل التى ألفها فى المواضيع المختلفة وطبعت ووصلت إلى

أيدى القوم، وما طبع من بعض "أماليه"، وما كان يلقيه فى الدرس خير علوم ظهر على وجه البسيطة تطمئن به النفس وتنشرح به الصدر. ويلم به شعث القلوب تحتوى على لب المباحث ومغزاها راق مبناها ومعناها ، فهى واسطة العقد بين تصانيف القوم إن شاء الله تعالى ، وسيعود بأوفر حظ من خاض فيها . ولصدق فيه ما قيل :

العين عن قرة والكف عن صلة * والقلب عن جابر والسمع عن حسن

وقد حان أن نذكر مؤلفاته للناظرين والمشتاقين، ولا نطول الكلام ههنا بعد هذا التمهيد الإجمالى والإشارة إلى عاداته وخصائصه وآدابه فى التأليف بذكر نماذج ، منها فنرجئ إنهاء البيان فيها إلى نهزة أخرى . غير أنى أريد أن أذكر شيئاً من فواتحها وخواتمها وجملا مقتبسة من خطبها ، ليدل الناظرين على ما كانت للشيخ من مكانة علياء شامخة وقدم راسخة فى حقائق العلوم وغوامضها، فإن على فواتح كتبه دلائل باديـــة وبينات للبصير الناقد والخبير المحقق ، فإن المحنّك لا تقرع له العصا ، والعاقل تكفيه الإشارة، والله المستعان وعليه التكلان :

١ - فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب (١) .

جزء متوسط تم فى ١٠٦ صفحات ، أوّله :

"اللهم لك الحمد حمداً دائماً مع خلودك ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون علمك الخ" .

ثم قال :

" أما بعد فهذه أطراف وجمل من الكلام فى حديث الفاتحة خلف الإمام ، من طريق محمد بن اسحاق ، وبيان ما فيـه من

(١) تأليفه فى سنة ١٣٣٨ الهجرية . منه .

ملاحظ السياق ، كشفاً عن مغناه ومبناه ، ورشفاً عن مغزاه ومعناه ، لم أتفرغ لإيضاحها إيضاحاً كنت أرتضيه ولا إلقاءً على النجى على ما يكفيه ، نعم مداخل بحث هى شعوف وذكرة ، لا تغنى عن مزاولة ريّضة وأعمال فكرة ، والشأو فى الاعتبارات الآتية فى الكلام شأو واسع ، والمسافة من العلوم العربية سفر شاسع ، والموضوع خير كله ، نعم إن غرضى أن أحصل على غرض الشارع أولاً ، والشأن فى الغرض ، ثم لم أخرج عن أقوال أصحابنا وإن نزلت عن بعضهم إلى بعض ، ولا ينبغى لعاقل أن يفسد دينه بدنياه ويجعل عاجلته على عقباه ، وما توفيقى إلا بالله ، وهو حسبى ونعم الوكيل . ولتسمّ بـ "نزل الرفاق فى حديث محمد بن اسحاق" أو بـ "فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب" آه .

وقال فى خاتمته :

"فاعلم أنى ما كتبت هذه السطور بقصد الرد على الشافعية ، وإنما كتبتها ليعلم وجه الحنفية فى اختيار الترك ، فكنت من المنصتين لا المنازعين ، فإن كنت ممن يستطيع القيام بالفرق بين هذين المقامين فراعه وصلى خلفى وأجزنى ولو بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها وحيا الله المعارف (١) :

مساحب من جر الرفاق على الثرى * وطاقات ريحان جنىّ و يابس
وقفت بها صحبى وجددت عهدهم * وإنى عـلى أمثال تلك لحابس

آه".

---

(١) سبحان الله ما ابدع هذه الكلمات الحاليه" درر و حكم نثرت من قلم الشيخ رحمه الله ، اجل فيها قداح نظرك تزدک علماً الى علم و نوراً فوق نور ، نعم صدق من قال : كلام الملوک ملوک الكلام ، و هكذا جميع كلماته تحتوى على مغزى الكلام ، ولذا نبث منها شيئاً هديه" للناظرين والله الموفق والمعين . منه .

٢ ـ خاتمة الخطاب فى فاتحة الكتاب

جزء لطيف بالفارسية فى الموضوع السالف ، ألفه فى يوم أو يومين فى شرخ شبابه وابتداء عهده بالتدريس فى دار العلوم الديوبندية ، من غير مراجعة كتاب ، وعليه تقريظ لشيخ العالم شيخه مولانا المحمود قدس سره ، أثنى عليه وعلى دقة نظره وعلى إجادته ، ليس الآن بين يدى حتى أذكر صدره ، وأما ختامه فيما أحفظ فهذا :

وإذا كنت فى المدارك غراً * ثم أبصرت حاذقاً لا تمار
وإذا لم تر الهلال فسلم * لأناس رأوه بالأبصار

٣ ـ عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام أو " حياة المسيح بمتن القرآن وشرح الحديث الصحيح "(١)

جزء متوسط حافل ، كمل فى ٢٢٢ صفحة ، بدايته :

" الحمد لله الذى جعل الحق يعلو ولا يعلى ، وجعل كلمته هى العلياء ، وترك الباطل زبداً رابياً ، يذهب جفاء أو هواء ، وكلمته هى السفلى ، وعاقبته هى السوأى الخ " .

ثم قال :

" أما بعد فهذه سطور أو فصول سميتها : " عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام " ، كنت أمليتها على الطلبة على طريق العجالة ، والآن فى ثانى عشر شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين من المائة الرابعة عشر كتبتها على سبيل الرسالة ، وفق

(١) ألفه فى رمضان سنة ١٣٤٣ الهجرية . منه .

الله الأمة المحمدية كلها للرشاد والسداد ، وجنبهم عن الزيغ والإلحاد ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤف بالعباد الخ" .

وختامه :

"لبيك أللهم ربى وسعديك، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وما سبح لك من شئ يا رب العالمين ، على محمد بن عبدالله خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الشاهد البشير الداعى إليك بإذنك والسراج المنير وعليه السلام ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب آه" .

سمعت عن الشيخ رحمه الله : "إنى أردت فى هذه الرسالة أدلة حياة سيدنا عيسى عليه السلام ونزوله قرب القيامة ، ما استنبطت من القرآن صدعاً بها أو إشارة إليها ، ولم أرد سرد الأحاديث فى هذا الباب واستيعابها ، نعم ذكرت قدراً منها استطراداً ، وأفردت جزءً آخر لسرد الأخبار والآثار مستوعبة محصاة" .

ثم إنى وجدت فوق نسخته المطبوعة بخطه : "حياة المسيح بمتن القرآن والحديث الصحيح" .

٤ ـ تحية الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام (١)

سفر متوسط بديع جاء فى ١٥٠ صفحة ، فاتحته :

" الحمد لله الذى أيد الحق وشيده ، وأعلى مناره ورفع رأياته بحيث صفقت بين أجنحة الملائكة ونصر أنصاره ، والصلاة

(٢) الفها فى جامعه" دابيل سنه" ١٣٥١ الهجريه" . منه .

والسلام على نبي الهدى الخ" .

ثم قال :

"وبعد فهذه حواش تفتر عن لؤلؤ رطب وعن شنب ناهيك عن شنب وتبسم عن بشر ونشر ، كافيك من أصل ومن إرب ، وتطاق لك عن بلج جبين وثلج يقين وشرح صدر ونور مبين ، أخذت من العربية أعربها وأغربها ، ومن نكات البلاغة أعذبها وأطربها ، يقدر قدرها من عنى بعلوم البلاغة والبراعة ، أو كان جلى فى تناول قصبات السبق واليراعة فى اريحية تيحان و المعية موفق معان ، علقتها على رسالتى "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام" ، وسميتها : "تحية الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام"، تضمنت تفسير آيات فى إفحام ذلك الملحد العنيد والشيطان المريد الكاديانى الكذانى المتنبي الكافر عند الأقاصى والأدانى ، وإخراجه من العلم والفهم والدين والإسلام والهدى ، وإلحاقه بالشيطان الرجيم ، وإيقاعه فى هوة الردى ، والله الموفق والمعين ، وبه نستعين ، وذلك سنة ١٣٥١ الهجرية ، خدمت بها أهل الحق وأعوانه ، وآل العلم وإخوانه ، وادخرتها عند الله تعالى فى الآخرة والأولى الخ" .

ومما قال فى خاتمته :

"فمن ادعى أن الله سبحانه سماه بكذا وكذا يسلمه من اتبعه على الإلحاد فى الأسماء ، واما أن يصدق الأسماء المعروفة لغيره على نفسه وأنه المراد بما فى القرآن والحديث، فهو كفر وإلحاد منه، لا يتبعه فيه إلا من أعمى الله بصيرته — إلى إن قال — :ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" .

٥ ـ إكفار الملحدين في ضروريات الدين .

رسالة حافلة تمت في ١٢٨ صفحة بدؤها :

"الحمد لله الذي جعل الحق يعلو ولا يعلى حتى يأخذ من مكانة القبول مكاناً فوق السماء الخ" .

ثم قال :

" أما بعد فهذه رسالة في واقعة فتوى قصدت بها النصح والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، سميتها : "إكفار المتأولين والملحدين في شيء من ضروريات الدين" ، آخذاً للإسم والحكم من قوله تعالى : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا، أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة ، إعملوا ما شئتم . إنه بما تعملون بصير» .

وقال في ختمها :

" فكان موضوع الرسالـــة ما ذكرنا لكن في أثناء التأليف انجر البحث عند الكلام في مسألة التأويل إلى نقول أخر ، والشيء بالشيء يذكر ، فانضم إليها أطراف وذيول لعلها تفيد الناظرين، فليس من الدين أن يكفر مسلم ولا أن يغمض عن كافر ، والناس في هذه المسألة في هذا العصر على طرفي نقيض ، ولقد صدق من قال : إن الجاهل إما مفرِط أو مفرِّط ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وهذا آخر الرسالة وختام المقالة ، وما أريد بها إلا دعوة صالحة من طلبة العلم بحسن العاقبة وخير الخاتمة ـــ إلى أن قالـــ :

وقد وقع الفراغ من جمع هذه الرسالة في أسابيع من سنة ١٣٤٣ الهجرية

(ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين من الهجرة) .

٦ - التصريح بما تواتر فى نزول المسيح(١)

رسالة لطيفة كملت فى ٤٤ صفحة ، جمع الشيخ رحمه الله فيها أحاديث نزول عيسى عليه السلام من جميع المظان من كتب الحديث مما انتهى إليه نظره الوسيع وفكره الغائر ، وطالع لتخريجها مجلدات كثيرة من المسانيد والجوامع والصحاح والمعاجم مستوعبة ، حتى جمع سبعين حديثاً فى هذا الباب بين صحاح وحسان ، وقد زاد قدراً كثيراً على من سلف من الأمة ممن حاولوا فيه التأليف ، حتى إن القاضى الشوكانى لم يقدر فى رسالته " التوضيح فيما تواتر فى المنتظر والمهدى والمسيح " بأن يجمع أكثر من تسعة وعشرين حديثاً مع سعة إطلاعه ، وكثرة الذخائر القيمة من كتب الحديث فى بلاده ، وضم إليها من آثار الصحابة رضى الله عنهم فى هذا الباب ما اطلع عليها ، وهى نحو ثلاثين أثراً ، فجاءت رسالة مأيَّة حافلة فى بابها يتيمة بين أترابها ، رتبها أحد أصحابه مفتى دار العلوم الديوبندية محترمنا ومولانا الفاضل محمد شفيع الديوبندى دام فضلهم ، بدئت بقوله :

"الحمد لله الذى بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه الخ"

وختمت بأثر وهب بن منبّه : « وظنوا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه » .

٧ - نيل الفرقدين فى مسألة رفع اليدين

جزء حافل كمل فى ١٤٥ صفحة بقطع متوسط ، افتتح بقوله :

"الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك

---

(١) ألفها حين الافاضة" بديوبند . منه .

ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً الخ". ثم قال: "أما بعد فهذه نبذة فى مسألة رفع اليدين قبل الركوع وبعده وبين السجدتين وبعد الركعتين وما يدور من النظر والمعنى فيها فى البين ، سميتها : " نيل الفرقدين فى مسألة رفع اليدين " ، ما قصدت بها إخمال أحد الطرفين ولا يستطيعه ذو عينين ، وإنما أردت بها أن يبد كل واحد من الفريقين وجهاً من الوجهين ، وهما على الحق من الجانبين ، وليس الاختلاف اختلاف النقيضين بل اختلاف تنوع فى العبادة من الوجهتين ، وكل سنة ثابتة عن رسول الثقلين تواتر العمل بهما من عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم على كلا النحرين ، وإنما بقى الاختلاف فى الأفضل من الأمرين ، ولو لم يكن للمرء ضيق صدر لوسع الجنبين ، وقد بين الصبح لذى عينين ، وإذا تقاعس أحد وتفارط آخر حل البين فى البين ، ومن سلك طريق الجدل رجع بخفى حنين ، وقد أتعب الناس موانعهم الداخلية فصرفهم ذلك عن تعديل الكفتين ، هذا ومن لى بالهين اللين ، يستن مع الإنصاف شرفاً أو شرفين ، ويجارى معه طلقاً أو طلقين والله الموفق وبه نستعين . ثم إنى أكثرت من الإحالة على كتب الحديث وإن لم أنقل من لفظها إلا من بعضها، وذلك تحسن فى الحديث لإكثار المخارج ، وإن أحوج الناظر إلى مراجعة من خارج ، فإن شاء أحد فليراجع وإلا فلا ينازع ، ولم أكثر من نقل كلامهم فى الرجال وما فيه من كثرة القيل والقال ، لأنه ليس عندى كبير ميزان فى الاعتدال ، وبعضهم يسكت عند الوفاق ويجرح عند الخلاف ، وإذا دعيت نزال ، وهذا صنيع لا يشفى ولا يكفى ، وإنما هو سبيل الجدال ، نعم

اعتنيت بتعيينهم وإفادة معرفة عينهم ، فيستطيع الناظر من المراجعة والمطالعة ، ويتمكن من تخمير رأيه لا بالمسارعة ، وحسبي الله ونعم الوكيل، وكان ذلك سنة ١٣٥٠ من المائة الرابعة عشر حين إقامتي بمدرسة تعليم الدين بدابهيل فى نحو من شهر ، ألفتها من قطعات كانت اجتمعت عندى والله ولى الأمور اﻫ".

وقال فى خاتمته :

"لا يخفى أن هذا البحث فى هذا الشأن يحوج إلى طول ممارسة وكثرة مراجعة إلى الأصول والمتابعات والشواهد والاعتبار والتطريق، وإذا كان بين السياقين اشتراك ومغايرة أيضاً فيحوج إلى أنـه حديث واحد أو حديثان ، ومعرفته من أصعب المراحل ، وإذا كان واحداً فهل يأتى هناك ترجيح أو توفيق ؟ أو هو زائد وناقص ؟ أو ذكر كل ما لم يذكره الآخر؟ ثم ينشعب كل بحث إلى ما لا يكاد ينفصل ، وفى كل ذلك للناظر حدس ووجدان ، ثم اختلاف مناسبات الطبائع والقرائح فوق ذلك كله ، ثم من المعلوم أن لا ترادف فى المفردات عند المحققين، وكذا فى المركبات، فضرب زيد عمراً ، وضرب عمراً زيد ، وزيد ضرب عمراً ، كلها تراكيب متغايرة فى المعانى الثوانى ، وكذا : زيد قائم ، وقائم زيد ، وزيده القائم ، والقائم زيد ، فلا يمكن الروايـة بالمعنى بحيث لا يغاير أصلاً ، وقد شاعت ، فهذا أيضاً مرحلة، وقد ذكره فى "الفتح" من باب جوامع الكلم من كتاب الاعتصام، فهذا ونحو هذا وفوق هذا يكون سانحاً وبارحاً ، فلا بد للناظر أن يعمل فيه رأيه لإيلام ولإيضام ، ثم كان الغرض إبراز شئ مما فى المقام ، وبحثاً تحليلياً عما تصور من التركيب فى الإفهام ،

وإنه ليس هم المدعين ونحن المدعى عليهم فى كل ما يرام لا توجيه رد إلى الأعلام أو نقض أو إبرام ، نعم ربما أخذتنى كلمة أريحية فى أثناء الكلام والناظر لما عنده قدامه ووراءه مناسبته السابقة لا تتركه ورأيه ، فليعذره وليعذرنى ولا يجبره ولا يجبرنى :

خليلى غضا ساعة وتهجرا * ولو ما على ما أحدث الدهر أوذرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى * ويتلو كتاباً كالمجرّة نيرا
ولا خير فى حلم إذا لم يكن له * بوادر تحمى صفوه إن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له * حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
تذكرت والذكرى يهيج للفتى * ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين ا ه " .

٨ - بسط اليدين لنيل الفرقدين

سفر لطيف جاء فى ٦٤ صفحة ، افتتحه بقوله :

"الحمد لله عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته ، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد وعلى آله وصحبه وأتباعهم وتبعهم الذين هم إسناد الدين ومن رواته وهداته وبعد فإنه لما طبعت رسالة " نيل الفرقدين فى مسألة رفع اليدين " جعلت على عادتى أحدق إحداقى فى أوراقها وأقلب أجفانى فى أغصانها وأقيد ما يسنح من شئ بعد شئ ، أو يدور بالبال ما بين الغنيمة والفيئ ، حتى حصلت عدة أوراق وعدة أسباق ، لا تكاد تلفى تلك الفوائد بدون إمعان وإيغال ، ونص فوق العنق وتقريب وإرقال ، فوقع

العزم على إشاعتها أيضاً وإذاعتها خشية أن تلحق بالعدم ، كالآثار في وطآت القدم ، والله الموفق ، وسميتها : " بسط اليدين لنيل الفرقدين" ، وذلك سنة ١٣٥١ الهجرية . ومعلوم أن شأن التوفيق والتطبيق بين الروايات المتعارضات ، ليس أن يقوم الموفق مقام الراوى ، ويوفق من جانب الراوى بين روايته ورواية غيره بحيث يبقى مزعومه ومبنى عبارته محفوظاً ، ويتفق مع رواية غيره ، فإن هذا أمر يقل ويندر ، بل لا يكون فى لفظ راو نظر إلى لفظ غيره ، ولا عنده علم به ، ويبنى كل على ما عنده من العلم غير مراع إلى ما عند الآخر ، فيجهد المتأخر ويجتهد أن يوفق بين المتعارضات بحيث تعود كلام ناقل واحد ، ولا يمكنه ذلك فى الأكثر ، ولا يمكن أن ترجع خواص تركيب عبارة مع خواص تركيب آخر أمراً واحداً لا فرق بينهما ، بل إنما شأن الموفق كالمؤرخ ، يلتقط الإثباتات من مجموع النقول ، ويوفق بينها من عنده ويرتب برأيه ، فيأخذ الإثباتات كلها ويجعلها سلسلة ، وتبقى خصوصيات العبارات متغايرة كما كانت ، ومما كنت قلته (١) :

أمــن عهد ربع طالما كان أبكما ... أجبت بدمــع حين حيى وسلما
ووجــد تراه زورة بعد زورة ... على غصص الأزمان نادى وأبرما
وقفت بها صحبي فجاددت عهدهم ... عسـى أن عهــداً ناء أن يتوسما
تهلل وجه الصبح يفتر ضاحــكاً ... عــن الثغر حتى كاد أن يتــكلما

(١) كنت هكذا وجدته بخطه فوق الرسالة من هذه القصيدة العصماء ، ولا علاقة لهما بما ذكره الشيخ فى خطبة رسالة " بسط اليدين " فليتنبه . منه .

تباشـير صبح أوتباشير مبسم — تنفس عـن روح وبشر تنسما
وما ثم إلا مـن حديث قديمه — وتحديث أشجان ووجـد تـكلما
وربـعٍ قـواءٍ كاد مما أبثـه — وأسقيـه دمـع العين أن يتبسما
فقدت به قلبى وصبرى وحيلتى — ولم ألق إلا ريب دهـر تصرما
ومـن عبرات العين ما لا أسيغه — ومـن غلبات الوجد ما كان همهما
ومـن نفثات الصدر ما لا أبثه — ومن فجعات الدهر ما قد تهجما
فأذكـر أزمان الرفاق وأنثنى — على كبدي من خشيـة أن يتحطما
تكففت دمعى أوكففت عنانـه — وصار يجارى الدهـر حتى تقدما
فهـل ثم داعٍ أومجيب رجوته — يجـاملنى شيئـاً دعـا أو ترحمّـا
ولله حمد الشاكرين وشكرهـم — رضى نفسـه مـا كان أكرم أرحما

وأنا الأحقر الأواه محمد أنور شاه الكشميرى عفا الله عنه اه".

واختتمه بقوله :

" وهذه الاحتمالات كالتقادير الممكنة الاجماع ، فهذه ليست مذهباً له وإن ذكرت فى كتب المذهب ، أواختار احتمالاً منها متأخر ، وهكذا الأمر فى حكم ترك القراءة خلف الإمام، هى احتمالات عقلية وإن اختار الشيخ ابن الهمام الكراهة فلا يقال أنه مذهب ، وكذا الأمر فى ترك رفع اليدين وإخفاء آمين ، وحكم المتأخرين لايقال أنه مذهب ، وكذا مذهب الشافعى فى القراءة من الجانب الآخر، ومثل هذا قديقع فى المجتهدين بالنسبة إلى الشارع ، وفى المقلدين بالنسبة إلى إمامهم فاعلمه ، فإنه مهم غاية اه".

٩ ـ كشف الستر عن صلاة الوتر (١)

جزء مفرد فى مسألة الوتر ، استكمل فى نحو ٩٨ صفحة، مفتحه:

(١) الفهاحين الاقامه بدابيل . منه .

" الحمد لله الواحد الأحد الوتر الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ـ إلى أن قال ـ : وبعد فهذه رسالة فى الكشف عن مسألة الوتر وما فيها من الاشتباه العظيم لأهل العلم والذكر ، سميتها "كشف الستر عن صلاة الوتر" سايرت بها مع الخلّص الرفاق ، من شظف نجد إلى ريف العراق :

أخذنا بأطـراف الأحاديث بيننا وسالت بطـاح عندها بالمسائل
وقفت بها صحبى وما ثم موقف ولـكنه مـن عهدنـا بالمنازل

وقال :

فإن شئت فادع الخير والخير للذى هداك وأهدى من حديث المسائل
ومـا هـى إلا عبرة ثم عَبرة تجـدد عهـداً بالـديار المواثل
وما هى إلا ذكرة ثم فكرة تمثل شيئاً مـن حديث الأماثل

وقال :

وهل من كسير البال آذاه دهره لقاءك إلا بـالدمـوع السوائـل
وهل ثم داع أومجيب مرافق بـواد وناد فاصطنعه وسائـل
نعم عندما قدهبت العيس واسترت يدار حديث من شجون الأوائل
فدونك شيئاً دون شئ وإنه لإتحاف أحناف فهل من محاول

ومعلوم أن الأمر يحتاج إلى ذوق ودراية ، وفقه فى النفس واعتبار ورؤية ورواية ، والمرء إذا لم يعط من نفسه شيئاً من الجد والاجتهاد لم يفده بحث الناس فيما استراد من المراد ، ومن لم يذق لم يدر مثل سائر ، وإذا ذاق وادرى فله من تلقائه حكم وبصائر ، وبعد هذا كله فكل أمر من الله بدؤه وهو إليه صائر" .

ومختمه : ولنقم عن المجلس بكفارته : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لآ إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك اه" .

١٠ ـ ضرب الخاتم على حدوث العالم (١)

رسالة منظومة فى نحوأربع مائة بيت فى مسألة : إثبات الصانع الحكيم ، وعلمه المحيط ، وقدرته التامة ، وإرادته الأزلية المستقلة .

قال الشيخ فى المنهية عليها : " سبحان الذى تعطف بالعز وقال به ، وله العظمة والكبرياء ، كتب على كل شئ غيره حكم الدثور والفناء ، واستكثر لنفسه بالقدم والبقاء ، سبحانه ما أعظم شأنه وأكبر سلطانه وأنار برهانه وإن كان وراء الوراء ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء ، أما بعد ، فهذه أبيات لى فى إثبات الواجب تعالى شأنه ، وقدم أسمائه وشئونه وحدوث ما سواه من كتم العدم من عالم الإمكان وما فى غضونه وغصونه ، ورفع الفاعل الإلهى ، وخفض الفاعل الطبعى ، وتوهية المادة ، واللواحق المادية ، ودحض المعدات والأسباب العادية ، وتوجيه الأذهان والآذان إلى مسبب الأسباب ومالك الرقاب ، ذوقاً ووجداناً ، ودليلاً وبرهاناً ، وعلماً وعرفاناً ، وبصيرة وإيقاناً ، يقدر قدرها من عنى بهذه المسائل ورمى إلى مفاوز الأفكار والمخايل ، لم أتفرغ لإيضاحها وشرحها ، ولم أر أيضاً رأى إعدامها وطرحها ، فأفرغتها معراة كذلك فى قالب الطبع ، اتكالاً على صرامة الرأى وسلامة الطبع من الناظر الدارى والذكى الوارى والقارئ القارى ، وسميتها : " ضرب الخاتم على حدوث العالم " ، وكلما ذكرت فى الحواشى رقم الصفحة ولم أذكر الكتاب فهو من " الأسفار " (الأربعة للصدر الشيرازى من أرشد تلامذة باقرداماد ، صاحب " الأفق المبين " و " القبسات ") . فليراجع إليها وقد كان ذلك سنة ١٣٤٥هـ ، اهـ" . وحدثنى الشيخ قدس سره أن موضوع الرسالة سرد أدلة

(١) ألفها فى عهد اقامته بديوبند . منه .

إثبات البارى جل شأنه ، ولما كان فى عنوان إثبات البارى نوع شناعة وقباحة فلذا لم أرتض به وغيرت عنوانه إلى حدوث العالم ، والمفاد واحد .

وقال رحمه الله : ذكرت فى هذه المنظومة روح ماعندهم فى الإلهيات والطبعيات القديمة والجديدة .

وقال رحمه الله : نقبت فى هذه المسألة جميع ماعندهم ، واستقريت جميع كتبهم ، واطلعت على رسائلهم المفردة فى هذا الموضوع ، وسابرت فيه أقوالهم وآراءهم ، وحدقت فيها بصرى وأجلت فيها قداح نظرى ، فلم يأت أحد بمايسمن ويغنى من جوع ، حتى إن محققنا الجلال الدوانى ألف فيها رسالة مفردة سماها : " الزوراء "، والحق أنه لم يأت بما يشفى ويكفى على أصولهم ، بل لا ينجح ولا ينجع ، و لفظه فيها : ''بے مغز''. ولهذاشمرت لها عن ساق الجد فمخضت زبدها واخترت نخبها ، وأومضت إلى أشياء لم يتنبهوا لها أصلاً اهـ، هذا وابتدئت بقوله :

تعالى الذى كان ولم يك ما سوى ... وأول ما جلى العماء بمصطفى
مسبب أسباب ومالك ملكه ... فمن آخذ مهوى ومن آخذ هدى
فسبحان من برهانه كل آية ... وفى كل شأن منه شأن قد اختفى
وسلسلة الأسباب سلسلة هوت ... ربطنا بها شيئاً فشيئاً إلى المدى

واختتمت بقوله :

فخذ فى حدوث العالم البحث موعباً ... و هاك نكات فيه لم تلفها فها
و توهية الأسباب والمادة التى ... يغالط فيها الناس بادئ ما بدا
فصورت فى الأبيات تمثال فكرتى ... و ذكرت معنياً بأمثالها الحمى
أنا الأحقر المدعو أنور شاه من ... مضافات كشمير جزى الله من جزى

١١ - مرقاة الطارم لحدوث العالم

رسالة لطيفة فى تقرير حدوث العالم وتقريبه إلى الأذهان بنظائر وبينات وشواهد ، كملت فى ٦٢ صفحة . بدأها الشيخ بقوله :

" الحمد لله الحى القيوم حمداً يبقى ببقائه ويدوم من أزل الأزل إلى أبد الأبد ، والصلاة والسلام على جملة رسله وأنبيائه ، وسيما خير خلقه وخيرة أنبيائه محمد وآله وأصحابه بدون حد وعد ، أما بعد ، فهذه رسالة ومقالة فى مسألة حدوث العالم التى هى من قديم الزمان تحديثاً وحديثاً ، قد سعى الناس فيها قديماً وحديثاً سعياً حثيثاً ،لم يثبت فيها للناس قدم، وأن كيف الوجود بعد العدم ؟ وكيف يعقل حدوث الزمان ؟ ومن أى حين ابتدئ به من الأحيان ، وما كان حين لم يكن من التمادى المتوهم فى الأذهان . وهذه الرسالة من نفثات صدرى ونتائج فكرى ، لعل المعتنى بها يقدر قدر من عنى بها وعاناها ويحرز ما أتعب به نفسه من الأفكار وبلى بها وقاساها ، وما أبدى من فرق الصديع وصديع الفجر ، ولقد صدق من قال : إن من لم يذق لم يدر ، وسميتها : بـ"مرقاة الطارم لحدوث العالم" . ثم إن الدلائل على الحدوث إنما سردتها فى قصيدتى " ضرب الخاتم " ، وقد طبعت وشاعت ، وإنما أردت بهذه الرسالة تصوير حدوث الزمان وتقريره وتقريبه إلى الذهن وتيسيره ، والله الهادى لا هادى إلا هو ، وذلك سنة ١٣٥١ هجرية اهـ " .

وختمها بقصيدة له فى هذا المبحث مطلعها :

وذاك اصطكاك عالم الخلق بينه * وعالم أمر عن طوارئ قد خلا

وهذه الرسالة البديعة لما قدمتها إلى شيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبرى متكلم عصره بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هجرية فقال بعد مطالعتها : لقد تحيرت من دقة نظر صاحبها وثلج صدره بهذه العلوم ، وكان لى رأى فى مسألة كلامية

ظننت أنى لم أسبق إليه فرأيت أن الشيخ قد سبقنى إلى مثلها ، وإنى أفضل هذه الوريقات على هذا الكتاب " الأسفار الأربعة " ، وكان الكتاب أمامه ، ثم أثنى على الشيخ كثيراً وذكر ذلك فى كتابه " موقف العقل والعلم " ، وأرى أنه فى الجزء الثالث منـــه ، ولم أر أحداً فى طوائف أهل العلم أنه قدر هذه الرسالة مثل تقديره ، نعم إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه .

١٢ - " سهم الغيب فى كبد أهل الريب "
والإسم التاريخى : " قسى سهم الغيب "

رسالة وجيزة تمت فى ٢٢ صفحة ، ألفها الشيخ رحمه الله فى ريعان شبابه إذ بلغ من سنه إلى عشرين عاماً وشئ حين الإقامة بدهلى ، دفاعاً عن حوزة الملة الحنيفية ، كان رجل من قاطنى بريلى قدم دهلى وألف رسالة فى إثبات أن لسيدنا خاتم الأنبياء ﷺ علماً محيطاً بجميع الكليات والجزئيات مما كان ويكون من غير فرق بينه وبين علم علام الغيوب إلا فرق العرضية والذاتية ، وشنع على أهل الحق والهدى بما تقشعر منه الجلود وتنشق الأكباد ، فصنف الشيخ رحمه الله رسالته هذه للذب عن الحنيفية السمحة ، فكوى على شفتيـــه وألقم فى فيه حجراً ، وقد جرى الشيخ فيها على ديدنه ، فكان بدل اسمه ووطنه ، وعزا الرسالة إلى عبد المجيد الدهلوى ، واختلق هذا الإسم ، ولم يكن له مصداق ، فعزى الشيخ رسالته إلى عبد الحميد البرياوى كفاحاً سواء بسواء ، هكذا أنبأنى رحمه الله بكشمير ، افتتحها بقوله : " سبحان الذى يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء الخ " ، والرسالة بالأردوية ، واختتمها بقصيدة لـه فى مدح أهل الحق والهدى أئمة الفضل والتقى الشيخ القطب العارف مولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، والشيخ الفقيه المحدث مولانا شيخ الهند محمود الحسن الديوبندى ، والشيخ المحدث مولانا خليل أحمــد

السهارنفوری رحمهم الله تعالى ، مطلعها :

ليسفر صباح الصدق والحق والهدى * ليعل الصواب المحض وليمكن الدجى

ومقطعها :

هم الركب خذ آثارهم وامش أثرهم * فهذا الصراط المستقيم إلى الرضى

اهـ".

١٣ - كتاب فى الذب عن قرة العينين

كتاب بديع حافل ، ختم فى ١٩٦ صفحة ، ألفه الشيخ رحمه الله فى عهد الإقامة بدهلى ، لم أظفر إلا بنسخة منه ، وقد ضاعت منه أربعة أوراق من صدره ، ومنشأ تأليفه أن للإمام الحجة الشاه ولى الله الدهلوى — صاحب " حجة الله البالغة " و" الخير الكثير " و" البدور البازغة " و" التفهيمات الإلهية " و" إزالة الخفاء " وغيرها — كتاباً نفيساً فى تفضيل الشيخين على الختنين سماه : " قرة العينين فى تفضيل الشيخين " ، فقام للرد عليه أحد من الروافض الجهلة وصنّف كتاباً فأزعج الشيخ رحمه الله ، فألف كتابه هذا فى انتصار " قرة العينين " والذب عن حمى الملة الإسلامية والاعتصام للحق الصراح ، واحتوى على غرر المسائل وبدائع النقول المفحمة ، وكان الشيخ رحمه الله يحيل عليه فى بعض الأبحاث ، وهذه الكتب الثلاثة كلها بالفارسية . قال الشيخ فى خاتمة كتابه :

> "این ست آخر کلام معترض که بغایت مصارحه ومکافحه جواب دندان شکن وے داده شد ، قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . اما باشد که در اثناء مطارحه گاهے سخن بطور مجاراة مع الخصم گفته ومسایرت وی وارخاء عنان در الزام وافهام او نموده باشیم ، امید از ناظرین آنکه هر مقالے را بر محل خود فرود آرند ، ولکل مقام مقال ، توفانا الله تعالى على حقيقة الديانة والاطاعة وطريقة السنة والجماعة ، وحشرنا معهم آمين ثم آمين اهـ".

١٤ - خاتم النبيين (بالفارسية)

رسالة هى خاتمة تصانيفه ، بسقت فروعها فى ٩٦ صفحة ، ألفها رداً على الفئة القاديانية والفئة المرزائية الكيدانية ، وهى تفسير لقوله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ، أودع الشيخ فيها نكات وأسراراً وهيبة ما يرهف الألباب والبصائر ويروح القلوب والخواطر ، احتوت على حقائق سامية ربانية وبدائع حكم إلهية يبهت لها الخيال وتحار لها العقول ، ستحسن أوان مطالعتها أن المزنة السحاء يهطل بديمها أو أن البحر الذاخر يسمح بعبابه ، وأيم الله إن محاسنها الجلية تأخذ بالقلوب ، لاأدرى بأى وصف أصفها ، درر فاق بهائها ، وغرر شاع ضوءها وسناءها ، وزهر فاح أريجها وراق زهائها ، لله من حكم يمانية سمح بها صدره ، ولله من معارف عالية نثرت من سنى قلمه راسلة مقوله ، ولله در القائل :

لله در كتاب كلــه درر * ينال من حاز معناه بــه رتبا

صدرها رحمه الله بقوله :

"حمد وشكر نامحدود مر رب معبود راكه خالق كون ومكان وزمين و زمان است ، وصلاة وسلام نا معدود بر سرور كائنات وهر موجود كه رسول الله وخاتم النبيين وغايت كن فكان است . وبر آل واصحاب وى وكافهٔ امت مرحومه وانجاب وى " :

خداى كه داوار روز جزا ست — بخود آئى خويش نامش خدا ست
بدست وى اين هست بالا وپست — بوى هست شد هرچه موجود هست
وگر نيک بينى همون ذات اوست — دگر جمله اين دفتر آيات اوست
باين بارگه اينكه بانگ درا ست — پس از نوبت خواجهٔ دو سرا ست
محمد كه بد فتح و ختم پيام — عليه الصلاة و عليه السلام
وجودش كه خود آيت ورايت است — همه بود تمهيد او غايت است

وختمها بقوله :

حق تعالى برامه" مرحومه رحم كناد واز الحاد وزندقه اين لعين نجات دهاد اه‘‘ .

ولكن هذا ختام الكلام فى سرد مصنفاته الجليلة المطبوعة ، وقد كففت جرى اليراع فى مجال التحبير وقنعت بالأهم فإن الوقت أقصر والضرورة أقدم ، ومع هذا فقد صبرت وصابرت فإن الشوق يغلب والدواعى تتجاذب والمجال فسيح والقلم مساعد ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم . هذا وقد أطلت بعض الإطالة فى سرد بعض عبارات الشيخ والاقتباس من قبساته ونفثاته، والاقتطاف من حدائقه وروضاته ، فإن ذلك يفتح على البصير المجرب أبواب العلوم إن شاء الله تعالى ، وسيقدر قدرها اليهفوف الحاذق والنطاسى الماهر ، والله الموفق والهادى إلى الصواب .

العرف الشذى لجامع الترمذى

ويناسب أن يلحق بكتبه المؤلفة المطبوعة ”العرف الشذى لجامع الترمذى“ فإن ذلك مما ألقاه الشيخ رحمه الله فى درس”جامع الترمذى“،وضبطه أوان الدرس أحد أصحابه بغاية السرعة والارتجال ، ونحن ندرى أن من المحال أو يقرب منه أن يضبط عند الدرس جميع ما كان يبثه من العلوم والمعارف بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فإن ذلك غير مقدور لأحد ، وكيف وكان بحراً لم يكن له ساحل ، ومع هذا كله لو سلمنا فلإستيعاب الضبط مشكلات أخر، فمنها ما يتعذر فهمه ارتجالاً ، ومنها ما يتعسر تلخيصه بداهة ، ومنها ما يشكل تعريبه مقتضباً ، فلا محالة تقع فى مثل هذا الضبط أغلاط فى النقول والإحالات على الكتب، وانخرام فى الأبحاث ، وإلحان فى العبارات، وأما نفاسة التحبير ونقاء التعبير وغير ذلك من محاسن التأليف فأبعد به فى مثل هـذه المرتجلات ، علا أن ضابطه لم يتحر تأليفاً أو كتاباً ، ولم يحاول إبراز شرح

فى الحديث ، بل تحرى استفادة نفسه ، فإن الذهن يغفل والحافظة تنسى والشوارد تند والفوائد العلمية سوانح وبوارح ، والقلم حبالة لمثل هذه الأوابد ، فضبطه لنفسه ، ثم سنح لبعض الحرصاء على علوم الشيخ أن يطبعه فى تلك الصورة لتعم فوائده لعلماء الأمة ، وكيف ما كان ، فإن هذا الإملاء وهذا الملتقط من الإلقاء علق نفيس احتوى على لباب ما فى الباب من شرح المشكلات وغوامض الحديث ، والإعلام على مخارج الأدلة والروايات ، والإستطراد لمستندات الحنفية مما اطلع به فى كتب القوم أو فتح عليه والاستكثار من غرر نقول أعيان الأمة من كبار المحدثين الذين هم أساطين الحديث وسلاطينه ، كالخطابى ، وابن عبد البر ، والحافظ فضل الله التوربشتى ، وعز الدين بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وابن سيد الناس اليعمرى ، والطيبى ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وبرهان الدين المغلطائى ، والبرهان الحلبى ، والحافظ الجمال الزيلعى ، وابن حجر العسقلانى وغيرهم من أعلام الأمة وأعيان الملة رحمهم الله تعالى . ثم فوق ذلك كله ما يسمح به صدره من شرح لطيف وإبداء أسرار شريفة ، فلهذا الكتاب الجليل منة عظيمة على رقاب علماء الملة بالهند كافة ، وجميع مدرسى الحديث قاطبة ، ولاسيما مدرسى "الجامع الترمذى" ، فإن هذا الكتاب النبيل فتح عليهم الأبواب المنغلقة ، وأرشدهم إلى طرق التنقيب والتحقيق ، ونبههم على مخارج الحل والتفصى عن المشكلات والمعضلات ، فمن بحاره يغترفون ، ومن أنواره يسترشدون ، وبنجومه يستدلون ويهتدون ، ثم ما ينكرون من منته وما يرخون على وجوه محاسنه سدول الإزراء والقدح أو يطعنون فى ركاكة لفظه ، فليس إلا من كفران النعمة ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن لاحاك فقد عاداك ، وهل يستقيم الظل والعود أعوج ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ومن ذلك القبيل أن الشيخ عبد الرحمن المباركبورى فى "تحفة الأحوذى" ينقل منه شيئاً ثم يرد عليه أو يؤاخذ ، كل ذلك من تعصبه مع

الحنفية ويتعامى عن أنه ضبط أحد تلامذة الشيخ ، ليس من تأليفه بقلمه هذا ، ولله در القائل :

أخا العلم لا تعجل بعيب مصنف * ولم تتيقن زلـة منه تعرف
فكم أفسد الراوى كلاماً بعقله * وكم حرف المنقول قوم وصحفوا
وكم ناسخ أضحى لمعنى مغيراً * وجاء بشئ لم يرده المصنف

هذا وللشيخ رحمه الله ذخائر قلمية فى أكثر مشكلات العلوم كما أسلفنا ، ورسائل خطية ، منها حاشية له على "سنن ابن ماجه" ، والأسف أنه قد ضاعت الآن ولا يدرى أين ضيعتها يد الحدثان . ومنها : رسالة فى الهيئة ألفها لبعض أصحابه ، وهو الشيخ مولانا مشيت الله البجنورى ، ورسالة فى مسألة من الهندسة وعلم المرايا والمناظر ، ورسالة فى حقيقة العلم ، ورسالة فى مسألة : "يا شيخ عبد القادر شيئاً لله" ، ورسالة فى مسألة الذبيحة لغير الله ، ورسالة فى علم المعانى مما استدركه على السكاكى والخطيب ، استنبطها من "كتاب سيبويه" و"الكشاف" و"عروس الأفراح" للشيخ بهاؤ الدين السبكى وغيرها . وحواش على "الأشباه والنظائر" لإبن النجيم . وحواش على "الحواشى الزاهدية على شرح القطبية" . وله تلخيصات ، منها : تلخيص "إمام الكلام" للفاضل اللكنوى ، ومنها تلخيص أدلة الحنفية من "فتح القدير" لإبن الهمام وصل فيه إلى كتاب الحج ، وقد أشرنا إليه من قبل ، ومنها تلخيص لبعض المهات من "حياة الحيوان" للدميرى ، وغير ذلك من بعض التلخيصات والتحريرات بعضها من عهد تعلمه وبعضها إذ كان حديث عهد بالفراغ من التعلم ، وبعض من آخر عهده ، وقد أبادت بعضها الطوارق ولا يؤمن على ما بقى من بوائق الضياع ، وإلى الله المفزع والموئل . هذا ما جاد به فكرى واستحضرته طبيعتى فى هذه النهزة ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين .

تكملة وزيادة ..

كنت كتبت كلمة قبل احدى وثلاثين سنة بعد تأليفى لـ" النفحة " فى مؤلفاته ولا بأس بنقلها هنا . فقلت :

مؤلفات المحدث الجليل إمام العصر مولانا
الشيخ " محمد أنور الكشميرى " الديوبندى .

إمام العصر مولانا الشيخ "محمد أنور شاه الحنفى" رحمه الله تعالى المتوفى سنة ١٣٥٢هـ ، من أكابر علماء الإسلام، ممَن أصبح خير مثال لعلوم القدماء، وغوصهم فى الغوامض والمشكلات ، وفى دقة النظر ، وقوة الحافظة، وشدة الاستحضار ، وأضحى يمثل مزايا أفذاذ الأمة فى الجمع بين علوم النقل والعقل ، مع بحث دقيق فى المعضلات التى لم تتوجه إليها العقول ، مع شتى المآثر من الورع ، والتقوى ، والزهد ، والصبر ، والرضا ، وعدم حب الجاه والشهرة ، قلما تجتمع هذه الخصائص إلا فى عباد الله المقبولين ، والمقربين فى الحضرة القدسية الإلهية . وبالجملة فإنه كان آية من آيات الله فى عصره وحجة على العالمين فى علمه وعمله ، وخير أسوة للناس ، ملئ قلبه إيماناً وحكمةً ، وتحلت روحه الطيبة بملكات سامية، ومعارف عالية، وتحلت جوارحه بالتمسك الشديد بأهداب الشريعة والسلوك على الصراط المستقيم ، ما كان يريد تأليفاً فى موضوع ، غير أن الفتنة القاديانية فى الهند أصبحت سبباً لتأليفه فى الرد على الفتنة ، فقام وألف كتباً ورسائل ، فقضى عليها ، وفتنة غير المقلدين الذين كانوا يطعنون بملء شدقيهم على الحنيفية أضحت سبباً لتأليف رسائل فى هذه المواضيع ، وهكذا ؛ وهكذا ألجأته الطوارئ إلى عدة مؤلفات ، وكذا اجتمعت عدة مجلدات من أماليه فى دروس " صحيح البخارى" و"جامع الترمذى" وغيرهما، وكان درسه جامعاً لمزايا وعلوم ; وإذا

أخذ فى تحقيق كلام فكان يلعب بالعقول ، وإذا شرع فى سرد نقول الأكابر فكان يسحر الألباب ، مارأينا مثله قبله ولا بعده ، لايقدر قدره من لم يشاهده ، ولم ير بدائع درسه وخصائص حياته العلمية ، وقد طبعت عدة مؤلفاته ونفدت ، ونحن نذكرهنا ما طبعه المجلس من مؤلفات هذه الشخصية الفذة ، رحمه الله رحمة طيبة مباركة ، ولم نرد بها إلا خدمة للعلم ، ونفعاً للأمة الإسلامية. نرجو الله التوفيق لما يحبه ويرضاه .

فيض البارى على " صحيح البخارى " .

شرح حافل على "صحيح البخارى" فى أربعة مجلدات ضخمة ، له خصائص لاتوجد فى غيره من الشروح (جمع من أمالى إمام العصر فى درس الصحيح) :

الأولى : إشباع الموضوع من سائر المظان البعيدة ، والتقاط غرر النقول فى الباب .

الثانية : استيعاب أدلة المذاهب الأربعة وأقوال العلماء ، وترجيح ما هو الراجح بأصول دقيقة هى من خصائص المؤلف بغاية النصفة .

الثالثة : العناية بذكر ما لم يذكره شراح " صحيح البخارى " والاكتفاء بتلخيص كلام الشارحين فى مواضع ، والحوالة عليه فى مواضع .

الرابعة : اشتماله على نفائس تحقيقات من مشكلات العلوم وأبحاث دقيقة من البلاغة والعربية وأصول الفقه وعلم التوحيد وغيرها .

الخامسة : اشتماله على النقد العلمى والتنبيه على زلات الشارحين مع رعاية جلالة قدرهم بنزاهة اللسان .

وعلى الكتاب تعليقات نافعة مهمة من فضيلة الأستاذ مولانا بدرعالم الميرتهى (رحمه الله) من أصحاب الفيض ، وفى أوله مقدمة مبسوطة ، قام بنشره

إدارة "جمعية علماء الترنسفال" فى جوهانسبرج بجنوب إفريقيا تحت إشراف "المجلس العلمى"، مطبوع بغاية الإتقان فى قطع "نصب الزاية" على نفس الورق الجيد .

العرف الشذى على "جامع الترمذى" .

من أماليه أيضاً التى ألقاها فى درس "جامع الترمذى" إذ كان شيخ الحديث بدارالعلوم بديوبند - منبع العلوم الدينية فى الهند - عنى الشيخ بها ببيان أدلة الحنفية فى المسائل المختلف فيها، وكشف الحال عن أدلة المذاهب الأخرى باستيعاب وإنصاف ، وفيها فوائد هى من خصائص هذا الكتاب ، طبع مرة بديوبند ، وقد أصبح نادراً ، وسيقوم "المجلس العلمى" بنشره ثانياً ، باذلاً جهده فى تحسين محياه بكل ما يفتقر إليه ، ويزيد عليه فوائد من مذكرات إمام العصر رحمه الله ، نرجو الله التوفيق والسلامة والسداد .

مشكلات القرآن .

تفسير للآيات المشكلة من القرآن ، جمعها "المجلس العلمى" من برنامج إمام العصر الشيخ محمدأنور شاه قدس سره ، وهويحتوى على نكات ودقائق وعلوم وحقائق ،زبدة مما قاله أعيان الأمة المحمدية ،وما سمحت به قريحة الشيخ من مضنوناته العالية ، وقد خرَّج كثيراً من حوالاته مدير "المجلس العلمى" الشيخ السيد أحمد رضا البجنورى ، وبقى قدر كثير من الحوالات لضيق الوقت وعدم تيسرتلك الطبعات التى أحيل إليها بالمراجعة مع مقدمة تفسيرية فى نحو تسعين صفحة .

عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام .

كتاب حافل فى حياة عيسى عليه السلام يحتوى على أدلة وافرة من القرآن

والحديث وآثار الصحابة وأقوال أعاظم الملة المحمدية على نهج بليغ وما عداها من الفوائد العلمية التى أدناها تساوى رحلة، وموضوع الكتاب: إثبات حياة عيسى عليه السلام ونزوله من السماء بما يدل عليه قواطع نص كتاب الله، وما يشير إليه، والأحاديث فيها على سبيل المتابعات والشواهد، وقد أفرد رحمه الله رسالة أخرى للأحاديث الواردة فى هذا الباب بغاية الاستيعاب، وستأتى قريباً.

تحية الاسلام .

تعليقات عالية على كتاب "عقيدة الإسلام" له أيضاً، تشتمل على مباحث دقيقة، ونكات رائقة، وفيها فوائد تتعلق بإعجاز القرآن ومزايا بلاغته المعجزة وأبحاث عالية فى كلمة "التوفى"، ومعناها، واستعمال القرآن إياها فى معنى "الموت"، ورسالة للشيخ فى آخرها فى سيدنا إلياس عليه السلام .

التصريح بما تواتر فى نزول المسيح .

رسالة نفيسة له أيضاً، تحتوى على جميع ما ورد من الأخبار المرفوعة والآثار الموقوفة فى نزول عيسى عليه السلام، بذل فيها جهده لمطالعة المسانيد والمعجمات الكبيرة واستخراج الأحاديث منها، وبلغ عدد الأحاديث المرفوعة فيها إلى سبعين حديثاً بين صحيح وحسن، حتى أصبح نزوله متواتراً من ضروريات الدين يكفر جاحده: وعليها مقدمة بقلم بعض أفاضل أصحابه من الأساتذة بدار العلوم بديوبند .

إكفار الملحدين فى شئ من ضروريات الدين .

كتاب له أيضاً، لا نظير له فى بابه، يبحث عما هو عليه مدار الإيمان والكفر، وما وقع من الإلتباس على الناس، وما وقع من الخبط فى مسائل

إكفار المسلم ، وغيره من الفوائد العلمية ، وتحقيق وقوع الكفر بالإنكار من ضروريات الدين ، وتنقيح ضروريات الدين ، واستوعب الموضوع بما ذكره فيه السلف إلى عهد الخلف ، بحيث لم يدع فراغاً فى الموضوع ، وخللاً فى الباب ، وعرضها الشيخ رحمه الله على العلماء للبحث والتحقيق ، لتتفق كلمتهم فى هذه المسألة المهمة ولا يبقى بين علماء الأمة خلاف ، فوافقوا الشيخ كلهم فى تحقيقه ، وقرظوا هذه الرسالة الزهراء الفريدة .

نيل الفرقدين فى مسألة رفع اليدين .

جزء حافل فى أدلة الحنفية ، فى ترك رفع اليدين ووجه أولويته بقول عدل وبيان فصل ، وبيان أن الإختلاف بين الأئمة فى الأفضلية فقط لا فى السنية والحرمة ، ونقل ذلك عن علماء المذاهب الأربعة حتى لم يبق مجال للمشاغب والمجادل ، ورجح مسلك الحنفية رواية وتعاملاً وتعاهداً فى جماهير الصحابة رضى الله عنهم بحيث أصبح بنياناً مرصوصاً لا يتزعزع بعواصف الطعون واعتراضات الخصوم .

بسط اليدين لنيل الفرقدين .

تعليقات له رحمه الله على "نيل الفرقدين"، تبلغ إلى نصف الكتاب فصاعداً، جمعها المجلس مما كتبه الشيخ بقلمه على هوامش " نيل الفرقدين " ، وهى زيادات مهمة جداً .

فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب .

رسالة حاوية لما فى الباب من الأدلـــة على مسألة الفاتحة خلف الإمام

بغاية الإنصاف، أيضاً له ، وتحتوى على فوائد كثيرة ، كما هو دأب مؤلفات الشيخ رحمه الله ، وفى هذا الموضوع رسالة أخرى للشيخ بالفارسية. "خاتمة الخطاب فى فاتحة الكتاب" أصبحت نادرة جداً ، مطبوعة بديوبند .

كشف الستر عن صلاة الوتر .

رسالة بديعة أيضاً له ، فى حقيقة صلاة الوتر، ومذاهب الأئمة وأدلتها والكشف عن مغزاها، وبيان منشأ ما وقع من الاختلاف فى أعيان الأمة فيها، وفيها مسائل نفيسة وأبحاث رائقة فى شتى المسائل، ذكرها رحمه الله استطراداً .

أيضاً محشى بالطبع الجديد، زاد الشيخ بنفسه على الكتاب من فوائد سامية تبلغ إلى ثلث الكتاب فصاعداً، طبعه "المجلس العلمى" مع هذه الحاشية الجليلة .

ضرب الخاتم على حدوث العالم .

قصيدة تحتوى على نحو أربعمائة بيت فى العربية ، على دلائل حدوث العالم ، وإثبات الصانع الحكيم المريد المختار ، وأقام براهين توصل المعتبرين إلى درجة المشاهدة والعيان ، وحقق فيها حدوث العالم وافتقاره إلى محدث قديم ، منزه عن الزمان والزمانيات ، ومقدس عن المكان والمكانيات ، وجاء بخلاصة ما عند علماء الطبيعة وعلماء علم الحياة وغيرهم ، فهى أدق رسالة فى الموضوع وأحواها ، ولكنها دقيقة جداً .

مرقاة الطارم لحدوث العالم .

كتاب له أيضاً فى مسألة حدوث العالم، وتقريب هذه المسألـــة إلى الأذهان ، ودفع إيرادات واستبعادات ، وفيها نفائس من مبتكرات أفكاره الدقيقة ما يدل على تغلغله فى علوم الحقائق وحذاقته فى علوم الفلسفة ، وكأنه شرح لضرب الخاتم .

خاتم النبيين (فارسى) .

رسالة نفيسة جليلة لإمام العصر رحمه الله فى تحقيق مسألة ختم النبوة ، ليس الغرض تنوير الموضوع بالأدلة السمعية ، فإنه أمر مفروغ عنه فى كتب القوم وفى عدة كتب إمام العصر نفسه ، وإنما الغرض تحقيق الموضوع وتنوير زواياه الخفية بتفكير دقيق وتحقيق باهر يدهش العقول ، وهذا آخر مؤلفاته ، ألفه رداً على الفتنة القاديانية .

الشيخ وشئ من فوائده وأبحاثه .

قد أومضت من قبل أن للشيخ رحمه الله فوائد سامية وأبحاثاً نفيسة واستدراكات لطيفة على كثير من الضوابط والقواعد ، وأدناها مما تساوى رحلة شاسعة ، وكنت وعدت ذكر شئ منها نموذجاً للسادة الناظرين ، فإنجازاً لما وعدته وإيفاءً لما عهدته نهدى قطرةً من تلك الدأماء ورشحة من تلك الغادية الهطلاء على ما بى من جمود القريحة وخمود الفطنة ، ولكن الخيل تجرى على مساويها ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، فذقه تغتبط وتحظ بنصيب ولا تكن كالمربوط والمرعى خصيب والله الموفق .

فائدة ١ : قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) قال الشيخ رحمه الله : فيه فوائد ومسائل ، ففيه مسألة النبوة بعد الإيمان بالله ، وأنه يبعث عبداً مفترض الطاعة ، وأن إطاعة الله يعتبر بإطاعة غيره بأمره ، وهى الفاصل فى حق إطاعة الله ، وهو قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وقوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) ، وحديث : « قل من يعص الله ورسوله » لإظهارهما على حدة اقتباساً من القرآن ، ولعل إطاعة أحد بحسب مقتضى العقل إطاعة نفسه ،

وإنما تتحقق الإطاعة بمعرفة إطاعة الغير بأمر المطاع . وفيه مسألة القبح والحسن شرعاً أوعقلاً ، وفيه مسألة التعديل والتجوير ، وفيه الأسماء والأحكام، وفيه الوعـد والوعيد على ما ذكـره الشهرستانى ، وفيه التقدير للخير والشر منه تعالى ، وأن الإنتهاء إلى علم الله تعالى ولذا علمه الأسماء ، وفيه أن الشرف فى العبدية ، وفيه التوبة ، وفيه أنه لا يسأل عن شئ وهم يسألون ، وفيه مسألة المراحم الملكية ، وأنها آخر الحيل وتأتى على كل عاص فإن رحمته سبقت غضبه ، وفيه تفضيل الأنبياء على الكل ، وفيه مسألة الإيجاب والإختيار . فهذه ست عشرة فائدة ، ومسألة استنبطها الشيخ قدس سره برمتها ، ذكرها فى منهيته على رسالته "خاتم النبيين" ذكرناها بلفظه إيجازاً واختصاراً إلا بتغير يسير ، وإيضاحها يستدعى بحثاً وتفصيلاً ، والله المستعان .

فائدة ٢ - قال الشيخ فى رسالته "فصل الخطاب" : لم تنسخ صلاة الليل بأصلها وإنما عادت من الطول إلى التيسير ، وأقلها الوتر عند أبى حنيفة وهو منها فلم ينسخ أصلها وإنما خفف فى صفتها ، وقد أشار البخارى إليه فى الترجمة فقال : باب قيام النبى ﷺ بالليل ونومه وماينسخ من قيام الليل ، وقوله : (يآ أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه) إلى قوله : (سبحاً طويلاً) وقوله : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) إلى قوله : (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) آه . وعليه بنت الشريعة اعتباراتها فى الأحكام والعبارة، فجعلت للعشاء إلى ثلث الليل أونصفه وبعده لقيام الليل ، آخذاً من قوله تعالى: (يآ أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) فإذا كان نصف الليل للقيام بقى للعشاء نصفه ، وإذا زاد على النصف إلى الثلثين للقيام بقى للعشاء ثلث ، وإذا مضى نصف من الليل كان نزول الرب تعالى إلى سماء الدنيا لهذا ، وهو قوله تعالى : (أقم الصلاة طرفى

النهار وزلفاً من الليل) ، ولذاجاء التنويع فى وقت العشاء من الثلث إلى النصف بكلمة "أو" فى الحديث بتنويع فى قيام الليل فى القرآن بها ، وعليه بناء باب البخارى : "باب الدعاء نصف الليل من الدعوات"، كما شرحه " فى الفتح"، وقال : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه) فبنى عليه حديث ثوبان عند "الدارمى" وغيره عن النبى ﷺ قال: «إن هذا السهر جهد وثقل، فإذا أوتر أحدكم فليركع ركعتين ، فإن قام من الليل وإلا كانتا له اهـ». أخذ من قوله : (وآخرون يضربون فى الأرض الآية) فليس فى آخر "المزمل" نسخ لأصل قيام الليل ولا حرف، وإنما هو تخفيف فى الصفة ، فالوتر أدنى ما يكون من صلاة الليل ويكون تجدد فيه وصف الإيتار لا أصله ، ذكره الخطابى فى " معالم السنن " كتجدد الركعتين فى الرباعية بعد الهجرة ، ولعل حضرة الوترية الأحدية فى حديث : « إن الله وتر يحب الوتر » اصطفت الليل، فلذا كانت وتر صلاة النهار صلاة المغرب وهى ليلية، ولا تنافيه الجماعة فيها ، فإن هذه الحضرة لابد أن يكون لها تعلق بالعباد أجمعهم ، فيأتوا ما أحبته واصطفت ، فوجب الوتر مرزوق عن هذه الحضرة ، فلا تكن إن شئت ممن قيل أن العاقل محروم ، وراجع " الفتوحات من حضرة الأفراد" ، فما سيقت آية : (فاقرؤا) إلا لبيان حال صلاة الليل ، لكن لا نصدق إلا بأن يكون مجموع ما اقرأ به تحته والتيسير إنما هو فى القدر وإن لم تسق لبيان أحكام القراءة ، وقال فى الحديث : « فأوتروا يا أهل القرآن » فأحال على القرآن لحال القران ، انتهى كلامه الشريف ، هذا وأصل الرأى وإن كان الشيخ مسبوقاً به ولكن تحقيقه وتنقيحه بهذا النمط البديع مما أن الشيخ أبو عذرتها ، فاغتنمه والله الموفق .

فائدة ٣ = قال الشيخ قدس سره فى " إكفار الملحدين " وغيره ـ وسمعنا منه غير مرة ـ : إن التواتر فى أمور الشريعة عندى على أربعة أنواع :

الأول : تواتر الإسناد، وهو أن يروى الحديث جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب فى كل قرن من القرون ، وهذا تواتر المحدثين ، كحديث : «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ذكر فى "الفتح" أنه ثبت صحيحاً وحسناً من طريق ثلاثين صحابياً (١) .

(قال الشيخ) قلت : وأحاديث ختم النبوة جمعها بعض أصحابى فبلغت أزيد من مائة وخمسين منها نحو ثلاثين من الصحاح الستة . (قال الراقم عفا الله عنه : وليلحق بهذا أحاديث نزول عيسى عليه السلام فإنه قد جمعها شيخنا رحمه الله تعالى ووصلت إلى سبعين حديثاً صحيحاً وحسناً ، ولعل رواية من الصحابة تبلغ إلى ثلاثين نفساً، ولفظها : وإن لم يكن متواتراً كالحديث المذكور لكن المعنى متواتر قطعاً لا محالة) .

والثانى : تواتر الطبقة ، كتواتر القرآن، تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً درساً وتلاوةً حفظاً وقراءةً ، وتلقاه الكافة عن الكافة طبقةً عن طبقة ، إقرأ وارق إلى حضرة الرسالة، ولا تحتاج إلى إسناد يكون عن فلان عن فلان، وهذا تواتر الفقهاء ـ فى أكثر مصطلحاتهم ـ . وقال الشيخ فى " نيل الفرقدين"(٢) : وهذا "القرآن المجيد" كيف تواتر على وجه البسيطة عند المسلمين تواتر طبقة بعد طبقة بحيث لا يوجد أحد منهم لا يعلم أن كتاباً سماوياً نزل على النبى ﷺ وأنه بأيدينا ، ومع هذا لو طلبنا تواتر إسناد كل آية منه لأعوزنا ذلك الأمر وعجزنا اهـ .

---

(١) وما قاله ابن الصلاح: من اثنين وستين صحابياً، وقال بعض: من بضعة وسبعين صحابياً ، وبعضه غير ذلك فلعله يبلغ الى ذلك بمجموع الطرق الصحيحة والحسنة والضعيفة فليتنبه . من الراقم عفا الله عنه .

(٢) ص ٨٨

والثالث : تواتر العمل والتوارث ، وهو أن يتوارث التعامل بعمل بين المسلمين فى كل قرن من القرون ، أى من قرن الرسالة إلى آخر القرون ، والعمل برفع اليدين عند الركوع وترك العمل به وأمثال ذلك المسائل من هذا القبيل من التواتر ، وهذا الثالث قريب من الثانى . وقال الشيخ فى " نيل الفرقدين " : ونظيره فى العقليات أن الضرورى عند النظار ما لا يكتسب علمه بوسط نحو ما يحصل بإحدى الطرق الست عندهم من : الأوليات ، وقضايا قياساتها معها ، والمشاهدات ، وفيها الحسيات والوجدانيات ، ومن المجرّبات ، والحدسيات ، ومن المتواترات فى إفادة تحققها عمن تواترت عنه لافى الحكم المفاد بها ، فإنه قد يكون نظرياً ، نعم وعلم الانتزاعيات والصفات المنضمة إلى النفس أيضاً عند من لم يخص الضرورى بأنه لا بد أن يكون قسماً من غير العلم الحضورى ، بل عممه وهو عند بعض حذاقهم ، والكسبى ما يحصل بوسط ، ثم كثيراً ما يكون عند الإنسان عدة لتحصيل النظرى من المقدمات المخزونة حتى يستمد منها عند سنوح الحاجة فيهيئ لها عدة من سابق حتى لا يعوزها عند الحاجة بخلاف البديهى ، فكثيراً ما لا يدخر لها عدة بل لايذهب إليها ذهن ، فربما يكون النظرى معلوماً ويكون البديهى مجهولاً ، وهذا كثير ، والجاهل بتلك الصنعة يزعم أن ما هو بديهى فإنما يكون معلوماً لكل ، وأن ما يجهل هو الذى قد يكون نظرياً ، فهكذا فيما نحن فيه قد يعوز تواتر الإسناد فى المتواتر العملى ، ولا يعلم كيف يخفى هذا على الناس ومن تمر عليه الدنيا ، ولا يعلمون أن هذا الصنيع يعود وبالاً ويلزم أن الدين قد اختلط من الأول ولم يبق إلى معرفته سبيل يوثق به ، وماذا يحصل ويعود بالتشكيك فى الضروريات ، وذلك كما نقل عن ابن مسعود فى إنكاره أن تكون المعوّذتان من القرآن ، وقد تواتر وجودهما فيه عن ابن مسعود فى الخارج ممن قرأ عليه ، كما أوضحه فى "فواتح الرحموت فى شرح مسلم الثبوت" :

وبالجملة لا يحتاج التوارث المتواتر وتواتر الطبقة إلى إسناد متواتر ، ولا يدفعه خبر واحد ، ويكفى فيما كان مقطوعاً به فى الأصل بقرائن قاطعة تسامع بعد ذلك والله أعلم .

والرابع : تواتر القدر المشترك ـ وهو أن يكون الشئ مروياً بطرق أخبار الآحاد ، وكان بينها نوع تخالف نوعى أو جنسى ، ولكن اتفقت جميع تلك الروايات على قدر مشترك متحد فى الجميع ـ وهذا كتواتر المعجزة ، فإن مفرداتها وإن كانت آحاداً لكن القدر المشترك متواتر لا محالة .

قال شيخنا محقق العصر العلامة العثمانى فى مقدمة " فتح الملهم" : وهذه الأقسام الأربعة للتواتر وإن كانت جزئياتها منتشرة فى كتبهم لكنهم لم يكونوا يذكرونها عند التقسيم ، وأول من ربّع القسمة وسمى كل قسم بإسمه فيما نعلم الشيخ العلامة الأنور أطال الله بقاءه (قدس الله سره) ، وهو تقسيم حسن آه . وقال الشيخ رحمه الله تعالى : وقد تجتمع أقسام (من التواتر) كما فى أشياء من الوضوء كالسواك من المضمضة والإستنشاق . ثم إن التواتر يزعمه بعض الناس قليلاً ، وهو فى الواقع يفوت الحصر فى شريعتنا ويعجز الإنسان أن يفهرسه ، يذهل الإنسان عن التفاته ، فإذا التفت إليه رآه متواتراً ، وهذا كالبديهى كثيراً ما يذهل عنه ويحفظ النظرى ، وإذا علمت هذا فنقول : الصلاة فريضة ، واعتقاد فرضيتها فرض ، وتحصيل علمها فرض ، وجحدها كفر ، وكذا جهلها . والسواك سنة ، واعتقاد سنيته فرض ، وتحصيل علمه سنة ، وجحودها كفر ، وجهله حرمان ، وتركه عتاب أو عقاب اهـ .

فائدة ٤ ـ قال الشيخ رحمه الله : الحديث الصحيح عندى على أربعة أقسام . القسم الأول : ما كان رواته ثقات وعدولاً ، كاملى الضبط والإتقان ، من غير شذوذ وعلة قادحة ، ثم ساعده تعامل السلف . والقسم الثانى : أن

يصححه إمام من أئمة الحديث المتقنين خاصة . والقسم الثالث : أن يخرجه في كتابه من التزام الصحة في ذلك الكتاب ، مثل "صحيح ابن خزيمة" و"صحيح ابن السكن" و" صحيح ابن حبان " و"صحيح ابن عوانة" و" النسائي" ، فهذا عندي صحيح وإن لم يصرح بصحته خاصة ، فكأن التزامه لتخريجه الصحيح دون غيره دليل على صحة الحديث الذي خرّجه . والقسم الرابع : ما سلم رواته عن جرح ، وأن يكونوا ثقات . فهذه أربع مراتب للصحيح ، فالقسم الأول منها أعلاها وأقواها ، ثم وثم إلى الرابع .

فائدة ٥ - اعلم أن الإيمان محله القلب ، قال تعالى : (وقلبه مطمئن بالإيمان ، كتب في قلوبهم الإيمان ، ولم تؤمن قلوبهم ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) ، وقد قرن كثيراً بالصالحات ، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، وقليلاً من المعاصي : (والذين آمنوا ولم يهاجروا ، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ، ومتعلقه أي المؤمن به قد تكون الأعمال أيضاً باعتبار اعتقادها ، فلذلك يطلق عليها أيضاً . والإسلام تسليم نفسه إلى الله ورسوله وإطاعتهما ، ثم هناك مقامات : مقام التمييز للإفتراق في الواقع : (ولكن قولوا أسلمنا) ، ومقام الهداية إلى الإحتياط والتفويض إلى الله ومنه : (أو مسلماً) وهذا إذا حكى حال آخر فلا يخرج الحاكي عن رتبته ، وليحكم بالظاهر فقط وحسابه على الله ، ومقام مدح فيحسن بالأمور الغائبة لأنه الإخلاص والنصوع : (الذين يؤمنون بالغيب) ، ومقام هداية من جانب المتكلم ابتداء وتعليمه لمن يدخل في الإسلام فيحسن إطلاقه على الأعمال أيضاً لأنه يعلمه الناقص ابتداء من عنده ، ومنه حديث وفد عبد القيس بخلاف الحكايــة عن آخر ، وقول البخاري : "باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة" كأنه استثناء مما حققه

فى الأبواب السابقة ، وقوله : "كفردون كفر" أى قد يكون كذلك لا أنه كلية ،وقوله : "ولا يكفرصاحبها" أى لا يقال أنه كافر بل به شئ من الكفر ، وهو من شأن أعماله لا من شأن أعمال الإيمان . وأماحديث جبريل فكأنه عنده بعض شئ وليس منتهى ما جاء فى المسألة ، وبعض العلم لا كل ما انتهى إليه الأمر . وأيضاً فلما لم يعرفه النبى ﷺ ولم تكن هناك قرينة أنه يريد الدخول فى الإسلام ابتداء وعرف أنه يعرف لفظ الإيمان بخلاف وفد عبدالقيس، ففيه: أتدرون ما الإيمان بالله؟ وبالجملة ههنا السائل هوالذى ابتدأ به، فهو قد وصل إليه لفظه فجرى المجيب على أن عندالسائل علماً به وأجاب بما هوجذره وهو الإيمان بما غاب عنا ، فإن الأمر الذى يعد فى عقدالقلب إطاعة وتسليماً لإختيار العبد هوهذا . وبالجملة لما لم يعلم من السائل ههنا أنه يسأل ليعمل بنفسه ، وأنه ليس عنده علم به قبل ذلك جرى الجواب على الأصل لما أن السؤال لمحض جمع العلم وادخاره عنده لا لتدريبه وتمشيته على العمل ، وقوله : "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" لما ذكر الفسوق للسباب وهو أدون أطلق على الأشد كفراً ، أوهومن شأن الكفار ، أوهوناظر إلى حديث: «عصموا منى دماءهم وأموالهم» فإذا أعطاه الإسلام أماناً وعصمة فتعرض له أحد فقد أخذه كافراً ، وإذليس هو فالأول، وهو كحديث: «من قال لأخيه : "يا كافر" فقد باء به أحدهما» على قاعدة: "جزاء سيئة سيئة مثلها"، وكحديث: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وكرجوع اللعن . وهذا مانقلته من مذكرة له رحمه الله.

فائدة ٦ - قال الشيخ رحمه الله فى "كشف الستر عن صلاة الوتر" (١) : ثم ما ذكرناه من التوسط بين التعطيل والتشبيه فى شرائع الأنبياء فذلك يفهمه من عنى بمعرفة مذاهب الفلاسفة والمشبهة ، فالفلاسفة مذهبهم الإيجاب، وأنه

---

(١) ص - ٨٢

تعالى المبدؤ الأول وعلة العلل ، والعلة ما فى طباعها صدور المعاول ، فليس البارى عندهم فعالاً لما يريد ، وقديلبس بعضهم بإطلاق الإرادة ، ولكن يقول: إذا كان حياً وعالماً وقادراً بمعنى "إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل" لا بمعنى "إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل" ، فمن اتصف بالحياة والعلم والقدرة فهو المريد . وبعضهم يقول : حقيقة إرادته غير حقيقة إرادتنا ، لكن مع هذا اتفقوا على أن ما هو صادر عنه فهو واجب الصدور عنه ، وأنه لا يقدر على إعدام العالم، وأن الإمكان منحصر فيما استعدت له المادة وغيره محال، فما لم تستعد له المادة دخل عندهم فى المحال ، فالعالم عندهم واجب الصدور عنه وإعدامه محال ، وكذا إيجاد غير هذا العالم محال وهكذا، وقال الله تعالى بعد الصرائح : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وهذا يدخل فيه مسألة خلق أفعال العباد . وهل من شأن الإمكان الإيجاد ؟ وهل فيه طبيعة الوجوب ولوبالغير ؟ وقدأنكره ابن رشد فى "تهافته" ، وهم يستطيعون فى جانب الوجود أن يعتبر واعلاقة الوجود مع الوجود نفسها قدرةً وإرادةً ، وكيف اعتبروها ؟ وتخيلوها ولكن هذا محض التعطيل ، ويلبسون فى جانب الوجودبأن إرادته لكمالها لا تتردد بين الجانبين وتنحصر فى جانب واحد ، والواقع أن انحصارها إنما هو لوجوب صدور العالم عندهم . فإذا سئلوا عن جانب العدم تلجلجوا وجاء الحق وزهق الباطل ، وبهذا يسقط ما يقال من جانبهم ويخال أن الإيجاب بالذات والإرادة متوافقان لا يتدافعان ، فالإيجاب على حسب الإرادة ووفقها وبالعكس ، فانحصر أحدهما فى الآخر و استتر فيه ، فيقولون: شاء ما فعله وفعل ماشاءه ، ولم يشأ مالم يفعله ولم يفعل مالم يشأه ، وذلك أن القدرة على الجانبين والمخصص الإرادة ، فلا إيجاب . وقد ذكر ابن رشد عنهم ما ذكرنا ، ومع هذا قد صرح بعدم القدرة على الجانب الآخر بل الذى يظهر

من كلامه أن الإمكان عنده هو الاستعدادى وخلافه الممتنع ، ولا إمكان ذاتياً عنده ، والإستعدادى هو الذى ينطبق عليه كلامهم فى مسألتهم : "الحادث بالزمان مسبوق بالمادة والمدة" ، إذيستدعى موضوعاً لا على الإمكان الذاتى ، فكلامهم وكلام المتكلمين لم يتواردا فى النفى والإثبات على محل ، ولم ينبه عليه أحد من الفريقين ، ثم رأيت بعضهم قد تعرض له ، وكذا ليس عند ابن رشد للممكن بالذات الواجب بالغير معنى ، وكذا لا ينقسم الامتناع إلى الامتناع بالذات والامتناع بالغير ، وكذا لعله لا يضع الحدوث الذاتى أيضاً ، وكل ذلك عنده من اختراع ابن سينا ، مع أنه لحاظات عقلية ، وعدم القدرة على الجانب الآخر مصادم للقواطع الشرعية ، فإرادة التوفيق بين الشريعة وبين الفلسفة من هوس الشيطان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم رأيت فى أواخر الثامن من أثولوجيا ونوادر العاشر ما يصرح بما ألزمناهم به ، قال : كل ماصدر بروية وفكرة فيمكن أن لا يدوم ويبيد ، يعنى لتبعه الإرادة ، فإذا لم تتعلق بإدامته باد ، بخلاف ما كان بالإيجاب الذاتى فهو دائم ، وهل يلزم من كلامه حدوث ما بالإرادة والاختيار بتأمل فيه جداً ، والذى يظهر أن الروية عنده غير الإرادة ، وقد أكثر من ذكر الأولى ونفيها عن المبدء الأول ، وصرح به فى موضع من الرقم الخامس باستلزامها حدوث ماروى فيه بخلاف الإرادة ، فذكرها فى غاية القلة كما فى آخر نوادر العاشر ، ولعله يأول إرادة إبداعية كما يقولون بالجعل الإبداعى فى العقول والحدوث الذاتى ، وما ذكرناه عن أرسطو ينفى ما أول به أبو البقاء ، كلامهم فى الإيجاب أنه لا ينفك الفعل عن ذاته ، لا لإقتضاء الذات إياه بل لإقتضاء الحكمة ، وكذا ما ذكره ولى الله على " الصدرا " فى العناية ، فالله تعالى عندهم علة وليس بفاعل ، وعلى لسان الأنبياء فاعل ليس علة ، فجاء الأنبياء عليهم السلام وشرعوا القبلة المسجد الحرام والبيت الأقصى ، وشرعوا قبلة الدعاء السماء

تعالى المبدؤ الأول وعلة العلل ، والعلة ما فى طباعها صدور المعلول ، فليس الباري عندهم فعالاً لما يريد ، وقديلبس بعضهم بإطلاق الإرادة ، ولكن يقول : إذا كان حياً وعالماً وقادراً بمعنى "إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل" لا بمعنى "إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل" ، فمن اتصف بالحياة والعلم والقدرة فهو المريد . وبعضهم يقول : حقيقة إرادته غير حقيقة إرادتنا ، لكن مع هذا اتفقوا على أن ما هو صادر عنه فهو واجب الصدور عنه ، وأنه لا يقدر على إعدام العالم ، وأن الإمكان منحصر فيما استعدت له المادة وغيره محال ، فما لم تستعد له المادة دخل عندهم فى المحال ، فالعالم عندهم واجب الصدورعنه وإعدامه محال ، وكذا إيجاد غير هذا العالم محال وهكذا ، وقال الله تعالى بعد الصرائح : (**ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**) وهذا يدخل فيه مسألة خلق أفعال العباد . وهل من شأن الإمكان الإيجاد ؟ وهل فيه طبيعة الوجوب ولو بالغير ؟ وقد أنكره ابن رشد فى "تهافته" ، وهم يستطيعون فى جانب الوجود أن يعتبروا علاقة الوجود مع الوجود نفسها قدرة وإرادة ، وكيف اعتبروها ؟ وتخيلوها ولكن هذا محض التعطيل ، ويلبسون فى جانب الوجود بأن إرادته لكمالها لا تتردد بين الجانبين وتنحصر فى جانب واحد ، والواقع أن انحصارها إنما هو لوجوب صدور العالم عندهم . فإذا سئلوا عن جانب العدم تلجلجوا وجاء الحق وزهق الباطل ، وبهذا يسقط ما يقال من جانبهم ويخال أن الإيجاب بالذات والإرادة متوافقان لا يتدافعان ، فالإيجاب على حسب الإرادة ووفقها وبالعكس ، فانحصر أحدهما فى الآخر و استتر فيه ، فيقولون : شاء ما فعله وفعل ما شاءه ، ولم يشأ مالم يفعله ولم يفعل مالم يشأه ، وذلك أن القدرة على الجانبين والمخصص الإرادة ، فلا إيجاب . وقد ذكر ابن رشد عنهم ما ذكرنا ، ومع هذا قد صرح بعدم القدرة على الجانب الآخر بل الذى يظهر

والإشارة للإقبال على الله والعبادة البدنية بتقييد جهة فوق المعرفة العقلية المحضة ، وأثبتوا المعاد الجسمانى ورؤية الله تعالى ، وأثبتوا الأفعال الإختيارية له ، وأنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، وشرع إبراهيم عليه السلام شيخ الأنبياء وأبوالأنبياء وإمام الأمة صاحب الملة والقبلة ملته الحنيفية ، وهى الإعراض عما سوى الله والإنفراد له ، وسن رفع اليدين والتوجه والركوع قبل السجود، ولم يكن الركوع عند بنى إسرائيل ، صرح أبو حيان مشاهدة منهم ، ولعل التطبيق الذى ذكره سيف فى "الفتوح" عنهم عن عائشة رهو فى غير الركوع ، وشرع السجود على الجبهة ، وكان السجود عند بنى إسرائيل على جبين واحد من الجبينين ، صرح به فى "فتح العزيز" ، ورفع يديه فى دعائه لمن أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع ، كما عند البخارى من كتاب الأنبياء ، وعلى الحنيفية ما عن زيد بن عمرو بن نفيل عند البخارى للإشارة والاستشهاد، فهذه الإشارات لا يستطيع فهمها المعطل المحض، ونصت الشريعة المحمدية أن فى استقبال القبلة ورفع اليدين إقبالاً على الله ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت ، كما عند الترمذى ، وفى كتب اللغة : نحر المصلى فى الصلاة انتصب ونهد صدره ، أو وضع يمينه على شماله، أو انتصب بنحره إزاء القبلة ، وفلاناً قابله . وفى "شرح الاحياء" عن "القوت" : إن تحت الصدر عرقاً يقال له الناحر ، ومنه : (فصل لربك وانحر) وأن فى القيام والقراءة مناجاة معه ، وأن فى الركوع تعظيماً له كالتعظيم فى الشاهد، نريد أن فى الركوع محض تعظيم له ، وهو وسيلة كالانحناء فى الشاهد بخلاف السجود، فإنه ليس محض وسيلة بل هو انتهاء إلى غاية هو أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، أريد أن الركوع تعظيم يأتى فى البين وينتهى ، والسجود غاية الغايات وليس طريقاً فقط ، كما أن الركوع طريق يجوزه ، وقوله تعالى : (يمريم اقنتى لربك واسجدى) أخذ بمبدأ المبادى ثم غاية الغايات ،

ثم كر على ما بقى فى البين وقال : (اركعى مع الراكعين) وأفاد بتأخيره استيناف لحاظ له ، ولو كان على الترتيب لم يفد استيناف لحاظ مستقل له ، (الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) ومن استيناف اللحاظ قوله تعالى : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) كقول العلماء : ثم اعلم ، وسنت الشريعة المطهرة تحيـــة على الله ، فجاءت الشرائع بأفعال تكون فى الشاهد لتعظيم الكبراء ، وليس هذا تشبيهاً بل توسطاً بين التشبيه والتعطيل والتعظيم عند لقاء الكبراء يكون طريقاً إلى المطلب يجوزونه أولاً ثم يكون العرض ، وكذلك فى الصلاة جعل التكبير أولاً ، إلى آخر ما قال رحمه الله ورضى عنه وأرضاه . فانظر يا رعاك الله إلى هذه الدقة والعلم الغزير ، نعم إذا أنكح الفكر الحفظ ولد العجائب ، كما قاله الجاحظ .

فائدة : ٧ - قال رحمه الله ما قالت الفلاسفة من أن صفات البارئ تعالى عين ذاته ، لو سلمناه فمع تسليمنا إياه خداع بين منهم وتلبيس جلى ، لأنهم لم يثبتوا من صفاته إلا العلم ، وقد تحقق لدى من تفقد آرائهم ومذاهبهم أن العلم عند إمامهم أرسطو وشارحى مذهبه ابن سينا والفارابى كلهم : صفة حصولية ، فلا جرم يكون زائداً على الذات لا عين ذاته ، فكيف يمكن أن تكون صفاته عين ذاته ، فهؤلاء لم يثبتوا إلا العلم ، وهو عندهم حصولى ، فمن أين الصفات ؟ ومن أين العينية ؟ فالذى تفوّهوا بـــه من القول بالصفات ثم عينيتها ليس إلا زخرفة وتدليس للناس ، وإيقاع لهم فى ورطات الوسواس ، فكن على بصيرة وفطنة ، ولايغرنك خضراء الدمنة ، وهكذا حال جميع مزخرفاتهم وخزعبلاتهم ، إذا أمعن فيها النظر وغاص فيها الفكر استبان عوارها ، فلا تدهشك تعبيراتهم الهائلة ، ولا تعجبك إطلاقهم الرائقة ، وما ذاك إلا كالحادى ليس له بعير أو جعجعة من غير طحين .

وقال رحمه الله فيما أفادنا عند درس قصيدتـــه " ضرب الخاتم على حدوث العالم " فى شرح قوله :

تسلسل علات محال وما كذا * بسلسلة الأفعال عن فاعل بقى

إن براهين إبطال التسلسل التى اخترعها الفلاسفة من التطبيق والتضعيف والتضايف والسلمى وغيرها كلها أغاليط صريحة وتسويلات لم يستقم منها شئ إلا برهان تسلسل العلل ، فإنه صحيح ، لأن كل معلول وجوده بالعرض ، فما لم يأت ما بالذات من وراء السلسلة لم توجد ، ولكن فى العنوان شك، لأنه وإن كان ما بالذات فى الطرف جاز إطلاق التسلسل على المتوسطات على هذا أيضاً ، ولذا لعلهم لم يذكروا فى دليله إلا ما يتعلق بما ذكر . وغايـــة ما يقال : أن الإنقطاع كون علة ليس بمعلول انتهى الأمر إليه لا تناهى العدد، كما حققه الصدر الشيرازى فى " الأسفار الأربعة " ، ولعل برهان الوسط لا يحتاج إلى مقدمة وجود ما بالعرض بدون ما بالذات ، وإنما يحتاج إلى أنه لا يوجد الشئ ما لم يكن طرف ليس فى حكم الوسط ، وتنقيحه ما يفضى إلى عدم وجود الشئ الأخير . وما ذكروه فى برهان التطبيق من إبطال لزوم مساواة الكل للجزء فى سلسلتى الانطباق فيجرى فى المتناهى لا فى غير المتناهى، فإجراؤه فى غير المتناهى كما راموه غير صحيح ، إذ لا قدح فى تساوى الكل والجزء فى غير المتناهى ، فمساواة الكل للجزء فى الأمور الموجودة المرتبة بالفعل باطلة ، وأما فى التى لم توجد بعد ولم تنقطع السلسلة فكلا .

وهكذا ما ذكروه فى البرهان السلمى من امتداد الخطين كأنهما ساقا مثلث والإنفراج بينهما على وفق الامتداد ، وإذا كان الامتداد إلى غير النهاية لا محالة يكون الإتساع بينهما أيضاً غير متناه لما فرضنا، ثم وصل الخط بينهما، ولزوم كون البعد الغير المتناهى محصوراً بين الحاصرين - إلى آخر ما قالوا -

فهذا أيضاً أغلوطة جليـــة ، إذ الوصل بين الخطين من خصائص التناهى ، وكيف الوصل بين الاتساع الغير المتناهى؟ حيث هو يبتنى على انقطاع السلسلة وانتهائها ؟ فلا محالة يكون الوصل فيما تحقق وجوده مرتباً بالفعل ، وقد قالوا أنفسهم بمثل هذا ، إذا اعترض عليه المتكلمون من أن حركات الأفلاك عندكم غير متناهية ، وقد أبطلتم اللاتناهى بالبراهين ، فقالوا : هو باطل فى الأمور الموجودة المرتبة بالفعل ، لا الأمور المتعاقبة ، ويقرب من هذا القبيل ما يرد عليهم من قبل المتكلمين : أن الحركات الجزئية للأفلاك لما كانت حادثة عندكم فكيف القول بقدم نوعها ؟ فإذا كانت الجزئيات المنفردة حادثة فلابد أن يكون المجموع المركب منها أيضاً حادثاً .

وما أجاب من قبلهم الدوانى من : أنه لا يلزم من صدق حكم الكل الأفرادى صدق حكم الكل المجموعى ، ألا ترى أن "كل رجل يدخل هذا الباب" و"كل رجل يشبعه هذا الرغيف" يصدق فى الأول دون الثانى ، فكيف يكون حكمهما واحداً ؟ فساقط ، لأن قياس حكم الدخول فى الباب على حكم حدوث الحركات غير صحيح ، فإن وصف الحدوث لها ذاتى ، وعدم صلوح الباب لدخول جميع الرجال إنما جاء من خارج ، وصار هو من إجراء حكم الكل المجموعى، ولولاه لما اختلف الحكم بينهما ولابد . ألا ترى أنه إذا كان كل جزء من أجزاء شئ أبيض ،أو كل فرد من أفراده أسود ،لا جرم يصدق الحكم على المجموع أيضاً: بأنه أبيض أو أسود . فما قاله الدوانى أيضاً لا يخلو عن تلبيس وتخليط ا هـ .

قال الراقم : فهكذا جميع قواعدهم ومسائلهم اختلط فيها المرعى بالمهمل، بل ترى أسماء مؤنقة ما لها من حقيقة ومسميات ما لهم عليها من برهان ، آراء متهافتة وأنظار متساقطة ، لم تثلج بها صدورهم ولم تقنع بها عقولهم ، وكيف تمرع العجزاء ؟ وهل تخضب الساهرة من غير ديمة همراء ؟ لا ولا ، فكن

على يقظة واعتبار، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار. نعم وقد صدق الحريرى حيث قال :

ما أنت أول سار غره قمر * ورائد أعجبته خضرة الدمن

والله المستعان وإليه المفزع وعليه التكلان .

فائدة : ٨ = فى بيان بعض معانى قوله تعالى: (**وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**) قال الشيخ رحمه الله : ومعلوم أن الأمر من حيث الشرع ورعاية منصب الشارع للوجوب وإن لم يكن من حيث اللغة كذلك ، كما أشار إليه فى "جمع الجوامع" ، ولكن لايخفى أنه للأمر بالذى اشتق منه ، وهو يكون جنساً تحته واجب ومستحب ، كالصلاة على النبى ﷺ واجبة ومستحبة على التفصيل المعروف فى أحكامها . وقلت : وما فى الشريعة حقيقة واجبة إلا ومثلها مندوبة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وكذا الصلاة المفروضة حقيقة مركبة من التحريمة إلى التسليم ، وفيها مستحبات ، فينبغى أن يكون الأمر المشتق من مثل هذا الجنس كذلك ، إذ يبعد أن تكون الصلاة المستحبة عليه ﷺ حيث استحبها العلماء غير داخلة تحت قوله تعالى : (**صلوا عليه**) وكذا يبعد أن تكون الصلوات المندوبة أو المستحبات الداخلة فى الصلوات غير داخلة تحت قوله ﷺ : «صلوا كما رأيتمونى أصلى»، فالذى يظهر أن الأمر لوجوب الجنس فى الجملة وأن لايخلوا الجنس من الوجوب، ويبقى تفصيل ذلك الجنس إلى الواجب والمندوب مفوضاً إلى الشرع بعده . قال القاضى أبو بكر ابن العربى فى "أحكام القرآن" تحت قولـــه تعالى : (**أنفقوا من طيبات ما كسبتم**) : المسألـة الثانية فى المراد بالنفقة، وفيه قولان: أحدهما : أنها صدقة الفرض ، قاله عبيدة السلمانى وغيره . الثانى : أنها عامة

فى كل صدقة ، فمن قال أنها فى الفرض تعلق بأنها مأمور بها ، والأمر على الوجوب ، وبأنه نهى عن الردئ ، وذلك مخصوص بالفرض ، والصحيح أنها عامة فى الفرض والنفل ، والدليل عليه أن سبب نزول الآية كان فى التطوع ، الثانى : أن لفظ "أفعل" صالح للندب صلاحيته للفرض ، والردئ منهى عنه فى النفل ، كما هو منهى عنه فى الفرض ، إلا أنه فى التطوع ندب فى "أفعل" مكروه فى "لاتفعل" ، وفى الفرض واجب فى أفعل ، حرام فى لاتفعل . وقال الحافظ ابن حجر فى "الفتح" (١) عن الشافعى : والذى قاله الشافعى فى "الأم" : فرض الله الصلاة على رسوله بقوله : (**إن الله وملائكته يصلون على النبى يآأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**) فلم يكن فرض الصلاة عليه فى موضع أولى منه فى الصلاة اهـ . وألطف منه ما فى "قواعد ابن رشد" (يعنى "بداية المجتهد" لابن رشد الفقيه المالكى) من سجود السهو ، قال : وكذلك تجدهم قد اتفقوا ما خلا أهل الظاهر على أن تارك السنن المتكررة بالجملة آثم ، مثل لو ترك إنسان الوتر أو ركعتى الفجر دائماً لكان مفسقاً آثماً ، فكان العبادات بحسب هذا النظر ، منها ما هى فرض بعينها وجنسها ، مثل الصلوات الخمس ، ومنها ما هى سنة بعينها فرض بجنسها ، مثل الوتر وركعتى الفجر وما أشبه ذلك من السنن ، وكذلك قد تكون عند بعضهم الرغائب رغائب بعينها سنن بجنسها ، مثل ما حكيناه عن مالك من إيجاب السجود لأكثر من تكبيرة واحدة ، أعنى للسهو عنها ، ولاتكون فيما أحسب عند هؤلاء سنة بعينها وجنسها ، وأما أهل الظاهر فالسنن عندهم هى سنن بعينها ، لقوله ﷺ للأعرابى الذى سأله عن فروض الإسلام : « أفلح إن صدق ، دخل الجنة إن صدق » وذلك بعد أن قال له : « والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه » يعنى الفرائض اهـ . وقال الطيبى فى باب القراءة :

(١) ص — ١٣٩ ج — ١١ طبع ميريه .

قال صاحب "الكشاف" فى قولـه تعالى : (وأتموا الحج و العمرة لله) الدليل الذى ذكرنا أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقى الحج وحده فيها ، فهما بمنزلة قولك : صم شهر رمضان وستة من شوال ، فى أنك تأمر بفرض وتطوع ، هذه المسألة مبينة على أن مطلق الأمر للوجوب إلا ما خصه الدليل اهـ . والحاصل أن الأمر بالجنس يوجب إيجابه ، ولكن التفصيل باعتبار المحال والأوقات ، أين تجعله الشريعة واجباً ؟ وأين تجعله الشريعة مستحباً إليها؟ فمن هذه الجهة قلت ما قلت ، لا باعتبار الجمع بين الحقيقة والمجاز ، ولا باعتبار عموم المشترك . ومثله فيما يظهر قوله تعالى : (فاستمعوا له وأنصتوا) وقوله صلى الله عليه وسلم : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » ، فالذى ينبغى أن يكون الإستماع واجباً فى الصلاة وإن كان غير واجب فى غيرها . ثم إنه لا حاجة لنا إلى البحث عن سبب نزوله ، إذ لو كان للنطق فتكون العبرة له لا للسبب ، على ما عرف فى محله . وفى "روح المعانى" : وفى بناء الفعل للمفعول إشارة إلى أن مدار الأمر القراءة من أى قارئ اهـ . وفى "فتاوى الحافظ ابن تيمية" : وقد استفاض عن السلف أنها نزلت فى القراءة فى الصلاة ، وقال بعضهم : فى الخطبة ، وذكر أحمد بن حنبل الإجماع على أنها نزلت فى ذلك ، وذكر الإجماع على أنه لاتجب القراءة على المأموم حال الجهر اهـ ، وفى موضع آخر قال أحمد : أجمع الناس على أنها نزلت فى الصلاة .

(يريد الشيخ رحمه الله تعالى بأنا إن بحثنا عن سبب النزول وجعلناه مداراً ومناطاً للحكم فلا يضرنا أيضاً ، إذ الأقوى رواية نزوله فى الصلاة ، فهى حجة لنا لا علينا ، وغاية ما يرد أنه حجة فى الجهرية لا فى السريـــة ولاحرج . علا أن القاعدة الأصولية وإيراد الفعل مجهولاً كل ذلك يؤيد الأحناف تأييداً ، والله أعلم) .

فائدة : ٩ = فى صدع بعض مزايا قوله تعالى : (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال) . قال الشيخ رحمه الله : لا نخرج فيه عن اللفظ وعنوانه إلى غيره ، وهو فى الذكر لا الصلاة وإن كانت ذكراً ، قوله : (واذكر ربك) الظاهر أن المراد بـه ذكره فى القلب ، ولعله لذا لم يقل : (واذكر اسم ربك) وقال : (تضرعاً وخيفة) ولم يقل : (تضرعاً وخفية) فالخيفة من عقابه أمر فى القلب ، كما قال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . وعند الترمذى من أبواب صفة جهنم عن أنس عن النبى ﷺ قال : « يقول الله : أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقام . » هذا حديث حسن غريب ، وأريد بالذكر فى القلب أن لا ينساه فيدخل فى وعيد "اليوم أنساك كما نسيتنى" ، والذكر فى القلب على حد ما قال ﷺ لابن عباس : « يا غلام إنى أعلمك كلمات : إحفظ الله يحفظك ، إحفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله اهـ » . وفى رواية غير الترمذى كما فى "أذكار النووى" : « إحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » . فلابد أن يكون فى القلب ذاكر الله وداعيه ووازع يزعه عن نسيانه بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين ، وهذا الذكر فى القلب ليس ينحصر على الذكر بالأسماء والأذكار بأن يكون وردها هو المقصود ، وإنما يكون من باب واذكرنى عند ربك ، ثم قوله : (ودون الجهر) فاعلم أن الذى يظهر أن عرف القرآن أن الجهر فيه أرفع من الجهر المدون فى كتب الفقه من الجهر بالقراءة ، ذكره فى " الكماليين" ، وذلك أن الجهر فى العرف أزيد مما يجرى فى المحادثة والكلام بين الناس على الحد المعروف بينهم ، والجهر فى الفقه إسماع غيره ، وهو دون الجهر بعرف القرآن ، كما فى قوله تعالى :

(لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض اه) . وقوله تعالى: (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اه) . ومنه فى حديث امرأة رفاعة القرظى : « يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به » ، وقوله تعالى: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) فالسبيل بينه هو عين الجهر المعروف فى الفقه وغير الجهر المعروف فى القرآن، وآية : (ولا تجهر اه) بتمامها فى الصلاة الجهرية لاالسرية، وهو ما عند مسلم عن ابن عباس فى قوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال: « نزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله لنبيه ﷺ : ولا تجهر بصلاتك فيسمع المشركون قراءتك ولا تخافت بها عن أصحابك ، إسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر ، وابتغ بين ذلك سبيلاً » يقول بين الجهر والمخافتة اه . وعلم منه أن المقصود الإسماع ، ولا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد أنه لابد للإسماع من الإنصات والإستماع ، وإذن فقوله : ودون الجهر يبقى تحته بالإسرار بالذكر بحيث يسمع نفسه ، والجهر بحيث يسمع غيره، وينهى عن الشديد ، وهو المراد فى حديث أبي موسى : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً » فخلصت من هذه الآية ثلاث صور كلها فى الذكر لا فى أحوال الصلاة وأحكامها ، ولهذا قال : « من القول » فى قوله : (ودون الجهر من القول) وقوله : « فى نفسك » كقوله فى الكتاب فى قوله: (واذكر فى الكتاب إسماعيل، واذكر فى الكتاب موسى ، واذكر فى الكتاب مريم) أراد سبحانه وتعالى أن يبين حكم الذكر بنفسه بعد أن بين حكم الاستماع من غيره، وإنه فى القرآن فقط، انتهى ما قاله رحمه الله .

فائدة ١٠ = فى يأجوج ومأجوج وسد ذى القرنين .

قال الشيخ رحمـــه الله فى كتابه " عقيدة الإسلام " (١) : قد تواتر فى الأحاديث : أنه عليه السلام ينزل بعد خروج الدجال فيقتله ويريهم دمه على حربته، ثم يخرج يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله بدعائه، وقد حرّف الملحدون تلك الأحاديث أيضاً ، وكنت قد أفردت فى مبحث يأجوج ومأجوج مقالة حديثية تاريخية لا يسعها المقام ، وهذه نبذة منها أوردتها ، فالذى ينبغى أن يعلم ويكفى ههنا أن الظاهر من أمر ذى القرنين : أنه رجل ليس من أهل المشرق كما قيل أنه فغفور الصين الذى بنى سداً هناك فى طول ألف ومائتى ميل ، ويمر على الجبال والبحار، لأنه لو كان كذلك لقيل فى القرآن العزيز بعد سفره إلى المغرب : أنه رجع إلى المشرق كالراجع إلى وطنه ، ولا من أهل المغرب ، وإنما هو من أهل ما بينهما ، والراجح أنه ليس من أذواء اليمن ، ولا كيقباد من ملوك العجم ، ولا هو سكندر بن فيلقوس ، بل ملك آخر من الصالحين، ينتهى نسبه إلى العرب الساميين الأولين . ذكره صاحب " الناسخ "، وأرخ لبنائه السد سنة ٣٤٦٠ من الهبوط ، وذكره قبل العرب الساميين الذين ملكوا مصر، كشداد بن عاد بن عوض بن ارم بن سام ، وابن أخيه سنان بن علوان ابن عاد ، وبعدهما ريان بن الوليد بن عمرو بن عمليق بن عولج بن عاد، قال: ومن أطلق على هؤلاء الفراعنة بعد الريان العمالقة فللنسبة إلى عمليق بن عولج لا إلى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام الذين كانوا سكنوا بمكة، وكذا هو -أى ذو القرنين- قبل ضحاك بن علوان أخى سنان المذكور الذى قتل جمشاد ملك الإيران وملكه وذكر إسم ذى القرنين : صعب بن روم بن يونان بن تارخ بن سام، فهو إذن من عاد الأولى، لا من الروم أو اليونان، وقد قال الله تعالى: **(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح)** . وذكر أيضاً أن كورش ليس هو كيقباد بل هو من الطبقة الثانية من ملوك بابل، والأشبه فى وجه تسميته ما عن على،

(١) ص — ١٩٧

وقد قواه فى " الفتح " وشرحه فى " شرح القاموس " ، وذكر فى التنزيل ثلاثة أسفار له . الأول إلى المغرب ، ثم إلى المشرق ، ولم يذكر جهة الثالث ، ولا قرينة له على أنه إلى الجنوب ، فهو إذن إلى الشمال ، وسده هناك فى جبل "قوقايا" الذى يسمى الآن : "الطائى" غير مجموعة الجبال الأورالية ، وهو المراد بآخر " الجربياء " فى كتاب حزقيال عليه السلام ، كما فى " روح المعانى" . قلت : " الجربياء " فى اللغة : الريح التى تهب من الشرق والشمال ، وبنى أيضاً بعض ملوك الصين سداً لنحوْ ضرورة ذى القرنين ، وهو سد كان المغول سموه : " أتكووة " ، وسماه الترك : " بوقورقه " ، ذكره صاحب " الناسخ " ، وأرخ لبنائه سنة ٤٣٨١ من الهبوط ، وكذا بعض ملوك العجم من باب الأبواب ، لمثل ما ذكرنا ، وهناك سدود أخر وكلها فى الشمال ، ثم لى ثبت ما اشتهر وشهّره المؤرخون ، وذكره فى "حياة الحيوان" عن ابن عبد البر فى "كتاب الأمم " من الكركند : أن مأجوج من ولد يافث ، سكن هناك ، وأن جوج لحق بهم ، وأن ماغوغ ـ كما ذكره ابن خلدون بالعبرية ـ هو مأجوج فى العربية ، وجوج هو يأجوج ، مع أنه لم يذكر فى كتاب حزقيل بلفظ : يأجوج ، وإنما ذكر جوج ، وسلم أنهما معرب (گاگ) (میگاگ) فى الإنكليزية . وأن روسيا من يأجوج ، وأهل بريطانيا من مأجوج ، لم يدل على أن ذى القرنين سدّ على كلهم بل سد على فرقة منهم هناك . قال ابن حزم فى " الملل والنحل " فيما يعترض به النصارى على المسلمين قديماً : أن أرسطو ذكر السدّ ويأجوج ومأجوج فى "كتاب الحيوان"، وكذا بطليموس فى جغرافياه ، بل سؤال تعيين السد أو تعيين ذى القرنين وقع من اليهود أولاً عنه ﷺ ، كذا يستفاد من بعض روايات " الدر المنثور " . وبعض الناس يجعل اللفظين : " منگوليا و منچوريا " ، و بعضهم "كاس ميكاس" ، وبعضهم " چين ما چين " ، وهو كما ترى ، وأعجب منه ما فى "الناسخ"

من ذكر بناء بيت المقدس : أن علماء بنى إسرائيل كانوا يطلقون على صور وصيدا " چين ما چين " ، ونقل بعضهم عن تاريخ كليسيا فرقــة من الفرق الآريوسية لقبها : يأجوجى ، والمفسدون فى الأرض لا يصدق على كلهم ، فإنه إهلاك النسل والحرث وتخريب البلاد والنهب والسفك وشن الغارة ، لا أخذ الممالك بالسياسة والتدبير ، وهؤلاء موصوفون بذلك لا الأول ، وإذا انقطع هذا اللقب عنهم الآن لم تبق المعرفة إلا بوصف الإفساد ، فإن كان شعبهم ينتهى إليهم فلينته ، ولعله فى بعض الآثار ، أدخل نحو إنسان الغاب أو الجبارين فى يأجوج ومأجوج ، فراجع إنسان الغاب والجبار من الدائرة ، وفى "البحر" أنه قد اختلف فى عددهم وصفاتهم ، ولم يصح فى ذلك شئ آه .

قلت : قد صح فى كثرة عددهم أحاديث . وكذا نقل عن كتاب " الجمان فى تاريخ الزمان " للعينى عن " تاريخ ابن كثير " : أنه لم يصح فى صفتهم كثير شئ ، وإذا كان هؤلاء الأورباويون خارجين من بلادهم وأخلاقهم وسيرتهم فليسوا بمرادين ، وإنما المراد فرقة منهم أى من شعبهم فى الشمال والشرق ، ولهم خروج فى آخر الأيام ، وليس أنهم مسدودون بالسد من كل جهة ، بل منعوا من شعب هناك ، فإن قيل أنهم أيضاً قد ارتفع عنهم المانع الحسى منذ زمان طويل واندك السد وقد خرجوا ، قيل : فإذن لم يكن هذا الخروج مراداً ، فإنه لم يتحقق نزول عيسى عليه السلام قبيل ذلك ، ويستمر الأمر هكذا حتى يخرج بعض منهم الذين لم يخرجوا إلى الآن فى عهد عيسى عليه السلام ، ويكون الخروج مرةً بعد مرةٍ كمثل خروج الخوارج ، لا خروجاً بالمرة من السد ، ولم يذكر فى " القرآن " لفظ الخروج من هذا السد فقط ههنا ، ولما ذكر فى الأنبياء : (**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج**) لم يذكر السد والردم ، فكان الخروج لعمومهم ، وكأن قوله : (**وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج فى بعض**) يؤمى أن بعضهم فى مقابلة

بعضهم الآخرين ، فالبعض خارجون من السد والبعض الآخرون من غيره ، وكأن اندكاك السد جعل موضع خروج بعضٍ وميقات خروج آخرين منهم ، وقد وقع فى مكاشفات يوحنا الإنجيلى خروجهم مرة بعد مرة ، أى من سد عليهم أو لم يسد ، وكذا ذكره فى "الناسخ" عن الفصل الحادى عشر من سفر سنهدرين من كمارا اليهود ، وهو عندهم كالحديث عندنا ، قال فيه : وجد فى "خزائن الروم" بالخط العبرى : أن بعد أربعة آلاف سنة ومائتين وإحدى وتسعين سنة يبقى العالم يتيماً ، وتجرى فيهم حروب كوك مأكوك ، وتكون سائر الأيام أيام الماشيح ، وهذا التاريخ على ما يؤرخ به اليهود مولد خاتم الأنبياء ﷺ ، ويبقى العالم بعده يتيماً لا راعى له ، أى تختتم النبوة ، وتجرى بعد ذلك وبعد خير كثير ملاحم يأجوج ومأجوج ، وينزل إذ ذاك عيسى عليه السلام . وصاحب "الناسخ" حمل الماشيح على خاتم الأنبياء ﷺ ، وكذا ذكرهم فى كتاب حزقيل ولم يذكر السد ، فيأجوج ومأجوج أعم ممن سد عليهم ، فقد جمع القرآن حال أعمهم وأخصهم ، وذلك لسؤالهم عن ذى القرنين لا عن يأجوج ومأجوج فقط ، فذكر أولاً من سد عليهم منهم ، ثم عمم فى قوله : (وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج فى بعض) وهو إذن للاستمرار التجددى حتى يتصل خروجهم المخصوص بنزول عيسى عليه السلام ، فوقع هنا فى "القرآن" أعم مما فى الحديث ، وكذا قوله : (وهم من كل حدبٍ ينسلون) فذكر كل حدب ، ولابد من ذلك إن ثبت أن الأورباويين منهم ، وأن لهم خرجات ، أو ذكر فى القرآن من سد عليهم فقط ، لكن لم يذكر أنه لا يندك ، ويكون خروجهم مرة بعد مرة حتى يكون خروجهم المراد عند نزوله عليه السلام ، وقد بدئ باندكاكه فى زمانه ﷺ حيث قال : ويل

للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وهؤلاء الذين خرجوا كذلك أى من غير سد ، لا يقال أنهم خرجوا عليه ، لأنهم نصارى نحلة ً وانتماء ً ، وبقى بعض من هؤلاء أصلاً وشعباً ليسوا نصارى ، سيخرجون عليه فى آخر الزمان ، وذكر فى كتاب حزقيل خروجهم على بنى إسرائيل ، ففى " روح المعانى " : وفى " كتاب حزقيال عليه السلام " الأخبار بمجيئهم فى آخر الزمان من آخر الجربياء فى أمم كثيرة لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وإفسادهم فى الأرض ، وقصدهم بيت المقدس ، وهلاكهم عن آخرهم فى بريته بأنواع من العذاب اهـ . وذكر فى الأحاديث النبوية توجههم إلى الشام ، فليس الخروج عليه متصلاً بالإندكاك ، وإنما المتصل به خروجهم على الناس ، وهو كذلك فى بعض الألفاظ كما فى " الكنز " (١) . وقد تأتى أحاديث أشراط الساعة بالتقاط أشراطها من البين وترك ما بينها ، فلهم خرجات مرة بعد مرة ، وليس القرآن العزيز نصاً فى أن السد منعهم من كل جهة ، ولا أن عدم خروجهم فى الأزمن الآتية لعدم الإندكاك فقط ، فإن ذلك إذ ذاك أى عند بناءه ودهراً بعده ، وأما بعد ذلك فلهم خرجات ، ففيه : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، الآية) فلم يقل : حتى إذا فتح الردم ، والمراد تلك النوبة من الخرجات ، وينبغى أن يعلم أن قول ذى القرنين : (قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقاً) قول من جانبه ، لا قرينة على جعله منه من أشراط الساعة ، ولعله لا علم له بذلك ، وإنما أراد وعد اندكاكه ؛ فإذن قوله تعالى بعد ذلك : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) للاستمرار التجددى . نعم قوله : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) هو من أشراط الساعة ، لكن ليس فيه للردم ذكر فاعلم الفرق .

---

(١) ص — ١٨٥ ج — ٧

واعلم أيضاً أن السد الذى رآه صحابى كما فى " الفتح " و" الدر المنثور " و" حياة الحيوان " الظاهر أنه سد آخر لا هذا السد ، ويأجوج ومأجوج فيه بمعنى أهل الشرك ، وحديث حفر السد كل يوم أعل ابن كثير فى " تفسيره " رفعه بأنه لعله سمعه من كعب فإن كعباً روى عنه مثل ذلك ، وقد ذكره أيضاً ابن كثير . وفى "الفتح" : أن عبد بن حميد رواه عن أبى هريرة موقوفاً . أو كانوا حفروا أولاً وتركوا ، وسيحفرونه عند خروجهم المخصوص أيضاً ، وإن كانوا خرجوا قبل ذلك خروجاً غير خروجهم على عيسى عليه السلام فإن الله تعالى قد قال : (وما استطاعوا له نقباً) ذكره ابن كثير أيضاً . وأقول : إن كان فى إيمان الناظرين سعة فلا ضيق فى تسليمه أيضاً . والحاصل أنه إن كان قد اندك أو كان لم يندك ولكن كان لم يبق مانعاً بحسب هذا الزمان بأن يكون خروجهم من طرق بعيدة من وراء الجبال ، والسد على البوابير والمراكب المحدثة للأسفار الطويلة ، فخروجهم المخصوص ليس متصلاً به ، كيف ؟ وهو مندك إذن منذ زمان طويل ، ولم يبق من السد الذى جعله الناظرون سد ذى القرنين إلا أثر وطالل ، ولم يتصل خروجهم ذلك به ، فليكن من الزمان برهة أخرى كذلك ، لا أنهم خرجوا فى زماننا هذا فيطلب عيسى عليه السلام فيه ، فإنه إذا تراخى من اندكاكه أو من خروجهم من زمن طويل فليتراخ أمداً آخر أيضاً وإن لم يندك مقدار ما بين الصدفين ، وليس له زيادة طول حتى يستبعد خفاؤه — كما فى "روح المعانى" فى قوله تعالى : (حتى إذا بلغ بين السدين) فى قراءة فتح السين وضمها ، السد بالضم الإسم ، وبالفتح المصدر ، وقال ابن أبى إسحق : الأول ما رأته عيناك ، والثانى ما لا تريانه اهـ . وذكره كذلك فى " البحر " — فالأمر إذن على الإنتظار ويدور على الإيمان ، فلينتظر فإنهم وإن خرجوا مثلاً من طريق آخر لكنهم لم يخرجوا على هذا التقدير من السد ، وإذن كان السد اندك أو لم يندك

لكن قد انهدم ما بناه ذلك الملحد أساساً ورأساً على كل حال ، وكذا لم يفده أكان الأورباويين منهم أم لم يكونوا فإنهم لم يخرجوا من السد وإن خرجوا على الناس ، كيف ؟ وذلك الملحد نفسه من ذرية مأجوج على تحقيقه فإنه من المغول، هذا مع ما هو مسَلَّم عند الجغرافيين أنه لم ينكشف إلى الآن عليهم حال بعض الجبال والقفار والبحار . ثم لما كان الإنكليز من الألمانيين وهم من ذرية جومر أخي مأجوج ، فليسوا من نسل مأجوج ، ولا يفيد ما ذكر في الألمان : أنهم خرجوا من كوه قاف وأورال ، فإن جبل أورال سلسلة مستطيلة من الشرق إلى الغرب ، ولم يكن نسل مأجوج أو الذين سُدّ عليهم إلا في شرقه . وذكر في "دائرة المعارف": جوج من جومر، وإنه ملك السكيثيين، فيأجوج إخوان مأجوج ، وهو كذلك عند اليهود كما في " لقطة العجلان" ، فاحذر قول الخراصين ومذهب السكيثيين ميتهالوجى - أي علم الأصنام - فليسوا بني إسرائيل أيضاً ، وجوج الذي هو من ذرية يعقوب رجل آخر ، وجوج الذي عد مع مأجوج في كتاب حزقيل ليس من ذرية يعقوب، بل هو معادٍ لبني إسرائيل ، فلو سلم أن جوج والى روسيا فليس الذي سد عليهم إياهم بل هم بعض من جوج . والذي يعلم من كتابه : أن جوج أقرب مسكناً ومأجوج أبعد ، ولما كان الاريانة أصل الأورباويين كيف يكون الأورباويون من مأجوج ؟ وإلا لكان الهنود منهم ، إلا أن يقال: أنه قد تبدلت ألقابهم ، فهــذا يجري في الأورباويين أيضاً . وقد قال في " الفتح" في حديث : «أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل» ، قال القرطبي : قوله: "من يأجوج ومأجوج ألف" أي منهم وممن كان على الشرك مثلهم ، وقوله: "ومنكم رجل" يعني من أصحابه ومن كان مثلهم اهـ .

قلت : وهو عن عمران بن حصين عند الحاكم في " المستدرك " :

« وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده إنكم مع خليقتين ما كانتا مع شئ إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس اهـ» . فوقع مفسراً ولم يستمد به فى " الفتح " ، وقد صححه الحاكم ، وأقره الذهبى فاعلمه ، وقد أخرجه الترمذى والنسائى فى تفسيره كذلك ، ونحوه فى " الدر المنثور " عن ابن عباس فى قوله تعالى : (يوماً يجعل الولدان شيباً) .

واعلم أن ما ذكرته ليس تأويلاً فى القرآن بل زيادة شئ من التاريخ والتجربة بدون إخراج لفظه من موضوعه ، فلا يتسع الخرق ، فإن التاريخ لما ذكر أن بعض الشعوب الخارجة من السد من نسل يأجوج ومأجوج أيضاً . قلنا : إن ثبت فالقرآن لم يذكر السد على كلهم ولا من كل جهة ، فليكن الخارجون المذكورون من يأجوج ومأجوج ، ولكن ليسوا بمرادين فى القرآن ، وإن ثبت أنه اندك أو خرجوا من جانب آخر فليكن موج بعضهم فى بعض متجدداً مستمراً حتى ينزل عيسى عليه السلام فيخرجون أيضاً من بلادهم من السد المندك ويفسدون فى الأرض حتى يهلكهم الله تعالى بدعائه عليه السلام. كيف ؟ وقد قال الله تعالى فى الأنبياء : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون) أى حرام عليهم غير ما نقول ، وهو : أنهم لا يرجعون إلى الدنيا ثانياً ، كقوله تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) ويدخل تحت النفى رجعة الروافض وبروز ذلك الملحد ، فإنه جعله أنه هو حقيقة ما أطلق عليه أنه رجوع للأول ، وقيل: إنه سيرجع كما جاء فى عيسى عليه السلام مرفوعاً ، وقد مر أنه راجع إليكم فإن كان هذا هو حقيقة رجوع أحد ، كما افتراه أنه هو عرف الكتب السماوية فقد حرمته الآية ، فإن الاعتبار فى ذلك لما يسميه أهل العرف رجوعاً لا لغيره ، وكذا مجئ مثيل إن كان مجيئاً مبتدأ ، فليس هذا رجوعاً للأول ، وإن قيل: أن الرجوع الأول

هو هذا، فقد شملته الآية ولا يظهر ما قيل فى الآية، أن المراد حرام عليهم أنهم لا يرجعون إلينا، فإنه لو كان مراداً لم يذكر فى السياق الإهلاك أولاً، وإلا لصار إذن ذكر الحلف على ذلك، وذكر حرمة عدم الرجوع إليه كالمستدرك، وقد جاء فى الحديث أن عبد الله بن حرام لما استشهد بأحد واستدعى الله تعالى أن يرجعه إلى الدنيا ليستشهد ثانياً أجيب بما فى الآية، أخرجه الترمذى وحسنه، وإذ لارجوع إلى الدنيا فلا تناسخ أيضاً بنقل الأرواح فى الأبدان، وإذن لابد من القيامة لتجزى كل نفس ما عملت، ومن أشراطها خروج يأجوج ومأجوج، فخروجهم فى قرب القيامة ومن أشراطها، ونزول عيسى عليه السلام قبيل ذلك بصريح تواتر الأحاديث فيه: (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً). ومعلوم أنه ليس من موضوع القرآن استيعاب التاريخ ولا الوقائع كلها، فمن اعتبر بالتاريخ فليزده من عنده كأنه خارج منضم، ولا يزيد التاريخ على ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد اهـ.

قال الراقم: فتلخص مما ذكره الشيخ رحمه الله فى تحقيق ذى القرنين وتعيين السد وتبيين يأجوج ومأجوج أمور:

الأول: إن ذا القرنين ليس من ملوك العرب القحطانيين من أذواء اليمن، ولا من ملوك العجم، ولا من الروم، فليس هو الإسكندر اليونانى المقدونى، ولا كيقباد، ولا كورش، وليس ملكاً ولا نبياً؛ بل ملك من الصالحين، اسمه صعب بن روم، ينتهى نسبه إلى العرب الساميين من عاد الأولى قبل الساميين الذين ملكوا مصر كشداد وسنان وضحاك.

الثانى: إن سده المذكور فى التنزيل العزيز ليس هو سد بعض ملوك الصين الذى سماه المغول: أتكووة، وسماه الترك: بوقورقه، وبنى سنة ٤٣٨١ من الهبوط، ولا سد فغفور الصين، ولا سد بعض ملوك العجم من باب

الأبواب ، ولا غيره من سدود أخر فى الشمال ، ولا السد الذى رآه صحابى، بل هو سد فى جبل قوقايا ، يسمى اليوم: " الطائى " ، وهو غير مجموعة الجبال الأورالية ، وبنى سنة ٣٤٦٠ من الهبوط .

الثالث : إنا لا نقطع بأن جوج ومأجوج معرّب "گاگ" "ميگاگ" فى الإنجليزية ، ولا نقطع بأن روسيا من يأجوج وأهل بريطانيا من مأجوج كما اشتهر عند المؤرخين ، أو أنه فرقة من الآريوسية، لقبها: يأجوجى ، فإن جميع هؤلاء بمعزل عن الصفات التى وردت فى أحاديث قد صحت عدة منها ، وكونهم موصوفين بها قبيل نزول عيسى عليه السلام من إهلاك النسل والحرث وتخريب البلاد والنهب والسفك وشن الغارة ، لا أخذ الممالك والبلاد بالسياسة والتدبر وقهر الأقوام بلطائف الحيل والتزوير ، ونقطع ببطلان ما قيل أنهما معرّبان من كاس ميكاس ، أو چين ما چين ، او منگوليا و منچوريا ، بل هما شعبتان من شعب فى الشمال والشرق . نعم إن انتهت إلى هؤلاء الأورباويين أو روسيا أصلاً ونسلاً فلتنتهيا ، لا انتماءً ونحلةً ، ولهم خرجات عديدة ، والمراد فى قول الله عز وجل: **(إذا فتحت يأجوج ومأجوج)** وفى الأخبار هو خروجهم الأخير على سبيل الإفساد والإهلاك ، وهو الذى جعل من أشراط الساعة ، وليس أنهم مسدودون بالسد من كل جانب بل من شعب خاص ، ولا أن السد سد جميعهم ، فلو كان السد مندكاً وهم خرجوا عنه أو خرجوا من جهة أخرى فلا يضرنا ، فإنه ليس ذلك الخروج مراداً قطعاً ، أو يكون منهم شعب خاص يكون لهم الخروج قبيل نزول المسيح عليه السلام بالصفات الواردة فى الأخبار . وهذا الذى اختاره الشيخ رحمه الله طريقة مثلى لمن كان يؤمن بالقرآن والسنة فى اعتبار واستبصار من التاريخ ، لا أن يحرف القرآن وينكر الأخبار ويؤمن بالتاريخ الذى تقادم عهده وتطاول مداه بالقرون ولم يقم عليه بعد برهان ساطع ، بل أساسه ورأس ماله التخمين والجزاف

والتحليل والتركيب فى وقائع ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، ويتأثر من نكير ملاحدة المؤرخين فينكر من الأخبار رأساً ويقيم رأياً ويظنه وحياً سماوياً قطعياً ، أو يقول : قد مضى خروجهم ، وما أخبر به القرآن قد تحقق فيما سلف ، ويغمض عينيه من أحاديث الرسول ﷺ ، فليس ذلك من الإيمان فى شئ ، والله الهادى إلى الصواب .

والشيخ رحمه الله يرد فى مقالته هذه على أهل الزيغ والباطل من السار أحمد خان بانى "كلية عليكر" صاحب "التفسير" بل صاحب التحريف ، ومحمد حسن الأمروهوى الطبيب صاحب "غاية البرهان فى تأويل القرآن" ، ورئيس الطائفة المرزائية محمد على اللاهورى محرف القرآن وغيرهم ، وعلى من سها من أهل الحق من بعض المعاصرين ومن سبقه من بعض الفضلاء الهنديين .

هذا، وقد زاد الشيخ رحمه الله فى تعليقاته على "عقيدة الإسلام" أشياء لخصنا منها أموراً . الأول: إن ذا القرنين كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام، اجتمع معه عند البيت الحرام . الثانى : إن يأجوج معرب جوج ، وتعريبه قبل نزول القرآن كتعريب عيسى ويحيى عليهما السلام فى عهد الجاهلية أيضاً، وإن جوج لقب به أقوام عديدة ، وذكر المقريزى —صاحب ابن خلدون— يأج ومأج، وهما آخران . الثالث : إنه ثبت صلاة أبى العالية فى مسجد ذى القرنين ، وثبت أن مرو بناه ذو القرنين .

تنبيـــه : ثم إنه أستفيد من مقالة الشيخ رحمه الله تلك أن الأخبار الواردة فى خروج يأجوج ومأجوج على سبيل الإفساد والإهلاك قرب الساعة، ما تكاد تتواتر ، ثم نزول عيسى عليه السلام وإهلاكهم الله بدعائه كل ذلك صحيح متواتر ، نؤمن بإذعان قلب وقبول نفس بأنها من أمارات الساعة من

غير تأويل أو تحريف ، والله الموفق والهادى إلى الحق ، وصلى الله على هادى الخلق سيدنا محمد وآله وصحبه وبارك وسلم .

تنبيه آخر من الراقم : ثبت فى آثار كثيرة أنّ ذا القرنين كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام ، فهو إذن قبل العهد التاريخى بكثير ، فكيف يعلم تفاصيله وقد تقادم عهده ؟ ويستفاد من كلام السهيلى وغيره أنه لقب ملوك بذى القرنين تشبيهاً لهم بذى القرنين الأول ، وقد صرح الحافظ ابن كثير رحمه الله فى الجزء الثانى من " تاريخه " (١) : إن ذا القرنين لقب لملكين : أحدهما من قص الله حاله فى التنزيل العزيز ، وروى آثاراً عن ابن عباس وعلى وغيرهما : «أنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً» ، وصححه فى "تاريخه" و"تفسيره" . والثانى : اسكندر بن فيلبس المقدونى اليونانى المصرى ، بانى الإسكندرية . وكان أرسطو وزيره ولم يكن مؤمناً ، وقال : وهو قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة . فالأول أقدم منه بدهر طويل بنحو ألفى سنة . ويقول ابن تيمية فى " تفسير سورة الإخلاص " (٢) مثله ، ومن لفظه : فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً الخ . فما قاله أبو الكلام أحمد فى " ترجمان القرآن " : أن السلف ذهبوا إلى أنه كان نبياً ونسب تصحيحه إلى الحافظ ابن كثير فغلط صريح ، كيف؟ وقد قال ابن كثير فى "تاريخه"(٣) ، وتفسيره : "والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادلين"(٤) . وقد أغراه رأيه على ذلك فإنه قد جزم بأنه كان نبياً ، فأراد أن يؤيد رأيه

(١) ص — ١٠٣ و ١٠٥ (٢) ص — ٥٨

(٣) ص — ١٠٣ ج — ٢

(٤) و مثله قال ابن القيم فى ''اغاثة" اللهفان عن مكائد الشيطان'' فى موضعين منه فى اواخره . منه .

بآثار السلف وأقوال العلماء وإن كان مدار تأييده على الكذب والافتراء ، وهكذا ديدنه فى كل ما زعمه حتى قال : إن زردشت أيضاً كان نبياً ، وقد نهينا أن نقول بنبوة أحـــد ما لم يثبت بالقطع . وأيضاً قد لبس الأمر فى تفسير قوله تعالى: (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج الآية) فى سياق قصة ذى القرنين ، فحمله على خروج التتر وفتنة چنگيزخان ، فقد مضى عناده بما أخبر به التنزيل العزيز ، وقد أطبق المفسرون على أنه سيكون خروج قريب الساعة حتى يهلكهم الله بدعاء عيسى عليه السلام . وقد وردت فى ذلك أخبار وآثار ما كادت أن تتواتر ، وكأن أبا الكلام ينكر عن ذلك إنكاراً جلياً صريحاً .

وكم هكذا له من تلبيس وتدليس فى تفسيره ، يزعم جزافه وحياً ، ويفند العلماء والسلف إذا خالفت أقوالهم رأيه ، وإن ساعدتنى الهمة والحال لكشفت عن تلبيساته إن شاء الله تعالى ، والله الموفق والهادى إلى الصواب .

فائدة ١١ = فى بعض حقائق العالم .

قال الشيخ رحمه الله فى "عقيدة الإسلام" (١) ، إن عالم الدنيا من الأول إلى الآخر عند المحققين شخص واحد كبير ، يسمى الإنسان الكبير ، ويسمى الإنسان العالم الصغير (٢) ، فكما إن بدن الإنسان الواحد مركب من أركان وأعضاء وأرواح ، وله قوى وأفعال ، ثم الأعضاء آلية وغير آلية ، وكذلك رئيسة ومرؤسة ، والأرواح طبعية وحيوانية ونفسانية ، وكذلك القوى النفسانية محركة ومدركة إلى غير ذلك من التقاسيم والتشريحات ، ومع هذا هو زيد مثلاً كذلك عالم الدنيا بدءً وعوداً وعلواً وسفلاً شخص واحد له غاية

---

(١) ص — ١١

(٢) ولقد اصاب من قال :

اتزعم انك جرم صغير * و فيك انطوى العالم الاكبر

واحدة وكمال واحد ، لا أن كل قرن منه عالم وعالم ، وهذا الشخص الكبير مسبوق بالعدم الصرف عندى، ويسميه بعض أهل المعقولات: "سبقة دهرية" وهو الصواب ، وهـــذا الكون الظاهر برز من بطون لم يكن هناك زمان ولازمانى ، فإن كل هذا بعد الظهور لما انتهى الحال من حكم اسم الله الباطن إلى حكم اسمه الظاهر ، ويسمى امتداد العالم المشهود من الأول إلى الآخر : "عرض العالم" ، ويسمى سلسلة ارتباطه على تسلسل مباديه إلى حضرة الصانع صاعداً فصاعداً : "طول العالم" ، ولا بحث لنا فى تلك المبادئ ، ولعلها شئون له تعالى (كل يوم هو فى شأن) ، والشئ إذا كان مشتملاً على معانى فالتحول فيها شئونه وأطواره من نفسه لا أضداده ، وإنما الضد ما طرأ من خارج ، فالآية إن دلت بلفظ "كل يوم" على الاستمرار دلت بلفظ "الشأن" على أن الشئون من تلقاء ذاتــه لا من خارج ، وهذا على الأحوال أدل منه على الخلائق ، وما ذكره "فى الأسفار" (١) : (وكان أمر الله مفعولاً) أى بلفظ الماضى فى الأمر لا بالخلق . وشئ منه من ذكر الحكيم الترمذى فى النفحات ، إنما نقول أن ذلك العالم المشهود حادث بعد أن لم يكن ، وكما أن بعد الارتقاء من الماديات يرتقى الأمر إلى مجرد ، وبعد الارتقاء من الأبعاد المقدارية يرتقى الكلام إلى بعد مجرد ، وقد سلمه المحققون كذلك بعد الإرتقاء من الزمان والزمانيات يرتقى الأمر إلى موطن لازمان هناك ولازمانى ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : « إن ربكم ليس عنده ليل ولانهار ، نور العرش من نور وجهه » ، وفى "القصيدة النونية" للحافظ ابن القيم :

قال ابن مسعود كلاماً قد حكا * ه الدارمى عنـــه بلا نكران

ما عنـده ليل يكون ولانها * ر قلت تحت الفلك يوجد ذان

---

(١) ص — ٢٣٦ ج — ١ وص ١٧٣ ج — ٣ الطبعة القديمة

نور السماوات العلى من نوره * والأرض كيف النجم والقمران
من نور وجه الرب جل جلاله * وكذا حكاه الحافظ الطبرانى

ولعله المراد بحديث : : « إن الله لاينام ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور» ، فهذه حضرة فوق الليل والنهار. وقد أدخل هذا الحديث فى " روح المعانى " فى تفسير قوله تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) وليس فى ذلك الموطن تعاقب فى الأشياء ولاتمانع فى الأحياز، إنما ذلك إذا نزلت الأشياء إلى عالم الزمان والمكان ، مثاله الكلام النفسى حالة بسيطة من شأنها الإفادة لاتبعيض ولاتجزئة فيها ، وإذا برز إلى موطن الكلام اللفظى صار ذا أجزاء يعقب بعضها بعضاً ، أو كانطباق الإرادة على الفعل ، فالإرادة أمر دفعى، والفعل الذى صدر من الجارحة بسببها تدريجى، ومع هذا تضمنت هذه الإرادة البسيطة ذلك الفعل التدريجى، أو كالتصوير الذهنى للعمارة، لاتمانع لأجزائها فيه ، وإذا برز إلى الشاهد اقتضت أحيازاً وأمكنة ، كذلك التقدم الذهنى للعلة على المعلول، إنما هو فى الذهن تقدم ذاتى ، وإذا نزل هذا التقدم الذاتى إلى عالم الزمان صار تقدماً زمانياً ، وهذا يكون مراد ما اختاره السبكى ، ثم الشيخ ابن الهمام فى " التحرير ": أنـه ليس بين العلة والمعلول معية زمانية بل هناك تعقيب ، وهذا يكون مراد المتكلمين من تقدم العلـة المختار على معلولها مع كونها علة تامة ، أى علة الوجود لا علة الماهيـة . ثم إنه لابد من تخلل زمان بين جعلى العلة والمعلول ، وإن لم يكن كذلك فى الإرادة والمراد ، نعم ربما يكون جعل العلة منسحباً على أشياء جعلاً واحداً ، كالنار على ما حولها من أول وجودها ، بناء على أن الصورية نفس الشئ لاجزؤه ، والمادية لا فعل لها ، والغائية داخلة فى الفاعلية ، فالعلة هى الفاعل ، وأما المعلول

فإن كانت العلة حاملة له فهو صفة لا عين ولا غير ، وإن كان وجوده عند مصادفة الشرائط فتلك المصادفة ليست بمعتبرة فى ذات العلة ، فلتكن عقيبها، فالنار موصوف والحرارة صفة ، واحتراق شئ عند مصادفته معلول ، وإلا فلا حقيقة للمعلول ، وما ذكره فى "الزوراء" أو ذكره فى "الأسفار" فصفة ، أو نقول : أن العلة والمعلول فى الغرض ليس هناك تقدم أصلاً ، وإنما هناك تسلسل وترتيب فى الذهن أيضاً ، وإنما التقدم الذاتى أى بحسب المرتبة فى المراتب الطولية فقط انقلب فى عالم الأجسام زماناً . وهذا مع أنه ليس نسبة الصانع إلى العالم نسبة العلة والمعلول ، كما يقوله من يقول بالإيجاب الذاتى ، بل نسبة الفاعل إلى الفعل وهو فعال لما يريد ، وهذا عقيدة الإسلام وسائر الأديان السماوية ، والفرق أن العلة ما فى طباعها صدور المعلول ، فهو إذن فى مرتبتها ، حتى قال العلامة الدوانى فى رسالته "الزوراء" : إنه حيثية من حيثياتها ، وشأن من شئونها ، ووجه من وجوهها ، ليس مبايناً لذات العلة ، وإن الفعل إنما يكون بعد تمامية الفاعل ، فهو إذن عقيبه لا معه ، وإذا تأخرنا عن الأزل شيئاً بقى ما قبله غير متناه ، فهذا هو الحدوث الزمانى ، والقدم بالشخص لغير البارى تعالى محال عندى ، إذ هو من أخص أوصاف كمال الوجود ، لا يليق إلا بالوجود المطلق ، وقد قالوا : ما من ممكن إلا ويستحيل عليه لذاته ضرب من الوجود ، كما فى "الأسفار". وأقول: بل ضروب ، وإذا ضربنا العدم الذاتى الذى هو للممكن فى الوجود الذاتى الذى هو للواجب لم يكن حاصل الضرب إلا الحادث الزمانى ، كضرب الكسر فى الصحيح ، وكذا القدم بالنوع قريب من المحال أيضاً عندى ، والكثرة إنما برزت من الوحدة الواقعية ، كان الله ولم يكن معه شئ ، وقد كنت قلت بالعربية :

ومن الصفات حياته وبقاؤه ومن الخصائص كيف يشتركان

أحــد فلم يك غيره فى غابر | صمــد بقى بالملك والسلطان
لابد أن فى الكون تظهر وحدة | من غير ما ثانٍ وكل فان
صفة له خلق كذلك وحــدة | كصفاته العظمى فلا يقفان
فعل وفرع من جلالة ذاتــه | لولاه ماذا شاب من نقصان
والكون لو لا كان مظهر فعله | وصفاتــه لم يبد من كتمان
بدأ الزمان بعالم الأجسام ما | فيما عــداه تصرف الأزمان
فالممكنات لأصلها معدومــة | ولــه الغنى فى كل شأن شان
دع علــةً معلولها من شأنها | زوجان هذى أول ذاً ثان
لا بائناً منها وكان تنزلاً | فالله مبــدع سائر الأكوان
من أمره مهما أراد فقال : كن | سبحانــه من مبــدئ ديّان

وكنت قلت بالفارسية :

مجموعهٔ كون بود در كتم عدم | از حرف كن آورد باين دير قدم
فعليست كه بے ماده يد قدرت اوكرد | كز ضرب وجودى بعدم نيست قدم

وأيضاً :

ترتيب كه ذاتى است در اسماء الهى | ترتيب زمانى چو پذيرفت كماهى
آن چيز كه در آخر منزل ز تنزل | افتاده قديمش بچه تدبير بخواهى

وأيضاً :

جهان چو نقش و نگاريست از يد قدرت | چه هرچه خويش نداند نمود بے بودست
سمات نقص ز تسخير هر يكے پيدا | بقيد سخت درين قيد خانه مسدود ست
نه خود بخويش كه برآمده زدست دگر | چنانكه نقش كه‌حيران وديده بكشودست
فسون عشق دميده بگوش هر چه بود | كه مانده‌هائم‌وشوريده سر زمقصودست
چنانكه عاشق شوريده گم كند معشوق | چنين‌ست‌شيفته‌وسرگشته هرچه‌موجودست

وأيضاً :

آنكس كه بابداع زمان رفت نفهميد | كز عمر حق اين حصه بمخلوق ببخشيد
چون واحد حق است بهر مرتبه بايد | نے مرتبهٔ ذهن كه يك گفت بتعديد

وأيضاً :

خورشید اگر نداشت تغیر بحال خویش | گاهے طلوع و گاه افول و زوال پیش
گاهے ظلام لیل و تباشیر صبح گاه | ماندے ضیاء ونور بیکسان نه کم نه بیش
وهم کسی نرفت که این جمله از خوراست | گفتے همیں طبیعت دنیا ست پیش پیش
دانی شئون حضرة دهر این چنیں مدام | برتر بذات خویش و تجلی گرفته کیش

هذا ، وفى كتاب "العقل والنقل" للحافظ ابن تيمية : أنه ليس ههنا مثال للعلة والمعلول ، وكل ما يزعم علة فهو شرط لاغير. وليس عند العرفاء علية ولا معلولية بل عندهم إضافة القيومية . قاله فى " الأسفار الأربعة " .

وإذا علمت أن هذا العالم اعتبر شخصاً ، وله ابتداء وغاية واحدة ونظام واحد، وكانت جزئياته لايكون فيها تعاقب وإن كان يرتبط بعضه ببعض ترتيباً وتسبيباً لو لم يقع فى الزمان ، وإذا وقع ظهرت النسب بالتقدم والتأخر الزمانى ، فإذن للعالم بدء واختتام ، لا كما يقوله أصحاب الأدوار والأكوار ، إلى آخر ما قال رحمه الله .

فهذه إحدى عشرة فائدة ، اقتطفتها بإرتجال واستعجال عن رسائله الشريفة، وشيء مما شنفت بـه أذنى فى بعض الدروس ، فكأنها أحد عشر كوكباً من سمائه ، وأحد عشر لؤلؤاً من دامائه ، ولا ريب فإن الشيخ رحمه الله كان للعلم سماء وللعرفان داماء ، وقد وقع نوع إطناب وإسهاب مع شدة حذرى عن سآمة الناظر ، وأرجو أن لايكون ثقلاً على الطبائع الذكية والقلوب الصادية إلى مزايا العلم والأكباد الهائمة فى فلوات المعرفة ، فإنها شذرات ذهب وفرائد در لأولى الأبصار ، فكيف ينكرها المتبصر المتفقد ؟ وكيف يتجانف عنها الفاضل المتوقد ؟ كلا ثم كلا . بل أظنه إن شاء الله تعالى زلالاً سائغاً لغليله، وماءً نميراً لأوامــه ، وجبراً لمهيض فؤاده . وإنما ألممت بذكرها ليكون للمستبصرين دليلاً على جميع ما ذكرنا من بلوغ الشيخ غاية قصوى من مراحل

التحقيق والتدقيق ، وليكون إيقاظاً للناظر على آداب الشيخ فى إفصاح كلامه وانتقال حدسه فى نظمه ونظامه إذا تأمل وأمعن وراعى المغزى وأتقن، ولئلا يظن بى الرمى بالليل أو الرجم بالغيب ، بل ليظن أنه رمى عن كثب وقضاء عن أرب ، ومع هذا فقد تجانفت مما كان دقيقاً غامضاً لايتجلى للناظر مرماها بادى الرأى ، أو كان مطنباً متعباً للأنظار ، وممكلاً محسراً لأنضاء الأفكار ، فلهذا قد انتقيت ما كان سهل المأخذ غير دقيق لاموجز ولا مطنب، ولو لا ذلك لزففت غادات المسائل، وأهديت طرف الأبحاث ومبتكرات الدلائل، للمشتاقين الذين يحرى بهم أن يتمثل لهم بقول القائل ، ولله دره :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء بـــه * ومن حديثك فى أعقابها حاد
إذا اشتكت من كلال السير واعدها * روح الوصال فتحيي عند ميعاد

وبالله التوفيق والعصمة ، وصلى الله تعالى على سيد البشر مولانا وشفيعنا فى المحشر محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ والشعر .

لاأدرى أى مزية للشيخ أذكر ، وإذا حاولت ذكر شئ من مزاياه تتسابق إلى مآثره المتكاثرة سراعاً من كل صوب وناحيـــة ، لا أدرى أيها أذكر وأيها أهجر ؟ .

فتشابهت كلتاهما نجلاء

وحضرته الجامعة كالحلقة المفرغة ، لايدرى أين طرفاها ، فكان صدره بحراً منبثقاً انفجرت منه الأنهار، وأترعت الحياض وسالت الأودية ، فكل ظمآن وهيمان كان يرتوى من زلاله فيما يشاء وكيف يشاء ، سبحان الله يعطى من

يشاء ما يشاء . وقد علمت علماً جملياً أن حياة الشيخ حياة حافلة بالمآثر العلمية انقضت فى الإكباب على علوم السلف والعكوف على زبرهم وأسفارهم ، والإستخراج من دفائنهم ومعادنهم ، والاسترواء من مناهلهم العذبة السائغة وبحارهم الزاخرة ، لا غير ، ولكن كما أن الله جعل هذا الإنسان وهذا الهيكل المخصوص الصغير الجثمان عالماً صغيراً أودع فيه نماذج العالم الكبير من الملائكة والشياطين والجنود والعساكر والسلاطين والبحار والجبال وبطون الأدوية والآكام والظراب ، وغير ذلك مما بسطه أهل الحقائق ، ولا سيما شيخهم الأكبر المحقق العارف الأندلسى الطائى فى "فتوحاته" و"شجرته"، فهكذا جعل الحكيم القدير هذا العالم الصغير عالماً كبيراً وهذا العالم الكبير عالماً عظيماً ، لم يكن عالماً بل عالماً ، ولم يكن واحداً بل أمةً :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

ترى فيه من بدائع أنواع العلوم عوارف جدداً (١)، ومن خصائص علماء العهد الغابر معارف جدداً ما يختلب القلوب ويختلس العقول . للشيخ رحمه الله شعر غزير رائق، وإذا استشرف أحد إلى شعره لحسب أن الشيخ قدس سره لم يبرح عاكفاً فى سبك الشعر وصياغته، فإن قريضه ونشيده يبلغ إلى آلاف بيت ، فله شعر فى بعض ضوابط الفقه الحنفى على نحو الأراجيز، وشعر فى بعض معارف الحديث ، وشعر فى شتات مسائل العلوم ، ورسالة منظومة فى مسألة وجود الصانع الحكيم وحدوث العالم من علم التوحيد والكلام ، وشعر فى مديحة رسول الله ﷺ ، وشعر فى الحكم والأمثال ، وشعر فى الحقائق ، وشعر فى رثاء بعض شيوخه ، وشعر فى الأسف على العهد الغابر وعلمائه ، وشعر فى

(١) الجدد بضم الدال الاولى جمع جديد ، وبفتحها بمعنى الطرايق ، قاله ابن قتيبة فى "ادبه". منه .

مديحة بعض أماثل معاصريه فى ضمن بعض مكاتيبه إليه . ثم كل ذلك بكاء واستبكاء ، وأدب وحكمة ومثال . ولا غرو فإن الشيخ كان من بيت العلم والشعر ، فكما أن له أصلاً عريقاً فى المجد والشرف وعرقاً متأصلاً فى العلم والعرفان فكذلك له مجد مؤثل وعرق عريق فى الشعر الفارسى والعربى ، والده شاعر مجيد فى الفارسية ، وقد أسلفنا من قبل أن أخاه الأكبر كان أشعر أهل "كشمير" ، بل أهل عصره ، وثلاثة نفر من إخوانه كلهم شعراء بالفارسية ، فكان الشعر خالط بلحمه وسيط بدمه ، نشأ فى مهد الشعر ثم ارتوى بلبانــه ، فلذا كان له شعر طبيعى أغزر ، ومع هذا أرق وألطف وأزهر ، ولنعم ما قال زهير :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه * وتغرس إلا فى منابتها النخل

وقد فاق شعره شعر أبىالطيب المتنبى فى حسن سبكه ونسيجه ، وبديع إنسجامه وصوغه ونصاعة لفظه وفصاحة كلماته ، بيد أنه قد يجد الناظر فى بعضه نوع معاظلة وإغلاق ، وذلك لغوصه فى دقائق العلوم ،وإشارات لطيفة إلى حقائق شريفة من مزايا عالية مع إيجاز واختصار ، ففصح العربية وشواردها، والمثل السائر فى حاضر العرب وباديها ، والإشارات العلمية والرموز العرفانية ترى فيه حظاً وافراً منها ، وأما حوشى الكلام وركاكة اللفظ فما أبعدها من شأنه . وبالجملة فمحاسن شعره لاتسأل عنها فإنه مشحون بها ، فترى فيــه انسجاماً وصياغة ، يزرى بقلائد العقيان وعقود الجمان، وتخجل دون حسنـه وبهائه سموط اللؤلؤ والمرجان .

ولعلك تمتعت من شميم بعض أزهاره ، وتحظيت من نسمات أسحاره مما بثثنا منه طرفاً فى مطاوى بعض الأبحاث ، فإنه قد ضاع هنا أريجه وطاب نشره وعبقه ما يزرى بنفحات المسك وعبير الريهقان وفوحات العنبر ، ولو

لم نرد طبع ما تيسر لنا من شعره لسمحنا ههنا بأن نبث منه درراً غالية ما يطرب المسامع ويهز القلوب ويلذ الخواطر ، وما يرق الأكباد ويهيج الأحزان ويريق الدموع ، ولكن قد حاولنا بحول الله وحسن توفيقه أن نخرج للمشتاقين منه قدراً صالحاً ، ونبسط مائدته فى جزء مفرد ليقضوا وطرهم ، والله الموفق والميسر لكل عسير ، إلا أنى أذكر ههنا قصيدة طنانة غراء تحتوى بمديحة إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة سيدنا محمد ﷺ ، استحصالاً لليمن والبركة ، وتشريفاً لهذه السطور بمديحته ﷺ ، وليكون نموذجاً للناظرين وسكينةً ورواءً للقلوب الصادية . قال رحمه الله تعالى :

برق تألق(١) موهناً(٢) بالوادى ... فاعتاد(٣) قلبى طائف(٤) الأنجاد
أسفاً على عهد الحمى و عهاده(٥) ... تولى(٦) على الإبراق والإرعاد
رهم(٧) تناوح تارةً ديم لها ... حتى غدا الأيام كالأعياد
هب النسيم على الربا فتضاحكت ... بشرى العميد(٨) عرارها والجادى(٩)
لعبت صباها و الشمال و تارةً ... لعب الغصون بعطفها المياد
سنح الظباء فكاد يهلك مغرم ... حور العيون و عطفة الأجياد
وأكاد أشرق بالدموع إذا بدا ... هجر فتبكى الورق بالإسعاد (١٠)
أسقى التاول واستحث ركائبى ... وجداً على التأويب١١ والإسآد١٢

---

(١) تالق البرق و الق و ائتلق لمع . (٢) الموهن و الوهن من الليل منتصفه او جنح .
(٣) الاعتياد الانتياب .
(٤) الطائف الخيال . (٥) العهاد اول المطر و مثله الوسمى .
(٦) تولى من الولى وهو المطر بعد المطر. (٧) الرهم جمع رهمة المطر الضعيف الدائم .
(٨) العميد الحزين من العمد بفتحتين و هو الحزن . (٩) الجادى الزعفران .
(١٠) الاسعاد ههنا الاعانة فى البكاء . (١١) التاويب السير جميع النهار .
(١٢) الاسآد السير سائر الليل من غير تعريس .

تهيامى الاتهام (١) همى همة ... نفت الكرى عنى على إسهاد
لله در صحابة ألفيتهم ... ديم الندى للمجتدى(٢) والجادى
فرق الصديع على منائر رفعة ... سرج الرشاد على ذرى الأطواد
وأبرّهم قلباً وأطهر ضئضئاً (٣) ... وأقل تكلفة نجوم النادى
أنا فى أمان من دآدئ(٤) حيرة ... ولى اهتداء بالنبى الهادى
شمس الضحى بدر الدجى صدر العلى ... علم الهدى هو قدوة للقادى
مولى الورى وبشيرهم وشفيعهم ... وخطيبهم فى مشهد الأشهاد
من سيد عبد الإآله وحمده (٥) ... وحبيبه وخليله الحمّاد
سهل العريكة أكرم العرب الألى ... خير العباد وخيرة العبّاد
خير الورى بيتاً وأخير محتداً ... ونبيهم من معدن منطاد (٦)
ختم النبوة والرسالة إنها ... بدئت به ختمت به لمعاد
العاقب الماحى وأكثر تابعاً ... والقاسم المبعوث للإرشاد
والأفصح الأمى أصدق لهجة ... ممن تكلم باللسان الضادى
سر المهيمن عبده ورسوله ... بشرى محياه حياة الصادى
ومفخم فخم تهلل وجهه ... ضحكاً كضحك البدر إذ هو باد
الأبلج٧ الأقنى٨ الأزج٩ ورحمة ... للعالمين وأجود الأجواد
وافت بطيبة داره ولملكه ... بالشام مكة موعد الميلاد
ولرعبه سارٍ مسيرة أشهر ... ولذكره باق على إخماد
وافى شهيداً منذراً ومبشراً ... من ربه بالوعد والإيعاد

---

(١) الاتهام الذهاب الى تهامة .
(٢) المجتدى طالب الجدى وهو الجود.
(٣) الضئضئ الاصل والمعدن .
(٤) الدآدى جمع دآدآة وهى ليلة شديدة الظلمة .
(٥) الحمد بمعنى الحميد ههنا .
(٦) المنطاد المرتفع .
(٧) الأبلج مفترق الحاجبين .
(٨) الاقنى مرتفع قصبة الانف .
(٩) الازج دقيق الحاجبين .

فلواءه و مقامه مع حوضه — يوم التنادى للوسيلة شاد
قد جاء والدنيا على ظلماتها — و الجهل و البؤسى على اعتاد
فأضاء كالبدر المنير و وجهه — نور مبين فى ظلام دآدى
فتحت به غلف القلوب وبصرت — عمى العيون بسنة و سداد
قد أيد التقوى وشيد أمرها — بقواعد التأييد ذات عماد
ومكارم الأخلاق مهد والهدى — أضحى على علم رفيع طاد
وبوجهه تستنزل البركات من — فوق السماء فأيده بأياد
وبه النجاة وعصمة من أزمة — وبه حياة طيبة لبلاد
فلخير هدى هديه ولدينه — دين الإله علا لدى الإسناد
قامت به غر الوجوه عصابة — شم الأنوف و صفوة الأعضاد
كانوا من الأبرار والأطهار وال — أخيار و الأنصار و الأنجاد
ثم اهتدى بمنارهم سعداؤهم — سعدوا وكانوا و فقوا لرشاد
حتى تأذن دهرهم بمضيهم — والدهر أرود ذو صروف عاد
فمضى الخيار فلا ترى آثارهم — فكأنهم كانوا على ميعاد
لا يهتدى للخير إلا خير — و بمعزل عنه أخ الإنكاد
هذا ولا يبقى سوى الملك القدي — م وكل شئ رائح أو غاد
قف نبك إطلالاً وهت أركانها — أخنى عليها الدهر بالمرصاد
يا ربما أرثى الطلول فما هنا — داعٍ ولا متسمع إنشادى
سبحان من صرف الأمور وما أتت — غير عليه على مدى الآباد
ثم الصلاة مع السلام على النبي — ى وآله مع صحبه الأمجاد

فهذه قصيدة عصماء بين أيديكم ، ترى فيها من نصاعة لفظ الجاهلية والعرب العرباء ، ومن حلاوة انسجام الشعراء الإسلاميين وحسن نسيج

النابغين فى الشعر ، فترى فيها رقة الديباج ومتانة الصخور ، وكأنها تذهب بالقلوب دقةً وسحراً ، حتى كأن الشعر من جنانه مخاوق والسحر من كلامه مسروق ، وفذلكة الكلام أنه نظم لؤلؤاً وحاك ديباجاً ونسج حريراً :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورقٍ * وحاك ما حاك من وشيٍ و ديباج

وفوق كل ذلك من حسن التلويحات إلى الشمائل النبوية والخصائص المحمدية بأنق تعبير وأوفى تحبير ، ولو لم يكن للشيخ قدس سره غير هذه اليتيمة الحسناء لكفى دليلاً على أنه وصل إلى قصارى منازل الشعر ، يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ثم بدا لى أن أذكر عدة قصائد أخرى من قصائده الطنانة ، تسكيناً للأكباد الهائمة ، فإن الجرع أروى والرشيف أنقع ، والله المستعان .

قصيدة

فى مآثر حجة الإسلام ، لسان الحكمة ، بحر الحقائق ، مولانا العارف محمد قاسم النانوتوى ، المتوفى سنة ١٢٩٧ الهجرية ، مؤسس "دار العلوم الديوبندية" ، قدس سره العزيز .

قفا يا صاحبيَّ على الديار فمن دأب الشجى هو ازديار
وعوجاً بالرباع رباع أنس فى المرأى لشيءٌ كاصطبار
وإن عادت دوارس بعد هجرٍ فقد كانت معاهد للمزار
فتلك بلادها أمضيت فيها لياكى من طوال أو قصار
وبت أسارق المرأى وأهوى نسيماً من شميم من عرار
أسابق ريب دهرٍ ذى فنون وإن سراه لا يدريه دار
كأنك ما سمعت حديث شيخٍ تلقاه الخيار عن الخيار

وذلك قاسم البركات طراً | يسير بذكره تال وقارى
إمام حافظ سند همام | لسان الحق (١) مقدام الكبار
طراز للهدى حبل متين | دليل حجة عالى المنار
شهير مسند بدر منير | كشمس فوق رابعة النهار
مجدد هذه الأعصار حقاً | محدثها وذلك فتح بارى
ومشكاة الهدى هدياً وسمتاً | ومصباح به إرشاد سارى
ورحلة عصره طود عظيم | خليفة مسلم ثم البخارى
ومحى السنة البيضاء لمَّا | توارت بالحجاب على استتار
له فى الفضل أخبار كشمس | وآثار كأمثال الدرارى
متى ما جئت تستسقيه قطراً | تجد بحراً يطم على البحار
وصوباً صيباً سيحاً فسيحاً | فراتاً محيياً رحب المجارى
مناقبه قد اشتهرت وصحت | وأخرجها الثقات على الجهار
فهذا فضله علماً وفقهاً | تلقاه الرواة على اشتهار
وما آتاه خالقه مقاماً | وآثره ولياً باختيار
فمعروف به وسرى عصر | فريد فيه من غير المدار
جنيد همةً داؤد حالاً | وغوث الملتجى قطب المدار
إذا ما جاءه أحد مريداً | تهلل بالغوادى والسوارى
فأولاه فيوضاً ساميات (٢) | وأحياه بأنهار غزار
وأورثه اليقين وذوق حال | وأبقاه على وجد مشار
طريق القوم قد دارت عليه | فشد له الرحال على المهارى
فأضحى كعبة للعاكفين | ومأوى الطائفين بلا ممار

---

(١) او ''لسان الغيب'' بدل لسان الحق .

(٢) فى نسخة ''باقيات'' .

فصار مدار كل الفضل حتى ... دعاه الرب حي لخير دار
أحب لقاءه حتى تلقى ... ولبّاه وحج للإعتمار
فيا ترب الرضى سقياً ورياً ... بما نزل من الرضوان جاري
متى ما فاح من طيب ونشر ... وما ترنّى الحمائم والقماري

قصيدة أخرى

فى مناقب الثقة ، الحجة ، شيخ السنة ، القطب ، العارف ، مولانا رشيد أحمد الكنكوهى المتوفى سنة ١٣٢٣ الهجرية قدس سره .

قفا يا صاحبي عن السفار ... بمرأى من عرار أو بهار
يسير بنشرها نفحات أنس ... ورياً عند محى من قطار
يفيض لروحها رشحات قدس ... حياة للبرارى والقفار
وقد عادت صباها من رباها ... بأنفاس يطيب بها الصحارى
فيسرى فى قلوب الصحب وجد ... بأطراف الحديث لدى اعتبار
أطيب لنشره نفساً ونفساً ... فأروى من روايات الكبار
أتابعهم ويملينى دموعى ... حديثى من شيوخى لادكار
أجلهم وأجلاهم مقاماً ... أبو مسعودهم جبل الوقار
لقد فرع الورى عملاً وعلماً ... مكارم ساعدت كرم النجار
إمام قدوة عدل أمين ... ونور مستبين كالنهار
فقيه حافظ علم شهير ... كصبح مستنير هدى سار
إليه المنتهى حفظاً وفقهاً ... وأضحى فى الرواية كالمدار
فنى التحديث رحلة كل راوٍ ... وفى الأخبار عمدة كل قارى
فقيه النفس مجتهد مطاع ... وكوثر علمه بالخير جارى
وأحيى سنة كانت أميتت ... وإذ وضح النهار فلا تمار

وأصبح فى الورى صدراً وبدراً　　منيراً دارئاً حلك التوارى
وأصبح مفرداً علماً رفيعاً　　كرفع المفرد العلم المنار
وآية رحمة فضلاً وفيضاً　　عباباً مستطاباً للقوارى
وغرة دهره علماً وديناً　　طراز زمانه مثل النضار
يقوم لشكره آثاره فى　　مدارس أو مساجد كالدرارى
متى ما جاد جود قام شكراً　　له العزمات من باد وقار
وأما فضله ذوقاً وحالاً　　ففرد فيه لا أحد يجارى
علو مقامه قدماً وسبقاً　　فلا من طائر فيه مطار
فضيل زمانه ورعاً وزهداً　　وحاتم عصره عند امتيار
كأن جبينه بدر مبين　　تهلل نوره عند الزوار
وهمته كصبح مستطير　　أو الغيث المغيث لدى انتظار
لقد نفع الورى شرقاً وغرباً　　وأشرق نوره عند اعتكار
وزحزح عن حريم الحق نكراً　　فحصحص فى البسيط على الجهار
ودار مع استقامته مداراً　　أصيل الأصل محمي الزمار
فرحمة ربه أبداً عليه
وطاب ثراه من رضوان بارى

مرثية شيخه

شيخ العالم ، مسند الوقت ، الشيخ محمود الحسن الديو بندى المدعو بـ "شيخ الهند" ، نور الله ضريحه .

قفا نبك من ذكرى مزار فندمعا　　مصيفاً ومشتى ثم مرآى ومسمعا

قد احتفه الألطاف عطفاً وعطفةً ... وبورك فيــه مربعاً ثم مربعا
وقد كان دهراً ثم دهراً طريقتى ... طريقـة غرٍ ثم أولى فأوقعا
يجاوبنى دار وجار على البكى ... ولم أر إلا باكياً ثم موضعا
وإن كان مما ليس يشفى ويشتفى ... بشئ ولكن خل عينيك تدمعا
نهضت لأرثى عالماً ثم عاملاً ... حديثاً وفقهاً ثم ما شئت أجمعا
وهديا وسمتا سنـة وجماعـة ... وخلقا وخلقا ما أناف وأوسعا
وعزما وحزما حكمةً وإصابةً ... وزهداً وتقوى كان أروع أورعا
مقاما وحالاً نيـةً واستقامـة ... وخيراً وخيراً فأرثها كلها معا
كبيراً ينادى فى السماوات أمةً ... إمام الهدى شيخاً أجل وأرفعا
ومولى الورى محمودهم وحميدهم ... ومسنـدهم فيما روى ثم أسمعا
وبلغ عنـه شاهداً ثم غائبا ... أمانـة رب عنـده ثم أودعا
ومهما تصدى للحديث وفقهه ... أعاد رياض الدين أخصب أمرعا
مصابيحه مشكاة صدرٍ وفيضه ... من السنـة البيضاء حتى تضلعا
ووافى البخارى عنده فتح بارئ ... وإرشاد سارٍ كيف أصّل فرّعا
وترجمة للوحى فى الأرض أصلها ... ووافى السماءً فرعها ثم أفرعا
وأصحابـه ألف فأزيـد منهم ... حديثا وفقها هل أردت فتسمعا
وقام إماما فى زمان مخادعٍ ... على قدم كالطود أرسى وأوقعا
وقام بأمر الله فى كل حالـة ... فيخشاه إن لم يخش حصنا ممنعا
فسبحان من آتاه علما ونشره ... وأعطاه حلما ما أطاب وأطوعا
إذا جئتـه وافيتـه متهللاً ... كبدر مبين من جبين وأوسعا
وغرتـه سيما السجود وبشره ... تباشير صبحٍ أو كمسك تضوعا
أخاطب حينا قبره وضريحه ... بما قالـه من قالـه ثم أبدعا
نعم قد وسعت العلم والعلم ميت ... ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

وكان حشا أذنى دراً وحكمةً فتخرج من عينىَّ دمعا مرصعا
معارف معروف وآداب حاتم أذكره حتى يقول فأسمعا
أزور محياه وأصغى لقوله أصادف نور أو سرور فأرجعا
فوافيت دهراً ثم دهراً بمنيتى وألفيت عمراً ثم عمراً ممتعا
إلى أن قضى نحبا وأوفى بنذره فلم أر غير الله للمرء مفزعا
تصدى لظل العرش فى عدن ربه ومقعد صدق قد دعاه فأسرعا
وأبقى قلوبا فى الصدور كأنما تضرب حيتان لماء تفجعا
أقدر أن لو جاءه حال صحبه لمن عليهم زورة ما فيرجعا
حسينا عزيراً مرتضى ثم أحمدا عزيزاً حبيبا ثم شبيره معا
وأصغرهم أو قلت أنور ما درى لما قد دهاه حيلةً ما فيصنعا
فلله در الجب حتى أقامنى أقول وأحكى أن فى مض مطمعا
وأذكر أيام المزار وأنثنى على غصص فى القلب حتى تصدعا
نعم كنت دهراً قد ظفرت بحاجتى فألفان غراً لم أجرب فأدقعا
فمن للهدى والهدى والعلم والتقى وما مطمع إلا أرى الأمر أسرعا
يضيق نطاق فى المراثى لحقها وثم مجال كيفما شئت فاصنعا
بكيت إماماً أو ولياً لربه وإن شئت حقا فالفضائل أجمعا
بكته سماء ثم أرض كلاهما وعين وقلب قاسياه فأجمعا
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى علمه فوق الركاب ورفعا
وشيعه المخلوق من كل جانب فلم أر إلا الفضل كان مودعا
ولم أر مثل اليوم كم كان باكيا وما كان دمع القوم دمعا مضيعا
ولم أدر ماذا كان إحرام حجه أكان قرانا أم أجاز تمتعا
ولما حسبت العام عند قضائه وجدت وكان الله قدر مسمعا
سقى الله مثواه كرامة ربعه وكان غداً لى شافعا ومشفعا

١٣٣٩ هـ

قصيدة رنانة

أنشأها بغاية الإرتجال لمؤتمر جمعية العلماء المنعقدة فى بلدة "كيا" فى سنة ١٣٤١ الهجرية المطابق سنة ١٩٢٢ الميلادى .

الملك لله الرفيع الشأن ذى الطول والتصريف فى الأزمان
كم من بعيد قربته هباته ومنى رجونا ما لهن تدان
غير الزمان وإنها عبر متى دارت على اليقظان والوسنان
فبقدره خير وشر لازب وبأمره يتقلب الملوان
وقضاءه فى أرضه وسمائه خفضاً ورفعاً كفة الميزان
نفع وضر يبتغيه مؤمل وهما لمن قد حى يبتغيان
كل له وإليه يرجع كله غيض وفيض ناله الثقلان
ولربما خال امرء عسراً له وبعسره هذا له يسران
فالكون تحت قضائه ورضائه وله الغنى فى كل شأن شان
وله البقاء وما عداه فهالك سبحانه الباقى وكل فان
ولربما أخنى لقوم هلكهم حتى عتوا فى الشر والطغيان
ولربما أبدي لقوم نعمة الـ إيمان والإسلام والإحسان

غدارة اليونان والبرطانى

أو ما ترى لما عدت عن طورها غـدارة اليونان و البرطانى
حتى غدوا لا يؤمنون لربهم و تنصلوا من خلقة الإنسان
فازداد شر فى البسيطة منهم ما كان يحكى منذ جنكز خان
أو ما ترقرق عينهم أو قلبهم من رحمة الصبيان و النسوان
وأتوا بما لم يلف فى سلف المدى و يضيق منه نطاق كل بيان

وهناك يبدو فرق من عبد الهوى ... ممن تجاه الرب فى إحسان
أجيال كفر قد عدوا حتى رأت ... عينان ما لم تسمع الآذان
فاستدرجوا حتى تفارط أمرهم ... فى الغى والطغيان والعدوان
حتى تدارك رحمة من ربنا ... من دولة الإسلام من عثمان
المصطفى الغازى الكمال فهدهم ... صرعى وهلكى هل ترى من غان
من جهبذ ماضى العزيمة صارم ... حامى الحقيقة فارع مزدان
و أشدهم بأساً على أعدائه ... وأسد رأياً فى نزال عوان
والهم همة ماجد متمنع ... كالجبن سيرة عاجز متوان
والرأس يرجى فى المدى لملمة ... ما كان منها للرعاء يدان
والسيف أشفى للصدور من العدى ... والعزم أمضى منه فى الميدان
وبليلة ظلماء يفتقد الورى ... بدر الدجى لهداية الحيران
والجدب يشكر غوره ونجاده ... ديم الندى للعارض الهتان
ولربما دهم الزمان بأزمة ... ولها انفراج فى مدى الإبان
والملك يأتى فى بنى قنطورة ... فحوى حديث أخرج الطبرانى
وهم كما فى نص " توراة " أتى ... من ولد ابراهيم من مديان
ترك وليس أولئكم من يافث ... من آل سلجوق ومن عثمان
فاستأصل الكفر العقيم وهده ... وحمى الزمار حمية الإيمان
وحمى الخلافة والسياسة حقها ... إن الخليفة ذاك ذو سلطان
كالبحر لا يلوى ويلطم موجه ... من حومة الفرسان والشجعان
فجزاه رب العرش خير جزائه ... عنا وعن جمهور أهل زمان
أو ما ترى لهم الجنان وخصمهم ... مهما تقلب فى لظى نيران
شتان بين مرادهم و مرادهم ... طرفا نقيض هل هما سيان
شهداؤهم فى خضر طير قد ثووا ... تاوى إلى عرش جناهم دان

ولهم حياة عند ربهم غدوا — فى جنة بالروح و الريحان
فاسأل سمرنا ما أصاب عداتهم — من هدة لما التقى الجمعان
تركوا كأمس دابرٍ واستوصلوا — وسقوا كؤوس الموت كالعطشان
وانفك من أسر الحياة رقابهم — والقتل أشفى ما يراه العانى
سئموا الحياة و هامهم آذتهم — فتخففوا منها فكاك رهان
لم يبق من يبكيهم و ينوحهم — إلا غراب البين من برطان
جعل المقدر كيدهم فى نحرهم — وكما تدين تدان من ديَّان
و لطالما اصطبغوا بمعمودية — فأتى اصطباغهم بأحمر قان
سطع الهلال فكان غرة شهرنا — سالخ الوبال لأمة الصلبان
و الله مولانا و لا مولى لهم — ليسوا سواء كيف يستويان
و سهام ليل مزَّقت أكبادهم — من قانتى هنـــد إلى أفغان
خربت ديارهم و فرق جمعهم — هزموا من التكبير كالشيطان
صلبوا و دائرة الوبال عليهم — والصلب أفضل ميتة النصرانى
لعنوا و كان اللعن حق عليهم — بعدوا ألا بعداً لقوم جان
وأصابهم رعد الأمير الإبن الأمي — ر إبن الأمير المستجار أمان
و أقام رب العرش عزة دينه — و أطال ظل خلافة السلطان
ظل الإله على البرية كلهم — سلطانهم عبد المجيد الثانى
سعدت مساعيه و أنجح جده — ما دام يسعى فى رضى الرحمن
و الحمد لله الذى قد خصنا — بمزيد فضل منه ثم حنان
ثم الصلاة على النبى و آله — خير الخلائق من بنى عدنان

تنبيـــه : وإذا حدقت نظرك فى شجون هذه القصائد وغضونها وراعيت مغزاها من ظهورها وبطونها ما ارتبت شيئاً فى أن شعر الشيخ رحمه الله

فاق شعر كثير من نوابغ الشعراء فى فصاحتها وبلاغتها ، تسمو قصائدهم ببيت بيتين فذين أو توأمين ، وأما قصائد الشيخ رحمه الله فترى كل قصيدة من قصائده تسمو وتمتاز بطرف من الأشعار ، وأما لطافة الخيال ودقة المأخذ فليكن أمر وراء الفصاحة ومن توابعها ، فإن مدارها على نصاعة اللفظ ، ومحطها أن يكون مجراها على أساليب كلماتهم وخصائص عباراتهم والقوانين المستنبطة من كلمات فصحاء القوم فى النضد والنسق والسلامة والعذوبة ، بحيث لا يمل السامع الدارى ، ولا يكل عنها مقول القارئ ، بل كثيراً ما يشتاق إلى الإزدياد ، ويبقى مشتاقاً عند النفاد ، وليكن لطافة الخيال من الفصاحة بمنزلة البديع من علمى البلاغة ، يستحسن بعد تحقق أمر الفصاحة ، ألا ترى أنه قيل للمتنبى والمعرى : حكيمان ، ولأبى تمام والبحترى : شاعران ، فإذا لم يكن محط الشاعرية على دقة المغزى ولطافة المسلك وغموض المرمى فأولى وأحرى أن لا يكون محطا للفصاحة ، كيف ؟ وأن البدويين كانوا أبعد الناس عن لطافة الخيال ، ومع هذا كانوا أقربهم إلى الفصاحة ، بل أولئك هم الفصحاء ، ومن ثم كان أمر الفصاحة كالملاحة لا يوصف يسرى فى الكلمات ، كالروح فى البدن لا يتعين مرماها ومغزاها ، ومن أجل ذلك لم يقدروا على تحديد التنافر ، بل قالوا كل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلاً متعسر النطق على اللسان ، هذا ، وصلى الله أزكى صلوات ، وسلم أوفى تسليمات ، على خير البرية سيدنا ومولانا محمد وآله وعترته وأصحابه وتابعيه أجمعين .

الشيخ وتعبيراته الأدبية فى أبحاث فقهية وحديثية .

وكان من ظرافة طبيعته ولطافة عقله أنه كان ربما يتلطف فى غضون عباراته وشجون تعبيراته بجمل مستملحة وكلمات مستعذبة ، تورية للمرام وتلميحاً ، واستظرافاً للكلام وتمليحاً ، وقد بلغنى عن الثقات الأثبات أن الشيخ

رحمه‌الله أنشأ مقامات على نهج الحريرى ، منها منقوطة كلها ، ومنها غير منقوطة كلها ، ومنها كمقامة المراغية الخيفاء ما يدل على تغلغل الشيخ رحمه‌الله فى دقائق اللغة ، وصنائع التحرير ، وبدائع الإنشاء ، والأسف على أنى ما ظفرت بشئ منها .

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما يشاء

ويؤيد ذلك ما رأيت أنه ما من مزية علمية أو أدبية لأحد من أفاضل السلف ابتكرها إلا والشيخ رحمه‌الله حذا حذوه وعارضه ، وانتهج نهجه واختبر بها عارضته ، نعم أولوا الطبائع الذكية الوقادة يتنافسون فى أمثالها ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وكم له من أمثال هذه المزايا التى تقاصرت عنها فضلاء معاصريه ، " فدبوا له الخمر ومشوا له بالضراء " . نعم وداء الضرائر بلية سرت فى نفوس الورى . قلما سلم منه أحد ، وأن الحسناء لاتعدم ذاماً ، وقد قيل :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً ، أنه لدميم

ولكن كان الأمر كما قيل :

سبقت العالمين إلى المعالى بصائب فكرة وعلو همه
يريد الحاسدون ليطفؤه ويأبى الله إلا أن يتمه

نعم إن عامة صنيعه فى ترصيفه وترصيعه ربما يشبه فى إيجازه وإطنابه كلام سيبويه فى كتابه ، أو ابن الهمام فى " تحريره " ، ولكن أين السيرافى ليسير فى مسيره ؟ وأين ابن أميره لتقريره وتحبيره ؟ وأين يؤتى بأميره لتصويره وتيسيره ، فدونك اعتباراً بمن غبر ، أو استعباراً بالعبر ، وإياك والملام على أحد من الأعلام ، فإنهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ قد كفوا ، فلا تهرف بما لا تعرف ، وأحمد عند التنكير ينصرف .

وأحاول أن أهدى نماذج مستطرفه من عباراته المستظرفة ، يهتز لمثلها الألباب طرباً ، ويقضى لذوى الأذواق أربا : "إذا ذاقها من ذاقها يتمطق" . وكأنها من باب المعاياة والأحاجى العلمية ، وأريد أن أكتفى بالمثالين اختصاراً، وكيف ؟ وأن أنظم أمثال هذه الدرر المنثورة فى مؤلفاته ، طال بنا الخطب وتجاوزنا القصد والله الموفق .

قال الشيخ رحمه الله فى " نيل الفرقدين " (١) : قلت : وهذا الذى أورده الحاكم معارضاً لأثر عمر رضى الله عنه فى تركه الرفع لا غيره ، كما سيأتى استبعاداً منه أن يروى الرفع مرفوعاً ثم لايرفع هو، ولم يدر أن فى الباب محل جر الجوار وتنازع الفعلين ، فلعل "عمر" جاء فيه بالعدل وكان غير منصرف عن المعرفة بالسببين ، وإن شئت الاخبار بالذى يدور معه الحق فعلاً وتركاً فهو هو .

إذا كان فى أمرٍ وجوه عديدة	فخذ بالذى ترضى وأخبر به كذا
دع اللحن فى الاعراب ثم انح نحوهم	إلى كوفة أو بصرة حيثما ترى
تنازع فعلان فإن شئت اعملن	لأول أو ثانٍ وذاك على سوى
ولو إنما تسعى لصوب مصوّب	كفاك ولم تطلب بقليل من الرضى
ومن عاملين معنوى وغيره ،	يجوز لهم خفض ورفع كما أتى
فإن شئت فانصب أيدياً لاستكانة	وإن جئت بالإسكان فالأصل فى البنى
وإن رمت إظهاراً لحرفين فاعتمد	وإن شئت إدغاماً فى الجنس يرتضى

وقال فى "فصل الخطاب" (١) :

وهذا الذى ذكرته الآن آخر ما ينفصل البحث به عندى فى حديث

(١) ص — ١٠٦ (٢) ص — ٩٠

ابن اسحق عن مكحول عن ابن الربيع أبين من فلق الصبح ، وأوضح من فرق الصديع ، وإذا تجاوبت الشحارير على الأيكة وحدثت وتابعها العنادل بموصول شجى ، وبينت وصدقها القطا وعدلت فليس إلا الأسفار عن وجه المنى ، فليدفع عن تغليس مزدلفة إلى منى ، وليتمثل ما قاله الشافعى رحمه الله :

يا راكباً قف بالمحصب من منى * واهتف بقاطن خيفها والناهض

وقال : وإنى لم أرد الرجم بالغيب ، ولا الرمى فى سواد الليل ، فإنه لا تجزئ عند أصحابنا آه .

هذا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

الشيخ والفتنة المرزائية .

اعلم ـ هداك الله للحق ووفقك لنصرته وإيانا ـ ما من قرن من القرون الخالية فى الأمة الإسلامية إلا وقد ألمت خطوب كارثة أزعجت المسلمين كافة ، وكانت المصالح الكونية والأسرار الربانية داعية لها ليميز الله الخبيث من الطيب ، ولينجلى على العالم سر بلاء المحسنين ، فكانت تقوم لحسمها واستيصالها عصابة الحق والهدى ، لا يزعجها شئ كأنها بنيان مرصوص ، وهكذا تكون الحرب سجالاً برهة ، ثم تكون الغلبة الباهرة للحق ؛ أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، فكلما بدت فتنة عمياء فى الدين قام لدمغها وقطع عروقها علماء وعرفاء ربانيون فقهاء وأمراء حكماء ، شهر سلاطين الأمة صوارمهم وسل أساطين الملة ألسنتهم وأقلامهم ، فأوصلوها إلى الهاوية ، فاعتبر بالفرق الباطلة المعادية للدين ، كيف اجتاحها الله عن ظهر البسيطة ؟ وكيف استأصل شأفتهم ؟ أين الإسماعيلية الباطنية والقرامطة ؟ أين الأخشونيـة والمزدكية ، ثم وثم إلى المهدوية أتباع الجونفورى ، ثم البابية والبهائية وقرة العينية وغيرها . فهل ترى لهم من باقية ؟ كلا ! أصبحت كلها بائدة فانية ،

ولكن صدق رسول الله ﷺ حيث قال : « بادروا فتناً كقطع الليل المظلم » ، فهذه أيام ظهرت فيها أشراط الساعة ، وافترق المسلمون أنفسهم فرقاً وأحزاباً، واستهوتهم الأماني . وفوق ذلك الطامة الكبرى والداهية العظمى إن حرمت الأمة بالهند عن شوكة السلطنة الإسلامية وظل الحكومة الإلٰهية حتى أقفلت عليهم الأبواب وشدوا بالسلاسل الوثيقة المحصدة ضغث على إبالة فبدت فى هذه الأيام فتنة كبرى تدع الديار بلاقع ، ألا وهى الفتنة الكارثة التى تسمى بـ " الفتنة القاديانية " و" الطائفة المرزائية" ، تعزى إلى زعيمها الضال المضل المرزا غلام أحمد القاديانى الهندى ، وقد وصل إلى أمه الهاوية نار حامية ، فكان عتلاً زنيماً ، معتدياً أثيما ، أخرأ وقاحاً ، أذاع فى أذنابه كفراً بواحاً وضلالاً صراحا ، لم يغادر شيئاً من شعائر الإسلام إلا أزعجه وأبطله ، ونحن نذكر نبذاً من أحوال هذه الفئة المارقة من الدين الباغية على الله ورسوله وسائر المسلمين بكلمات الشيخ رحمه الله لينكشف الغطاء عن تلبيسات هذه الفرقة الملعونة .

" إن الشقى غلام أحمد القاديانى الذى ينتهى شعبه إلى مغول التتر ، وعلى قوله: إلى يأجوج ومأجوج ـ لعنه الله وأخزاه ـ ، كان سوى ونوى من أول أمره ما يدعيه ويفتريه آخراً ، ولكن الشقى تدرج وتلون فى دعواه تلون الحرباء ، وسلك فى تمشية مرامه وتعمية كلامه طريق الزنادقة والباطنية ، واتبع البابية والبهائية سواء بسواء ، فادعى أولاً : أنه مجدد ومثيل المسيح ، ثم انتقل إلى أنه المهدى الموعود والمسيح المعهود ، ومن الجانب الآخر أوله: أنه نبى لغوى أو ظلى أو بروزى ، على معانى اخترعها الزنديق ، ثم تحول إلى أنه نبى غير تشريعى ورسول كذلك ، ثم إلى أنه نبى تشريعى ورسول (١)،

---

(١) قال الراقم : ثم انه لم تنته امانيه الابليسية الى هذا الحد حتى صار رباً والهاً ، ثم صار اباً لله ، العياذ بالله من هذه الضلالة البعيدة والغواية

كذلك باح به فى أربعينه وتحدى بالآيات ، وجعل وحيه كالقرآن ـ كما فى "نزول المسيح" (٢)ـ وغيره ، وجعل يحاكى معجزات سائر الأنبياء ومعجزات خاتم الأنبياء ﷺ أيضا ، فجعل مسجده "المسجد الأقصى" ، وجعل قريته "مكة المسيح"، وجعل اللاهور مدينته ، وجعل لمسجده منارة سماها "منارة المسيح"، فحمل كل ما يتعلق بعيسى عليه السلام على التأويل إلا المنارة ، فإنها كانت تتهيأ ببذل المال ، وقد جمعه من أتباعه ، وجعل مقبرة سماها "مقبرة الجنة"، من دفن بها فهو من أهل الجنة ، وسمى أزواجه "أمهات المؤمنين"، وأتباعه أمته ، ومن أكبر ما ادعاه من معجزاته نكاح المسماة بـ "محمدى بيگم" من فوق السماء ، وجعله وحيا أوحى به ، واستمر على لعنته تلك نحو عشرين سنة ، فإنه أول ما شهره هو فى سنة ١٨٨٨ الميلادى فى اشتهاره ، وقد وصل إلى أمه الهاوية فى سنة ١٩٠٨ الميلادى، فأصر عليه نحو ثلث عمره، وقال فيه : إن الله يرفع كل مانع من هذا النكاح وتدخل فى نكاحه ، وإنه تقدير مبرم ، وأوحى إليه شيطانه فيه ، كما ذكره فى كتابه : "أنجام آتهم" :

"كذبوا بآياتى وكانوا بها يستهزؤن فسيكفيكهم الله ويردها إليك أمر من لدنا إنا كنا فاعلين ، زوجناكها اهـ".

وهكذا يتلقف كلمات القرآن ، ويحكيها فى افترائه ، وأشاع فى كتابه "إزالة الأوهام" فى ذلك: الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، وجعل كل ذلك وحياً سماوياً يقطع به كالقرآن . وجعل نبأه ذلك معيار صدقه

الجليه" فقال : تيقنت انى هو الله ، ولما ولد له ولد فقال : كان الله نزل من السماء وادعى انه مريم وجوى طمثه وقال فيما يوحى اليه شيطانه يريدون ان يروا طمثك ، وادعى انى آدم وابراهيم وموسى ونوح ، الى غير ذلك من الهذيانات الشنيعه" والدعاوى الفظيعه" والكلمات العوراء . منه .

(١) ص — ٩٩

وكذبه عند كافة الخليقة من المسلمين والنصارى واليهود ، وأطمع والد المسماة المذكورة بأموال ودار وعقار ، ودلاّه بكل مكر وحيلة ، ففضحه الله تعالى على شأنه على رؤوس الأشهاد وعلى أعين الناس،ولم يرزق ذلك النكاح ، وقد نكحها سلطان أحمد، وأولدها أولاداً، والحمد لله على ذلك،وكان أعلن إلهامه فيه أنه : " إن لم يتم له ذلك النكاح فهو أخبث من كل خبيث " فكان كذلك أخبث من كل خبيث والحمد لله أولاً وآخراً،وكان كل غرضه جمع الأموال ونيل اللذات والشهوات ، فسقط فى الهاوية وأبقى داهية دهياء للإسلام والمسلمين، وكفر من لم يؤمن به كما فى جريدة "الحكم" (٢٤ اكتوبر ١٨٩٩ الميلادى) . وفى "حقيقة الوحى"(١)،وفى مكتوبة المندرج فى "الذكر الحكيم". وأهان عيسى بن مريم عليه السلام بما تنشق منه الأكباد ، ولم يوجد نبي هجا نبياً ، أو حط عليه ، وقد وجد من العلماء بل من الأولياء من حط على مثله بل وكفره ، ويعتل فى ذلك بإلزام النصارى ، فقضى وطره من إبراز كفره المكنون بهذه العلة ، والحال أنه يجعله عند ما يسترسل فى قعاقعه حقاً واقعاً والعياذ بالله منه ، واستمر على ديدنه ذلك إلى أن قال فى آخر سنة من حياته فى جريدة " البدر" : إنى مدعٍ :"أنى رسول ونبى" . وفى مكتوب له إلى جريدة " أخبار عام " : " إنى على حكم الله نبى" . وكذا فى " حقيقة الوحى"(٢) ، إلى أن أخذه الله تعالى بعد ما أرسل مكتوبه إلى مدير "أخبار عام" بخمسة أيام،أخذ عزيز مقتدر،ورماه قضاء الله وقدره بالهيضة، وسقط على وجهه فى حشه ، واستقر فى دار البوار ، وكانت موتته موتاً يعتبر به المعتبر ، فقد كتب إلى ذو وجاهة من " اچهره" من مضافات "لاهور" عن آخر ذى وجاهة: أن القدر المحتوم رماه بمرض إيلاؤس والله أعلم ، وكان

---

(١) ص — ١٧٩ (٢) ص — ١٤٩

كما قيل (١) :

"اين همان ريد است كه در آخر تجريد خوردئى"

وتم عليه قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيءٌ ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ ، (هذا ما كتبه الشيخ رحمه الله فى تحرير مستقل ملحق بكتابه "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام" (المطبوع) .

وقال الشيخ رحمه الله فى أوائل رسالة "إكفار الملحدين" : ثم جاء ملحد وحرّف تلك النصوص كما فعلته الزنادقة ، وقال بأن الله سماه : "ابن مريم"، وأن المراد باليهود "علماء الإسلام" الذين لا يؤمنون بذلك الملحد، لأنهم جمدوا على الظاهرية وحرموا الروحانية ، ولم يدر الملحد أن الزنادقة الذين مضوا وبادوا كانوا أبلغ منه فى تلك الروحانية إن كانت تلك الزندقة روحانيةً ، وهذا أستاذه وأبوه الروحانى الباب ثم البهاء وقرة العين هلكوا عن قريب وادعوا ما ادعى ، وأتباعهم الأشقياء أكثر من أتباعه ، فأين له بهاء كالبهاء ؟ وأين له ثبات فى الحروب ومكافحة بالصدر لبنادق الرصاص وأخباره بالنجاة منها ، ثم وقوع الأمر كذلك ؟ وأين له منطق كمنطق قرة العين ؟ :

لها بشر مثل الحرير و منطق * رخيم الحواشى لا هراء ولا نذر

وإنما بضاعته تلقف كلمات من الصوفيـــة الكرام ، كالتجلى والبروز

---

(١) قاله الشيخ قطب الدين الرازى للنصير المخذول الطوسى صاحب "التجريد"، وكان قد سب الشيخين رضى الله عنهما فى آخر كتابه "التجريد" : ثم ابتلى عند موته بذلك المرض الفظيع الشنيع، فقال قطب الدين قوله ذلك مشيراً الى ان هذا جزاء ما وقعت فيه من سب الصحابة . من الراقم البنورى .

وتحريف مرادهم وسرقة القباء واتخاذه قيصاً ، واتباع الفلسفة الجديدة وما فتشه أهل أوربا ، وجعله وحياً يوحى إليه شيطانه ، وقد مهد له ذلك قبله أمثاله ، منهم الحكيم محمد حسن الأمروهوى صاحب "غاية البرهان فى تأويل القرآن" ، على أنهم كانوا أحسن حالاً منه ، فإنهم لم ينبئوا ، فإذا كان الأمر هكذا أكفرناه بالإجماع ، وجعلنا الهاوية أمه ، ويعجبنى قول المتنبئ فى ذلك المتنبى :

لقد ضل قوم بأصنامهم * وأما بزق رياح فلا

وقد قال قائل أن الأحوط فيه :

وكان امرأ من جند إبليس فارتقى * به الحال حتى صار إبليس من جنده

اه .

هذا ما ذكره رحمه الله طرفاً من أحوال هذه الداهية الكبرى . وقال رحمه الله فى كتابه " عقيدة الإسلام " (١) : فقام ذلك الملحد ، فوقع فى شأن ذلك النبى الجليل بما تقشعر منه الجلود وتنشق الأكباد ، وقد سرد بعض ما تفوه به ونطق وتمطق فى عرضه عليه السلام فى رسالتنا " إكفار الملحدين فى شئ من ضروريات الدين " ، فقبح الله وجوه من تبعه فى ذلك الكفر والإلحاد والزندقة ، وقد باع إيمانـــه بالدنيا حتى لم يوفقه الله على دعوى العيسوية لحفظ شئ من القرآن وأطفال المسلمين يحفظونه ، ولم يوفق للحج وأوساط المسلمين يفوزون به ، وهو لا يستحق أن يكون رجلاً شريفاً ، فكيف يكون مؤمناً صالحاً ؟ فكيف أن يكون المهدى المسعود ؟ فكيف أن يكون عيسى الموعود؟ نعم يستحق أن يكون أتان الدجال ركبها ، أو كسجاح اليمامة نكحها أبو ثمامة ، كما قيل :

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها * وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

---

(١) ص — ١٥٠

والعياذ بالله العظيم ، انتهى ملخصاً .

كانت هذه الفتنة متضائلة فى بدء نشأتها ، ثم التهبت جمراتها إلى الأقطار والأكناف حتى بلغ السيل الزبى ، وبلغ الدماء الثنن ، " بال حمار فاستبال أحمرة " ، وكانت هنا دسائس أخرى تنمو بها عروق هذه الفتنة ، وكان دهاءً ومكراً عظيماً لهدم أساس الإسلام ، وأحبولة لإراغة غفلة المسلمين ، وتدليساً واختلالاً فى الملة المحمدية ، ثم بالت بينهم الثعالب ، وفسى بينهم الظربان ، فافترقت أذنابه بعد موته فرقتين ، واختلط الحابل بالنابل ، فرقة تتمسك بأصل دعواه ، ويزعمون أنه نبى ، ويعلنون بنبوته على أعين الناس ، ويسمون أنفسهم بـ" الأحمدية " ، وهذه الفرقة جمهور المرزائية والقاديانية ، وزعيمها : محمود ابن غلام أحمد المتنبى اللعين . وفرقة يظهرون أنه كان مجدداً مصلحاً ومسيحاً موعوداً ، يخدعون بذلك أغرار المسلمين والأغمار الغافلين ، ويتأولون فى صرائح دعاويه وعباراته تلبيساً وتدليساً على المؤمنين ، وتدعى اليوم بـ" اللاهورية " ، وزعيمها اليوم الملحد الخبيث محرف القرآن والحديث محمد على اللاهورى ، وهؤلاء الشياطين أشد مكراً وأقوى كيداً لإصطياد البله والغفلة ، وأعظم فتنةً وأكبر ضرراً على الإسلام والمسلمين ، خذلهم الله وأخزاهم كلهم أجمعين ، على رؤس الأشهاد وأعين الناظرين فى الدنيا والدين .

ثم مع هذا الإفتراق إنهم اتفقوا فى كثير من أصول مذهبهم ، ودانوا بما تفوه به اللعين المتنبى ، فقد أطبقوا على أن عيسى عليه السلام لم يخلق من غير أب ، بل يوسف النجار أبوه ، وإنه لم يصدر منه معجزة ، وإنما صدر منه شعبذات وطلسمات ، وسلموا ما تفوه اللعين بشدقيه فى سيدنا عيسى الرسول ، وأمه الطاهرة المطهرة البتول ، واتفقوا على أن المرزا القاديانى أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وأن الله قد خصه بمعجزات وبينات ، لم تبلغ إليها معجزات سيدنا ومولانا خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ ، لا كماً ولا كيفاً ، وما عدا

ذلك من الكفريات الصريحة والإلحاد البين والزندقة الجلية يكررون فى كل جعجعة لهم، حتى أصبحوا فيه أشغل من ذات النحيين، قاتلهم الله أنى يؤفكون.
فانتهض الشيخ رحمه الله لدمغ مزخرفاتهم وصلم عروقهم، وكانت لطيفة إلهية، وأخذته الحمية الدينية، وأغرته الغيرة الإسلامية، فسرى البغض مع هذه الفئة الملعونة والثلة الطاغية فى الله، ولله فى سويداء قلبه، وقد شاهدنا مثالاً حياً ناطقاً للحب فى الله والبغض فى الله، فشمر عن ساعد الهمة وساق الجد لمكافحة هؤلاء المردة، فحذر وبلغ وأرشد الأمة إلى الحق الصراح، ونبأهم على ذلك الكفر البواح، وصنف فى هذا الباب رسائل عديدة وجيزة وبسيطة، أيقظ فيها العلماء والفضلاء عن رقدات الغفلة، وحضضهم لمقاومة هذه الفتنة بكل ما أمكن تبليغاً وتصنيفاً، وأعان أصحابه وتلامذته بذخائر العلم للتصنيف والتأليف وإشاعة للناس، تحذيراً لهم عن مكائد هؤلاء المارقين، حتى بلغ نداؤه بأرجاء الهند القصوى، ونبه قاطنيه من ساحل البحر المحيط إلى شواهق كشمير إلى بلاد الأفغان، بل جميع ما ارتج اليوم فى العالم الإسلامى من العراق، والشام، ومصر، والحجاز من التشنيع على هذه الفئة، كل ذلك ببركة مساعيه الجميلة التى ألزمت على إساءة الملة وهداة الأمة أن يقدروها ويمكنوها فى حنايا الصدور وحبات القلوب، وهذا الذى ترى اليوم فى أرجاء الهند من تأسيس لجنات وانعقاد اجتماعات حافلة، وإجراء الجرائد والمجلات لحسم عروق هذه الفتنة المتأصلة، لا سيما مساعى "جمعية الأحرار"، ورئيس شعبة تبليغها المجاهد الباسل غشمشم الأمة، خطيب القوم مولانا عطاء الله شاه البخارى ـ أطال الله بقاءه وزاد همته وإخلاصه ـ (١) كل ذلك من مآثره

(١) وقد توفى رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد، فرحمه الله وجعل الجنة مثواه.

السنية الباقية على صفحات الدهر ، وسنته الحسنة السائرة بين المسلمين ، فأباد الله بسعيه الحثيث وجهده المثمر خضراءهم حتى حصحص الحق وزال الرين وانكشف الغين وبين الصبح لذى عينين من العالم والأمى والخاصى والعامى، وأصبح كفر هؤلاء المارقين من الدين أبين من فرق الصديع ، بحيث لم يبق مجال للمرتاب ولا مساغ للمتأول ، إذ قد عم نداؤه البلاد وانتبه الرقاد ، فخدم الملة ، وذب عن حريم العقيدة الإسلاميــة ، ودافع عن حوزتها ، وهكذا سنة الله خلت فى عباده على ممر الدهور وتعاقب الأدوار ، يضرب الحق على الباطل أينما سار ودار ، استولت على الديار الهندية سلطة الروافض، فأقام الله لهدم بنيانها الإمام الحجة حامى الملة والشريعة ، وحامل الطريقــة والحقيقة مولانا الشيخ الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله، وابنه الحجة المتقن البارع الشاه عبد العزيز ، نور الله ضريحها ، فجعلها الله سداً منيعاً دون فتنتهم اليأجوجيـة . ثم لما اضطرمت نيران البدع والحوادث ، وهبت فى أكناف الهند رياحها المنتنة أقام الله لإطفاء لهيبها وضرامها حامى السنـة ماحى البدعة الحبر المحقق المحدث الشاه محمد اسماعيل الشهيد الدهلوى قدس الله روحه . ثم لما هبت عواصف الإلحاد وأخذت الملاحدة فى الإيرادات على عقائد الملة المحمدية، ونشأ خبيث ملحد من فئة الهندوسين ، التى تدعى بـ " آريه سماج" يرمى حريم العقائد الإسلامية بنباله ونصاله ، أقام لكفاحه ومكافحته الإمام الحجة بحر المعارف والحقائق شيخ الإسلام مولانا محمد قاسم النانوتوى بانى " الجامعة الإسلامية الهندية " بديوبند ، قدس سره .

وهكذا لما حدثت فتنة الفرقة المرزائية القاديانية ، وماجت فى أرجاء الهند ، بل سرى هذا الداء العقام خارج الهند ، أقام الله لذلك الشيخ الأنور رحمه الله ، " فتركها على مثل مشفر الأسد " .

لا شك أنه قد أحس بعض النفوس الزكية بهذه الفتنة أبان حدوثها ،

ولكن لم يهمله الأجل لمكافحتها ، وبعض قد انتبه لها ، ولكن حسب أنها بقبقة فى زقزقة ستبيد عن قريب ، ما عسى أن يبلغ عض النمل ، وظن بعضهم أن ترك ما لا يصلح أصلح ، وأخذ بعض فى مقاومتها فلم يفر فريه ، ولكن هذه السعادة الأزلية كانت مقدرة مقضية للشيخ رحمه الله ، فتفرس الشيخ فى بدئها بنور فراسته وبصيرته أن هذه الفتنة من أدهى الملمات على الدين ، وأعظم المصائب ، وما هى إلا فالية الأفاعى والعقارب ، فلو بلغ السكين العظم وتفاقم الشر والفساد ولم تسد أبوابها ولم ننتهض لمقاومتها لسلت هذه الفتنة روح الإسلام من قلوب المؤمنين ، ولغادرتهم خشباً مسندة بلا إيمان ، ولكان السعى عند ذلك كدابغة ، وقد حلم الأديم ، فهكذا أزعجت الشيخ وأطارت رقاده ، وأزالت راحته ، فقام بتوفيق الله تعالى مستنفداً وسعه وجهده البالغ فى قطع عروقها ، فأخذ الأمر بقوابله بالاستعجال ، وبعث أهل عصرنا على المقاومة ، ونفخ فيهم روح المكافحة والنضال ، وحذرهم عن مكائدها ، ونبأهم على شبكاتها المنغرزة على وجه البسيطة . فهذا الذى ترى اليوم من مساعى أصحاب الجرائد الهندية واللجنات التى أسست على الدفاع عن حوزة الملة الإسلامية ، وكشف عوار هذه الفئة الضالة المضلة ، وصدع مضارها الدينية والسياسية على المسلمين ، كل ذلك من مآثره الجليلة . فبنهضته السامية انفجرت عيونهم المنغمضة وانفتحت أبوابهم المنغلقة . فهذه عندى مزية كبرى أكبر من سائر مزايا الشيخ رحمه الله ، وتفوق سائر مآثره السامية ، فلو لم يكن للشيخ حسنة غير هذه الحسنة العظيمة ومنقبة غير هذه المنقبة العالية لكفاه شرفاً وفضلاً ، ولكفاه شهادةً على أنه كان ربانى هذه الأمة بعهده ، فهذه منقبة زهراء من بين سائر مآثره الخالدة ، يبقى آثارها الجميلة فى قلوب أهل الحق ، وتتلألأ لامعةً على صفحات التاريخ الإسلامى على انقراض الدهور وانقضاء العصور . فالشيخ رحمه الله درة يتيمة لامعة من فوائد العقد الذى انتظمت فيه أولئك الذين

ذكرتهم من أفراد علماء الهند ، أصلح الله بكل منهم أمةً من الأمم ، وأبقى الله منهم سنةً حسنةً مسلوكة فى العالم ، فبارك الله تعالى لروح الشيخ رحمه الله هذه العزة القعساء ، والفضيلة الزهراء ، لا يساهمه فيها فى شئ أحد من أماثل أهل عصره وجهابذة عهده ، فجزاه الله عنى وعن سائر المسلمين خير ما يجازى عباده المحسنين . وقد أجاد القائل :

موت التقى حياة لا انقطاع له   قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

بلغنى عن الشيخ رحمه الله أنه كان يقول : لما انتشرت هذه الفتنة العمياء كان لا تأخذنى فى المضجع نومة كمداً واضطراباً من هذه الرزية الدهياء ، فأقلقتنى جداً مخافة أن يقع بها ثلمة فى الدين يعتاص سدادها ، وغلبنى الأرق والسهاد حتى مضت على ستة شهور كاملة فى هذه الحالة المقلقة المذيبة ، حتى ألقى الله تعالى فى قلبى أن ستبيد شوكتها وتضعف صولتها ، فشفى الله قلبى بعد هذه البرهة حتى اطمأنت نفسى وسكن جاشى ، وأشار الشيخ إلى هذه الواقعة فى بعض قصائده العربية والفارسية . ولما ألف الشيخ رحمه الله كتابه "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام" قال : أرجو أن يشفع لى سيدنا عيسى عليه السلام بهذه الرسالة إن شاء الله تعالى . ومن عجائب الإتفاق أنى كنت سمعت كلمة الشيخ هذه عن بعض أصدقائى (١) . ثم بعد برهة رأيت فيما يرى النائم سيدنا عيسى عليه السلام جالساً على سجادة بهيئة حسنة وأناءة ووقار وسكوت ، وبجنبه جلس شيخنا رحمه الله على تلك السجادة بمثل تلك الهيئة والوقار . فأعجبنى ذلك المنظر الرائق ، فكنت أنظر مرةً إلى محيّا سيدنا عيسى عليه السلام ، ومرة إلى وجه الشيخ الأنور رحمه الله ، فتارةً أقتبس من هذا وتارةً من هذا ، وبقيت ساعة على هذه الحالة الطيبة حتى انتبهت من المنام

---

(١) اعنى صديقنا المحترم مولانا محمد لطف الله الفاضل دامت الطافه وافضاله . منه .

فرحاً مسروراً من التشرف بزيارتها على تلك الهيئة البديعة ، مع تأسف على عدم امتداد هذه الحالة كثيراً . اللهم ارزقني معيتها في دار رضوانك بفضلك وعميم إحسانك يا ذا الجلال والإكرام ، آمين آمين يا رب العالمين .

شيء من شعره مما يتعلق بهذه الفتنة .

وللشيخ رحمه الله قصائد رائقة تتعلق بهذه الفتنة الفظيعة ، ونريد أن نهدي للناظرين شيئاً منها ليظهر ما في صدر الشيخ رحمه الله من الغيظ والغضب في الله مع هذه الفئة الباغية والإضطراب من هذه الملمة الفاجعة ، وليكون أسوةً لمن بعده في نصرة الحق وإرشاد الخلق ، والله الهادي إلى الصواب ، قال رحمه الله :

صدع الصديع وصيحة بالوادي ... لمن اهتدى من حاضرٍ أو باد
بالقادياني ذلك الأخسر الذي ... أمسى زعيم الكفر والإلحاد
وأبان عن كفر ينوء بعصبة ... و يبوء بالأغلال و الأصفاد
رزء على دين النبي يهده ... أخر فهل من راشد في النادي
والله يهدي من يشاء لدينه ... و لمن يضل فما لـه من هاد

وقال في آخر قصيدة له في إسراء النبي ﷺ :

ومن عض فيه من هنات تفلسف ... على جرف هارٍ يقارف أن يردى
كمن كان من أولاد مأجوج(١) فادعى ... نبوته بالغي و البغي و العدوى
ومن يتبع في الدين أهواء نفسه ... على زيغه فليعبد اللات والعزى

وقال من قصيدة طويلة تربو على سبعين شعراً :

(١) قال الشيخ رحمه : الله والمراد من اولاد ماجوج ذلك الرجيم الزنيم فانه من مغول التاتار ، على انه لايعرف فلسفه" ولا شيئاً ، وانما باع دينه مجانا بما سمعه من نهضة" اوربا . منه .

ألا يا عباد الله قوموا وقوّموا. خطوباً ألمَّت ما لهن يدان
وقد كاد ينقض الهدى ومناره وزحزح خير ما لذاك تدان
يسب رسول من أولى العزم فيكم تكاد السماء والأرض تنفطران
وحارب قوم ربهم ونبيهم فقوموا لنصر الله إذ هو دان
وقدعيل صبرى فى انتهاك حدوده فهل ثم داعٍ أو مجيب آذان
وإذ عز خطب جئت مستنصراً بكم فهل ثم غوث يا لقوم يدانى
لعمرى لقد نبهت من كان نائماً وأسمعت من كانت له أذنان
وناديت قوماً فى فريضة ربهم فهل من نصيرلى من أهل زمان
دعوا كل أمر واستقيموا لمادهى وقد عاد فرض القوم عند عيان

فشانئى شأن الأنبياء مكفر ومن شك قل هذا لأول ثان
تفكه فى عرض النبيين كافر عتل زنيم كان حق مهان
يلذ له بسط المطاعن فيهم ويجعل نقلاً عن لسان فلان
تحطم فى جمع الحطام ونيلها وبسط المنى فى حاصلات مجان
وكل صنيع أو دهاء فعنده لنيل المنى بالطرد والدوران
ومعجزه منكوحة فلكية يصادفها فى رقيـــة الكروان
ومنى له الشيطان فيها بوحيه رفاءً ووصلاً خطبة وتهان
يهم بأمر العيش لو يستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
ففضحه رب السماء بحوله وقوته والله فيه كفانى

ألافاستقيموا واستهيموا لما دهى فموت عليه أكبر الحيوان
وعند دعاء الرب قوموا وشمروا حناناً عليكم فيه أثر حنان
وكن راجياً إن يظهر الحق وارتقب لأولاد بغى فى السهيل يمان
وللحق صدع كالصديع وصولة وضرب وطعن فوق كل بنان

وآخر دعوانا أن الحمد للذى ... لنصرة دين الحق كان هدانى
وصلى على ختم النبيين دائماً ... وسلم ما دام اعتلى القمران

وقال رحمه الله :

فاخرج الدهر وحى كاهنه ... وذنب رأس جناه من ذنبه
وحق لعن عليه من أزل ... وزاد صيتاً فزده فى لقبه
وقد كناه الزمان تعريفاً ... بمثل تبت يدا أبى لهبه
وما له العجب خاسراً أبداً ... إذا اقتنى لعنه على كذبه
ومن أتى مدلياً بشفعته ... فهبه نار اللظى على سقبه
ومن نحا ما ادعاه مفترياً ... فكفرنه وزده فى سلبه
جزاء كلب عوى وضع حجراً ... بفيه حتى يفيق من كلبه
وما يفوه الزنيم من لغط ... فسوه فى تنبأ عجبه
بأن معناه أن ينبأ فى ... مقره النار منتهى خطبه
وكل ما قاله فسترق ... من البهاء وما بمقتضبه
فيا لدهر يروج سارقه ... أما استحى فى استراق ما ذربه

وصلى الله على خاتم الأنبياء سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ ونبذة من هديه وشمائله العامة .

وله رحمه الله شمائل جليلة وخصائل نبيلة ، قلما يتحلى بها المرء فى هذه القرون والأعصار ، فإنه " قد بلغ السيل الزبى " " وبلغ الحزام الطبيين " ، عم الحرص والطمع ، وسرى فى القلوب داء الحسد والبغضاء ، وحدث فى النفوس الكبر ، وأغريت الآمال بحطام الدنيا ، وأشربت القلوب حب العزة والجاه ، وأوثرت الأهواء على الطاعات ، وامتزجت الطاعات بالأغراض ، وركبت الأمانى كل صعب وذلول ، وتشعبت بالمراد فى كل واد ، واستعجلت

الحظوظ فى الدنيا، وصارت الفضائل الدينية أحبولة لذائذ النفوس، ورحم الله ابراهيم بن أدهم حيث قال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وصدق قول اللبيد العامرى :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
يتأكلون مغالـــة و خيانـــة   ويعاب قائلهم و إن لم يشغب

وقال الآخر :

تولّت بهجة الدنيا   فكل جديدها خلق
وخان الناس كلهم   فما أدرى بمن أثق
رأيت معالم الخيرا   تسدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب   و لا دين و لا خلق

فهذا حال الدنيا بين يديك، إما لك وإما عليك، فاعتبر فالأمر إليك، ولكن الله تبارك وتعالى قد آثر الشيخ رحمه الله بمزايا سامية هى أكبر مزية له، وأبهى شرف، وأعز منقبة من بين سائر الملكات العلمية ما سلف ذكرها، وهذا باب لو ركضنا جواد البيان فى مضماره لأعيانا، فإنه تكل ألسنة مصاقع العصر عن إحصائها، فالأنظار تتجمجم، والأقلام تتكفكف، والهمم تتقاعد دون بيانها، ولنفد المداد وما لها من نفاد :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم * أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

فنكتفى بالإشارات المنتشرة حسب ما يسنح لى من شئ، والله المستعان.

فمن زهده أنه لم يكن له جنف وميل إلى المال أصلاً، فكان لا يأخذ راتباً إذ وظف بالتدريس فى "دار العلوم الديوبندية" إلى عدة أعوام،

ثم لما تأهل واضطر إلى مصالح البيت ومرافق المعيشة ونفقة العيال أحس بذلك أهل الجامعة الديوبندية ، فعينوا له راتباً يكفى لحوائجه الحاضرة ، ووصلت إليه فى هذه الأيام دعوة من المدرسة العالية من "كلكتة" لمنصب رئاسة التدريس براتب ثمان مائة روبية مشاهرة ، وكان راتبه فى تلك الجامعة أقل من خمسين روبية ، فلم يزعجه قط ، وما أجاب دعوتها . وقال : يكفينى ما تيسر لى ، لا حاجة لى إلى سواه ، نعم تموت الحرة ولا تأكل بثدييها . ثم لما اعتزل عن " الجامعة الديوبندية " — وقد أشرنا إليه من قبل — تعاورته الدعوات من كل جهة للتدريس برواتب سامية ومشاهرات عالية ، حتى بلغته الدعوة من نواب دهاكه — من حدود بنگال (١) — بألف روبية مشاهرة فصاعداً ، فلم يقبل ، وهكذا له وقائع عجيبة ، وكان يقول : لا يجوز عندى أخذ الراتب الشهرى بدرس الحديث ، وإنما آخذه اضطراراً علماً منى بأنه لا يجوز ، فكان يتأسف بذلك جداً حتى ربما كان يبكى منه . وبلغنى عن مولانا المحترم مولانا بدرعالم أحد أساتذة الحديث بالجامعة : أنى قلت للشيخ : لو ألفتم تأليفاً فى شرح كتاب من الأمهات الست لنفع ذريتك من بعدك ، يعنى كان ذخيرة لمعاشهم ، فقال رحمه الله بلهجة حزن وأسى : تغذيت بالحديث طول حياتى وهل ترى أن يباع حديثى بعد مماتى ، والله حسيبهم . فكان رجلاً عظيم الأمانة ، وكان الله جليلاً فى قلبه ، فاستحقر الدنيا ومتاعها ، فكانت أحقر عنده من جناح بعوضة ، وكانت فطرته مجبولة على الحق ، وشغف فؤاده باتباع السنة النبوية ، ووهبه الله نفساً مطمئنة قنوعاً فى المصائب والشدائد ، صبوراً على المكاره والمكائد ، وامتلأ قلبه بخشية الله ، فكانت بمكانة علياء ، فلم يعرفه القوم ، وكان شديد الكرم ، حسن المواساة مع الطلبة وأهل العلم ،

(١) تسمى اليوم بالباكستان الشرقية . منه .

واصل الرحم مع الأقارب ، يقرى الضيف ويعين على نوائب الحق .

وكان رحمه الله تنقضى أوقاته إما فى المطالعة وإما فى الدرس ، أو فى فكر لاستخراج معارف وحقائق من كلام الشارع ، فلا يغفل لحظة ، ولا يفتر لمعة برق ، فكان ذا غوص فى المشكلات ، وصاحب خوض فى المسائل المعضلة ، كان يطالع كتب المحققين ليلاً ونهاراً عشياً وإبكاراً ، لا يلحقه الونى والفتور ، ولا يعروه الكسل والملال ، فإذا ترك المطالعة كان يتفكر فى تحقيق الحقائق بتدبر غائر وإمعان غريق ، لا يخل فكره سعة عيش أو ضيق حال ، فكان معتدلاً سوياً فى البؤس والرخاء ، لا يظهر مكابدته على أحد ، وكان لا يفزعه أمر ولا يجزع عن شئ ، كلما سمع شيئاً غير مرضى جرى على لسانه : "حسبنا الله ونعم الوكيل" . وكانت هذه الكلمة أكثر ما يجرى على لسانه فى الأندية والمحافل ، وكان كثير الصمت ، دائم الفكرة ، غير مستريح فى وقت من الأوقات . وقد سمعنا عنه كثيراً : أنى تفكرت فى مسألة كذا وكذا نحو خمس عشرة سنة فسنح لى كذا وكذا ، نعم صدق من قال : " لا يعطيك العلم بعضه حتى تعطيه كلك " . ومن طلب عظيماً خاطر بعظيم . وقد صدق من قال :

لا يؤيسنك من مجد تباعده ... فإن للمجد تدريجاً وترتيبا
إن القناة التى شاهدت رفعتها ... تنمو فتنبت أنبوباً فأنبوبا

وكان فى قلبه ضرام حزن وأسف من ملمات دهت الملة الإسلامية فى القرون الخالية والعصور الماضية كأن ألمت تلك الدواهى الأمس بين عينيه ، حتى قد تفيض عيناه دمعاً عند ذكرها فى الدروس والحفلات فوق المنائر على رؤس الأشهاد ، وكان يعظ الناس موعظات بليغة مؤثرة ، فكان يبكى ويبكى ، وكان ينصح الطلبة بأن يقنعوا بالكفاف ، وأن لا يجعلوا العلم ذريعة معاشهم ، ويرغبهم فى أن يحصلوا مع الله تعالى تقرباً وتعلقاً ، وأن يبتغوا

إليه وسيلةً ، ويتخذوا إليه سبيلاً ، وكان يتمثل كثيراً فى مواعظه بقول أبى الطيب :

تخالف الناس حتى لا إتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف فى شجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء فى عطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته ... أقامه الفكر بين العجز والتعب

وكان رحمه الله حسن المجلس، ذا وقار وهيبة ، وإذا عاشره أحد أحبَّه ، حتى يكون عنده أحب من نفسه ، وكان أحسن الناس منطقا ، وأنبههم على ما يريده ، وكان أحلاهم نغمةً عند قراءة الحديث، فيتمنى المرأ أن لا ينقطع قراءته ، وكان رحمه الله ربعاً من الرجال ، ليس بالقصير ولا بالطويل، واسع الجبهة ، متهلل الجبين ، مكتنز اللحم ، متناسب الآراب ، قوياً شجاعاً، وكان محيَّاه كأنه قطعة نور تنبعث منه الأشعة ، وتنجذب إليه القلوب ، كانجذاب الحديد إلى المقناطيس .

وكان رحمه الله متواضعاً يحب العلماء والطلبة ، وكان لا يمل من أسئلة فى تحقيق المسائل، وإذا سأله أحد عن مسألة لطيفة وكلام دقيق فكان ينبسط بسؤاله ويتهلل به جبينه ، ثم يجيبه باهتزاز ومسرة ، فكان كما قال زهير :

تراه إذا ما جئته متهللاً * كأنك تعطيه الذى أنت سائله

لم أر أحداً يسمح مثله بجواهر علومه ، حتى كان يفوض إلى المعارف من العلماء والمدرسين والمؤلفين برنامجته العلمية التى تكون مشحونة بذخائر مستنبطة من ألوف كتب ما لو صرفت الأعمار فى تحصيل بعض منها لم يتيسر ، وكانت أوراق تذكرته تحتوى على فوائد سامية ، أدناها يساوى أن تضرب إليه أكباد الإبل ، فكانت فيها مضنوناته العلمية التى هى ذخيرة عمره فى كل علم من

العلوم ، ولكن مع هذا فكان يسمح بهذه المضنونات والسماحة بمضنون من مثل هذه المضنونات الثمينة أكبر عندى من السماحة بألوف دينار من الإبريز والعسجد بمراتب ، وعسى أن لا ترى فى تذكرة أحد من علماء الأمة أنه سمح هكذا بتفويض تذكرته إلى غيره ، فكما إن الله تعالى خصصه بمزايا عالية أخرى لم تجتمع إلا فى أفراد من الأمة ، فهذه مزية أخرى صاربها فريداً فى القرون ، ولله در القائل :

لو نال حى من الدنيا بمنزلة ❊ وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وسمعت عن الشيخ الورع الزاهد المحدث مولانا سراج أحمد دام فضلهم(١) أستاذ "سنن أبى داؤد" وغيره من كتب الحديث بالجامعة الإسلامية : سمعت من الشيخ رحمه الله تعالى أنه يقول : كان رجل أخذ أستار الكعبة - زادها الله مجداً وكرامةً - ملتجأ إلى الله تعالى ، ودعا لنفسه أن يرزقه الله علم الحديث كعلم الحافظ ابن حجر رحمه الله ، فاستجيب له . قال مولانا المحترم : ظننت أنه يحكى حال رجل آخر ، ولم أتنبه أنه كنى عن نفسه ، ثم تبين لى بعد برهة أنه رحمه الله أراد نفسه اه . قال الراقم : وهذا أوضح من فرق الصديع لمن علم هدى الشيخ إن شاء الله تعالى . وكان رحمه الله يقول : ما طلبنا العلم للدنيا ، ولكن يا للأسف أنه ما طلبنا للآخرة أيضاً ، نشأنا فى بيت العلم ، فأخذنا فى العلم ، ثم كانت الطبيعة مولعة بتنقيب آراء العلماء والبحث عنها ، فصرفنا العمر فى الجدال والنضال ، بل أضعناه ، فيالهفى لم نتخذ إلى الله سبيلاً . وسمعت من صديقنا المحترم مولانا الطبيب القارى محمد يامين ، أحد أساتذه الجامعة : قدم رجل من العرفاء بدار العلوم الديوبندية فتأثر جداً من لقاء الشيخ رحمه الله ولقاء الشيخ الورع العارف الفقيه مولانا وشيخنا

---

(١) توفى رحمه الله ١٣٥٦هـ .

عزيزالرحمن النقشبندى المجددى رحمه الله، وتعجب من قوة نسبتها(١) ولطافتها، وقال: إن للشيخ رحمه الله نسبة قوية وهيبة عجيبة، وقد بايع جم غفير من الصلحاء والعلماء بكشمير بيده، وقد رأيت أنه كان يلقن أشغال الطريقة الجشتية، وربما لقن للبعض أعمال السادة النقشبندية، وكان يلقن للطلبة أوراد الحديث النبوى، ويعين لهم حزباً مختصراً صالحاً لإنشاء النسبة بعد المواظبة.

وسمعت منه نفسه: أن لى إجازة من شيخنا وشيخ العالم مولانا شيخ الهند محمود الحسن رحمه الله، وبلغنى عن بعض الأصدقاء: أن الشيخ رحمه الله اعتزل نحو ستة أشهر فى الخلوة بكشمير مشتغلاً فى التزكية والتصفية بالأعمال والأوراد والأشغال على طريقة السادة الجشتية، وهذا روض أنف فى حق لم أرتع فى حماه، وبحر خضم لم أخض فيه، فلا يحرى بى الخوض فى غماره، وقد قيل: لا تقعن البحر إلا سابحاً، وكيف يدرى من بالساحل بل من لم يصل بعد إلى الساحل! اللآلى المكنونة فى قعر البحور، وكيف يرى من بعيد جواهر أجواف الصخور؟! فلا أملك فيه شروى نقير، ولا أملك شداً ولا إرخاء، فكيف الحداء بغير بعير؟ فهذا باب نفوض الكلام فيه إلى أهله، وإنما أوردناهذه الكلمات المنتشرة إشارة إلى أن الشيخ كان ممن جاب هذه العقبات، وقطع هذه الأودية

---

(١) النسبة: كيفية نفسانية راسخة، تحصل للعارف وتنشأ بها له علاقة مع الله قوية، يترتب عليها آثار بديعة، من دوام الحضور والشوق اليه والطهارة الكاملة ظاهراً وباطناً، وملكة التواضع والانقياد لاوامر الله، وفناء النفس حتى يظن نفسه كالميت فى يد الغسال ويسميها السادة الصوفية قدس الله اسرارهم، وكثر امثالهم بالنسبة مرة وأخرى بالسكينة وتارة بالنور وغيرها، وهى تختلف قوة وضعفاً، وتتفاوت نوعاً وصنفاً، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم. ثم رايته من الشاه عبد العزيز رحـ فى ''فتح العزيز'' من قوله: ''صبغة الله'' فراجعه.

الصعبة على طريقة أهلها ، وهذا وإن لم ندر شيئاً من هذه المزايا والوقائع فإن حياتـه الطيبة بين أيدينا ، ومحك السنة النبوية بين أعيننا ، فمن شاء انتقدها بهذا المحك يرى إن شاء تعالى عسجداً وإبريزاً خالصاً من الغش والرداءة ، فكان سليم الصدر من البغضاء والشحناء ، فارغ القلب من الغل والحقد ، لطيف الرأفة ، حزين القلب ، حسن المواساة ، سليم اللسان من الكذب والغيبة ؛ بل لم يكن بمجلسه الغيبة ، لم يسب ولم يشتم ، لم يغادر المستحبات ، فكيف لفرائض والواجبات ؟ إذا اغتاب أحد فى مجلسه يقول : دع هذا وشأنك ، ملىء قلبه بالخشية الإلٓهية ، فكان يحقر نفسه ويعظم كل أحد ، فكانت مشاغله إما الكتاب ، أو ضبط السوانح ، أو الصمت ، أو الذكر والفكر ، أو الرشد والنصح . وبالجملة كان عالماً عاملاً عابداً زاهداً ورعاً تقياً خاشعاً متضرعا ، ذا وقار وسكينة ، يخاف الله فى الغيب والشهادة ، ويتحرى القصد فى الفقر والغنى ، وينطق بالحق فى الغضب والرضى ؟ إذا رئى ذكر الله ، وخيار عباد الله إذا رؤا ذكر الله ، كان لصحبته ومجسله تأثير فى القلوب من الرغبة إلى الله والإعراض عما سواه ، وكان كما قال هو نفسه فى حق قطب العالم مولانا رشيد أحمد الكنكوهى قدس الله سره :

لقـد فرع الورى عملاً وعلماً … مكارم ساعـدت كرم النجار
إمام قدوة ، عدل ، أمين … ونـور مسـتبين كالنهار
فقيـه حافظ علم شهير … كصبح مستنير هـدى سار
وأصبح فى الورى صدراً وبدراً … منيراً دارئـاً حلك التوارى
وأصبح مفـرداً علماً رفيعاً … كرفع المفـرد العلم المنار
وآيـة رحمـة فيضاً وفضلاً … عبابـاً مستطابـاً للقوارى
وغـرة دهـره علماً وديـناً … طراز زمانـه مثل النضار
وأما فضلـه ذوقاً وحالاً … ففرد فيـه لا أحـد يجارى

فضيل زمانـه ورعاً وزهداً ... وحاتم عصره عند امتيار
كأن جبينـه بـدر مبين ... تهلل نوره عند الزوار
لقـد نفع الورى شرقاً وغرباً ... وأشرق نوره عند اعتكار

فلو لم يكن رجل وشأنه ما وصفنا ولياً عارفاً فليس فى الدنيا ولى ، بل كأن لم يسلف لنا ولى فى الأمة المحمدية ، وأثرت له رحمه الله كرامات عديدة، وقد شاهدت بعضها فى سفر كشمير إذ تشرفت بالمزاملة ، ولا نطول الكلام بذكرها فإنه لا اعتداد لها عندى كثيراً بإزاء تلك الكرامات العلمية والعرفانية، ما هى فروع للولاية المعنوية ، وماذا يكون قدر للخوارق بجنب غوامض التقوى ومعارف الخشية الإلٓهية ، ما هو برهان ساطع على المنزلة السامية والمكانـة العلياء من الولاية المحمدية .

ومن أكبر كراماته عندى ما وصفته من حصول الرغبة إلى الله بزورة محياه، وتأثير مجلسه وصحبته، وسائر أحواله المتواردة من القيام والقعود والصمت والفكر والوعظ والدرس وغيرها فى القلوب تأثيراً عجيباً ، هذا ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وكان رحمه الله كثير الأدب مع العلماء والسلف ، محتاطاً فى التعقبات عليهم غاية الاحتياط ، مراعياً لهم غاية الأدب حتى أول ما أراد أن يناقش الحافظ ابن حجر العسقلانى فى غزوة ذات الرقاع حيث اختار ما ذهب إليه الإمام البخارى من أنها وقعت بعد غزوة خيبر ، مكث نحو أربعة أشهر يفكر فى أنه : هل يجوز لى المناقشة معه؟ وهل يسوغ لى التعقب عليه ، حتى ألقى فى قلبه جوازها له ، وقد سمعت عن بعض الأصدقاء دامت عواطفهم (١) : إنى سمعت عن الشيخ رحمه الله لما اضطربت فيه ذهبت إلى

(١) هو صديقى المحترم مولانا فضل الرحمن الفاضل الفشاورى ثم الكابلى المقيم اليوم بدهلى . منه .

ضريح الإمام الربانى قطب الشريعة والحقيقة مجدد الألف الثانى مولانا الشيخ أحمد النقشبندى السرهندى قدس الله سره ، فكنت أتوجه مراقباً إلى روحه الشريف فى ذلك حتى أذن لى ، سبحان الله هذا حال أدبه مع أكابر الأمة والسلف الصالح .

قال الشيخ رحمه الله : فكتبت أوراقاً فى التعقب عليه فى هذا المقام ، ثم صار ديدنى التعقبات والإستدراكات على جميع الأعيان والأعلام ، فلم أغادر أحداً إلا ولى تعقبات على أبحاثهم يقبلها سليم الذوق صحيح الوجدان إن شاء الله تعالى ، ومع هذا فكان ينبه الطلبة تنبيها على أدب علماء الأمة ، ويقول : إياكم والمناقشات والتعقبات على هؤلاء الأئمة ، فليست أهليتها فيكم ، فاعرفوا فضلهم وقدرهم ، واعرفوا أنفسكم ، هذا وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين .

مقالة تاريخية فى مآثر الشيخ رحمه الله

لمولانا الفاضل محمد يوسف الكاملفورى دام فضله (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد ، فلا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد: أن علم الحديث من أشرف علوم الإسلام ، كثير الأنواع والأفنان ، غزير الأقسام والأغصان ، وهو مدار العلوم

(١) كنت اقترحت منه ان يقيد شيئاً من سوانح هدى الشيخ وسير حياته الطيبه" فاجاب لمقترحى دام فضله و ارسل مكتوباً يحتوى على تلك المقاله" فى مآثر الشيخ رحمه الله قيد شواردها بغايه" ارتجال و اقتضاب ، و نحن ندرجها بنصه رمتها بكل مسرة وحبور بجميل الثناء له ، و قد وصل مكتوبه هذا بعد ما فرغت من الابحاث السالفه" فكانت مقالته هذه لبنه" ملات الفراغ و الموضع الخالى ، فكانت راس الزاديه ان شاء الله تعالى . منه .

الإسلاميـة ، تفسيرها وفقهها وكلامها ، وهو أجدى من تفاريق العصا ، وكل الصيد فى جوف الفرا ، وقام له عباد موفقون من هذه الأمة ، وانتهضوا له كل انتهاض ، فشرقوا وغربوا ، واشأموا وأيمنوا ، وغاروا وانجدوا ، وتركوا الأوطان لنيل أشرف الأوطار ، وقطعوا البلاد ونقبوها فى استقراء الحديث ، حتى كان الرجل يقطع مسيرة شهر أو شهرين لطلب حديث واحد ، وكان مناله عنده أحلى من حمر النعم ، وأوقع فى قلبه من ماء الحياة وسوابغ النعم ، وكان قصارى مقاصدهم وحمادى مطالبهم أن ينالوا سنداً عالياً وبيتاً خالياً ، ولا يخفى على كل أريب لبيب أن تواتر الإسناد فى الدين عطية الله أكرم بها هذه الأمة ، ولو لا الإسناد لقال المحرفون ما شاءوا ، كما وقع فى دين اليهود والنصارى ، فكانوا شرَّ أخلاف لأسلافهم ، وكان أول من انتهض لهذه الأمانة القرن الأول المشهود لها بالخير ، وهم أصحاب محمد ﷺ ، الذين قال فيهم ابن مسعود رضى الله عنـه : « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا فى آثارهم ، فإنهم ورب الكعبة على الهدى المستقيم » . وأكثر الصحابة روايةً أبو هريرة رضى الله عنه ، كان يغتنم صحبة النبى ﷺ على شبع بطنه ، والناس يصفقون فى الأسواق ، ففاز بدعوته عليه الصلاة والسلام حين أمره ببسط ردائـه ، فدعا له ثم أمره أن يضمه إلى صدره ، فما نسى بعده شيئاً . وسيدة النساء عائشة رضى الله عنها أم المؤمنين أعلم من دبّت ودرجت من النساء على ظهر الأرض ، فاقت على كثير من الرجال بفقه الحديث والحكمة اليمانية ، حتى

استفتى منها كبار الصحابة فى مهمات الأمور ، فيا لها من شرفٍ وافتخار . ومنهم عبد الله بن مسعود ، صاحب الوسادة والنعلين ، صاحب رسول الله ﷺ والمختص به وحاس بيته ، حتى عد من أهل بيته ، شب على هديه وسمته ودله ، وتخلق بأخلاقه رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وقام مقامهم فى الهدى والإرشاد من اتبعوهم بإحسان ، حتى ضرب الدين بالجران ، وقام فى الأرض واستوى ، ولم تر عين السماء قرناً كهذا القرن فى الأمم الخالية ، إذ كان الدين مستوياً فى بهجته واعتلائه .

وسادة هذا القرن وأئمتهم : سعيد بن المسيب ، وابن سيرين ، ونافع وغيرهم . فلما قضوا نحبهم سد مسدهم تبع التابعين ، كمالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وسفيان الثورى ، وأبى حنيفة ، والأوزاعى ، ومن عاصرهم من أعيان هذه الأمـــة وأركان الحديث ، حتى إن جاء الإمام الشافعى أمير المؤمنين فى فقه الحديث ، وصاحبه الإمام أحمد بن حنبل ، والبخارى ، ومسلم ابن الحجاج القشيرى ، وعلى بن المدينى ، ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم ؛ فأطبقوا الأرض علماً ورشداً ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وسارت الركبان بمفاخرهم ، وحدى الحادون بمآثرهم ، وكان طلب الحديث فى أولئك الأيام غاية كل شرفٍ ومنتمى كل عز وفخار ، وتغلغل هذا الشوق فى جذر قلوبهم ، فكأنهم مفطورون عليه ، وغذوا بلبانه ، وكانوا إذا سمعوا نزول محدث من بلد غريب طاروا إليه زمراً تتبعهم زمر ، وكان يجتمع فى مجلس إملاء القاضى الحسين بن اسماعيل المحاملى ببغداد عشرة آلاف من أصحاب المحابر وحملة الحديث ، وقيل : إن البخارى سمع منه "جامعه الصحيح" تسعون ألفاً من رجال الحديث ، ثم جاء بعدهم أبو الحسن الدار قطنى ، والحاكم النيسابورى ، والخطيب البغدادى المجود فى التصانيف ، والبيهقى صاحب "السنن" ، وابن حزم صاحب "المحلى" ، وابن دقيق العيد صاحب

" الإلمام " الخواص فى معانى الأخبار بما لم يستطعه الأوائل ، وابن قدامة صاحب " المغنى " ، والبغوى صاحب " شرح السنة " ، وابن عبد البر صاحب " التمهيد " و " الإستذكار " ، وغيرهم من أعلام الأمة ، فتجردوا لخدمة علوم الحديث ، وصنفوا فى كل فن فن منه ، وكانوا أسوة لكل من أتى من بعدهم واهتدى بدلالتهم من خلفهم :

إن المكارم بالمكاره * و المغانم بالمغارم

حتى انتهى سيادة العلم وشرفه الباذخ العالى إلى الحافظ الحجة الرحلة راوية العصر ويتيمة الدهر نابغة الزمان ونادرة الأوان ، الثقة الثبت المسند والقدوة العلم المفرد أبى الفضل ابن حجر العسقلانى ، ولم ير عديله حفظاً وتيقظاً فى بسيطة الأرض ، وكانت أويقاته معمورة مهاركة فيها . وصنف مصنفات غاية فى المتانة والإتقان ، ودرة نظامها "فتح البارى شرح صحيح البخارى" ، فهذا كوثر من خيره الجارى ، فأدّى بـه ديناً كان على ذمة هذه الأمة ، فجزاه الله خير الجزاء ، وكان سلف هذه الأمة معجزة تعجز كل الورى فى كثرة التصانيف ، حتى أعجز كل من سلف من خلف . وهذا الحافظ ابن عساكر الدمشقى ألف " تاريخ دمشق " فى ثمانين مجلداً فضلاً عن غيره من التصانيف ، وكانوا كما قلت :

وهم قدوة الأمجاد غر أكارم * بهم قام دين الله فى الأرض واستوى

وأولئك الأعلام أشرقت أنوار علومهم وبدور فيوضهم على الممالك الإسلامية ، وكانت الهند عاطلة من تلك الحلى ، مجدبة مقفرة ، وكان أهلها فى معرض عن الحديث حتى إن دخل الإمام حسن بن محمد بن حسن الصغانى من طريق كابل إلى بلاد الهند ، وكان حافظاً لغوياً ، فلما تولى من الهند خلّف كتابه " مشارق الأنوار " أثراً بعد عين ، فاشتغل أهل الهند بكتابه ، وقدم

قبله الشيخ اسمعيل، وتوطن لاهور، ثم لما توسعت مملكة سلاطين الهند إلى سواحل الهند فدخل فى بلاد الهند كثير من المحدثين من طريق البحر، حتى حان عصر الشيخ على المتقى وصاحبه محمد بن طاهر الفتنى، وبعده الشيخ عبدالحق الدهلوى رحمهم الله، فكانوا من ناصرى علوم الحديث وحاملى ألوية هذا العلم، حتى أن تنشأ إمام النهضة العلمية الحديثية فى الهند ومديرها ومدارها الشيخ أحمد ولى الله الدهلوى، فإنه قــد فجر أنهار هذا العلم شرقاً وغرباً، فشدت إليه الرحال، وقام على قدم كالطود أرسى وأرسخ، وحمى حمى الدين بعلمه وتصانيفه البديعة النظام، كـ "حجة الله البالغة" و "إزالة الخفاء" و "الخير الكثير"، وهو منتهى الإسناد فى ديار الهند، فلاحت أنوار الهدى، واعتلى الدين على ذروة العلى، وإن شئت حقاً وآثرت صدقاً فإن الهند لم تلد فيها والدة مثل الأحمدين، أحدهما من الدهلى، والآخر الشيخ أحمد السرهندى مجدد الألف الثانى، تنشأ فى زمان شاعت فيها البدع والفتن والرفض، فجدد معالم الــدين وشعائر الإيمان، جزاهما الله إحساناً بإحسان. وقام بعد الشاه ولى الله الدهلوى أولاده وحفدته الكرام لخدمة الهدى المحمدى سيفاً وسناناً وقلماً ولساناً وسنةً وقرآناً، وكثر فى أصحابهم العلم والفضل حتى مضت برهة من الزمان وتسلطت النصارى على بلاد الهند، فطغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، وماجت الفتن وعمت البلايا، وتفرقت طوائف فى الإسلام، وانتحلوا ببدع اتخذوها ديناً، وقل أنصار الإسلام، وصار غريباً كما بـدأ، فانتخب الله لتلك المهمة العظيمة من أبصر بنور الله من صدق فراسته، وقام لنصرة الإسلام وحمى حوزة خير الأديان، وذب عن حياضه مولانا محمد قاسم النانوتوى، وشيخ الحديث مسند الوقت مولانا رشيد أحمـــد الكنكوهى قدس الله أسرارهما، وكانا شريكى عنان ورضيعى لبان وخليلى صفاء، فأحسا عاقبة هذه الداهية العمياء التى تخبط فى الهند خبط عشواء، وكانا مؤيدين بنصر الله، فهجس فى خواطرهما أن يغرس غراس العلم على هيئة

مدرسة العلوم بديوبند ، حمايةً للإسلام ومحافظةً للملة ، فطاوعها على هذا خيار هذا العصر ، فطالت شجرتها وسمقت ، و أينعت ثمارها وذللت قطوفها لكل دان وقاصٍ ، وتخرج منها رجال أى رجالٍ حماة الدين وحملة الشريعة الغراء ، حتى نبغ نابغة هذا الزمان وراوية هذا العصر والأوان ، آية من آياته الكبرى ، وبينة من بيناته العظمى ، أعلم من أظلته الخضراء وأقلته الغبراء ، أخير ناف على الأوائل ، جميل المحيا جم المكارم وكريم الشمائل الحجة الرحلة القدوة طود من العلم راسخ ، و جبل من الحلم شامخ ، شيخ الإسلام مولانا الشاه السيد محمد أنور الكشميرى نور الله ضريحه وسقته الغوادى والسوارى من قد جمع إلى الدين الحنيفى العلم الحنفى والحلم الأحنفى أصدق لهجة كأبى ذر ، وكان شعاره: "قل الحق وإلا فذر" ، ولو رآه أبو حنيفة لتجمل به :

هـذا الذى باهت الدنيا بعزته | هذا هو الآخر السامى على الأول
مفطورة فيه أخلاق الكرام فلا | يحتاج فيها إلى التهذيب بالعمل
فى الخلق والكسب بون إذجرى مثل | ليس التكحل فى العينين كالكحل

وكان منبت ذلك الغصن النامى ، وأصل ذلك الفرع السامى من بلاد "كشمير" من أرومة المجد وجرثومة الفضل من بيت طاهر ، روى حديث المجد متواتراً متصلاً كابراً عن كابرٍ وهمام عن همامٍ ، وكيف ؟ ولا ينبت النضار إلا من معادنه ، ولا يوجد الشرف الأعلى والحسب الأسمى إلا فى مواطنه . اشتغل بالعلوم فى بلاد كشمير أولاً ، ثم ارتحل إلى بلاد الهند ، فحط رحله بديوبند عند مسند الوقت مولانا محمود الحسن قدس سره ، يقتبس من علومه النخب ، وكان من صفوة أصحابه حتى أن توفاه الله ، فكانت وفاته ثلمةً فى الدين ، فكان شيخنا لبنة سدت تلك الثلمة ، وتصدى لإعادة رواء العلم ، حتى صارت رياض الدين أخصب وأمرع ، وأدى ما عنده من أمانة الله

وأفاض ، وماجت بحار فيوضه حتى غزر العلم وفاض وغار ذكره وأنجد وأذعن لفضله كل حبر أمجد ، فشدت إليه الرحال من كل فج عميق ، وسار حديث مجده سير الأمثال وهو به حقيق :

وزاد بـه الدين الحنيفي رفعة — وشاد دروس العلم بعد دروسها
وأحيي موات العـلم منه بهمة — يلوح على الإسلام نور شموسها

وكان يجرى على طراز الأولين فى تحقيق الحديث ، وكان بحاثة نقادة للحديث ، لم يكن فوق أديم الأرض أعلم منه قرآناً وحديثاً وفقهاً وكلاماً ولغةً وعربيةً وتصوفاً ، وكان حاذقاً فى عـلوم المعقول بأنواعها ، وكان يحض أصحابه على مطالعة كتب فحول الحفاظ وشراح الحديث ، وكان كلمة الحكمة ضالته ، فاستفاد منه رجال لا يحصيهم العد، واستفاض منه فحول عصره فى الفتاوى والمشكلات ، فاغتبط العلماء بحالـه وجروا على محجته ، فازدادوا تحقيقاً ومطالعةً للحـديث ، وتركوا الجمود فارتقوا إلى ذروة العلى ، فكان خاتم المحدثين فى الهند وإمام هذه النشأة العلمية الحـديثية فيها ، وكان الناس قبيل هـذا العصر يكتفون بأدنى الحظ فى الحديث ، وكان غاية سعيهم أنهم إذا اطلعوا على حديث يخالف مذهب واحد من أئمة الإجتهاد تصدوا لتأويله من دون أن يستقروا طرق ذلك الحديث وما فى طرقه من الاختلاف ، وكان باب التحقيق عليهم مسدوداً ، فمن الله على الهند بنهضته ، فهداهم إلى علوم الحديث ، وكيف يردون ويصدرون ، فانتبه من كان موفقاً للسعادة بدلالته ولا يهتدي للخير إلا خير ، ومن أهم خدماته فى الدين الإنتصاب لدين الله عند الفتنة العمياء التى انبعثت من أرض القاديان من فنجاب ، فتصدى رجل فدعا : أنه نبي أعطى شريعة ، وانتشر دعاة دعواه فى أكناف الأرض كجراد منتشر ، فكان هـذا مصيبة عظمى للدين وأهله ، وقام لنصر دين الله حينئذ

خيار عباد الله من خيار العلماء ، وممن بذل جهده فى إطفاء تلك النائرة قلماً ولساناً وتحريراً وبياناً شيخنا المنعوت ذكره ، وكان ذا وجاهة عظمى عند الله وعند العلماء ، ونبه كل من كانت له أذنان وعينان تبصران ؛ وحث علماء زمانهم أن يتجردوا لدفع تلك الفتن ، وقام ولم يخش إلا الله ، وصنف كتباً عديدة ، وصنف أصحابه ، وحث أهل البلدتين "لاهور" و "أمرتسر" علماءهم وأمراءهم ، وأنهضهم لهذه المدافعة ، فأفحموا الزنادقة وألقموهم ، حجراً قلماً ولساناً ، وكان ممن قال ﷺ فى حقه : يحمل هذا العلم عن كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، فمضى على هذا برهة من الدهر يروى كوثره المعالم من خيره الجارى ، حتى استعفى من دار العلوم الديوبندية لوجوه ، فاستدعى منه كثير من أهل المدارس أن ينحاز إليهم فلم يقبل منهم وانحاز إلى "جامعة تعليم الدين" بقرية "دابيل" ، من من مضافات "سورت"، وكان انحيازه غاية شرف لأهل تلك البقعة ، وكانت تلك الديار محطاً للمحدثين فى سالف الأزمان، فأشرقت تلك المعاهد بوروده، فقام لنشر السنة يدور مع السنة حيث دارت، فاستفاض من هديه وسمته أهل تلك النواحى، فحازوا أعلام المكارم وغايات المآثر ، وصنف الشيخ فى هذا الزمان رسائل عديدة بعضها انطبعت وبعضها لم تنطبع ، ونضر الله امرءاً قام لنشر مصنفاته المختارة ، فتكون له منة على المسلمين ، وجرى الأيام على هذا إلى أن هجم عليه الأمراض فعاد إلى مسكنه ببلدة ديوبند فناداه الرضوان والنعيم المقيم واشتاقت إليه الجنان ، فتولى إلى الملأ الأعلى، فبكت عليه السماء والأرض وأظلمت الأرض بعد ما أشرقت، فمضى ولم يخلف على آثاره مثله ، اللهم أكرم نزله ، وأنزله جنات عدن وأعظم أجرنا بعده ، ووفقنا للسنة والسداد ، وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله الأمجاد والسلام . هذه عجالة ما قدرت عليه مع اشتغال القلب وقلة الفرص ، فإن رضيتم فبها وإلا فهو من

سقط المتاع" . انتهى مكتوبه السامى .

الشيخ وثناء أماثل العصر عليه .

أحاول أن أذكر شيئاً من ثناء أماثل العصر على الشيخ رحمه الله ليُعرف نباهته ووجاهته من لم يقدر على معرفته بمناقبه السامية التى سبق الإيماء إليها، ولله در القائل :

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس إلى حسن الثناء سبيل

رأى الجهبذ المحقق أستاذ العالم مولانا محمود الحسن الديوبندى الملقب بـ "شيخ الهند" قدس سره .

شاهدت فى سند الإجازة ما كتبه العارف المحقق شيخ العالم مولانا محمود الحسن رحمه الله لشيخنا رحمه الله :

"إن الله قد جمع له العلم ، والعمل ، والسيرة ، والصورة ، والورع ، والزهد ، والرأى الصائب ، والذهن الثاقب".

ولعله كانت فيه كلمات أخرى لا أحفظها ، وناهيك من رأيه فى حقه ما عامل معه فجعله خليفة له فى التدريس ورئاسة المشيخة فى دار العلوم الديوبندية كما سلف منا ، وربما كان يشعر عن رأيه فى بعض المشكلات ويسأله عن أقوال السلف فى بعض المهمات فكثيراً يرتاح له شيخه إذا أجاب ، وربما كان شيخه يرى رأياً فى بعض المسائل خلاف ما عليه الجمهور ، فشائخنا كان يؤيده بقول من سبق ، فيسر شيخه جداً .

ولتعلم أن هذه كلمات ممن لم يكن دأبه التكلف ولا الإطراء فى المدح ، وكان حبراً عميق العلم أبر القلب ، فلا تقسها بمبالغات المطرين وتخمينات المجازفين ، وليكن منك على ذكر أنه قال فى حقه هذه الكلمات ، وكان الشيخ

شاباً يافعاً لم تنبغ فضائله، ولا بزغت فى العالم جواهره ؛ فما ظنك بشأنه الباهر فى آخر أطوار حياته الطيبة؟ فهذا حاله فى البداية، فماذا يكون شأنه فى النهاية؟ وقد سبق منى قول القائل :

تناهت علاء والشباب ردائها * فما ظنكم بالفضل والرأس أشيب

رأى الشيخ العارف الفقيه المحقق المبرز فى العلوم قاطبة حكيم الأمة مولانا أشرف على التهانوى، أكبر مؤلف العالم الإسلامى، طالت حياته الطيبة .

كان الشيخ العارف حكيم الأمة مولانا أشرف على التهانوى (رح) يسأل الشيخ رحمه الله فيما أشكل عليه من معضلات الفقه أو الحديث وغيرهما ، وعندى كتاب له مكتوب بيده الشريفة: سئل الشيخ رحمه الله فى معضلة وعقدة تعسر عليه انحلالها، والكتاب طويل لاحاجة لنا فى سرد جميعه فنكتفى بإقتباس فاتحة كتابه وخاتمته بلفظه مع ترجمته بالعربية ، لينجلى للناظرين رأيه فى حق الشيخ رحمه الله .

نص كتابه باللغة الأردوية

''ازنا كاره آواره اشرف على عفى عنه بخدمت با بركت جامع الفضائل العلميه والعمليه حضرت مولانا سيد انور شاه صاحب - دامت انوارهم ، السلام عليكم ورحمة الله ، تحقيق سابق كے متعلق بضرورت مكرر تكليف دينا پڑى اميد هے كه معاف فرمائيں گے ، ايک حادثه خود مجكو پيش آيا آسكے متعلق جداگانه تكليف ديتا هوں الخ (وقال فى خاتمته) اسميں روايت يا درايت سے كچھ حكم فرمائيں -''

ترجمته باللغة العربية

"من الأحقر أشرف على عفى عنه إلى حضرة المحترم جامع الفضائل العلمية والعملية حضرة مولانا السيد أنورشاه دامت أنوارهم ، السلام عليكم ورحمة الله ، دعت الضرورة إلى أن نراجع إليكم ثانياً فيما يتعلق بالتحقيق السابق ، وقعت واقعة مما يتعلق بنفسى ولذا كلفتكم مرة أخرى على حدة ، فنرجوا العفو الخ. وقال فى خاتمته : فأفتونا فى هذه المعضلة إما من الرواية وإما بالدراية اه" .

وسمعت من العالم الحافظ السيد عطاء الله شاه البخارى خادم الملـــة الإسلامية طالت حياته (١) : إنى سمعت من حضرة الشيخ التهانوى طال بقاؤه أنه كان يقول : "ومن آيات حقية دين الإسلام عندى وجود الشيخ الأنور فى الأمة المسلمة ، فإنه لو كان فى دين الإسلام شئ من العوج والأود لم يبق الشيخ الأنور على دين الإسلام" ، سبحان الله ؟ تأمل هذا القول من هذا الشيخ فى حقه ، ثم تأمل ، وكفى لك دليلاً على رجاحة عقله ورزانة طبعه وإصابة فكره وصلاح فطرته، فهذا رأى أكبر علماء عصره فى عقله ، وذلك فى علمه فذقه ، ومن لم يذق لم يدر .

رأى محقق العصر الحاضر الحبر النحرير المفسر الحاذق والمحدث الجهبذ مولانا الشيخ شبير أحمد ، صاحب "فتح الملهم شرح صحيح مسلم" شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية بدابيل (سورت) .

قال العلامة الحبر المفسر الحاذق والمحدث الناقد البصير شيخنا ومولانا الشيخ شبير أحمد العثمانى أطال الله بقاءه فى "فتح الملهم شرح صحيح مسلم" (٢) :

---

(١) فلما عرضت الكتاب على الشيخ العلامه شبير احمد العثمانى فهش لذلك وقال : سمعت ايضاً هذا من حضرة حكيم الامه شفاهاً ولكن فيما سمعته زيادة وهى انه شاع فى بعض الجرائد عن بعض المستشرقين انه من دلائل حقيه دين الاسلام وكونه ديناً سماوياً وملة حنيفيه وجود الامام الغزالى فى الاسلام ، ولو كان فى الاسلام شئ من العوج لكان من المحال ان يبقى مثل الغزالى علماً . ثم قال حكيم الامه بعد نقل هذا الكلام : وعندى وجود مثل مولانا الشيخ محمد انور فى الامه المسلمه دليل من دلائل حقانيه الاسلام . ثم سمعته من ارشد خلفاء الشيخ حكيم الامه التهانوى الشيخ المفتى محمد احسن رحمه الله ايضاً ، فاذن كلام الشيخ التهانوى بلغنى من هؤلاء الثقات الاثبات رحمهم الله جميعاً . منه .

(٢) ص — ٣٣٥ ج — ١

سألت الشيخ العلامـة التقى النقى الذى لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه ، ولو كان فى سالف الزمان لكان له شأن فى طبقة أهل العلم عظيم ، وهو سيدنا ومولانا الأنور الكشميرى أطال الله بقاءه عن: تفسير أوائل "سورة النجم"، وتحقيق رؤية النبى ﷺ ربه ؟ فقرر الشيخ تقريراً حسناً بليغاً جامعاً لأشتات الروايات وأطراف الكلام منبها على أغوار القرآن ، فالتمست منه أن يقيده بالكتاب لتعم الفائدة، فاستجاب لملتمسى، وعلى الله أجره مع وجود الشواغل الكثيرة ، وهذا نص ما كتبه بقلمه متعنا الله بطول حياته .

وأيضاً قال أطال بقاءه فى تقريظه على تأليف الشيخ "إكفار الملحدين" :

"الشيخ العلامة الجليل فقيد المثيل فى زمانـه وعديم العديل فى أوانه ، بقية السلف وحجة الخلف ، البحر المواج والسراج الوهاج ، الذى لم تر العيون مثله فى العهد الحاضر ، ولم ير هو مثل نفسه، قد رزقه الله تعالى من العلم والنهى والفقه والتقى الحظ الأوفر، وهو سيدنا ومولانا الشيخ الأنور، مد الله ظله على رؤس المسترشدين والمتعلمين اهـ" .

وسمعت منه أطال الله بقاءه فى بعض الحفلات : "أن موت الشيخ الأنور عندى من أشراط الساعة ، فإنه كان أهلاً للأمانة الإلهية " .

لطيفـة بديعـة : أقول : ومن العجائب والعجائب جمة أن تلك الكلمة الفريدة البديعة : " لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه " التى قالها شيخنا المحقق العثمانى فى حق شيخنا إمام العصر أصدق كلمة دار معها الصدق حيثما دارت حيث صدقت أينما وقعت، وقعت فى محالها فيما أستحضره من كتب التراجم والطبقات ، فدونك من محالها وشاهد حسنها فى مجالها ، حيث تبدى من جمالها رافلة متبخترة فى أذيالها ، فأول من قيلت فيه هو الشيخ عثمان بن سعيد

الدارمى ، قالها فيه أبوالفضل الفرات ، كما فى " اجتماع الجيوش الإسلامية " لابن القيم ، ثم العارف المحدث المحقق الأستاذ أبو القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ الهجرية صاحب " الرسالة " ، ولا غرو فإنه مع وجوده فى العصر المحتفل بجبال العلم وبحاره كان أجمع رجل فى العلم الظاهر والباطن والورع والتقوى والمعارف الشرعية والحقائق الكونية .

ثم قيلت فى الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ الهجرية : ولا ريب أنه لم تر العيون مثله فى جمع علم الشريعة والطريقة والقدم الراسخ فى علوم القوم مع الذكاء المفرط وحل المشكلات وإفهام المعضلات ببيان رائق معجب وتقرير بارع مطرب .

ثم الإمام المحقق الفقيه المحدث موفق الدين عبد الله بن قدامة الحنبلى صاحب " المغنى " توفى سنة ٦٨٢ هجرية . قال ابن حاجب المالكى : لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه ، وقد صدق حيث كان إماماً محققاً فى مذاهب علماء الأمة ، بصيراً على مآخذها بتخريج وتنقيح وتحقيق مع مزاياه الوافرة من الورع والصلاح والتقوى وغيرها .

ثم الإمام تقى الدين أبو الفتح محمد بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هجرية ، قال الإمام أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمرى : لم تر العيون مثله ، وقد أصاب فيه حيث لم تر العيون مثله . حافظا دقيق النظر ، متقنا للحديث فى استنباط الفوائد والأسرار الدقيقة . قال الشاه عبد العزيز الحجة الدهلوى فى " بستان المحدثين " : لم يجئ مثله من عهد الصحابة إلى عصره فى بيان معانى متون الحديث واستخراج فوائدها بتدقيق حتى استنبط أربع مائة فائدة من حديث البراء بن عازب : « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع الخ » بنهج أنيق فيما شرح نبذة من كتابه " الإلمام " ، هذا مع جمعه بين

الورع والزهد والكشف والكرامات والخوارق .

ثم قيل مثله فى حق شيخ الإسلام ونادرة الأيام أبى العباس الحافظ أحمد ابن تيمية الحرانى الذى توفى سنة ٧٢٨ هجرية . وقد أصاب المرمى فإنه لم ير له نظير فى الاستبحار والاستحضار فى سائر العلوم من الرواية والدراية والإطلاع الواسع المدهش على مذاهب السلف والخلف والجرأة وقوة الجنان، بيد أن استعجاله وظن رأيه كالوحى السماوى ، نقص قدره السامى فى قلوب المعاصرين ومن بعده من كثيرمن العلماء ، وصدق ما قيل فيه : "غلب علمه عقله" ، وأعدل كلمة فيه ما قال شيخنا هذا المترجم له : "إنه بحر ذاخر لكنه يقول ولا يسمع" (اپنی کہتے ہیں دوسرے کی نہیں سنتے) وكان يقول : "غير حاذق فى العربية والفقه والمعقول" .

وقال الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبى شافعى المذهب حنبلى المعتقد فى شيخه الحافظ أبى الحجاج المزى الشافعى محدث الشام المتوفى سنة ٧٤٢ هجرية : "لم تر العيون مثله" ، وقد أصاب الغرض فإنه كان نظير نفسه فى علم الحديث ورجاله، ثم قيل فى حق الحافظ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية : ولا ريب فإنه كان وحيداً فى عصره فى سعة الإطلاع على الحديث والخبرة الواسعة بمعرفة الرجال والعلل والأوهام مع براعته فى صناعة التأليف وقوة عارضته فى الإنشاء والعربية والشعر وما إلى ذلك . رحمهم الله أجمعين ورحمنا ببركة أرواحهم القدسية فى الدنيا والدين آمين . هذا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وبارك وسلم .

رأى المحدث البارع الفقيه المفسر مولانا حسين أحمد المهاجر المدنى شيخ الحديث بدار العلوم الديوبندية .

قال الشيخ المحدث الفقيه العارف مولانا حسين أحمد المدنى فى حفلة

تأبين كبرى انعقدت بديوبند بعد وفاة الشيخ رحمه الله فيما بلغنى عن الثقات:
"لم أر مثله فى الاستبحار والإحاطة بسائر العلوم النقلية والعقلية بالهند ولا بالحجاز والعراق والشام ، مع أنى رأيت ولاقيت أعاظم رجال هذه البلاد وعلماءها وفضلاءها .

رأى الفاضل المحقق مفتى الديار الهندية، ورئيس إدارة جمعية العلماء الإسلامية الفقيه المحدث العلامة مولانا محمد كفايت الله الدهلوى أدام الله فيوضه .

قال الشيخ المحقق مفتى الديار الهندية المحدث الجهبذ العلامة محمد كفايت الله فيما أشاعه فى جريدة "الجمعية" عند وفاته رحمه الله ، لسابع صفر سنة ١٣٥٢ هجرية وأول يونيو سنة ١٩٣٣ الميلادى بقلمه ما نصه مع تعريبه :

آه قدرت کے زبردست ہاتھ نے حضرت مولانا العلامہ" الفاضل الکامل اکمل العلماء افضل الفضلاء النحریر المقدام ، البحر الطمطام رحلہ" العصر ، قدوۃ الدھر استاذ الاساتذہ رئیس الجہابذہ محدث وحید ، مفسر فرید فقیہ یگانہ ماہر العلوم النقلیہ" والعقلیہ" مولانا سید محمد انور شاہ قدس سرہ کو آغوش رحمت میں کھینچ لیا اور ہم سے ظاہری طور پر ہمیشہ کے لئے جدا کر دیا (الی ان قال): حضرت شاہ صاحب کی وفات بلا شبہ وقت حاضر کے کامل ترین عالم ربانی کی وفات ھے جن کی نظیر مستقبل میں متوقع نہیں،طبقہ علماء میں حضرت شاہ صاحب کا تبحرو کمال فضل و ورع و تقوی جامعیت ، استغناء مسلم تھا ، موافق و مخالف ان کے سامنے تسلیم و انقیاد سے گردن جھکاتا تھا ۔

يا للأسف! قد اختلست عنا القدرة الإلهية إلى كنف رحمته العلامة الفاضل أكمل الكملاء أفضل الفضلاء النحرير المقدام والبحر الطمطام رحلة العصر وقدوة الدهر أستاذ الأساتذة ورئيس الجهابذة المحدث الوحيد والمفسر الفريد الفقيه الإمام ماهر العلوم النقلية والعقلية مولانا السيد محمد أنور شاه قدس سره ، لاريب أن وفاة الشيخ وفاة أكمل عالم ربانى فى العهد الحاضر لا يرتجى له المثيل فى الغابر وقد اعترف علماء عصره قاطبة بكمال فضله وورعه وتقواه وتبحره الجامع فى العلوم واستغناءه عن الخلق (ثقة بالحق) حتى أذعن له كل ودود وحاسد" .

وأيضاً قال فى حفلة تأبين انعقدت بدهلى ما تعريبه : "قد ارتحل عنا إمام العلماء الربانيين المحدث الكامل والفقيه المفسر جهبذ سائر العلوم النقليــة والعقلية فى بلاد الهند بل فى العالم الإسلامى حضرة الفضيلة سيدنا ومولانا الشاه محمد أنور الكشميرى ، صدر شيوخ دارالعلوم الديوبندية ، ثم شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية بدابيل "سورت" . وفاة الشيخ ملمة كبرى لسائر الأمــة المسلمة فى أقطار العالم ، يا أسفى! حرم المسلمون اليوم فى الظاهر عن بركات إمام ربانى ذى صفات قدسية، إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله ورضى عنه" وقرأت فى خطاب له إلى صديقنا القارى محمد يامين (المرحوم) : "إنه لم يمت ولكن مات العلم والعلماء ، فإنه رحمه الله كان إماماً أمة اهـ" .

رأى الحبر الذكى المحقق الجهبذ اللوذعى تاج الأدباء مولانا حبيب الرحمن العثمانى الديوبندى ، مدير دار العلوم الديوبندية رحمه الله .

قال الجهبذ الأديب العلامة الشيخ حبيب الرحمن الديوبندى رحمه الله مقرظاً على رسالة للشيخ رحمه الله : "وممن قام لدمغ هذه الفتنة وقمع أباطيل هؤلاء المردة الطغاة الذين ليسوا فى عداد فرق المسلمين — يعنى الفتنة المرزائية — وتحقيق مسألة تكفير الملحدين والمتأولين من أهل القبلة الشيخ الثقة الورع التقى الحافظ الحجة المفسر المحدث الفقيه المتبحر فى العلوم العقلية والنقلية رافع لواء التحقيق فى المسائل الغامضة المهمة مولانا الشاه محمد أنور صدر المدرسين فى دارالعلوم بديوبند حرسها الله وحماها ، فصنف رسالةً جمع فيها وأوعى الخ . وبلغنى أنه كان يقول: "الشيخ رحمه الله مكتبة عظيمة حيّة ناطقة" (چلتا پهرتا كتب خانه) ، وذلك لكثرة علمه واستحضاره، وقد صدق فإنه كان لا يحتاج أحد فى تحقيق مشكل عند وجوده إلى مراجعة الكتب ، وقريب منه ما بلغنى

عن الفقيه المحدث العارف مولانا السيد أصغر حسين الديوبندى شيخ "سنن أبى داؤد" بدار العلوم : "إذا أشكل على مسألة فى الفقه فأتفقد الكتب لحلها فى مكتبة دار العلوم العظيمة باستقراء بالغٍ ، فإن فزت وإلا أراجع الشيخ رحمه الله ، فإن بينها وأحال على كتاب فذاك وإن قال : لم أرها فى الكتب فأتيقن أنه لا يوجد فى كتاب فلا أتعب النفس بعده فى تفقدها من الكتب ، (فإن الشيخ لم يغادر كتابا إلا وأحاط به علماً).

رأى المتبصر الخبير المؤرخ الفاضل العلامة السيد سليمان الندوى .

قال العلامة الفاضل السيد سليمان الندوى مدير مجلة "المعارف" ما نصه :

''مرحوم کی مثال اس سمندر جیسی ہے جسکے اوپرکی سطح ساکن ہو اور اندر کی گہرائیاں گرانقدر موتیوں سے معمور ہوں'' .

يعنى : مثال الشيخ رحمه الله كبحر محيط ترى أعلاه هادئاً ودركه الزاخر مشحوناً بدرر غالية الأثمان .

فهذه كلمات هؤلاء الأكابر وأماثل العصر، هداة الملة وأساتها، وزعماء الأمة ورعاتها فى حق هذا الشيخ البارع الحائز للمناقب العلمية ، والفائز بالمناصب العملية المتحلى بالمآثر الباهرة ، والمتجلى بالمفاخر الزاهرة ، وناهيك بها قدوة وأسوة . وبالجملة كان الشيخ رحمه الله سراجاً وهاجاً ، سحاباً هاطلاً ، وغيثا وابلاً ، علماً مفرداً، ورحلة مسنداً، فقيه النفس محقق علماء الملة الإسلامية ، خاض الدقائق وغاص الحقائق ، بث الجواهر والدرر، ولذ المسامع والنواظر، لقد نفع الأمة بعلومه، وأحيي علوم الحديث بعد ما كادت أن تندرس، وكان مجدد طريقته العذراء فى درس الحديث ، بذر فى قلوب العلماء بذور تحقيق المشكلات، وحل الغوامض والمبهمات، وأنشأ فى قلوبهم شغفاً وولوعاً بالقرآن والسنة وعلومها، فرضى الله عنه وأرضاه. وجازاه خير ما يجازى عباده المقربين

فى جنات النعيم .

وما يتفوه به بعض الجهلـــة الحاسدين أو المتعاندين المتجاهلين من : أنه كانت عنده المعلومات الصرفة والاطلاع الواسع والنقول المتكاثرة ، ولم يكن عنده دقة النظر وغور الفكر ، فهوظلم عظيم فى حق هذا الإمام البارع من كان ابن دقيق العيد فى الأئمة الحاضرة ، ومنشأ هذا القول إما جهل مفرط بحال الشيخ رحمه الله وهوآفة العقل ، أو عناد بواح وهوآفة الديانة ، نعم إن معرفة التبحر وسعة الإطلاع أمر بديهى جلى يعرفه كل أحد ممن له أدنى ذوق بالعلم ، ومن له علم بكتب القوم بادى الرأى ، وإما مسابرة غور الفكر ومعرفة دقة النظر ، فهذا أمر لايقوم بإدراكه إلا الحذاق من الأعيـــان والجهابذة من الأعلام ، وقد سردنا كلمات الجهابذة بين يديك ، فمن عرف مثل معرفتهم أوجرب مثل تجربتهم لشهد طوعاً أو كرهاً بمثل ما صدعوا بـه على رؤس الأشهاد وأعين الناس ، ولم يكن له عنه محيد ولامناص . هذا وقد قال الإمام محمد بن يحيى : "الغزالى لا يعرف فضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال فى عقله" . وقال الشيخ التاج السبكى فى "طبقاته" بعد نقله : "وأقول : لابد مع تمام العقل من مداناة مرتبته فى العلم لمرتبة الآخر ، وحينئذ فلا يعرف أحد ممن جاء بعد الغزالى قدر الغزالى ولامقدار علم الغزالى ، إذ لم يجد بعده مثله ، ثم المدانى له إنما يعرف قدره بقدر ما عنده لا بقدر ما عند الغزالى فى نفسه" . وقال : "لايعرف قدر الشخص فى العلم إلا من ساواه فى رتبتـه وخالطه مع ذلك" إلى آخر ما قال رحمه الله تعالى ، فراجعه إن شئت . وقد صدق من قال :

إنما يقدر الكرام كريم * ويقيم الرجال وزن الرجال

ولكن الحسد يعمل العجائب ، فيعمى البصر والبصيرة ، وما يستوى الأعمى

والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ، ولله در أبي الأسود الدؤلي التابعي حيث قال :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
وترى اللبيب محسداً لم يجترم شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذاك من عظمت عليه نعمة حساده سيف عليه صروم

فهذا شيخ الهند وإمامه أثنى عليه بما أثنى ، وهذا حكيم الأمة الشيخ التهانوى خاطبه بما خاطبه ، وهذا محقق العصر العلامة العثماني رأى فيه ما رأى ، وهذا الجهبذ المصرى تأثر منه ما تأثر ، فهل بعد ذلك مساغ للمنصف البصير ؟ أو مجال للناقد الخبير ؟ علا أن الشيخ رحمه الله فى ذلك أسوة من قبله من العلماء وأفراد الأمة ، فلا جرم يقال فيه كما قيل فيهم ، فهذا إمام الدين والدنيا فقيه الأمة المحمدية ، أبو حنيفة النعمان رحمه الله ، قيل فيه ما قيل ، وهذا الإمام مالك رحمه الله قال فيه ابن أبي ذئب ما قال ، وهذا الإمام الهمام محمد بن ادريس الشافعى قال فيه ابن معين ما قال ، وهذا الإمام حجة الإسلام الغزالى ، وقع فيه المغاربة حتى أذكى المعاربة الإمام المازرى ، ولم يكتفوا بالطعن بل أخرجوه من دائرة الإسلام ، وهذا شيخ الطريقة وقطب الحقيقة غوث الثقلين عبد القادر الجيلى قدس سره قال فيه ابن الجوزى ما قال ، حتى التضليل والإكفار ، وهذا بحر الحقائق والمعارف الشيخ الأكبر محى الدين ابن العربى الطائى الأندلسى قال فيه الحافظ ابن تيمية ما قال ، وكذا تلميذه الحافظ ابن القيم ، وغيرهم من أفراد علماء الأمة وأفذاذها . والعجب أن هذا طعن العلماء ، فكيف يشتكى من الجهال ؟ نعم أتأسف تأسفاً ما لا أكاد أطيقـــة من الذين تزيوا بزى العلم والدرس والتأليف ، ينتحلون من مقالات الشيخ ويسرقون من رسائله ، ويتنبهون لمآخذ المشكلات من مؤلفاته ، ثم يخملون ذكره ويتجاهلون قدره ، وكان كما قيل :

أحشك وتروثني ، فيأكلونه بضرس ويطؤونه بظلف ، فالعناد والحسد داء أعيا الأطباء دواءه ، قد سرى اليوم فى قلوب العلماء فأفسد عليهم العلم والديانة إلا من شاء الله ، وقليل ما هم ، وخالات الناس بالدهناء قليلة ، ولكن صدق من قال :

وفى تعبٍ من يحسد الشمس نورها * ويجهد أن يأتى لها بضريب

فهم يريدون إطفاء نور الشمس بالأفواه ، ولم يتحصلوا إلا على إتعاب الشفاه ، ومن جعل أنفه فى قفاه ولم يبلغ من البحر إلا شفاه ، فمن السوءة أن يفتح فاه ، فهداهم الله وإيانا بفضله وكرمه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وصلى الله تعالى على إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

عبرات على ملمة وفات الشيخ . وفاة الشيخ ومراثى فضلاء العصر و اصحابه . ختام الرسالة و معذرة للجامع .

عبرات هامعة وحسرات فاجعة و نظرة مستأنفة على تلك المآثر السامية و فذلكة للشئون الماضية .

فيا أيها الناظر الدارى والذكى الوارى ، لعلك علمت مما بثثناه لك فى هذه الوريقات من نبذة من مآثر الشيخ رحمه الله أن الشيخ رحمه الله صار عليه المدار فى الأمة الحاضرة فى حل المشكلات والخوض فى الحقائق العالية والصدع بالمعارف الغامضة ، فكان إماماً فى علوم القرآن ومعارف السنة ، بحراً فى فنون الحديث ، غير أنه لم يكن له ساحل ، وصل إلى غاية قاصية فى مدارك الفقه ، وإلى أمد أقصى فى مذاهب علماء الأمة المحمدية ، لا يلحق غباره ولا يدرك شأوه فى العلوم العربية ، ولم يكن له منتهى فى العلوم الحكمية والفنون الفلسفية ، كان خبيراً بخباياها وزواياها ، كاشفا حقائقها عن أباطيلها ببصيرة نافذة ومعرفة راسخة . وكان ذا حظ عظيم من معارف الصوفية وعوارفها ، وذا ذوق صحيح من مواجيدهم المضنونة وأذواقهم العالية ، وذا بصيرة نافذة بإشاراتهم اللطيفة . وذا خبرة تامة وعلم حافل بالطبقات والرجال والتاريخ ، وكان معدناً للطائف المحاضرات وطرف الأمثال وذخائر الأشعار العربية والفارسية ، وكان ذا قلب كئيب ونفس صبور على مضايق الدهر . وبالجملة لم يكن تحت أديم السماء أوسع علماً منه بعهده فيما نعلم قرآناً وسنة ، وفقهاً

وكلاماً ، وتاريخاً وأدباً ،ولم يكن تحت هذه الخضراء أعرف منه بالمزايا العلمية والمشكلات الخفية ، ولم يكن فوق بسيط الساهرة الغبراء أجمع رجل منه فيما نرى ، علماً وورعاً ، وزهداً وتقوىً ، وحسن صورة وبهاء منظر مؤنق ، واعتدال قامة رائقة ، ونظافة طبع ، ونقاء سريرة ، وذكاوة ذهن ، وبديهة مطاوعة . فكان (وسبحان الله) أكمل إنسان جمالاً وكمالاً علماً وفضلاً ، خلقاً وخلقاً ، هدياً وسمتاً ، لم نر مثله ولم يرهو مثل نفسه ، فكان لكل مزية باهرة زعيمها وأميرها ، ولكل كلمة زاهرة حكيمها وظهيرها ، وكان كما قيل :

فبأيما قدم سعيت إلى العلى * أدم الهلال لأخمصيك حذاء

فكان رحمه الله غاية وآية ، لم يكن واحداً بل أمة .

لو لا بدائع صنع الله ما نبتت * تلك الفضائل فى عظم ولا عصب

وناهيك شهادة بما شهد بمعاليه الباهرة التى بلغ فيها إلى المراتب القصية أكابر علماء العصر وأجلة معاصريه ، مع أنه قيل أن المعاصرة أصل المنافرة ، نعم لم ينج منها على شاكلة نظرائه الغابرين فى الديار على تعاقب الأدوار والأعصار ، ولكن يكون جرى المذاكى غلاباً وغلاء ، أما الزبد فيذهب جفاءً ، ووضع له القبول فى الأرض أينما سار . ودار فى الطول والعرض ، أو أنجد وغار فى عال وخفض ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، نعم لأمر ما يسود من يسود ، ويعطى الله من يشاء ، فهو الرحيم الودود ، وانظر ، فهل ترى فى كبار علماء الأمة وأعاظم رجال الملة من جمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الفلسفية والعقلية ، وبلغوا فى الجميع شأواً بعيداً سواءً بسواء إلا أفراداً معدودةً أقل عدداً ، فكم من عالم عظيم جليل تراه فى شعبة دون ما يكون فى الأخرى . واعتبر بما سلف من الأفراد . فهذا حجة الإسلام

الغزالى البحر المغدق ، وهذا فخر الدين خطيب الرى المحقق ، وهذا الشريف المحقق الجرجانى ، وهذا الشيخ العلامة التفتازانى ، أنظر درجتهم فى علوم الحديث ، وهؤلاء أعلام المحدثين من الحافظ الخطابى والحافظ القرطبى والحافظ الذهبى والحافظ أبى الحجاج المزى ، أنظر إلى منازلهم فى المعقول والكلام ، فالجامعون شمل الأضداد ، والآخذون بمجامع العلوم العقلية والنقلية تراه كقطرات من بحار زاخرة ، مثل الشيخ أبى بكر الباقلانى ، وقيل فيه : بحر مغرق . وابن فورك ، وقيل فيه : صل مطرق ، والإسفرائينى وقيل فيه : نار تحرق ، وكإمام الحرمين وعارف الأندلس ابن العربى ، والحافظ ابن تيمية الحرانى ، وابن القيم ، وكحجة الأمة الشاه ولى الله الدهلوى ، وابنه الحجة الشيخ عبدالعزيز الدهلوى بالهند رحمهم الله تعالى أجمعين . فالشيخ الأنور رحمه الله ضريب من أضراب هؤلاء الأعلام أفذاذ الإسلام ، تبدوا مثاله بعد قرون فى أقطار البسيطة رحمة من الله تعالى على الأمة المحمدية عند افتقارها واضطرارها ، فرحمه الله ورحمهم وكثر أمثالهم .

فيا حسرتى ويا أسفى ! رفعت عن أيدينا تلك الأمانة الإلهية ، وارتحل عنا هذا الإمام الجليل الحائز لتلك المناقب الجليلة التى تأخذ بمجامع القلوب فطبق المفصل فى كل ما حاول . وأراد وأصاب المحز فى جميع ما يحاول ويراد ، يتراءاى اليوم هذه المآثر أعز من الأبلق العقوق وأغرب من بيض الأنوق ، فموت مثل هذا الإمام فى مثل هذا العصر المجدب الذى لا يرتجى أن تخفق رأيات العلم على أمثاله داهية كبرى وأمر جلل ، لم تستغن الأمة عن نظرائه فى العصور المخصبة الرائقة والأيام المخضبة المؤنقة ، فكيف فى الأعصر الممحلة التى لا مطمع بها لدفعة من غادية أو سارية أو رشحة من صيب مدرار ؟ فيا للأسف ، خطب مفظع غشى الأمة المحمدية ، ورزء فادح جليل ما له من زوال ، وانفتاق فى قصر العلم الشامخ واسع ما يخال له ارتتاق وانصداع ماله

انشعاب ، فلا جرم تصدعت به قلوب وانشقت به أكباد ، فأى ملمة مفظعة تكون أدهى منها ؟ وأية رزية مدقعة كارثة تكون أكبر منها ؟ لقد عظمت تلك الرزية الفاجعة وجلت ، وكان كما قال هو نفسه رحمه الله :

نبأ عظيم ساءهم إذ جاءهم — ودها النفوس ملمـــة ظلماء
تركت عباداً لا حراك لديهم — أخذت بلاداً أزمـــة دهياء
أخذ النفوس قديمها وحديثها — والصدر غم والنفوس بكاء

فمن لمعارف القرآن ومزايا الحديث ؟ ومن لغوامض الأخبار ونكات التحديث ؟ ومن لأسرار الفقه وفقه الحديث ؟ ، هبت العواصف على مغانى الأخيار (١) ، وطارت أم غارت معانى الآثار ، من لسرد الحسان والصحاح ؟ ومن للصدع عن السقام والصحاح ؟ ومن لنقـد الرواة على محك الأثبات ؟ ومن لوزن الرجال بميزان الإعتـدال ؟ وأين الأحوذى للطائف الترمـذى ؟ وأين "إرشاد السارى" لمسالك البخارى بفتح البارى ؟ وممـن يرتجى اليوم الإستذكار لمذاهب علماء الأمصار بالرأى الصحيح وصحيح الاستبصار ؟ ومن يوطأ لنا اليوم التمهيد لمعانى المسانيد ولطائف الأسانيد ؟ ومن لهداية القوم إلى بدائع الفقه الجامع ونوادره ؟ ومن لكشف أسرار علم الأصول وتحرير مستصفاه ، وإيضاح منهاجه وإعلاء مناره ؟ ومن لأسرار بلاغة القرآن ودلائل إعجازه ؟ ومن لتحبير التحرير والتقرير بنهاية إيجازه وحسن طرازه ؟ ومن لجمع جوامع النحو وقواعـــد الأدب ؟ ومن للسماحـة "بشذور الذهب"

---

(١) صدعت بمآثر الشيخ مورياً بها الى اسفار جمة تبلغ الى نحو اربعين سفراً وهاتيك الكتب فريدة فى بابها اشير بها الى تفرد الشيخ بها والى تفرده فى اكابر معاصريه كما هى فريدة فى مواضيعها ولذا جاء تخصيص تلك الكتب ، وايضا اشارة الى اهميه العلوم التى الفت فيها تلك الزبر الشريفه ، وكانه لم يعتن بجنبها بغيرها من العلوم ، وراعيت فيها غيرها من المحاسن اللفظيه والمعنويه يقدرها البصير ان شاء الله تعالى . منه .

واستفادة شوارد " لسان العرب " ؟ ومن لاستخراج الدقائق من كلام سيبويه وكتابه ؟ ومن للاشتقاق من " جمهرة علم اللغة " والغوص فى " قاموسه " و " عبابه " ، ومن لنظم الدرر فى سلك الأشعار وسمط الفقر ، كأنها عقود الجمان أو يواقيت وجواهر ومرجان ؟ أين الحقائق التى كانت تحير الألباب والعقول ؟ ، أين المعارف التى تطمئن بها النفوس وتقربها الأعين وتنشرح بها الصدور ؟ فهذه الخصائص السامية كانت غرةً لجبين كماله ودرة التاج لهام مجده ، طارت بها عنقاء مغرب ، هل تحس منها من عين أو تعلم له أثراً ؟ فلا أدرى على أى فضيلة أندب وأرثى ؟ وعلى أى منقبة أرفع عقيرتى فأبكى ؟ فأتجرع غصصاً وأشرق بذوارف الدموع ، ونار الحزن تتوقد فى حنايا الضلوع :

أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها * لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

فاستفتأ سعير الوجد وضرام الألم بهوامع السلوان وغروب العبرات ، واستطفأ لواعج العمد بنفثات الحسرات والزفرات :

دموع أجابت داعى الحزن همع * توصل منا عن قلوب تقطع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازماً * فأصبح يدعى حازماً حين يجزع

فهل فى النادى من يرثى لنا فى هذه النوادى (١) ، ويأوى لنا مجلبة للعزاء ، أو تفيض دموعاً حارةً لانفثاء لوعات البرحاء :

وإن شفائى عبرة مهراقة * فهل عند رسم دارس من معول

نعم يبكيه العالم الإسلامى عالمه وجاهله ، صغيره وكبيره ، جليله وحقيره بل الساهرة والسماوات العلى ، ومن يثوى فيها من الملأ الأعلى ؟ وهو القائل

---

(١) النوادى المصائب . منه .

فى رثاء شيخه :

بكته سماء ثم أرض كلاهما * وعين وقلب قاسياه فأجمعا

وهو القائل :

بكيت إماماً أو ولياً بربه * وإن شئت حقاً فالفضائل أجمعا

وهو القائل :

يجاوبنى جار ودار على البكى * ولم أر إلا باكياً ثم موضعا

قد وصل إلى الرفيق الأعلى ، وحال على ذلك حولان فصاعداً ، ولكن لواعج الكمد مضطرمة ، وتباريح الوجد غير منصرمة ، حيث لم يترك لنا خلفه ، ومن يسد مسده ويملأ الفراغ ؟ ولو كان لكان أشفى للهيب الشجو ، وأذهب للوعات الجوى ، ولطاب العيش وساغ ، ولكن انثلم الصرح انثلاماً لا يرجى أن يرم ويحصن ، يا للأسف ! قضية ولا أبا حسن لها ، وصدق القائل :

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الألف هيمان

نعم إذا حلت المقادير بطلت التدابير ، وإذا جاء الحين حارت العين ، هـذه سنة الله خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، على هذا أبرم قضاؤه وسبق قدره ، فماله من انفصام :

على ذا مضى الناس اجتماعاً وفرقة * وميت ومولود وقال ووامق

فإلى الله الموئل والمفزع ، وعليه التكلان فيما سيكون وما كان ، وأتعزى بما قاله لبيد العامرى رضى الله عنه :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع … وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وقد كنت فى أكناف دار مضنة … ففارقنى جار باربة نافع
فلا جزع إن فرّق الدهر بيننا … فكل امرئ يوماً له الدهر فاجع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه … يحور رماداً بعد ما هو ساطع
وما لمرء إلا مضمرات من التقى … وما المال والأهلون إلا ودائع
وما الناس إلا عاملان فعامل … يتبر ما يبنى وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه … ومنهم شقى بالمعيشة قانع
فلا تبعدن أن المنية موعد … علينا فدانٍ للطلوع وطالع
أعاذر ما يدريك إلا تظنيا … إذا رحل السفار من هو راجع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى … وأى كريمٍ لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى … ولا زاجرت الطير ما الله صانع

وأتسلى بما قاله الشيخ رحمه الله فى مرثية :

سبحان من حقت له العلياء … سمت الصفات وعزت الأسماء
صلح البقاء لوجهه وجلاله … فلغيره أياً يكون فناء
بقضائه خير الأمور وضيرها … وبأمره السراء والضراء
خشعت لهيبته الجبال وطأطأت … خضعت له الخضراء والغبراء
وصفاته سبحانه وجلاله … والكبرياء إزاره ورداء
كتب الفناء على البرية كلها … وله على أبد الدهور بقاء
قدر له جارٍ وأمر نافذ … ولحكمه فى العالمين مضاء

فرحمه الله ورضى عنه وأرضاه ، وتغمده الله بغفرانه وجعل له ما عنده خيراً من الدنيا ومن عليها ، وسقى ضريحه الأنور بغوادى رحمته وسوارى بركاته ، وجعل روحه الطيبة محفوفة بالألطاف الخفية الربانية ، وقبره الشريف

محتفاً بالأنوار الإلٰهية ، ووفقنا بالتأسى بآثار هدايته ، ونفعنا بمحبته فى الأولى والأخرى ، وأتأسى تعزيةً بكلمات من كتاب مولانا ونبينا وسيدنا محمد ﷺ إلى معاذ عند موت ابنه ، كما رواه الطبرانى فى " الكبير " و " الأوسط " عن معاذ فأقول : « أعظم الله لنا الأجر وألهمنا الصبر ورزقنا الشكر ، فإن أنفسنا وأهلنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة ، وإن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزنا وما هو نازل فقد كان ، وبما عزى سيدنا الخضر عليه السلام صحابة رسول الله ﷺ بقوله : إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، وعوضاً من كل ما فات ، فإلى الله فأنيبوا ، وإليه فارغبوا ، فإنما المصاب من لم يجبره الثواب » . رواه الطبرانى فى " الأوسط " عن أنس رضى الله عنه ، كذا فى " جمع الفوائد " . هذا وصلى الله تعالى أوفى صلوات وأزكاها وأكمل تسليمات وأولاها على إمام الأنبياء وصاحب اللواء فى المحشر ، وآله الأطهر وصحابته الأخيار الى يوم القرار .

وكنت قلت فى رسالتى " بغية الأريب فى مسائل القبلة والمحاريب " مبدياً أسفى وحزنى على رزية وفاة الشيخ رحمه الله فلا بأس أن أتحف به الطلبة فقلت :

" ثم كانت فوق كل ذلك الطامة الكبرى التى دهتنا من موت شيخنا وشيخ شيوخنا صاحب المآثر الباهرة والمفاخر الزاخرة ، ذى الآيات البينات ، والأحاديث المتواترات ، سيدنا وسندنا الشيخ الإمام مولانا إمام العصر محمد أنور شاه الكشميرى شيخ الحديث بدار العلوم الديوبندية ، ثم الجامعة الإسلامية (بدابهيل سورت) فألهتنا كل شئ وأنستنا ، حتى كادت تتصدع القلوب وتنشق الأكباد ، فكان إماماً فى الحقائق والمعارف لا يجارى ، وقطباً للعلماء والمشائخ فى حل الدقائق والعوارف لا يبارى ، كان إماماً حجـة فى علوم القرآن ، ومسنداً ثبتاً فى علوم الحديث بغاية الإتقان ، وكان مداراً فى كشف معارفها

وإيضاح لطائفها ، حافظاً متقناً لمذاهب علماء الأمة مع تخاريجها بتنقيح وتحقيق، أحاط بالعلوم العقلية والفنون الحكمية الحديثة والقديمة قاطبة بالرأى الصائب والإجتهاد البالغ .

وكان نقيب العلوم العربية وأديب فنون الحوار الأدبيـــة ، غواصاً فى الدقائق خواضا فى الحقائق ، فكم من معارف هو أبو عذرتها ، وكم من عوارف هو ابن بجدتها ، وكم من لطائف كلم قد أبدعها ، وكم من شرائف حكم قد اخترعها ، وحق أن يتمثل له بما قيل :

وإنى وإن كنت الأخير زمانـــه * لآت بما لم تستطعـــه الأوائـل

وكان تقوى الله وخشيته له شعاراً، والورع والزهد وإتباع السنة النبوية له دثاراً ، نشأ فى بيت التقوى والزهـد فى أعدل الأقاليم مجبولاً على الفطرة السليمة والصلاح الفطرى والقلب السليم ، ففاز بأعدل الطبائع فى أعدل أقاليم الأرض ، وغذى بلبان العلم والحكمة ، وربى فى حجر أمناء الله على عباده فى الأرض ، ثم قاده التوفيق الإلهى والفيض الربانى إلى اكتساب سائر المآثر العلمية والعرفانيـة بغاية الوجد والهيام ، ويسر له الوسائل والأسباب كيف ما شاء ، ورام فترعرع شاباً نقياً تقياً زاهداً ورعاً ، إماماً فى العلوم والمعارف ، بارعا حتى صار رحلة فى الأقطار لشرح مشكل الآثار ، ومسنداً راويـــة لحقائق شرح معانى الآثار ، ومنتهى الأخبار ، يضيق نطاق المجال عن إحصاء فواضله وفضائله وخصائصه ومزاياه ، وكيف لا ؟ وقد تنضرت بقاع الهند بل أقطاع البسيطة من رشحات وابله وحياه .

فمضى وقد أبقى مآثره * ومن الرجال معمر الذكر

فنال من علوم التفسير وعلوم الحديث الثريا ، وبلغ فى العربيـة الغاية القصوى ، ووصل فى العلوم الحكميـة بمكانة دونها الجوزاء ، وكان فى علوم

الحقائق على أمد بعيد ، ومن علوم البلاغة على طرف شاسع . وبالجملة كان إماماً فى التفسير ، إماماً فى الحديث ، إماماً فى الأصول ، إماماً فى الفروع ، إماماً فى العلوم العقلية ، إماماً فى العربية وعلوم البلاغـة ، إماماً فى الرجال والطبقات والتاريخ ، فرداً وحيداً فى جودة نظمه وحلاوة نثره ، كان نظمه لآلى منظومة ، ونثره درار منثورة ، ومع هذا الحسن الباطنى والبهاء آثره الله بجمال معجب ينحدر من محياه النور ، تبرق أسارير جبهته كالبرق المتهلل ، فكان ذا خلق بهيج كريم ووقار راسخ وسمت حسن وخلق عظيم ، ولقد صدق القائل :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

وكان كما قيل :

ولو أن ثوباً حيك من نسج تسعة * وعشرين حرفاً فى علاه قصير

كنت أريد أن أعرض تأليفى هذا على حضرته ، حيث أنه باكورة مؤلفاتى وأنا فى الثالثـة والعشرين من عمرى ، فأنى تدرب الفكرة ، وغور التفكير ونضج التحقيق ، ما يحتاج إليه أمثال هذه المواضيع التي لا تخلو عن صعوبة ودقة : وأضف إلى ذلك عدم تيسر الكتب التى تستنير منها أرجاؤها القاتمة ، وكانت طويتى ترقب ذلك الحين السعيد ، وترتجى ابتهاجاً ، وكانت نفسى تتمنى به دعواته المباركة الطيبة ، رجاء أن تهب على نسمات من قبوله ، ولكن ياللأسف ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ما كنت أدرى أن القدر المبرم لم يقدر لى ذلك الإبتهاج وتلك الفرصة المغتنمة ، التى طالما يودها القلب ويتمناها . وما كنت أدرى أن القضاء الإلهى قيض لى بذلك الحبور ، ألما بفراق الشيخ قبل تبييض الرسالة ألماً يتقطع له قلبى ، ويتفتت له كبدى ، ألماً لا تكاد تقاوم نفسى الجلدة حملته الشعواء ، ألماً تنبثق منه جفونى دموعاً سخينـة بل دماً نجيعاً ، وتذوب

نفسي منه حسرات ، يا للحزن الفادح ، ويا للرزيئة والفجيعة عزيز على نفسي أن تنعى إمامها وشيخها ، الذي اكتست حلل الحياة ، وحلى النور من مواهب رشحاته ، وعزيز على قلمي أن ينعى إلى العالم إمام العصر الذي انفجرت عيون ثرة من علومه برهة من الدهر ، ثم تغيض ولا تندى بقطرة من ماء .

سبحان الله الكبير ، طويت تلك الروح القدسية والنفس الذكية إلى عالم الغيب كبرق يطوى في مكامن السحب المتراكمة ، يا للرزء الجليل والخطب الفادح ، ذهب المثل الأسمى لعلوم الشريعة ، والغاية القصوى من التحقيقات الرصينة التي طالما بقيت العقول فيها حيارى لا تهتدى إلى سبيل .

فارقت عنا تلك الشخصية الوحيدة في غرائزها وملكاتها ، من الورع والتقوى والزهد والكفاف والعفاف والصبر والرضا ، ذلك المثل الصحيح والمثل الحي لشمائل القدماء البارعين ، في سعة العلم ودقة النظر ، والحافظة الخارقة في القرن الحاضر ، ذلك المثال الكامل للوقار والرزانة والمتانة والرصانة ، ذلك المثال الصادق لأولياء الله الصفوة من عباده ، في صدق اللهجة والعفة والحياء وخشية الله جل ذكره .

فلم يكن موته أمراً هيناً ، بل كان أمراً جللاً وخطباً أدهى ، ثلمة في العلم ومآثر المجد والكمال لا يرجى سدادها .

وكل ثـلم فإن الدهر يجبره * وما لثلم مهيض العلم جبران

كان رحمه الله سليم القلب ، زكي النفس ، ذكي الطبع ، من أسرة معروفة في الفضل والكمال من بيت العلم والتقوى ، صلباً بعد صلب ، وبيتاً بعد بيت ، رزق طبيعة نزاعة إلى الخلوة والوحدة ، نفوراً عن التنويه بشأنه ومنزلته ، وبعد الفراغ من المبادئ والعلوم الضرورية ، تسنى له شيوخ ذوي علوم فياضة وأولى حقائق ناضجة . ورزق همة عالية في الغوص والخوض في المشكلات .

ونشاطاً فى الرقى إلى معارج العلم الرافيـة ، غير مقتنع بالأبحاث المطروقة ، فهكذا توفرت لـه الدواعى ، وتيسرت لـه الأسباب ، من شرف الأسرة ، وكمال البيئة ، وعلو الطبيعة ، وأتيحت له الفرصة وجرى بذلك القدر الأزلى فأصبح فذالأفذاذ ، وواحد الآحاد ، ما تسمح القرون بأمثاله إلا بعد أحقاب من الدهر طويلة . ألا فلتجمد العين إذا لم تدمع على مثله ، وألا فليتحجر القلب إذا لم يذب حزناً ممضاً على مثله ، فلتنقطع نفسى حزناً وألماً بدلاً مما كانت ترجو سروراً وابتهاجا على رغمها فقد خاب أملها ، وانقطع رجاؤها وأصبحت كما قال هو نفسه رحمه الله :

فقدت بـه قلبى وصبرى وحيلتى * ولم ألق إلا ريب دهر تصرما

فشخص عنى هذا العالم الكبير بل العالم الكبير الحائز لهذه المآثر الجليلة وأبقانا على ضرام الحسرة نذرف دموعا حارة لاستفثاء نار البرحاء .

ولكن هذه سنة الله القديمة خلت فى عباده ، فلا نقول إلا ما يرضى به ربنا تبارك وتعالى ، ونتأسى بما قاله رسول الله ﷺ ، فنقول : العين تدمع والقلب يحزن وإنا بفراقك يا شيخ لمحزونون ، فرحمه الله تعالى وأكرمه بنفحات أنسه ، وأفاض عليه شآبيب قدسه ، ونفعنا بعلومه وبركاته ، ولا يحرمنا أجر ما نلنا بوفاته هذا .

بشرى و رؤيا بوفاة الشيخ رحمه الله .

كان كتب إلى صديقنا الكريم مولانا محمد يوسف الكاملفورى ذلك الأديب البارع كتابا فى صفر سنة ١٣٥٦ هجرية ، وفيه :

"ذكر لى صديقى المولوى عبد الواحد بن أخى المولوى عبد العزيز :
أنه رأى فى بعض الليالى جنازة يشيعه المخلوق من كل جانب ، وتتبعها زمر ، فسعيت إليها مثل ما يسعى الناس إليها فسأل بعض من حضر :

من صاحب هذه الجنازة ؟ فقالوا : هى جنازة رسول الله ﷺ يحملها الناس على أعناقهم تشرفاً وتبركا ، فقلت : دعونى دعونى أحملها وأرى وجه صاحبها الميمون ، فوضعوها على الأرض ، فابتدرت إليها الناس ، فكشفت عن وجهه المبارك، فإذا هو وجه شيخنا الأنور ، رضى الله عنه .

والمولوى عبد الواحد عندى ثقة ثبت سليم دواعى الصدور اه" .

وفاة الشيخ و رثاء أفاضل العصر و أصحابه .

لما كانت داهيـــة وفاة الشيخ حادثة لا تقابل بالصموت ، وكيف ؟ وقد صدعت أكباداً وحركت أحشاءً من أصحابه وتلامذته ، ومن عداهم من أماثل العصر وأفاضله ، فزعزعتهم وأزعجتهم وأفاضت عيونهم ، وكيف لا ؟ وبعض الشر أفظع من بعض، فأبدوا عويلهم وحنينهم حزناً بفراقه واستيحاشا لفقد أنسه ، فبكوه و رثوه بقصائد رنانة بالعربية والفارسية والأردوية تزعج القلوب وتثير الأحزان ، فكانت تلك عبرات دمعت بها عيونهم ، وزفرات نفثت بها صدورهم ، عيون عرفت فذرفت ، وقلوب قدرت فزفرت ، لست أحاول أن أسرد جميع مراثيه المزعجة الحنانة ، وأنى تتيسر؟ فإنه أمر خطير يفتقر إلى جزء مفرز ، علا أن أكثرها قد شاعت فى الجرائد الهندية وذاعت ، غير أنى أذكر منها النزر القليل ما لم يفرغ فى قالب الطبع إلا اليسير ، تسليةً للأفئدة العميدة ، وإطفاءً لهيام الأكباد الملتهبـــة ، هذا مع أن استنكار هذا الصنيع مما يستنكره الطبائع السليمة ، بل يعافه الذوق الصحيح ، كيف ؟ وإن الأذواق الصحيحة العالية مولعة بأمثال هذه الفوائد العلمية واللطائف الأدبية ، وإنما وضعت رسالتى هذه لطلبة العلم وأصحاب الأدب والنهى ، فدع العوراء تخطؤك ، وذرهم وشأنهم ، فهم فى خوض يلعبون ، فخذها وأرح بها قلبك ،

ونفس بها عن كرب ضاق بها صدرك ، والله المستعان .

نتفة من لامية الرثاء: للمحدث الأديب الشيخ الورع الزاهد مولانا محمد ادريس الكاندهلوى صاحب "التعليق الصبيح على مشكوة المصابيح" وغيره ، من أصحاب الشيخ رحمه الله زادت معاليه .

سلام على حفظ الكتاب وسنة ... وحفظ وضبط بعد شيخ مبجل
أريد به نور الهداية أنوراً ... كبدر مبين فى دجى الليل أليل
فقد كان إعجازاً لدين نبينا ... كمثل البخارى أوكنحو ابن حنبل
وكان إماما حافظا ومحدثا ... إليه انتهى شد المطايا وأرحل
وقد كان فرداً حافظ العصر جامعا ... معارف أعلام الهدى والتفضل
بكى عالم الإسلام طراً وأعولاً ... لخطب جليل قد أناخ بمنزل
بكاه مقام الدرس والوعظ حاسراً ... بكته نواحى الأرض والفلك العلى
فقد كان رمحا سمهريا مثقفا ... لمثل مسيح القاديان المخبل
وأبيض هنديا لكل مسيلم ... وكل مناغ فى نبوة مرسل
توفيت يا رأس التقى وتركتنى ... لفقدك أرويه بدمع مسلسل
شرحت لنا الآثار إذ هى أشكلت ... وفسرت آيات الكتاب المفصل
وعطر أفق الأرض من عرفك الشذى ... يبارى شذاه روح مسك ومندل
عليك سلام الله يا قبر أنور ... ورحمته تترى كودق مجلجل
بفضلك يا مولى الورى قل لروحه ... أيا روح عبدى هذه الجنة أدخلى

مرثية : للفاضل الأديب والعالم الأريب مولانا السيد ميرك شاه الكشميرى دام مجده ، أستاذ "دار العلوم الديوبندية" سابقا .

سقى الله رمسا فيه بدر منور ... أضاءت به الآفاق إذ كان يزهر
من الديم المدرار ما ذر شارق ... عهاداً تروى غيثه ويخضر
قرارة بحر العلم أم رمس أنور ... قديس محيط القدس أم هو جوهر
وقد كان دهراً مشرق الأرض وجهها ... فراح يضيء بطن الثرى وينور
وأحيى قلوبا والمعارف بالحجى ... كاحياء وسمى رياضا تنضر
تغلغل فى أعماق ما لم يصل إلى ... سطوح له جهبيذ دهر يحبر
حسيب غريب طالعا طاب شرقه ... وتلفيه مهديا إذا ما يغور

١٢٩٢ ﻫ

كريم إذا ما زرته زرت زاخراً ... له در عرفان يموج ويندر
وراوية الآثار مسند قرنه ... وشيخ شيوخ القوم والأمر أظهر
مفسر آيات الكتاب مبينا ... بيانا وتبيانا يفوق ويبهر
محدث عصر ما أتى بمثيله ... وبحر خضم للعلوم ومصدر
عميق أنيق غائر لا ترى له ... شطوطا وغوراً وإنتهاء . يبصر
وإن جئته ترتاد نقل مسائل ... تجد موج بحر عبه قام يزخر
وإن جئته ترتاد حفظ رواية ... ترعك كنوز من حديث يترتر(١)
فى جانب أخبار ست وجانب ... أحاديث ما دون الصحاح يخبر
وفى جانب آثارهم وعلومهم ... رفى جانب أسماؤهم و تذاكر
يسمى لك الأسماء تسمية الذى ... رآهم وسماهم وصاحب ينظر
فيا ليتنى لم أستمع لنعيه ... ويا ليته لم تعتفره مقابر
فيا عين بكى شرق شمس وغربها ... وجودى بدمع سيله متواتر

(١) ترتر : اى اسرع فى الكلام . منه .

أبعد دفين بالمصلى يرى الورى | جبال علوم سؤلهم أين أنور
وحياك رب الناس يا خير مرقد | ضممت كريماً مجدة ليس ينكر
وأكرمك الرحمن يا خير وافد | على ذروة الغفران والرب غافر
قضيت أموراً كان صعباً منالها | فذلت لك الصعبات والصعب أيسر
فيا فخر هند ثم ديبند مرقداً | يباهى بك الكشمير ثمت نزور(١)
عليك سلام الله ما عاش عائش | وما دارت الأفلاك أو نار نير
ورحمته روى ضريحك خالداً | هتؤن به يهتز نجم وعبهر

نونية الرثاء: لصديقنا الفاضل المحترم الأديب البارع العالم الفارع مولانا محمد يوسف الكاملفورى دام فضله

خطب ألم فأسبلت أجفانى | و النائبات مثيرة أشجانى
خطب أجل أناخ من حدثان | بالمسلمين و ملة الإيمان
هم غواربه مقلقلة الحشا | ألقت على كوارث الحدثان
صمت به الآذان ثم تصدعت | أكبادهم بفوادح الأحزان
هم مقيم لا يزال أخو هوى | يعنى به إذ بالسهام رمانى
نزلت على الإسلام كل فجيعة | يخشى تتابعها كنثر جمان
فتن على فتن كليل مظلم | طرقت عليه ما لهن يدان
أمسى غريباً فى الديار كما بدا | من موت من هو حامل القرآن
من موت من قد كان أعلم عصره | شيخ الحديث وصاحب الإتقان
نبكى إمام الحق مولانا الذى | ورث النبى وعلمه الربانى
حكم يمانية فقدت معينها | لما قضى بالروح والريحان
مولى الأنام وغرة الأيام | وخلاصة الأعوام والأزمان

---

(١) مدفن جده بكشمير . منه .

أو كوكب يجلو بطلعته الدجى | أو شامة في وجنة الأكوان
ثقة وراوية وحبر ماهر | شيخ رصين العلم ذو الإحسان
عين معين للحديث وفقهه | رى الغليل سقاية العطشان
خير العشائر والأخائر أسوة | ذخر الذخائر مبتغى الإحسان
بحر البحار على عذوبة مائه | صدر الصدور ونخبة الأركان
من ذب عن دين النبي وحوزة الا | إسلام فرية مفتر ولسان
من ألف الأسفار في سبل الهدا | ية ناضحا عن أخير الأديان
دفع المطاعن حين جد مشمراً | عن خير دين نبيه العدنان
رضى الإله وأحمد مختاره | عنه بأوسع رحمة وحنان
تبكيه أرض والسماء كلاهما | بذهاب علم أكبر الحيوان
هو رحلة العلماء واللج الذى | لا ينتهى من كثرة العرفان
وله الفضائل والفواصل جمة | لا يرتجى إحصاؤها ببيان
بر و بحر مكارم و مآثر | لغرائب التنزيل كنز معان
وله أحاديث العلاء تواترت | سارت بها الركبان في البلدان
وإذا جرى فى سرد أخبار النبى | رأيته يسمو على سفيان
فى الجرح والتعديل والتحسين والتـ | ـضعيف قدرة أمة بزمان
وإذا تصدى للرجال ونقدهم | و لسرده الوفيات للأعيان
فكأنه شمس لدين أو عبا | حفاظ من هو صاحب الميزان
قاموس علم جامع لعبابه | ولبابه و صحاحه وحسان
سيح فسيح أو فسيح العلم فى | تأويل تنزيل وسبع مثان
بحر محيط أو محيط حقائق | وبدائع التفسير روح معان
وإذا تورط فى غمار تفقه | لبدا فقيه النفس كالنعمان
تخريجه تنقيحه تحقيقه | لمناط أحكام لدى التبيان

فى الزهد والتقوى فريد زمانه ولـه فتوحات جلت لعيان
رب المقامات العلية والكرا مات الجلية ذو رفيع مكان
وله العوارف و المعارف جمة صاف الضمير وكامل الإنسان
كم هكذا صدرت خوارق عادة عنه وجاحِدها من العميان
أسنى و أسمى لا يقدر كنهه لغةً وتحديثاً عن الأعيان
وبلاغةً وفصاحةً وجزالةً وصياغةً لقلائد العقيان
لولاه ما ظهر البديع ولاسيا شمس البيان على سماء معان
وإذا سمعت نشيده وقصيده لحسبته وشياً و عقد جمان
أربى على أهل الزمان مكانة ببديعه و بيانه ومعان
يدع الجواب فلا يراجع هيبة و السائلون نواكس الأذقان
وإذا رأيت على البخارى فتحه فكأنه ركن من الأركان
منح البخارى من مكارم بارئ أبهى من الياقوت و المرجان
من ذا له إرشاد سار بعده وطرائف أغلى من التيجان
ميمون وجه فى الأصائل والضحى حلو الشمائل كلها و لسان
فمضى ولم يخلف على آثاره فرداً يساميه على الأزمان
يا نفس إن العمر ظل زائل يفنى و من يغتر بالحدثان
قد جاءكم من ربكم ببصائر تهدى لمن كانت له أذنان
فمضى كما ذهبت غوادى مزنة تسقى الحدائق دائم الفيضان
فالله يجزيه بأحسن ما جزى أهل الحديث وحاملى القرآن
وارحم على أخلافه بعزاءهم واحفظهم فى كل شأن شان
بلغهم رتب الكرام فإنهم أبناء صدق للأب المحسان
أنت الرقيب عليهم من بعده وارزقه فى الفردوس خير مغان
جنات عدن قد جرى من تحتهاا أنهار من عسل ومن ألبان

واجعله يرتع فى حظائر قدسه ونعيمه وجنانه ومجان
واسلكه يا ذا الجود والإحسان ملأً من الأعلى بحسن تهان
الله وفقنا التأسى بعده لمسالك الإحسان والإيقان
والحمد لله الذى لا منتهى لخلوده والغير فانٍ فان

انتهت مرثيته الرنانة وقصيدته الطنانة المحركة للأحشاء بكلمات كلها درر غرر ، جزاه الله خيراً .

أبيات: من مرثية مولانا الطبيب محمد يامين الفاضل، أحد أساتذة الجامعة الإسلامية بدابيل دام كرمه .

خطب ألم على القلوب كبير منه الكبود تصدعت وصدور
يا حسرتى مات الذى من موته متنا وأظلمت البلاد ودور
جلت رزيتنا بفقد إمامنا اليوم يوم للأناس عسير
هيهات أنورنا وحجة ربنا ريب الزمان ينوبنا ويدور
بحر العلوم حقائقا ومعارفا بوجوده افتخر الورى ودهور
كم معضلات غاية فيها بدا حل شفا منها النفوس جدير
وأراه رمس ثم ضم عظامه ترب يفوح شذا هنا وينور

قصيدتان للجامع فى مرثية الشيخ رحمه الله .

كنت قد نظمت شيئاً من عبراتى فى رثاء الشيخ ولم يكن مما يهدى إلى المعارف، إذ لم أكد آمن فيهما من الإلحان والعيوب الشعرية ، بيد أن جهد المقل دموعه ودمعة من عوراء غنيمة باردة، فلا أرى بأساً فى إيرادهما بحذف أبيات منهما، وإنما هى عبرات أتحف بها الأصدقاء ، ورجائى عنهم الإصلاح والإغضاء ، والله الموفق .

نونية من البسيط

العين ذارفة والقلب حيران   والطير تشدو فتبدو منه أشجان
الشمس كاسفة والأرض مظلمة   والمزن تبكى فسالت منه بلدان
وفى السماء ضجيج بالعويل بدا   حتى بكت منه أطلال وعمران
وللبحار حنين بالخرير بدا   و للثلوج لذا ذوب و سيلان
وللهواء أنين بالصرير جرى   وفى الجبال حراقات ونيران
وللسحاب أزيز حين رعدته   وللقدور لذا غلى وفوران
خطب ألم على الإسلام مكتنفا   تزلزلت منه أطواد وأركان
خطب وقد صدع الأكباد من شجن   فما عزاء ولا صبر و سلوان
بلية فجعت رزية وقعت   من حملها عييت شيب وشبان
وللحوادث سلوان يسهلها   وما لما حل بالإسلام سلوان
قضى الحياة إمام القوم مرجعهم   شيخ الحديث فقيه النفس سفيان
بحر البحور و شمس المجد مسندهم   فيما روى من حديث العلم إخوان
حبر ورحلة أعلام وحجتهم   فيما سرى بحديث الفضل ركبان
شيخ الشيوخ إمام العصر عمدتهم   الشاه أنور نور الله برهان
شمس الورى فيلسوف الشرق قدوتهم   رأس الخيار غنى النفس سلطان
بحر محيط لمغزى كل معضلة   من حوله لرحى الأعلام جولان
إذ ظل يكشف من فقه الحديث لنا   تحيرت مستنطقا هذا لنعان
شق الجبال وغاص البحر فى لجج   فشاع در وياقوت ومرجان
كانت يواقيته ذخراً لمعتبر   و للرشاد أكاليل و تيجان
وفى الزمان شيوخ لا عداد لهم   لكنه لعيون العلم إنسان
ما كل ماء كصداء لوارده   نعم ولا كل مرعى فهو سعدان

بحر خضم بأرض غاض من عجب ... فى حفرة من ثرى والكل حيران
حمى المعالم خصب مدة وجرت ... أنهار عرفانه واليوم قيعان
سارت جنازته والقوم فى جزع ... والعين ذارفة والقلب ولهان
من بالحديث ومغزى الفقه مطلع ... من للحقائق والأسرار صوان(١)
وكل ثلم فإن الدهر يجبره ... وما لثلم مهيض العلم جبران
لو لقبوا الأرض لم يوجد له شبه ... من مثله بصراء القوم عميان
تبكيه جامعة الإسلام من قلق ... كما بكى، لفراق الألف هيمان
دع الفؤاد عن الدنيا وزينتها ... فصفوها كدر والوصل هجران
وابرد حشاك بعبرات فتذرفها ... فبحر دمعك ذخار وملآن
أطفأ سعير سواد القلب مصطبراً ... ففى الدموع له صبر وسلوان
يا رب أنزل عليه صوب غادية ... متى تغرد فى الأشجار كعتان
وعل مفجعه من مزن مرحمة ... متى تميس على القامات أغصان
واجعله يرتع فى الجنات عالية ... حتى تيسر إرضاء ورضوان

وأيضاً قلت من الوافر :

ألا قد أسبلت سدل التوارى ... بشمس والنجوم مع النهار
ألا قد أدميت أكباد أنس ... وجن فالملائك بالجهار
ألا قد زلزلت أطواد علم ... وتقوى ثم زهد والوقار
ألا قد أجدبت روضات علم ... وغاضت أبحر الديم الغزار
وقد يتمت أولو علم وفضل ... ومات ملاذهم رأس الخيار
بكت أرض سماء ثم إنس ... وجن فالسحائب بالقطار
ويتبعها بتغريد مهيج ... هدير من هزارا وقمار
فنوح أو بكاء أو عويل ... بأقطار العوالم ثم سار

(١) او : من فهمه لخفايا العلم ميزان .

دموع هامرات أو دماء … تسيل من المآقى كالدرارى
ألا إن الإمام إمام دين … دعاه الله فى خير الجوار
قضى نحباً وفاظ مستريحاً … وودع فى القلوب جذاء نار
أصيب المسلمون اليوم طراً … بداهيـــة أجل بلا تمار
ألا قدما حوادث قد ألمت … وجلت هذه كل الكبار
وكان الشيخ أنور نور رب … أضاء القفر منه والبرارى
فشمس للمعارف و العلوم … ونور فى العوالم منه سار
إمام حجـــة الله بأرض … وحافظ عصره شيخ الديار
همام بارع الأعلام ثبت … فقيه النفس من غير التمارى
نبيه جل فى الأقطار قدراً … أمين كان مقبول الخيار
وجيه شاع فى الآفاق صيتاً … فكوثر علمه بالخير جار
إمام قد تفرد فى المعالى … وعمدة قارئ إرشاد سار
تلاطم بحره شرقاً وغرباً … فبسط علمه من فتح بار
ورحلة عصره من كل قطر … ملاذ للكبار و للصغار
إليه المنتهى فى كل علم … وراوية الحديث فلا تمار
فقيه قد تضلع من علوم … فنقبها بعمق فى المجارى
إليه المنتهى فى كل صعب … دقيق مشكل عند الكبار
وأحيي السنة البيضاء درساً … وأجلى نهجه عند اعتكار
وقد كانت سعادته بحق … تبدى فى الحديث لدى ادكار
وإلا كان نحريراً وحبراً … وغواصاً سبوحاً فى البحار
وحيد فى الحقائق والمزايا … فريد فى القرون على اشتهار

إمام أمة فى الأرض حقاً ... وغيث المستغيث لدى افتقار
إمام جهبذ عـــلم منير(١) ... وطود راسخ جبل الوقار
له فى الدرس آيات عظام ... كبيرات رفيعات المنار
أديب فى لسان الضاد فرد ... له نظم ونثر كالدرارى
مجلى السابقين فما يجارى ... كبير عن كبير عن كبار
وجدنا قوله فى قطب عصر(٢) ... يحق عليه من غير المارى
متى ما جئت تستسقيه قطراً ... تجد بحراً يطم على البحار
طلبنا عمقـــه لكن ضللنا ... فأقصى البحر لا يدريه دار
رئيس الزاهدين فضيل عصر ... و شبلى و معروف الديار
غنى النفس ذو نفس صبور ... على اللاواء من عظم اصطبار
تهلل وجهه كالبدر نوراً ... وكان النور منه فى انحدار
لقد جلت معاليه وعزت ... فبحر واسع عند الحصار
فعلم ثم تقوى ثم زهد ... مآثر زينت شرف النجار
به قد كانت الدنيا تباهى ... به كانت تبارز فى الفخار
به قد كان فضل الهند حقاً ... على عرب وأعجام الديار
فتذرف مقلتى فى أثر شيخ ... تباينت البلاد بـــه لزار
وفاضت أدمعى من ذكر شيخى ... فتطفى ما بقلبى من أوار
وقد كنـــا تمتعنـــا زماناً ... فأوجعنا بذا من حكم بارى
فذب يا قلب لا تك فى جهود ... وزد يا دمع لا تك فى انتظار
بقينا بعد رحلته حيارى ... كضب فى المفازة غير دار

(١) او : امام حافظ ثقة نبيل .
(٢) اشارة الى حجة الاسلام قاسم العلوم و الخيرات مولانا الشيخ محمد قاسم النانوتوى الديوبندى ، مؤسس دار العلوم الديوبنديه بالهند ، قدس الله سره . منه .

لقد فاح البلاد بنشر عرفه   بعرف فاق طيباً من عرار
لقد طاب البلاد بنفح روحه   ومن أنفاسه ضاع البرارى
فمن للمشكلات بكل علم   و من للترمذى و للبخارى
فقوم صدعوا الأكباد وجداً   وتسمح عين قوم بانهمار
أبى قلب العميد سلو حزنه   بتذراف الهوامع بالغذار
ولما قد نعيت بموت شيخى   فطار النوم من ورى الشرار
وسرت إليه من بلدى حثيثاً(١)   حزيناً هائماً شط الديار
فكنت أظن زور القبر يشفى   ولكن زدت وجداً بالمزار
إلهى منك أسأل برد صدرى   وأجراً وافياً عند اصطبار
و اللهم أنزل فوق قبره   عهاداً بالغوادى والسوارى
واللهم أكرم روح شيخى   برحم واسع فى الأرض سار
ونعمه بفضل وارض عنه   ففيض منك فى الأقطار جار
وجامله وعامله بفضل   وأسكنه لديك فى جوار
ونور قبره من نور قدس   وتجعل داره من خير دار
إلى ما فاض دمع من عيون   وماتهوى القلوب هوى ازديار
ووفق ولده سيراً بهديه   وبلغهم إلى رتب كبار
إلهى قد دعوتك جوف ليل   بصدق ثم قلب مستطار
أجبنى دعوتى بقبول سؤلى   فسؤل منك محمى الذمار
ملاذى ملجئى مولاى ربى   فأرجو منك سؤلى أنت بارى
طلبت العام من فكرى لفوظه   فناجتنى القرونة بالبدار
إمام شيخ عصر للأنام   وشيخ العارفين بلاامتار

١٣٥٢ هـ   ١٣٥٢ هـ

(١) اشارة الى ذهابى من بشاور الى ديوبند عند نعيه رحمه الله . منه .

هذا، وصلى الله على نبي القبلتين ورسول الثقلين سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه المتأدبين بآدابه .

ختام الرسالة ومعذرة للجامع .

لله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وله الشكر كما يليق بعظيم نعمائه وعميم إحسانه ، على ما وفقني لإتمام هذه الرسالة المحتوية على لمع من هدى الشيخ الإمام العارف إمام هذا العصر وقريع هذا الدهر ، مولانا وشيخنا الشاه محمد أنور الكشميري ثم الديوبندي ، أفاض الله عليه سجال رحمته ورضوانه، وما عسيت أن أنتهض بأعبائها، فإني امرؤ ذو بضاعة مزجاة، حسير الفكر والنظر ، ليس عندي من العلم والمعرفة ثاغية ولا راغية ، ولا من فهم الحقائق سبد ولا لبد ، فكنت أبصر بوسم قدحي ، ومع هذا كنت مشغول البال بالفضول ، غير محتفل بضياع الساعات القيمة والآونة السنية ، وفوق هذا ما كنت مطوق العنق بأغلال الدرس ، وإن ضبط شئون حياة رجل عظيم مثل هذا الإمام كان أمراً خطيراً يقتضى فراغ القلب واتساع الوقت وجودة الطبع وغزارة العلم ومزاولة ريضة وفكرة صائبة، فأنى يسهل ذلك مع خواء الوطاب والجراب ، وكيف تجاب المهامه الفيح بنضى وطليح؟ فكنت أحجم عن هذه المهمة علماً مني بأن لست من أحلاسها، وأنى يسهل على مراسها؟ وموقنا بأن ليس هذا مدرجى، والمثل: "ليس هذا عشك فادرجى"، فكنت أرتقب وأتمنى أن لو قام لها أحد غيري فيرتب هديه وشئون حياته الطيبة من أفاضل أصحابه ، وكيف ؟ وقد قيل : لايدعى للجلى إلا أخوها ، فتلكأت عن الأمر برهة وشمت برقاً ألق ببشارة تأليف سيرته عن بعض فضلاء أصحابه ، فترقبته ترقب الهيمان إلى العذب السائغ ، ولكن أخلفت البارقة، وكان كما قال الشيخ رحمه الله تعالى :

وقد طالما شمنا بروقاً تألقت * فما كان إلا أبرق ثم ارعدى

وكان يزيد غرامى بتقييد شوارد خصائصه كل حين حرصاً على تجلية حياته الجلية سافر المحيا إلى إخواننا القاطنين فى البلاد الإسلامية العربية المشغوفين بالفوائد العلمية والمولعين بإنشاء أواصر الأخوة والمعرفة مع إخوانهم الهنديين، فإن الشيخ رحمه الله لفرط إيثاره الخمول وفقدان مؤلفات معتداً بها مما يكون مطبوعا فى البلاد العربية صار أمره فى خفاء على كثير من حملة العلم بتلك البلاد ، وأما فى البلاد الهندية فلا تسأل ، فشمس فى كبد السماء أو بدر فى الليلة الظلماء .

فبقيت فى حيرة حتى عيل الصبر وضاق الصدر ، وأشار بعض المعارف إلى تصوير حياته فى جزء وسيط وحيا الله المعارف ، فانتهضت له مستعينا بالله منتهزاً للفرصة ، فإن الأمر يعرض دونه الأمر ، ولا تكلف نفس إلا وسعها ، فبت عزمى عليه ، وفى المثل السائر فى الديار : "الجحش لما بذك الأعيار" فحررت فى فرص مختلسة ومجالس متفرقة من ربيع الآخر والجمادين ، ثم بعد فترة فى ساعات منتهزة من ذى العقدة وذى الحجة من سنة ١٣٥٤ هجرية ما تيسر لى بنوع ارتجال من غير سبق تسويد لكثير من المباحث بما يبلغ النصف فصاعداً ، نعم استمريت أخلاف القريحة فى كثير من المواضع ، فبثثت ما فى الوعاء ونفضت ما فى الوطاب والوطاء فى هذه الصفحات مما استطعته فى تلك البرهة ، ولو تأنيت فى تحصين العمل وتحسينه ، وما ونيت فى تانيقه وترصينه ، لبدت الرسالة زاهية فى حلة الجمال ناصعة الجبين إن شاء الله تعالى . وكيف لا ؟ ومن تأنى أدرك ما تمنى ، والعجلة فرصة العجزة ، وليس المتعلق كالمتأنق ، ولكن مع هذا فقد أفرغت المجهود لنيل المقصود ، وخذ من الرضفة ما عليها ، وقد قال ربنا عز وجل : (وإن لم يصبها وابل فطل) وسيقدرها من أوتى حظاً من العلم

وأعطى نصيباً من الفهم، وعسى البارقة لاتخاف إن شاء الله تعالى، ولا أحتفل بمن ليس فى العير ولا فى النفير ، ومن ليس عنده من العلم والنصفة نتفة ولا فرصة ، ولا أكاد أخاص من تنديد وتشنيع، فالحاسد يأكله بضرس ويطؤه بظلف، فليحرق على الأرم. وقد جرى مثل يجرى بليق ويذم، وقولهم: يوكل شعير ويذم، على أنه لا تعدم الحسناء ذاماً ، فدعه وشأنه وما زانه وما شأنه، والله ولى الأمور .

هذا وقد أنفدت الوسع فى إفصاح هديه وهداه والإقتناع بمغزاه ومرماه بحيث لو تأمله البصير بعين بصيرته الساطعة لأصبح لديه هديه إن شاء الله أبين من فلق الصبح وفرق الصديع، ولعده غنيمة باردة من أمثالى من لم يخض فى هذا الوادى ولم تسرح راحلته فى هذا المرتع، ولم يضمر جواده فى هذا المضمار، مع أن لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ، ولله در القائل:

تأن ولا تعجل بلومك صاحبا * لعل لـه عـذراً و أنت تلوم

ثم إنى جميع ما حكيته ورويته وصورته وحبرته كل ذلك عندى صحيح لايتخطاه الحق إن شاء الله ، خرج من صميم قلبى لا يشوبه رياء ولا اطراء ، والله على ما نقول وكيل ، وإذاً أنشد متمثلاً قول المجد اللغوى فى العارف الطائى الأندلسى أكبر عرفاء المغاربة الشيخ الأكبر محى الدين ابن العربى قدس سره السامى :

وما على إذا ما قلت معتقدى　　دع الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله العظيم ومن　　اقامه حجة للدين برهانا
إن الذى قلت بعض من مناقبه　　ما زدت إلا لعلى زدت نقصانا

ولله در الشيخ الأكبر حيث قال هو نفسه :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده * ولا الصبابة إلا من يعانيها

وقد أبقيت بعد مجالاً لمن بعدى ومساغاً لمن يزيد فى تحرير سيرته من جهات شتى ، وأما أنا فقد قنعت بالأهم وعنيت ما كان عندى أعنى ، فمن شاء فليقل ومن شاء فليكثر ، فقد انتهجت لهم محجة واتخذت لهم بنياناً ، وإن الموضوع خير كله إن شاء الله :

مدحتك جهدى بالذى أنت أهله   فقصر عما فيك من صالح جهدى
فما كل ما فيـــه من الخير قلتـــه   ولا كل ما فيه يقول الذى بعدى

وقال :

إيه أحاديث نعمان وساكنه   إن الحديث عن الأحباب أسمار
أفتش الريح عنكم كلما نفحت   من نحو أرضكم نكباء معطار

وقال آخر :

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم   تحن إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه   كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وقال بعضهم :

كرالحديث عن ليلى إذا بعدت   إن الأحاديث عن ليلى لتلهينى

وقال آخر :

وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى   جنوناً فزد لى من حديثك يا سعد

كيف لا ؟ وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ، ولله در العارف الشهاب السهروردى قدس سره حيث قال :

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها   لما دروا أن السماح رباح
ودعاهم داعى الحقائق دعوة   فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على متن الوفا ودموعهم   بحر وشدة شوقهـم ملاح

لا يطربون بغير ذكر حبيبهم أبـداً فكل زمانهم أفراح
حضروا وقدغابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لمـا رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبـه بالكـرام فلاح

ثم إن جبيني ليتفصد عرقاً من الحياء بأن أعتزى نفسي إلى صحبة الشيخ وإلى التلمذة عليه والإستفادة عنه ، فإني رجل غض العمر ورث الفكر قليل الصحبة قليل الإستفادة ، تشرفت أياماً بدروسه العالية ثم المزاملة والملازمـة معه عدة شهور عند ابتلائه بوصب ونصب، وكأنها أيام ومضت بين الصحوة والسكر، كأنها أحلام لم أوفق لاستخراج الدر من أصدافـه والإغتراف من بحاره، وفوق ذلك قلة البضاعة وفقدان السواد، فليس عندى نقير ولا قطمير، فكيف أحد و بغير بعير؟ علا أني أنادى على رؤس المنائر أنـه لم يبد في أصحابه ومستفيديه ما يكون دليلاً على روائع خصائصه ، فإن الشيخ رحمه الله قد تجلى وتحلى ببينات زاهرات تقاصرت عنها خطى أصحابـه وتخاذلت دون غايتها طبائع المتحصلين ، بل قطعت دونها مطامع المتنافسين، فكلت وراءها الأنظار وونت الهمم وحسرت الأبصار ، ومعاصروه المحققون فضلاء العصر ما بلغوا معشار ما آتاه الله من فضله من المزايا الرائعة والخلال البارعة، وهذا أشهر من نار على علم عند من سابر غوره وأجلى من النهار .

وليس يصح في الافهام شئ * إذا احتاج النهار إلى دليل

فكيف أمثالي ونظرائي ؟ نعم لا أحط عن قدر فضلاء أصحابه وأذكياء تلامذته ، فإنهم على علم وقفوا وببصر نافذ قد كفوا ، ولكن لا ينجلي في هذه المرائي محيا الشيخ مسفراً لائحاً لمن أراد المقايسة أو حاول الاعتبار، وأني يلتقي السهيل السها ؟ وكم بين الثريا والثرى ! وفي الجملة خصائصـه المتوافرة

الحيرة وقصور استعدادنا أصبح منشأ للاخفاق والحرمان، ولعله لم تنعقد بذلك المشيئة الأزلية الإلهية ، فكان قدراً مقدوراً وأمراً مفعولاً ، ولا يقدح فى شأنه رحمه الله وأعلى قدره ، فكم من رسل الله وهم رسل ، وكم من أنبياء الله وهم أنبياء، نصحوا لله وبلغوا إلى الأمم ما بعثوا به واستدعوا إجابتهم ، فكثير منهم لم يجيبوا دعوتهم ولم يقبلوا هداهم ، فمن نبى ترى له يوم القيامة تابعاً ، ومن نبى له تابعين ، فهل من مريب فى علو درجاتهم وبلوغ نفوسهم القدسيـــة إلى غاية ليست وراءها غاية ، حاش لله ، هم أنبياء الله وأمناءه فى عباده ، وعلى ذلك جرت سنة الله الأزليـة ، أين أنت من قول الله عز وجل: **(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)** رجل رفع قدره بإشاعة صيته فى أرجاء الساهرة فأحبه ، ووضع له القبول فى الأرض ، وآخر أخمل ذكره فارتفع أمره ، فرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره . ونبى لم يشبع من خبز وزيت فى يوم مرتين ، ونبى بسط الله لــه فى الملك والمال ينفق منه كيف يشاء . حكم إلهية قصرت عنها أعناق الفحول ، وأسرار ربانية سجدت لها جباه الأفكار وحسرت دون غايتها لطائف العقول :

رتب تقصر الأمانى حسراً * دونها ما وراءهن وراء

بيد أنى لا أكفر ما للشيخ على من منن جليلة أرهنت فؤادى مادمت حياً، وغلقت لهـــا نفسى وأنفاسى ما بقيت على الأرض ، فإنما الشيخ هو الذى أخرجنا من الظلمات إلى النور ، وبه اكتحلت عيوننا البصيرة و البصارة ، وهو الذى أتانا بمصباح يضيء السبل لمن اهتدى ، فبه علمنا ما علمنا ، وبه عرفنا ما عرفنا . فجميع ما عندى وعند أكثر أصحابه من الرواء والرواء من ذلك المنهل السائغ والنمير البارد، وهو الذى جدد لنا أثراً طامساً عفته عواصف

الأزمان ورواعد الأيام، بل ابتكر طريقة عذراء وانتهج محجة بيضاء لم تطرقها الأقدام ولم تلحقها الأفهام ، واستحث الخواطر الحاسرة والهمم المتقاعدة عن المعاناة ، بل أحيي العزائم الميتة ، فزاد الله أجور ذلك الإمام نابغـة الأيام ، وشكر مساعيـــه على تعاقب الشهور والأعوام ، وكيف نكفر أياديه البيض الخالدات ، ومآثره البينات ؟ ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، نعم كل يحتطب في حبله، ولكن لاتسع البحر الحوابى ، وقد صدعت بذلك فى أضعاف أبحاث العجالة ، فحاشانا أن نبوح بما يوهم من كفران نعمته الساطعة وأيامى القايلة فى أنفاسه الجليلة أفضلها على أعوام كثيرة عند غيره، فأيامى هى أعوام وأوانى هى أزمان ونفحات من صحبته حياة لروحى وأنفاس من نفثاته تشفى غليل فؤادى وإن لله فى أيام دهره نفحات ، ألا فتعرضوا لها، والله ولى التوفيق والهادى إلى سواء الطريق .

ولنجعل ختام المقالة فى خاتمة العجالة ما رواه أبوداؤد فى "سننه" عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : «كلمات لايتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ، ولايقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ، ولمناسبة أيام الحج أدعو الله تعالى بالتلبية فأقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك" .

وأنا الأحقر **محمد يوسف**، بن السيد محمد زكريا، بن السيد مزمل شاه ، بن السيد المير أحمد شاه ، بن السيد المير موسى ، بن السيد غلام حبيب، بن السيد رحمة الله، بن السيد يحيى ، بن السيد

محمد أوليا (١) ، بن العارف المحقق السيد آدم ، بن اسماعيل البنوری المدنی(٢) المتوفی سنة ١٠٥٣هجرية قدس سره، خادم الطلبة بمدرسة "تعليم الدين" المدعوة اليوم بـ"الجامعة الإسلامية" الواقعة بقرية دابيل، سملك فی مديرية "سورت" من كورة كجرات الهند، عفا الله عنه وعافاه ، وجعل آخرته خيراً من أولاه .

---

(١) هو اكبر ابناء الشيخ السيد آدم البنوری، وللشيخ غيره ثلاثة ابناء . منه .

(٢) ينتهی نسب الشيخ قدس الله سره و قدسنا بسره الی سيدنا حسين بن سيدنا علی ابن ابی طالب القرشی الهاشمی وابن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت امام الخير و قائد الخير ورسول الرحمة سيدنا و مولانا محمد صلی الله عليه وعلی آله وصحبه و تبعه ، و قد ساق الشيخ نسبه الی سيدنا موسی الكاظم فی كتابه "نكات الاسرار" و للسيد موسی الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا زين العابدين بن علی بن سيدنا الحسين بن سيدنا علی المرتضی خليفة رسول الله صلی الله عليه وسلم بن السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء اهل الجنة بضعة سيد المرسلين و خاتم النبيين محمد صلی الله عليه وبارک وسلم وعلی ازواجه الطاهرات امهات المؤمنين وذريته المباركين وعترته الطيبين الطاهرين وعلی جميع اصحابه اجمعين الی يوم الدين .

والشيخ البنوری كان من اكمل خلفاء القطب الربانی الامام المجدد للالف الثانی الشيخ احمد السرهندی واجلهم . قال الرخاوی فی مناقب النقشبنديه : كان اذا توجه للمريد بل اذا لقنه الذكر يوصله الی فناء القلب ، ولقد قبله الحق تعالی اعطاه طريقة جديدة تسمی الاحسنية ، فهدی الله به اكثر من الف الف وتكمل علی يده الف خليفة ، وبشر بلواء اخضر يوم القيامة يستظل بظله من توسل به و يغفر الله له ، و لما قدم المدينة المنورة وسلم علی جده فخر الامم صلی الله عليه و سلم سمع منه رد السلام و مد اليه يده المقدسة وصافحه ، وقال : يا ولدی كن فی جواری ، فبقی فی المدينة حتی لقی ربه اه . وللشيخ قدس سره مؤلفات غامضة فی الحقائق العالية و المعارف اللطيفة ، مثل " نكات الاسرار " و " خلاصة المعارف " كلاهما بالفارسية و غيرهما ، وكان الامام القطب الربانی الشيخ السرهندی كان يثنی علی معارفه بل كان يتعجب منه ، و ذكر الشيخ قدس سره فی " نكات الاسرار " ما ترجمته الی العربية : انه قال لی الامام الربانی يوماً

يوم الثلاثاء يوم التروية من ذى الحجة الحرام من سنة أربع وخمسين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام وتحية .

فى خلوته : ان المعارف التى تصدع بها لا يكاد يفهمها احد من العرفاء فعليك ان تشكر الله شكراً كثيراً ، فقلت : هذا كله من نفحات صحبتكم الشريفة و بركات توجهاتكم العالية ، فقال : لا بل من علو استعدادك الفطرى ، فقلت : وكيف ما كان فظهور استعدادى كان منوطاً بصحبتكم و توجهاتكم ، هذا حال الشيخ العارف البنورى وكان امياً لم يقرأ غير القرآن شيئاً ، بيد ان الله تعالى فتح عليه ابواب علومه و معارفه ، و قد حكى فى نكاته بدائع و طرفاً من احواله .

والبنورى نسبة الى "البنور" كصبور ، بتقديم الموحدة التحتانية بالتخفيف كما هو المعروف ، او بالتشديد كما فى "شفاء العليل شرح القول الجميل" للشاه ولى الله الدهلوى ، قرية من قرى فنجاب ، كان مثوى الشيخ قبل هجرته الى الحرمين ، زادهما الله احتراماً . و للشيخ محمد امين البدخشى ثم المكى مؤلفان فى مناقب العارف البنورى رضى الله عنه وارضاه و وفقنا الله الاقتداء بهديه وهداه ، احدهما : "نتائج الحرمين" والثانى : "التذكرة الادمية" و كلاهما مخطوط . منه .

زيادة و تكملة

بعد تأليفى " نفحة العنبر" كنت أكتب بين حين وآخر شيئاً من ترجمة شيخنا الإمام إمام العصر رحمه الله ، فكتبت بعد سنتين من تأليف " نفحة العنبر" نبذاً من ترجمته فى " يتيمة البيان" مقدمة " مشكلات القرآن" قبل ثلاث وثلاثين سنة ، ثم بعده بنحو سنة فى مقدمة " فيض البارى" من أماليه على " صحيح البخارى" ، وفصلت القول فى بعض نواح من حياته الطيبة ، وعدة خصائص من سيرته الطاهرة ، ثم بعد برهة من الدهر غير قصيرة بعد تأليف " نفحة العنبر" بنحو ربع قرن قدمت لكتابه "عقيدة الإسلام" تقدمة ، فكتبت فيها ترجمته وأشياء من حياته الطاهرة .

وفى كل أشياء لاتوجد فى آخر ، فرغبت أن أذكرها جميعا بترتيب التأليف حتى يتسنى صورة صحيحة من حياته وخصائصه ، وافية بالغرض ، شافية لغلة الباحث الظمآن مع زيادة عدة فوائد من أبحاثه الفقهية والحديثية حتى تنجلى محاسن محياه الجميل للناظر المشتاق لنسيمة العليل .

والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله على صفوة نبى عدنان ونبى قحطان ، نبى الإنس والجان ، سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين .

التكملة الأولى .

قلت فى " يتيمة البيان " :

لمعة من ترجمة إمام العصر الشيخ المحدث محمد أنورشاه الكشميرى
صاحب " مشكلات القرآن " قدس الله سره

حياته الجميلة ، نشاته و تحصيل علمه ،
و وصوله الى ديوبند ، و حج بيت الله ،
و رجوعه الى الوطن ، ثم تدريسه بديوبند ،
و تركه ديوبند ورحيله الى قرية دابهيل ،
ثم وفاته .

هو : إمام العصر ، مسند الوقت ، الجهبذ الكبير ، الشيخ العلامة محمد أنورشاه ، بن معظم شاه بن الشاه عبد الكبير الكشميرى ثم الديوبندى ، كريم المحتد ، طيب الأرومة ، ينتهى نسبه السامى إلى العارف الشيخ مسعود النرورى الكشميرى ، جاء سلفه من بغداد فدخلوا بلدة " لاهور " بالهند ثم " ملتان " ، ثم استوطنوا " كشمير " . ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢٩٢ (اثنتين وتسعين بعد الألف والمائتين) من الهجرة ، بقرية " ودوان " (بالواوين الأولى منهما مضمومة بينهما دال مهملة ، على زنة لبنان) من مضافات كشمير . نشأ فى صلاح فطرى ، تبرق غضون النجابة وأسرة السعادة فى جبينه ، وتفرس فيه بعض العارفين وأهل الباطن أنه عسى أن يكون له شأن ، وأخذ فى القراءة وهو ابن أربع سنين ، وفرغ من التنزيل وكتب الفارسية ومبادئ العلوم العربية على والده وعلى بعض علماء بلده وهو ابن عشر حجج ، وبشر بعض من أحسن ذكاؤه وحدسه من أهل الفراسة الإياسية : بأنه سيكون غزالى عصره

ورازى دهره ، ثم رحل بعد برهة إلى بقاع " هزاره " ومكث بها ثلاث سنين فى أرجائها ، عاكفاً على تحصيل العلوم المتداولة من كتب المنطق والفلسفة والهيئة وغيرها على أساتذة الفن ، بيد أن غليله يزداد كل يوم ، ولم يقتصر على ذلك القدر حتى وصل إلى ساحة دار العلوم الديوبندية ، ذلك المعهد التاريخى العلمى والجامعة العربية الدينية ، وناهيك بها شمساً فى سماء الهند ، فقرأ كتب الحديث وشيئاً من غيرها على رحلة العصر ومسنده وغرة زمانه شيخ العالم مولانا محمود الحسن الديوبندى، رحمه الله المعروف بشيخ الهند ، وعلى المحدث الفاضل الشيخ محمد اسحاق الكشميرى ثم المدنى ، حتى ترعرع حبراً فاضلاً وهو ابن ست عشرة حجة ، فذهب إلى بلدة " دهلى " عاصمة الهند ، ومكث عدة شهور يدرس الكتب من فنون شتى ، فلم يلبث إلا وقد طار صيته ، ثم أسس مدرسة عربية بإلحاح بعض رفقائه وإسعاد بعض أهل الخير والثروة ، وسماها : " مدرسة أمينية " بإسم رفيقه المولوى محمد أمين المرحوم ، ولما بسقت فروعها أغراه الحنين إلى زيارة والده المحترم ، وانتقلت والدته المرحومة فى ذلك العهد إلى جوار ربها ، فاشتاق الحضور على قبرها ، فذهب إلى مألفه كشمير ، وأقام بها ثلاث سنوات ، فأسس مدرسة دينية سماها : " الفيض العام " ، وسعى فى تلك البرهة فى إصلاح كثير مما راج هناك من البدع والرسوم المحدثة ، فرأب الله به الثأى وشعب الصدع ، ثم اشتاق زيارة بيت الله جل ذكره وحرم رسول الله ﷺ ، فوفقه الله تعالى إلى زيارتهما ، وثوى شهوراً يروى غليله ، ثم رجع إلى وطنه طاوياً فى ضميره المعاودة بعزم الهجرة إلى المدينة ، فمكث غير بعيد حتى شغف فؤاده بما كان نواه حتى أزعج خاطره ، فأخذ عصا التيار ، ووصل إلى ديوبند إلى لقاء شيخه المحمود رحمه الله ، وأنبأه بما نوى ، فأمره الشيخ رحمه الله بفسخ العزم ، وأبرم عليه الإقامة بديوبند لما تفرس فيه من مخائل الفيض والبركة وآثار

النجابة والكرامة ، وكان العود إلى مباركه مبارك ، وفوض إليه درس عدة كتب من الصحاح الستة ، ثم لما عزم الشيخ رحمه الله الحج فاستخلفه مقامه ، وكان من أمر الشيخ ما كان من اسارته بجزيرة " مالطه " من جانب الحكومة البريطانيـة ، فبقى هو رحمه الله مقامه عشرين ربيعاً يدرس " صحيح البخارى " و " جامع الترمذى " ، وأحياناً غيرهما معهما ، إلى أن نشأ تشاجر فى ساحة دار العلوم ، فأحب العزلة واشتغال منصب درسه ، فتهافت عليه القوم من كل جانب حتى أصرّ عليه المشتاقون إلى بركاته، من أهل الخير والدثور بأن يتمطى صهوة الرحيل إلى " كجرات " الهند منشؤ الشيخ على المتقى الكجراتى صاحب " كنز العمال " ، وشيخ ابن حجر المكى صاحب " الصواعق المحرقة " و " الخيرات الحسان " فى آخر عهده ، فرضى به الشيخ رحمه الله بعد إلحاح لمصالح تفرسها الشيخ رحمه الله إلى أن ارتجت تلك البسيطة من طنين حديثه نحو خمس سنين ، فقوّم بوجوده المبارك أودها ، واستقام عوجها ، وسارت الركبان تروى أحاديث فيضه وبركاته ، وتشكر جدباء الهند أيادى غماسـه وصوبـه ، غير أنه اجتوى الكجرات واستوخم تلك الديار ، فابتلى بداء البواسير ، واشتد داء العضال حتى نزفه الدم واستولى عليه الصفراء إلى أن حان أجله بديوبند، فتوفى رحمه الله فى الثلث الآخر من ليلة الإثنين الثالثة من صفر سنة اثنتين وخمسين بعد الألف وثلاث مائة من الهجرية (١٣٥٢ هـ) . والتاسع والعشرين من مايو سنة ١٩٣٣ الميلادى ، ورثاه الأفاضل من العلماء والأدباء ، بقصائد رنانة طويلة ، تزعج الأحشاء ، وأنشد فى حفلة تأبينـه بديوبند بعد يوم من وفاته سبع عشرة قصيدة بالعربية والأردوية . وأظن أن عدة القصائد التى رثى بها الشيخ بالعربية والفارسية والأردوية تبلغ إلى نحو ستين فصاعداً . قال الشيخ الكاندهلوى شارح " المشكاة " :

سلام على حفظ الكتاب وسنة   وحفظ وضبط بعد شيخ مبجل

فقـد كان إعجازاً لـدين نبينا كمثل البخارى أو كنحو ابن حنبل

وهى قصيدة طويلة تجاوز ستين شعراً ، ورثاه الأديب الكاملفورى صديقنا مولانا محمد يوسف الأديب الشاعر بقصيدة طويلة ، منها :

خطب أجل أناخ من حـدثان * بالمسلمين وملـة الإيمـان
صمت بـه الآذان ثم تصدعت * أكبادهم بفـوادح الأحـزان

إلى أن قال :

حكم يمانيـة فقـدت معينها * لما قضى بالـروح والـريحان

وقال :

أسمى وأسنى لا يقـدر كنهـه * لغـة وتحـديثاً عن الأعيان

خصائصـه البارعـة .

وقـد جمع الله فيه شمل البدائع والروائع من الجمال المعجب ، وحسن السيرة ، والورع ، والزهد ، والتقوى ، والتواضع ، وقوة الحافظة ، ودقة النظر ، والإستبحار المدهش فى علوم الرواية والدراية ، والإستحضار المحير ، والخوض فى الحقائق ومشكلات العلوم . وبالجملـة لم يكن تحت أديم السماء أوسع علماً منـه بعصره فيما نعلم قرآناً وسنـة ، وفقهاً وكلاماً وبلاغة ، وأدباً وتاريخاً ، ولم يكن فوق البسيطـة أجمع رجل فيما نرى ورعاً وزهداً وحسن صورة وبهاء منظر ونظافة طبع وجسم ، ولطافة روح ونقاء سريرة وذكاوة ذهن وبديهة مطاوعة وسلامة ذوق ، و وقاراً ومتانة ، فرزقه الله طبيعة من أسلم الطبائع ، وقلباً من أذكى القلوب ، ونفساً من أزكى النفوس . وجماع الكلام أنـه كان أكمل إنسان فى عصره جمالاً وكمالاً ، خلقاً وخلقاً ، هدياً

وسمتاً ، وأيم الله إنه كان يملأ القلب سروراً والعين جمالاً والأذن بياناً ، وما رأينا أبلغ منه فى العلم ولا أصبر ولا أحضر منه جواباً .

قال محقق العصر الحاضر العلامـــة الشيخ شبير أحمد العثمانى الديوبندى شارح " صحيح مسلم " : لم تر العيون مثله ، ولم ير هو مثل نفسه . وكان ربعاً من الرجال وثيق الجسم متناسب الأعضاء ، وكان حزين القلب دائم الفكرة، طويل الصمت ، وغلبت عليه الرقة فى آخر عهده ، فكان يبكى كثيراً فى إلقاء الدروس ، ووعظه فى المحافل ، وكان شديد الحب لأهل العلم وأهل الصلاح، وكان يعظم العلماء ، ويوقر أهل الأنساب والأشراف كثيراً ، وكان إذا تكلم تكلم بكلام جزل فصيح موجز ، وإذا استزيد وجد بحراً لا ساحل لــه . وبالجملة كان إماماً وحيداً فى مآثره الظاهرة والباطنة . وكان كما قيل :

لكل زمان واحد يقتدى بـــه ... وهذا زمان أنت لا شك واحده

وكما قيل :

لو نال حى من الدنيا بمنزلة ... وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وله رحمه الله مؤلفات عديدة ، منها : "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام " و" إكفار الملحدين فى شئ من ضروريات الدين " و" فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب" وغيرها، إلى نحو عشرين مؤلف ما هو برهان ساطع على تغلغله وتبحره فى العلوم قاطبة ، ودقة نظر فى المسالك ، وخلف ذخائر من تذكرته وبرنامجه فى سائر العلوم . لا سيما القرآن والحديث ،وقد قام لمكافحة زنادقة هذه الأمة العصابة المرزائية القاديانية المنسوبة إلى زعيمها الضال المضل المرزا غلام أحمد القادياني الفنجاني ، جعل الله أمه هاوية وقد جعل ، فذب عن الإسلام فى استيصال شأفة هذه الشجرة الملعونة لساناً وبناناً ، وحث العلماء والفضلاء وأصحاب الجرائد إلى مقاومتها ومكامعتها ، فأثمر الله نهضتــه

المباركة ، فتركها على مثل مشفر الأسد ، وانتهج للعلماء مناهج التحقيق وطرق التفصى من المعضلات ، وكان درسه جامعاً لبدائع تنحل به مشكلات سائر العلوم ، واقتفى العلماء المدرسون اثره ، بيد أنه "لا فتى كمالك ولا ماء كصداء" .

وما كل من قال القريض بشاعر ولا كل من عانى الهوى بمتيم

فرحمة الله على ذلك الجسد الأطهر والروح الأنور ، وبركاته تترى على تعاقب الأيام ما لاح برق أوجاد غمام أوناح حمام .

وخلف من أولاده الذكور ثلاثة أبناء : محمد أزهرشاه وهو أكبرهم ، ومحمد أكبر شاه وهو أوسطهم ، ومحمد أنضرشاه وهو أصغرهم ؛ وفقهم الله تعالى للعلم النافع والعمل الصالح ، وأطال أعمارهم . ومن إخوانه محترمنا الفاضل ذو المتانة والوقار مولانا عبد الله شاه الطبيب ، وصاحب الفضل والشهامة مولانا محمد سليمان شاه ، وصاحب السيادة والنجابة الفاضل محمد سيف الله شاه ، وصاحب المكارم محمد نظام شاه ، ووالده المحترم مولانا محمد معظم شاه ، تنقضى أنفاس عمره بكشمير وهو حى ، جاوز عمره المبارك مائة وعشر سنين ، نفع الله به الأمة . هذا ، ومن شاء الاطلاع على مآثره العلمية تفصيلاً فليراجع إلى رسالتى : "نفحة العنبر من هدى الشيخ الأنور" فإنه يجد هناك نقعة لكبد حرى وقرة لعين عبرى ، وقد طبعت وشاعت ولاقت من الأكابر إقبالاً عظيماً لم أكد أن يخطر ببالى مثله ، ولا سيما من حضرة المحقق العارف الشيخ المحدث التهانوى مولانا الشاه محمد أشرف على ومولانا محقق العصر شيخنا العثمانى ومولانا المحقق محمد كفايت الله رئيس جمعية العلماء وشيخ الحديث بالمدرسة الأمينية بدهلى ، أطال الله بقاءهم فى عافية غير عافية . وأريد أن أذيل هذا الموضوع بمرثية للعالم الفاضل المتبصر الأديب البارع مولانا محمد شفيع

الديوبندى أحد أساتذة دار العلوم الديوبندية، رثى بها إمام العصر الشيخ رحمه الله، وهذه المرثية غير ما ذكرناه فى "النفحة" قال :

نعى بك ناع سحرة الفجر فانبرى — يضج السماء والأرض والبدر والقرى
وأبكى الجبال الشامخات نحيبه — ودبراً ومدراً والفلا ثم أبحرا
وأبكى دروساً والمدارس جمة — كذلك أقصى مسجد ثم منبرا
نعينا بجماع العلوم وسيما الـ — حديث و قرآناً كريماً مفسرا
فلم أدر أرثى عالماً أم عوالماً — وعلماً وحلماً ثم للفضل جمهرا(١)
وفقهاً وتحديثاً ورأياً وحكمة — و ورعا و زهداً فى السماء مشهرا
و وجها طليقا باسما متهللاً — إذا زرت زرت البدر تما منوراً
أحقا عباد الله إن لست زائراً — بعينى بعد اليوم شيخى أنورا
بخارى عصر ترمذى زمانه — وزهرى وقت لا خلاف ولا مرا
فلو إنها رزء من الدهر واحد — و لكنه عظيم أحاط فأمطرا
فما فقده والله فقد واحد — وربى جناحا العلم منه تكسرا
فطاب ثرى من راح فى الله واغتدى — لنشر علوم الدين قام مشمرا
ولم يأل فى إعلاء دين ونشره — تراه لوجه الله سيفا مشهرا
فذاك اللعين القاديانى إذ بدا — فغادر أرض الله للكفر محورا
وكان رسول الله أخبر أنه — سينزل فيكم ابن مريم آخرا
ليملى أرض الله قسطا ومعدلاً — كما قد غدا للظلم مأوى ومفجرا
أتى فادعى أنى المسيح و أننى — لمصداق ما قال الرسول وأخبرا
و إنى خليل ثم موسى و أحمد — تكاد السماء من فريه أن تفطرا
مسيلمة الفنجاب دجال عصره — تنشأ فى كذب على الله مفترى
فلما طغى دجلاً وقد طم خطبه — أتاح له الجبار شيخى أنورا

---

(١) او : وعلماً وحلماً ثم صدراً مصدراً .

فنادى طواغيت الضلال مهدداً ... لينصر دين الله نصراً مؤزرا

فشيد أركان الهدى و أنارهـا ... و مذر بنيان الضـلال و بذرا

وشنف آذانِ الورى بفرائـد ... فجادت بها الأجفان غِدوة أدبرا

فوى لسويعات الوصال وطيبها ... وصفو حياة لا يزال مكـدرا

و لله أيام تمليت طيبها ... بروض الأمانى أخضلا ثم أخضرا

وعدت به و الحمد لله فائزاً ... و أسعد حظا ثم أربح متجرا

فحسبى به فى العلم والدين قدوة ... وحسبى به فى مشهد القوم مفخرا

لعل الرؤف البر يلحقنى به ... بلى والرجا فى الله فليك أكثرا(١)

و إلا فما فضل الجدود بنافعى ... وإن كنت معزواً إلى أوثق العرى

فليس لمن لم ينح منحى جدوده ... بعزوته فى الدين عزاً ومفخرا

فمن صلب نوح ابنه غير صالح ... وإن خليل الله من نجل آذرا

وذاك أبو جهل أخو الذل والعمى ... و إن بلالاً فاق أحرار حميرا

عليك بأعمال البصيرة فيهم ... وإن تأتسى آثارهم ما تيسرا

فما عبرتى إلا لذى العين عبرة ... و وعظ و إن لم تستطع أن تعبرا

وماذا لتشكى من زمان وصنعه ... إذا كان أمر الله قدراً مقدرا

وفى سالف الأيام ما فيه عبرة ... وفهم لذى عينين رام التبصرا

و من أمعن الدنيا ونضرة دمنهـا ... يجد نكرها عرفا كذا العرف منكرا

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة(٢) ... وإن أقبلت صارت همومك أكثرا

تفكر تجد فى كل دار سكنتها ... مقابر للآمال للخلق منحرا

وسوف ترى ما قد جمعت مكابداً ... ستسلبها إلا قميصاً و مئزرا

و أسعد خلق من تدرع بالتقى ... و إن كان فى دنياه أشعث أغبرا

---

(١) او : وانى لارجو الله خيراً و اكثرا .

(٢) هذا البيت لبعض المتقدمين من الشعراء، ادرجته بتصرف لجودة معناه . منه .

فواها له من رائح حل روضة بجنب المصلى (١) لا يزال منضرا
سقتها غوادى رحمة الله بكرة فعادت سواريها بليل مكررا
فيا حى يا قوم لطفاً و رحمةً وفضلاً به عودت يا رب أنورا
بروح و ريحان و فردوس جنة ومقعد صدق منك أرفع الذرى
بجاه إمام المرسلين محمد وصحبته الأخيار من جمهر الورى
عليه سلام الله ماذر شارق بعدة من صلى و صام و كبرا
فيا خير خلق الله صفوة رسله نبي جميع الأنبياء و لا مرا
أتيتك لما عيل صبرى و همتى و فاقت ذنوبى أن تعد و تحصرا
أتيتك إذ ضاقت على مذاهبى أذل عبيد الله أحقر أفقرا
فإن لم تنلنى منك فضلاً و رحمةً شفاعتك الحسنى لكنت المخسرا
و عدة أبياتى (٢) حساب وفاته و رابع عشر قرنه خذ محررا

هذا ، وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا سيد ولد آدم وآله وصحبه وبارك وسلم .

* * *

(١) قبره الشريف بجنب مصلى ديوبند ، يزار ويتبرك به .
(٢) يعنى سنة احدى وخمسين من القرن الرابع عشر بعدد ابيات القصيدة . منه .

التكملة الثانية .

وقلت فى مقدمة " فيض البارى" :

ترجمة إمام العصر الأستاذ المحدث
محمد أنور شاه الكشميرى الحنفى

هو : محمد أنور بن معظم شاه بن الشاه عبد الكبير بن الشاه عبد الخالق ابن الشاه محمد أكبر بن الشاه محمد عارف بن الشاه حيدر بن الشاه على بن الشيخ عبد الله بن الشيخ مسعود النرورى الكشميرى رحمهم الله تعالى .

رحل سلف الشيخ مسعود من بغداد إلى " الهند " ونزلوا " ملتان " ، ثم ارتحلوا منها إلى "لاهور" ومنها إلى "كشمير"،فأصبحت لذريته مستقراً ومقاماً .

من الطبيعى أن للبيئة أثراً غير ضئيل فى طبيعة الرجل ، وفى تكوين مزاجه صلاحاً وفساداً ، ومن الطبيعى أن للبلاد أثراً كبيراً فى طبع رجالها بطابع خاص فى ذوقه وفكرته . ومن الطبيعى أن للأسباب رباطاً قوياً مع الأمور فى عالم الطبيعة . ومن الطبيعى أن لخالق الطبيعة قدرة فوق الطبيعة ، وأن الطبيعة مقهورة تحت إرادته ومشيئته .

فهذه حقائق واضحة عند أولى الطبائع السليمة لا مساغ لإنكارها ، أرى أنها تلاءمت فى حق من حاولت ترجمته برمتها .

كانت أرومته من بيئة خير وصلاح وتقوى وطهارة ، تسلسل فيهم

الإرشاد بطرق أهله من العارفين والأولياء ، من عشرة أصلاب صابأ فصاباً ، فوهبته نفساً مطمئنة نقية طاهرة .

وكانت بلدته "كشمير" من أحسن بلاد الشرق الشمالى فى جمال الطبيعة، من أوديتها النضيرة ومياهها العذبة ونسيمها العليل ، فكانت روعة الطبيعة ومظاهر حسنها الرائع متمثلة فى جبالها التى اكتست حللاً من ألوان الزهر وأصناف الشعر ، وكأنها رياض ذات وشى دقيق وتحبير فائق تأخذ بالألباب، وتستولى على القلوب ، عنادل تصدح على الأغصان ، ومياه تقطر عن الأحجار فى هدوء وسكون ، فلا تسأل عن حسنها وجمالها ، فكسته رقة فى الخيال ودقة فى الفكر وغوراً فى التفكير ، وسكوناً فى الطبيعة .

ثم تيسرت له أسباب من شوق مفرط ، وذكاء مشرق ، وشيوخ جهابذة ، وتوفيق للجهد الدائب ، والسعى المتواصل .

وسبقت المشيئة الأزلية بأن يكون من أكمل رجال العصر علماً وعملاً ، فأصبح إماماً أمة فى عصره .

وولد صبيحة السبت سبع وعشرين من شوال سنة ١٢٩٢ ألف ومائتين واثنتين وتسعين من الهجرة، بقرية " ودوان " على وزن " لبنان " من أعمال (لولاب) فى مقاطعة "كشمير" . تعلم المبادئ على والده ، وعدة كتب ورسائل على بعض علماء بلاده ، ثم سافر فى حدود سنة ١٣٠٧ ﻫ إلى مديرية "هزارة" على حدود " كشمير " ، فقرأ كتباً من فنون المنطق والفلسفة وغيرهما على جهابذة الفن ، ثم وصل إلى " ديوبند " قرطبة العلوم فى الهند ، فقرأ كتب الحديث ، واستكمل ما بقى من العلوم ، وفرغ فى حدود سنة ١٣١٢ ﻫ منها ، فاضلاً بارعاً يتدفق تياره علماً وكمالاً ، فراح إلى " دهلى " قاعدة بلاد الهند ، ومكث ينشر علمه بدرس وإفادة عدة سنين ، حتى بدأ هناك

بوجوده معهد علمى ، يسمى اليوم "مدرسة أمينية" ، فتم فضله وذاع صيته ، وأضحى وله مزية لا تبارى .

ثم رجع إلى بلده وأسس معهداً دينياً سماه "الفيض العام" واشتغل بنشر العلم ورأب الصدع ، ثم حج سنة ١٣٢٣ هـ ومكث هناك أشهراً ، ولا سيما فى المدينة زادها الله تشريفاً ، وطالع كتباً جمة بـ "مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت الحسينى" و "المكتبة المحمودية" ، وكانت فيها ذخائر من المخطوطات القيمة ، فانتهز الفرصة لها حتى طفح صدره بعلومها ، ثم رجع إلى بلاده وأقام برهة ، ثم حاول الهجرة من بلاده إلى الحرمين ، زادهما الله كرامة ، ووصل إلى "ديوبند" فى حدود سنة ١٣٢٥ هـ للقاء شيخه شيخ العصر محمود حسن رحمه الله تعالى وداعاً ، فأشار إليه بالإقامة بديوبند ، ولم يكن يفرط فى امتثال أمره ، فأقام ، وأمره بتدريس "صحيح مسلم" و "سنن النسائى" و "ابن ماجه" ، ثم أراد شيخه رحمه الله تعالى سفر الحج ، فخلفه مقامه وجعله شيخ المعهد وشيخ الحديث ، فكان يدرس "صحيح البخارى" و "جامع الترمذى" وغيرهما ، ففاضت علومه ومزاياه إلى أن استقال من منصب درسه فى سنة ١٣٤٥ هـ ، ورحل فى شهر ذى الحجة ١٣٤٦ هـ إلى "دابهيل" فى مديريـة "سورت" ، على بعد نحو ١٥٠ ميلاً من عاصمة "بمباى" فظهر بوجوده معهد كبير يسمى اليوم بـ "الجامعة الإسلامية" ، وإدارة تأليف تسمى "المجلس العلمى" ، فاشتغل بالدرس والتأليف بضع سنين إلى أن وافاه القدر المبرم ، فقضى نحبه فى ديوبند فى ثلث الليل الآخر ليلة الإثنين ، ثلاث صفر عام اثنين وخمسين من القرن الرابع عشر للهجرة (١٣٥٢ هـ) رحمه الله ورضى عنه .

قال محقق العصر شيخنا العثمانى : سمعت عن حكيم الأمة مولانا الشيخ

أشرف على التهانوى أنه قال : رأيت عن بعض المستشرقين كلمة فى الإمام الغزالى ، وإن وجود مثل الغزالى فى الأمة المسلمة دليل عندى على أن الإسلام دين سماوى حق ا هـ . ثم قال الشيخ التهانوى : وعندى وجود الشيخ محمد أنور " الكشميرى " من الدلائل على أن الإسلام دين سماوى حق ا هـ .

وقال مفتى الديار الهندية الشيخ محمد كفايت الله الدهلوى فى كتاب له إلى بعض معارفه : إن فكرتى وحواسى أضحت معطلة بداهيــة موت الشيخ محمد أنور رحمـه الله ، كان أمة إماماً مقداماً ، إنه لم يمت ولكنه مات العلم والعلماء ا هـ .

كان والده شاعراً مجيداً بالفارسيــة ، وكان عالماً فاضلاً فى الفرائض والعلوم الرياضية وبعض العلوم الآلية ، فأصبح الشيخ رحمه الله شاعراً وفاضلاً فى تلك العلوم فى بيته .

وكان علم الفقه وعلم الفتوى فى كشمير مما يتسابق فى حلبة رهانها ، فأصبح الشيخ فقيها مفتيا لايدرك شأوه ولايشق لـه غبار ، حتى أفتى ثلاث سنين فيها المفتيين والفقهاء فى الحوادث والنوازل والفتاوى العقيمة ولم يفتقر إلى مراجعة كتاب .

وصل إلى ديوبند فأدرك رجالاً جمعوا إلى علومهم الناضجة الرسمية علوم العرفاء والأولياء ، وجمعوا إلى دقة المدارك وإصابة الرأى ، رفق القول وصدق اللهجـة ، أصحاب هيبة ووقار ، وأصحاب سنة وورع وزهد وتقوى . فكانوا علماء عرفاء ربانيين أصفياء ، فكسته صحبتهم وإفادتهم علماً صحيحا ورأيا صائبا وشغفا باتباع السنة ، وبهاء فى الملكات الفطرية ، وجمالاً فى الأخلاق والأدب .

وكانت طبيعته مغرمة بالتوسع فى الإطلاع والتدقيق فى الموضوع ، ورزق توفيقا دائبا فلا يسأم ولايلحقه كلال . فأصبح بحاثا محققا ، نظاراً متبحراً ،

غواصا فى المشكلات ، موفقا لحل الغوامض، لطيف الفكرة ، دقيق الاستنباط، سريع الحدس .

لا ينفسح المجال لذكر شئون حياته العلمية ، وقد أفردت لها جزءً خاصاً حافلاً ، وذكرت هناك ما فيه مقنع وبصيرة سميته : " نفحة العنبر من هدى الشيخ الأنور" ، وبثثت طرفا من علومه المختصة بالقرآن فى مقدمة "مشكلات القرآن" . ويكفى أن أقول : لم يستغن عن علمه مثل : "حكيم الأمة التهانوى" و " محقق العصر العثمانى " بل أكابر شيوخه الذين تلقى العلم عنهم ، ولم يستغن عن آرائه الدقيقـــة فى الفلسفة مثل " الفيلسوف الدكتور السر محمد اقبال الهندى (١) " . ويكفى ما أثنى على إصابة رأيه ودقة فكرته شيخـه أستاذ العالم " محمود حسن " الديوبندى رحمه الله .

أريد الآن كلمات من باب حياته العلمية ما يختص بالحديث ، و ما يختص بدراسة " صحيح البخارى" ، وما يختص بأحاديث الأحكام ، ومؤلفاتـه فى الحديث ، وأسانيده .

وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى * جنوناً فزدنى من حديثك يا سعد

آدابـه العامـة فى تدريس الحديث .

كان له رحمه الله خصائص فى الدراسة ، تستولى على القلوب روعتها ،

(١) صدع بالاستفادة عنه فى المحاضرات التى القاها فى (مدراس) و شاهدت ذلك فى لاهور (حين كنت زميلاً خادماً لامام العصر فى سفره الى كشمير سنة ١٣٤٨ ھ عند الاياب عن كشمير . وكان استصحبنى معه) وكان يساله فى مشكلات القرآن ، و دقائق الفلسفة التى ذكرها امام العصر فى قصيدته "ضرب الخاتم" ، و سمعت سنة ١٣٤٧ ھ فى ديوبند من المحترم عبد الله جغتاى من اخص اصحاب الدكتور المرحوم : ان الدكتور اقبال يثنى كثيراً على دقة رايه فى غوامض الفلسفة ، ويتمنى ان يشرح امام العصر نفسه ابياته الغامضة فى " ضرب الخاتم على حدوث العالم " . منه .

لم نرها فى أحد من بعده .

منها : إنـــه كان يلخص الكلام فى رجال الحديث إن كان لذكرها حاجة فى الباب ، أو فائدة يستحسن ذكرها . وكان لا يطيل الكلام فى الجرح والتعديل حيث كان يقول : ولم أكثر من نقل كلامهم فى الرجال ، وما فيه من كثرة القيل والقال ، لأنه ليس عندى كبير ميزان فى الاعتدال ، وبعضهم يسكت عند الوفاق ويجرح عند الخلاف ، وإذا دعيت نزال ، وهذا صنيع لا يشفى ولا يكفى ، وإنما هو سبيل الجدال .

نعم ، اعتنيت بتعيينهم ومعرفة عينهم ، فيستطيع الناظر من المراجعة والمطالعة ، ويتمكن من تخمير رأيه لا بالمسارعة .

ومنها : أنه كان عنى بمنشأ الخلاف بين الأمة ، ولا سيما فى المسائل التى تتكرر على رؤوس الأشهاد ، فكان يذكر فى هذا الصدد أموراً تطمئن بها القلوب .

ومنها : أنه كان يعتنى بنقل غرر النقول من كلام القدماء ، والنقول التى تكون بعيدة عن متناول أيدى أهل العلم .

ومنها : أنه كلما ذكر كتاباً أو مؤلفاً فى صدد النقل فكان يكشف عن منزلته فى العلم ، وخصائصه قلما يجدها الناظر فى كتب الطبقات والتراجم بغاية من الإنصاف ، من غير غض عن قدره ، أو اطراء فى شأنه ، ليكون بصيرة للطلبة ، ووسيلة إلى العلم الصحيح .

ومنها : أنه كان عنى بحل المشكلات أكثر منه بتقرير الأبحاث وتكرير الألفاظ .

ومنها : أنه كان يهمـــه إكثار المادة فى الباب دون الإكثار فى بيانها وإيضاحها ، كأنه يضن بعلمه المضنون ، ثم إن هذا الايجاز فى اللفظ والغزارة

فى المادة أصبح له دأباً فى تدريسه وتأليفه ، وكان كما قال على رضى الله عنه: ما رأيت بليغاً قط إلا وله فى القول إيجاز وفى المعانى إطالة اهـ . حكاه ابن الأثير فى "المثل السائر" .

ويحكى أن حكيم الأمة الشيخ التهانوى يقول : إن جملة واحدة من كلام الشيخ ربما تحتاج فى شرحها وإيضاحها إلى تأليف رسالة اهـ .

وكأن رأيه ما كشف عنه ابن النديم فى "الفهرست" : النفوس (أطال الله بقاءك) تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات اهـ .

ومنها : أنه كان لا يقتنع بذكر ما يختص بالموضوع ، بل ربما كان يذكر أموراً لمناسبة دقيقة بينها وبين الموضوع ، حرصاً على بيانها إفادة للطلبة .

ومنها: أنه كان ربما يذكر أشياء وينقدها نقداً علمياً ، ويدل الطلبة على منهاج النقد العلمى ، ويضع لهم أساساً لذلك ، ثم يستدرك ذلك (تنبيهاً لهم) بعزية كلام أهل العلم ، والاحتياط عن الخوض فى شأنهم بما تأبى جلالة قدرهم .

وهذه أمهات خصائصه العامة فى دراسة الحديث .

خصائصه فى تدريس "صحيح البخارى" .

كان رحمه الله تعالى يدرس أولاً فى عهد إقامته بديوبند "جامع الترمذى" و"صحيح البخارى" فكان أفرز دراسة "جامع الترمذى" لتحقيق أحاديث الأحكام ، وتبيين مذاهب الأئمة واستيعاب أدلتها ، وترجيح ما هو الراجح منها ، كما كان هو دأبه ، ولما اقتصر تدريسه فى الآخر على "صحيح البخارى" فكان يعتنى فيه بما كان يعتنى بـه فى "جامع الترمذى" ما عدا المهات التى

كان يتصدى لبيانها فى الصحيح، فانتهت خصائص تدريسه لـ"صحيح البخارى" إلى أمور :

الأول : أنه كان يستوعب أدلة المذاهب بما لها وما عليها فى أحاديث الأحكام على حسب دأبه الذى ذكرته فى آداب دراسته العامة .

الثانى : أنه كان ينتقى غرر النقول من شرح الصحيح ، كأنها ورقة موضوعة بين عينيه ، يذكر ما يشاء ويذر ما يشاء .

الثالث : أنه كان يلخص كلام الشارحين ، ويأمر بالمراجعة إن كان هناك بسط فى الموضوع، ويزيد عليه ما كان عنده من الأبحاث الدقيقة والمواضيع المهمة ، مما جمع الله فى صدره المتلاطم بالعلوم والمعارف .

الرابع أنه كان يتعرض لكثير من مشكلات العلوم، وكان يذكر فى حلها نفائس ما يساوى رحلة حيث يكون الصحيح آخر كتاب فى آخر سنة من الفراغ ، على نظام الدراسة فى الهند غالباً ، ولا سيما لمسائل الكلام ، لأن الإمام البخارى أيضاً يتعرض لها كثيراً ، ولا سيما فى كتاب التوحيد الموضوع لذلك . فكان يتكلم فيها كمسلك المحققين من قدماء المتكلمين ، وكان يقول : كلام البخارى فى التوحيد على مسلك القدماء ، وهؤلاء الشارحون لما استأنسوا بالتوحيد الذى دار بين المتأخرين ربما تقصر مداركهم عن مدارك الإمام البخارى ، فيتأولون كلامه بما هو برئ عنه اه . ومن أجل ذلك كان يعتنى بأمثال هذه المواضيع اعتناءً بليغاً .

الخامس : أنه كان يضع عن يمينه ويساره كثيراً من كتب الحديث ، ولا سيما من متون الحديث، فإن كان فيها إشكال فى موضوع يتعلق بالصحيح فكان يفتحها ويقرأ ما على الطلبة ويحل الإشكال ، أو كانت هناك فائدة تلائم الموضوع فيذكرها بعبارتها، فكأن درس الصحيح كان درساً لسائر الأمهات،

بل ما عداها أيضاً .

فهذه مميزات درسه لـ "صحيح البخارى"، لا تجد بعضها فى درس غيره، ومن أجل ذلك كل من كان ضليعاً فى العلوم، واسع الاطلاع، حديد الذهن، قوى الحافظة، ثاقب الفكر، كان يقوم من عنده بحظ وافر، وبصيرة نافذة، ومن ثم كان منشأ لإخفاق القاصرين، ومن لم يكن فى ذهنه متسعاً لأمثال هذه الأبحاث الجليلة .

ميزته فى شرح أحاديث الأحكام .

كنت قد ذكرت عشر خصائص من آدابه فى شرح أحاديث الأحكام فى "نفحة العنبر"، ولا فسحة فى الوقت لذكرها تفصيلاً، وإنما أريد لفت النظر إلى جملة منها باختصار مع إيضاح وزيادة .

منها : أنه كان همه فى الأحاديث التى اختلفت اتباع أهل المذاهب فى معانيها أن يقف على غرض الشارع ، فإذا استبان عنده استمسك به ، ولم يحفل بعموم اللفظ ، ولا باختلاف اتباع المذاهب . مثاله : ما فى " فيض البارى" (من ص ٤ إلى ص ١١ من الجزء الأول)، فراجعه وقابله بما ذكره الشارحون حتى يطمئن به قلبك .

ومنها : أنه إذا تعددت طرق الحديث فلم يكن يدير الكلام على طريقة واحدة ، بل كان يجمعها إن أمكن الجمع ، وإلا فيتوخى ما هو أوفق بغرض الشارع أو أقرب إليه . مثاله : ما فى "فيض البارى" فى المواقيت من الجزء الثانى من شرح قوله ﷺ : «من أدرك ركعة من الصبح الخ» فراجعه .

ومنها : أنه إذا تجاذبت الأحاديث وتضاربت نصوص الشارع ، ولم يتعين غرض الشارع بيقين ، وكان الكل سائغاً عنده فيحمل اختلاف الأئمة فى أمثال هذا على الأولوية، ولم يكن يزعمه مخالفاً للمذهب ولا خروجاً عنه . راجع

لمثالــه : بحث الترجيع فى الأذان ، واختلاف الجهر والإسرار بالتأمين ، ورفع اليدين فى غير التحريمة من الجزء الثانى من "الفيض" . وإن تعين غرض الشارع كان هو المحمل الصحيح عنده . راجع ص ٢٩٤ من الجزء الأول فى باب وضوء الرجل والمرأة ، ومسألة جواب الأذان من الجزء الثانى .

ومنها : إذا اختلفت الروايات من صاحب الشريعــة ، واختلفت الرواية من الإمام أبى حنيفة فكان محمل كل رواية على كل حديث ، وكان الكل جائزاً ، وإن تفاضلت فى الرتبـة وكان بعضها أولى من بعض . راجع ص ٢٨٨ من الجزء الأول من "الفيض" فى مسألة المسح على الرأس .

ومنها : أنه إذا صح حديث والرواية المشهورة عن أبى حنيفة كانت مخالفة له ، غير أنه يوجد فى الباب رواية عن الإمام ، فكان المذهب عنده ما دل عليه الحديث ووافقته رواية من الإمام، كالسواك عند القيام إلى الصلاة . فكـان يقول : يستحق لمن يثق بعدم خروج الدم من الأسنان ، فإن ذلك ناقض الوضوء عند الحنفية .

ومنها: أنه إذا تعين غرض الشارع ولم يجد فى الباب رواية عن الإمام توافقه ، بل صادف روايــة عن الصاحبين أو أحدهما ، فكان هو المذهب الحنفى عنده . مثاله : مسألة الخمر ، فكان يقول: غرض الشارع هو النهى عنها سواء كان من العنب أو غيره،وسواء كان قليلاً أو كثيراً ، وسواء أسكر قليله أو لم يسكر ، وإليه ذهب الجمهور ، وأبو يوسف، وهو من أصحابه ، فتعين المصير إليه .

هذا ما تيسر لى بالإجمال ، والغرض منه لفت النظر ، وهذا كتابــه وأماليه أمامك فراجعـه حتى ينبلج كفلق الصبح ما حاولته . والصبح منبلج لعين رائيه . وأريد أن أذيل هذا الموضوع بكلمات من إمام هذه النهضة الدينية

الإمام الشاه ولى الله الدهلوى ليتضح أن مسلك إمام العصر هو المسلك الأعلى والطريقة المثلى، وإليه ذهب المحققون من الفقهاء المحدثين من أهل المذهب الحنفى.

قال الإمام الشاه ولى الله الدهلوى فى "فيوض الحرمين" (ص ٦٢): ثم كشف لى أنموذجاً ظهر لى منه كيفيـة تطبيق السنة بفقه الحنفيـة من الأخذ بقول أحد الثلاثة، وتخصيص عموماتهم، والوقوف على مقاصدهم، والاقتصار على ما يفهم من لفظ السنة وليس فيه تأويل بعيد، ولا ضرب بعض الأحاديث بعضاً، ولا رفض لحديث صحيح بقول أحد من الأئمة .... وهذه الطريقة إن أتمها الله وأكملها فهى الكبريت الأحمر والإكسير الأعظم اه.

قلت: وهذه الطريقـة التى وضع أساسها الإمام قد شرع تكميلها فى عهد نجله الأكبر الحجة الشاه عبد العزيز رحمه الله، ثم زيدت فى عصر الشيخ المحدث مولانا رشيد أحمد الكنكوهى، وشيدها المحدث الشيخ محمود حسن الديوبندى رحمه الله، وأكملها إمام العصر صاحب هذه الأمالى رحمه الله.

وقال (فى ص٤٨): عرفنى رسول الله ﷺ أن فى المذهب الحنفى طريقة أنيقة هى أوفق الطرق بالسنة المعروفة التى جمعت ونقحت فى زمان البخارى وأصحابه. وذلك أن يؤخذ من أقوال الثلاثة قول أقربهم بها فى المسألة، ثم ذلك يتبع اختيارات الفقهاء الذين كانوا من علماء الحديث. (وفى نسخة مخطوطة فى مكتبة الشيخ عبد الستار الهندى بمكـة هنا زيادة: "كالحافظ أبى جعفر الطحاوى"، قاله الشيخ عبيد الله الديوبندى).

فرب شئ سكت عنه الثلاثة فى الأصول وما تعرضوا لنفيـه ودلت الأحاديث عليه فليس بد من إثباته، والكل مذهب حنفى اه.

وقال (فى ص ١٠٣) : تراءى لى أن فى المذهب الحنفى سراً غامضاً، ثم لم أزل أتحدق فى هذا السر الغامض حتى شاهدت أن لهذا المذهب - يومنا هذا - رجحاناً على سائر المذاهب بحسب هذا المعنى الدقيق اه .

وراجع ما ذكر فى كتابه " التفهيمات الإلهية " (ج - ١ ص ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٢ و ١٥٣ ، طبع المجلس العلمى) .

وقال فى " حجة الله البالغة " (ص ١٥٦ ج - ١ طبع المنيرية) : ومنها أن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل فى الدين ، ولم يزل المحققون من العلماء فى كل عصر يأخذون بهما ، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذاك، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذاك، فلا ينبغى أن يهمل أمر واحد منهما كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر ، وأن يجبر خلل كل بالآخر اه .

وراجع ما قاله فى " الحجة " (ص ١٥٨ إلى ص ١٦١ ج - ١ و ص ١١ و ١٢ ج - ٢)، وراجع أيضاً (ص ٢٠٢ ج - ٢) من " التفهيمات " .

وقال (فى ص ٢١٥ ج - ١ من " التفهيمات ") : وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأى من مضى من العلماء ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة اه .

وفى رسالتيه " الإنصاف " و " عقد الجيد " ما يكفيك أن تقتنع بـه . وفى هذه الإشارات مقنع لطلبة العلم ، وللبسط مجال غير هذا . والله الموفق .

مؤلفاتـه فى الحديث .

(١) فيض البارى على صحيح البخارى ، من أماليه فى درس الصحيح .

(٢) العرف الشذى من جامع الترمذى ، من أماليه فى درس جامع الترمذى .

(٣) أماليه على " سنن أبى داود " المطبوع منه جزء واحد والباقى لم يطبع .

(٤) أماليه على "صحيح مسلم"، ضبطها الفاضل الشيخ مناظر أحسن الجيلانى، الأستاذ بالجامعة العثمانية بحيدر آباد دكن، من أصحابه، ولم تطبع .

(٥) حاشية على "سنن ابن ماجه" وكانت موجودة برهة طويلة لدى الشيخ السيد محمد إدريس المدرس بالجامعة الإسلامية، لكن اليوم لا يدرى أين ضاعت هى . هذا ما يتعلق بالأمهات الخمس من الست .

(٦) فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب .

(٧) خاتمة الخطاب فى فاتحة الكتاب .

(٨) نيل الفرقدين فى رفع اليدين .

(٩) بسط اليدين لنيل الفرقدين .

(١٠) كشف الستر عن مسألة الوتر .

(١١) التصريح بما تواتر فى نزول المسيح .

وكل هذه المؤلفات طافحة بأبحاث سامية، لا يستغنى عنها كل من حاول بحثاً دقيقاً فى الموضوع، وما عدا هذه، فله حواش على "آثار السنن" للمحدث النيموى، ولو خرجت حوالاتها لأصبح ذلك كتاباً فى عدة أجزاء، وانتقى من "مسند أحمد" الأحاديث التى يستدل بها أو يستأنس بها للحنفية . وله مذكرات قيمة فى كثير من الأبحاث الحديثية، من مسألة "المثل أو المثلين فى وقت الظهر" وحديث : «من أدرك ركعة من الصبح الخ»، وفى أحاديث تختص بذى القرنين ويأجوج ومأجوج وغيرهما مما رآها مشكلاً فى موضوعه .

أسانيده فى الحديث .

لإمام العصر أسانيد فى الحديث أحببت أن أذكرها بالإجمال مع الإشارة إلى طرقها وإلى الإثبات التى ينتهى إليها سنده، فإن الإسناد من خصائص

هذه الأمة، وفضله أظهر من أن يقام عليه دليل، فمن الحتم علينا حفظه وإبقاؤه.

الإسناد الأول : يروى رحمه الله تعالى عن شيخه المحدث شيخ الهند محمود حسن الديوبندى عن شيخه الحجة العارف محمد قاسم النانوتوى ح وعن شيخه المحدث الفقيه الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، كلاهما عن المحدث الشيخ عبد الغنى المجددى الدهلوى .

ح : ويروى شيخ الهند عالياً عن الشيخ عبد الغنى ، وعن الشيخ أحمد على السهارنفورى ، وعن الشيخ محمد مظهر النانوتوى ، وعن الشيخ عبدالرحمن الفانيفتى . وهؤلاء الأربعة عن الشيخ المحدث محمد اسحاق الدهلوى عن جده لأمه المحدث الحجة الشاه عبد العزيز عن والده الإمام الشاه ولى الله الدهلوى .

ح : ويروى الشيخ عبد الغنى عن الشيخ محمد عابد السندى ثم المدنى .

وحصلت لإمام العصر شيخنا إجازة عن المحدث الكنكوهى بالإسناد المذكور سنة ١٣١٩ هـ تاسع ذى الحجة . وأسانيد الشيخ محمود استوعبها الشيخ عبيد الله الديوبندى فى أول كتابه " التمهيد لأئمة التجديد " .

وأسانيد الشيخ عبد الغنى مذكورة فى "اليانع الجنى" ، وطبع بالهند مرتين.

وأسانيد الشيخ محمد عابد مذكورة فى " حصر الشارد " .

وأسانيد الشاه عبد العزيز فى رسالته "العجالة النافعة" . وأسانيد والده الإمام فى رسالته " الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد " ، وفى القسم الثانى من "الإنتباه فى سلاسل أولياء الله" ، وفى "القول الجميل" ، كلها من مؤلفاته .

وإليك صورة ما كتبه الشيخ محمود حسن الديوبندى إجازة له بيده الشريفة (١) :

(١) صادفت هذه الورقة فى مذاكرات امام العصر ، غير انه ضاع موضع توقيع الشيخ محمود و تاريخها و بعض جوانبها باكل الدوده . نعم كونها عقيب الفراغ فى حدود سنة ١٣١٤ هـ معلوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرفنا بجوامع الكلم ، وأمرنا بأن نصلى على سيد ولد آدم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ، ونسلم . رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن والحديث قدوةً وإماماً .

أما بعد ، فيقول المفتقر إلى الله الودود الحقير الصغير المدعو بـ "محمود" تجاوز الله عن ذنوبه وذمائم خصاله ، ووقاه بمنه من شر نفسه وسوء أعماله : إن أخى فى الله المولوى "محمد أنور شاه" دخل فى هذه المدرسة وفرغ عن جميع الكتب المتداولة فى علوم شتى ، وقد قرأ على واستمع عندى "الصحيح" للبخارى و"الجامع" للترمذى و"السنن" لأبى داؤد السجستانى ، والمجلد الثانى من "الهداية" إلى كتاب العارية ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وأفاض علينا من بركاتهم إلى يوم الدين .

فأحسبه — والله سبحانه حسيبه — أهلاً للعلوم ، قد أعطى فهماً ثاقباً ، ورأياً صائباً ، طبيعة ذكية ، وأخلاقاً رضية ، فأجيزه كما أجازنى مشائخى الكرام أن يرويها عنى بشرط الضبط والتيقظ والإتقان والتثبت ، وبشرط استقامة العقائد والأعمال على طريقة الصحابة والتابعين ، وحسن التأدب بحضرة المحدثين والمجتهدين ، وأوصيه كما أوصى نفسى بتقوى الله تعالى واتباع السنة والتجنب عن حطام الدنيا وأهل البدعة ، والاشتغال بالعلوم السنية الدينية . وأسأل الله الكريم لى وله أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويجعل آخرتنا خيراً من الأولى . وصلى الله تعالى على نبيه وحبيبه وعلى

آله وأصحابه أجمعين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

العبد . . . .

وهذه صورة ما أجازه الفقيه المحدث الكنكوهى رحمه الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد سيد الأنبياء والمرسلين وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين . أما بعد : فيقول المفتقر إلى رحمة ربه الصمد الفقير الأحقر المدعو بـ"رشيد أحمد" الأنصارى نسباً والجنجوهى (الكنكوهى) موطنا ، تجاوز الله تعالى عن زلله ومعائبه ورضى عنه وعن مشائخه : إن المولوى محمد أنورشاه بن معظم شاه الكشميرى قد قرأ على من أثق به الأمهات الست المشهورة عند المحدثين المحتوية للصحاح والحسان من أحاديث الرسول السيد الأمين "الصحيحين" للشيخين و"الجامع المسند" للترمذى "والسنن" لأبى داؤد السجستانى و "السنن" للنسائى و "السنن" لإبن ماجه القزوينى رضى الله عنهم أجمعين ، وأفاض علينا من بركاتهم وجمعنا معهم يوم الدين . وأنا أجيزه أن يرويها عنى بشرط الضبط والإتقان فى الألفاظ والمعانى والتيقظ والتثبت فى المقاصد والمبانى ، وبشرط استقامة العقائد والأعمال على طريقة الصحابة والتابعين وحسن التأدب بحضرة العلماء المحدثين والمجتهدين . وأوصيه بتقوى الله تعالى والاعتصام بسنة سيد المرسلين وبالإجتناب عن البدع المخترعة فى الدين والتعبد عن صحبة المبتدعين ، وبالاشتغال بإشاعة العلوم السنية الدينية ، والاحتراز عن التدنس برذائل الفلسفة وحطام الدنيا الدنية . وأسأل الله ولى له أن يوفقنا لما يحب ويرضى ، وأن يجعل آخرتنا خيراً من

الأولى ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم وآله وصحبه وأتباعه ناصرى طريقه القويم فقط حررته تاسع ذى الحجة من الشهر المنتظم فى سنة ألف وثلاثمائة وتسع عشرة من الهجرة على صاحبها ألوف الصلوات والتسليمات والتحية ا ه " .

إنما نقلت الإجازتين بلفظها لينجلى فى هذه المرآة ما يترقرق فى خلال سطورها من مسلك مشائخنا الديوبنديين من عدم الإفراط والتفريط فى الأمر والحرص على إتباع السنة والنفرة عن البدع المحدثة فى الدين ، وما عدا ذلك ما لا يخفى ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الإسناد الثانى : يروى رحمه الله تعالى عن شيخه المحدث محمد اسحاق الكشميرى المتوفى فى حدود سنة ١٣٢٠ ه فى المدينة المنورة ، عن الشيخ السيد نعمان عن والده الشيخ السيد محمد الآلوسى مفتى بغداد وعالمها صاحب " روح المعانى " ، وأسانيده مذكورة فى ثبته ولم يطبع ، وذكرها فى كتابه " غرائب الإغتراب ونزهة الألباب " باجمال ، وهو مطبوع سنة ١٣٢٧ ه ببغداد ، ويشير هناك إلى نيف وسبعين ثبتاً لمشائخه الأثبات ، فراجعه .

ويروى رحمه الله تعالى بهذا السند عن شيخه محمد اسحاق سائر كتب الصحاح وعدة مسلسلات وأحاديث جنية ، وما قرأه خاصة عليه من كتب الحديث من "صحيح مسلم" كله و"سنن ابن ماجه" كله و" سنن النسائى" إلا بعضاً من آخره ، و" مؤطأ مالك " إلا قدراً من آخره و" رسالة سعيد بن سنبل " وما عدا ذلك من الكتب الدينية .

الإسناد الثالث : يروى رحمه الله تعالى عن الشيخ حسين بن الشيخ محمد الجسر الطرابلسى الشامى صاحب "الرسالة الحميدية" وغيرها ، حصلت

له الإجازة عنه سنة ١٣٢٣ ﻫ بالمدينة المنورة ، زادها الله كرامة ، وهو يروى عن الشيخ عبد القادر الدجانى اليافى عن والده الشيخ محمد الجسر وشيخ والده الشيخ محمد بن حسن الكتبى المتوفى سنة ١٢٨٠ ﻫ ، كلاهما عن الأمير الكبير أبى عبد الله محمد بن محمد المالكى المتوفى سنة ١٢٣٢ ﻫ ، وعن الشيخ الفقيه المحدث السيد أحمد الطحطاوى التوقادى الحنفى المتوفى سنة ١٢٣١ ﻫ .

وكذا يروى عن الشيخ حسين الجسر بسنده إلى الشيخ محمد أمين المدعو بـ"ابن عابدين" الشامى الحنفى المتوفى سنة ١٢٥٢ ﻫ ، وأسانيد الشيخ محمد الأمير فى ثبته المعروف، وطبع بمصر سنة ١٣٤٥ﻫ، وأسانيد السيد الطحطاوى فى ثبته الخاص ، ولم يطبع . وأسانيد الشيخ ابن عابدين فى ثبته المعروف "عقود اللآلى فى الأسانيد العوالى"، وقد طبع بمصر .

وهذه صورة إجازة الشيخ حسين الجسر ما نصه (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فقد أجزت أخانا فى الله الفاضل الشيخ محمد أنور بن المولوى معظم شاه الكشميرى بسند الأستاذ الشيخ محمد الأمير المصرى وبسند الشيخ أحمد الطحطاوى المصرى المجاز بهما من سيدنا الشيخ عبدالقادر أبى رباح الدجانى اليافى المجاز بهما من المرحوم والدى الشيخ محمد الجسر ، ومن الشيخ والدى

(١) وليفهم هذا السند بالتفصيل الذى ذكرته ولم يكن واضحاً ترتيبه فاستفدت من الاستاذ الشيخ الكوثرى طال بقاؤه ، فافاد ما ذكرته ، وعلم منه انه لم يتلق من والده ، فلعله مات وهو صغير حيث تراه، يروى عن والده بواسطة الشيخ عبد القادر الدجانى .

المرحوم الشيخ محمد الكتبي وهو قبل منى ذلك . وأوصيه بتقوى الله وبحفظ شرف العلم وبالدعاء لى بالخير كما أجزته بحديث الأولية بالرحمة ، وهو ما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله : الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء" .

كتبه الفقير إليه تعالى حسين الجسر الطرابلسى عفى عنه .

هذا ما تيسر لى من ذكر أسانيده بما اطلعت عليه ويحتاج تفصيلها وجمعها إلى مجلد ضخم فإنها تحتوى على أسانيد الهند ، والحرمين ، والشام ، ومصر ، وبغداد ، من الحنفية والشافعية والمالكية ، وإن وفقت إلى جمعها لأفردت لها جزءاً والله الموفق . وقد ذكرت مصادرها ومراجعها بما وقفت عليه ليكون أصحابه على بصيرة من الأمر ، هذا ما حاولته فى هذه الفسحة من ذكر نبذة من ترجمة إمام العصر صاحب " فيض البارى" . والموضوع يقتضى فراغاً من الوقت ونشاطاً من الفكر والطبع . وإذا كان طرف من حياته موضوع بحث فالمجال واسع جداً . ولا بد أن يعود الباحث وإن أجهد نفسه متمثلاً بما قيل :

مدحتك جهدى بالذى أنت أهله * فقصر عما صالح فيك من جهدى
فما كل ما فيه من الخير قلته * ولا كل ما فيه يقول الذى بعدى

* * *

التكملة الثالثة .

وقلت فى تقدمة " عقيدة الإسلام " :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل علماء هذه الأمة كنجوم السماء ، فبهم يهتدى فى دياجر الكفر وظلمات الإلحاد غاية الاهتداء، وبهم زينة هذه البسيطة الغبراء، وبهم يرجم شياطين الإنس فى كل ليلة ليلاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل محمد خاتم الأنبياء الممثل للأمة بالمطر، والمبشر بنزول سيدنا عيسى روح الله الأطهر فيصلح به الأمة العوجاء، وعلى آله الأصفياء وصحبه السعداء ما استنار القمر وتجلت ذكاء .

أما بعد : فللشيخ إمام العصر مولانا محمد أنور شاه الكشميرى محقق هذه القرون أياد بيضاء فى تحقيق مشكلات العلوم وصعاب المسائل ودقاق الحوادث والنوازل ، وكان مرجعاً فى هذه البلاد لحل كل غامض دقيق فى أى علم من العلوم ، وكان مبدع طريقته العذراء فى تدريس العلوم النبوية وتحقيق كل ما له صلة بالمقام متناً وسنداً وجرحاً وتعديلاً، وكان آية من آيات الله فى استحضار مذاهب الأمة وتحقيقها،ومجدد طريقته فى أحكام خلافية من مذاهب الفقهاء ، كما له منن كبيرة فى القيام بالرد على أهل البدع والفتن ، خصوصاً أكبر فتنة هذه القرون "الفتنة القاديانيـة المرزائية" ، وتوجيه العلماء وحثهم على القيام بواجبهم فى استئصال شأفة هذه الشجرة الخبيثة ومساعدتهم قلماً ولساناً بذخائر من علومه وكنوز من مذاكرته ، حتى تيسر لأفاضل أصحابـه تأليف كتب ورسائل فى القضاء عليها باللغة العربية وباللغة الرائجة فى البلاد أى اللغة الأردوية ، لايريد منهم بذلك جزاءً ولا شكوراً ، بل كل ذلك

ابتغاء لوجه ربه الأعلى ، فكان بابه مفتوحاً لكل ناشد ، وكنوزه أمام كل صادر و وارد ، يذوب قلبه الذكى الحساس بهذه الفتنة العمياء ، ويتألم روحه الذكى بتغافل أهل العلم عن الذب عن حوزة الدين وحفظ سياجه ، وكثيراً ما يهجم عليه من تلك الأفكار ما يبيت له ساهراً متململاً ، فكان يود أن يكون رايات الحق مرفوعة وأعلام الباطل منكوسة ، فرغبت أن أذكر للناظر شيئاً من ترجمة هذه الإمام وحياته بغاية اختصار ، ثم أعقبها بشئ مما يتعلق بخصائص كتابه "عقيدة الإسلام" .

اسمه و نسبه و ولادته و نشأته الصالحة و دراسته العلمية .

هو : الشيخ الإمام المحدث الكبير محقق هذه العصور إمام العصر مولانا محمد أنور شاه بن الشيخ معظم شاه بن الشاه عبد الكبير ، ينتهى نسبه إلى الشيخ مسعود النروری الكشميرى ، جاء سلفه من بغداد إلى ملتان ، ورحلوا منها إلى لاهور ، ومنها إلى كشمير ، فأصبحت لذريته مستقراً ومقاماً ، وكان كما قال القائل :

فألقى عصاه واستقر به النوى * كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكانت ولادته يوم السبت السابع والعشرين من الشوال سنة ١٢٩٢ هجرية بكشمير ، وكان والده عالماً تقياً كبيراً شيخاً فى الطريقة السهروردية ، وتسلسلت هذه الطريقة فى سلسلة نسبه صلباً بعد صلب ، وكانت والدته صالحة عابدة ، فنشأ فى ظل عطوفتها وتربى تربية صالحة حتى إن والده فى صغره يوقظه بالليل حين يقوم ، فكان يجلسه بجنبه وهو يصلى . فهكذا كانت تنزل عليه البركات ويحيط بـه صالح الدعوات وهو صبى لم يترعرع بعد ، فنشأ فى بيت علم وصلاح فى رعاية دقيقة وتربية عجيبة ، أخذ مبادئ قراءته على والده ، ثم

على علماء كورته، ثم على علماء بلاده فى كشمير ونواحيه، ثم سافر إلى حدود كشمير إلى بقاع مديريـــة "هزاره"، ثم وصل إلى أكبر مركز علمى بالهند "دار العلوم" بقريه "ديوبند" بقرب عاصمة "دهلى" وكان محطاً لرجال الأفاضل، وكان حقاً قرطبة الهند وأزهرها إلى أن تخرج منها عالماً فاضلاً يشار إليه بالأصابع فى علمه وسعة نظره وورعه وتقواه، وذاك سنة ١٣١٣ هجرية، سمعت والده رحمه الله سنة ١٣٤٧ بكشمير: أنه كان يسألنى أسئلة فى درس "مختصر القدورى" أحتاج إلى مطالعة "الهداية" ثم فوضت دراسته إلى عالم آخر سماه لى، فقال: يشكو كثرة سؤالاته، وكان خارج دراسته ساكتاً صامتاً - لا يرغب فيما يرغب إليه الصبيان والأطفال من الملاعب. سمعت والده رحمه الله: أتيت به إلى شيخ عارف مجاب الدعوة فى بلادنا فلما رآه قال: سيكون أعلم أهل عصره فى العلوم. وقال: تفرس فيه بعض أعلام عصرنا لما رأى له تعليقات على كتبه الدراسية: بأنه سيكون غزالى عصره ورازى دهره.

سمعت الشيخ رحمه الله نفسه: أنى قرأت كتب الفارسيـة الرائجة فى بلادنا خمس سنوات وبقيت فى تعلم العلوم العربية خمسة أعوام، فكان عهد تعلمه كله لا يتجاوز عشر سنوات، سمعت ثقـــة وهو مولانا مشيت الله البجنورى من أصدقائه وتلامذته: أنه كان لا ينام مضطجعاً إلا ليلة الجمعة، فكان ما عدا ليلة الجمعة يسهر لياليه بالمطالعة، وإذا غلبه النوم نام جالساً، سمعت من الشيخ رحمه الله نفسه: أنى طالعت فى رمضان "عمدة القارى" كلها حين أردت فى العام المقبل دراســـة "صحيح البخارى" على شيخنا الإمام مولانا محمود حسن الديوبندى المتوفى سنة ١٣٣٩هـ، ثم كنت أطالع على "صحيح البخارى" "فتح البارى" درساً درساً، وربما يكون مطالعة مجلد واحد بالليل، ومرضت مرة سبعة عشر يوماً فلم أحضر فى الدروس، ولما حضرت بعد ما عوفيت لم يصل درس الشيخ إلى ما وصل إليه مطالعتى من "صحيح البخارى" وشرحه "فتح

الباری" للحافظ ، سبحان الله العظیم ، نعم : نفس عصام سودت عصاماً .
وکان یقول : قرأت بدیوبند علی شیخنا المحمود رحمه الله الجزئین الأخرین من "الهدایة" و"صحیح البخاری" و"سنن أبی داؤد" و"جامع الترمذی"، وقرأت علی شیخنا مولانا محمد اسحق الکشمیری ثم المدنی المتوفی بها ١٣٢٢ھ "صحیح مسلم" و"سنن ابن ماجه" ، وقد أفردت حیاته العلمیة فی کتاب سمیته : "نفحة العنبر فی حیاة الشیخ أنور" ، وشیئاً من حیاته وخصائصه فی مقدمة "فیض الباری" علی "صحیح البخاری" وفی مقدمة "مشکلات القرآن" فلنقتنع بهذه الکلمة المختصرة.

أعماله وأشغاله .

کان یحب أن یعیش خاملاً لا یعرفه أحد عاکفاً علی المطالعة ، ولکن اضطر إلی أعمال فرجاه أولاً صدیقه مولانا أمین الدین الدهلوی أن یساعده فی تأسیس مدرسة بدهلی، فلبی دعوته وأعانه فی تأسیس المدرسة، وسماه : "مدرسة أمینیة" ، وکان أول صدر المدرسین بها وأول من تبرع إلی المدرسة بإعطاء عشرة روبیات من عنده تبرع إخلاص وإیثار ، ثم رجع إلی بلاده کشمیر ، فأخذ یذکر الناس ویعظهم ،واجتهد فی إصلاح الشعب من تصحیح عقائدهم وما حدث فیهم من زیغ وبدعة ، فکان یطوف قریة قریة یعظهم موعظات بلیغة باللغة الکشمیریة ، وکان فصیحاً فیها والناس یبکون ویتأثرون حتی بنی مدرسة دینیة فی کورة "باره موله" سماها : "مدرسة الفیض العام" فأصلح بها أمة هناك، ثم سافر إلی الحجاز المقدس للحج والزیارة، وذلك سنة ١٣٢٣ھ، ومکث هناك شهوراً وطالع کتباً کثیرة فی "مکتبة شیخ الإسلام عارف حکمة الله" و"المکتبة المحمودیة" وغیرهما ، ولاقی رجال العلم والفضل فی تلك الرحلة ، وظهر فضله ونبله ، وممن لاقی : الشیخ حسین بن محمد الطرابلسی عالم السلطنة العثمانیة "صاحب الرسالة الحمیدیة" ثم رجع إلی

بلاده ومكث فى كشمير أعواماً يدرس ويفتى العلماء، وكان أفتى ثلاث سنوات للجهابذة، وفى نوازل المسائل وفى المسائل الخلافية بين أرباب الفتوى فى بلاده، ولم يحتج إلى مراجعة كتاب من الفقه للإفتاء، كما سمعت منه نفسه رحمه الله، ثم عزم على الرحلة إلى الحرمين بقصد الهجرة من بلاده وحضر ديوبند لزيارة شيخه الكبير مولانا العارف الشيخ محمود حسن الديوبندى المدعو بـ"شيخ الهند" فى طريقه إلى ديار الحرمين، فالشيخ أحس أن البلاد الهندية ومركز العلوم الإسلامية أحوج إلى فيضه الغزير؛ وهذه البلاد المجدبة تشتاق إلى هذه المزنة الوطفاء، فأصر عليه بالإقامة بديوبند حتى استلم منه زاد سفره وزود به آخر للحج والزيارة كما سمعت منه نفسه رحمه الله، فصار مدرساً للحديث، ثم جعله نائبا عنه فى التدريس وصدر المدرسين حين عزم على رحلته إلى ديار الحجاز المقدسة، وذاك سنة ١٣٣٣هـ، ومكث يدرس الصحاح الست وأمهات الحديث، فأصبح مسنداً فى هذه البلاد واشتهر صيته فى أكناف هذه القارة الكبيرة، وأصبح بابه محطا للرحال وملجأ للرجال، وأصبح وجوده العلمى سببا لإصلاح طرق التدريس وتحليل غوامض المسائل، فكان يتدفق بحره المتلاطم من علومه، فيفيض من كل ناحية يسقى الأجادب ويروى غليل العلم، وكان يجود بثروته العلمية وإنفاق مذاكراته الحاوية ذخائر العلم ونفائس الأبحاث على السائلين بسماحة نفس وإخلاص وحرص على الإفادة، غريب إلى أن انزوى منصبه من صدارة التدريس فى سنة ١٣٤٦هـ بأمور لا داعى لبيانها، فاكتنفه الدعاة والمخلصون من كل جهة إلى أن اضطر إلى الرحلة إلى قرية فى نواحى بمبائى بقرب "سورت" تسمى "دابيل"، ونشأت بوجوده الميمون مدرسة كبيرة تسمى: "الجامعة الإسلامية" وإدارة تأليف ونشر باسم: "المجلس العلمى"، وأصبح سبباً لكتب قيمة فى شتى المواضيع، فقام بنشرها وطبعها، فكان يقضى حياته المباركة فى التدريس والتأليف والوعظ والتذكير،

فاستنارت تلك البقاع بنوره علماً وعملاً وسنةً وحديثاً ، وأصلح الله به هناك أمة ، وغلبت عليه رقة فيأخذه البكاء فى دروسه ومواعظه ، فيبكى ويبكى ، وكان له عناية مدهشة فى أواخر حياته المباركة بمسائل من حقائق إلهية من حقيقة الروح ، وحقيقة التجلى ، وشئون حياة برزخية ، ومعارف علم بديعة فى مجالسه ومواعظه ودروسه ، إلى أن حان أجله المحتوم بديوبند فى شهر صفر سنة ١٣٥٢ﻫ ، رحمه الله رحمة الأبرار الصالحين ، ورضى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه .

خصائصه وشئ من كلمات الأكابر والمعاصرين .

كان رحمه الله تعالى بحيث جمع الله له مع كرم النجار وشرف الأرومة تربية صالحة فى ظل الأبوين الصالحين ، ونشأ فى بلد من أعدل الإقليم فى جوصاف غيركدر ، ورزق طبيعة زاكية وذكية ، ونال بركات دعوات الصالحين ، وتيسرت له أسباب من توفيق دائب ، وجهد متواصل لايعرف مللاً وسآمة ، وصحة جيدة إلى الغاية لا تعرف كلالاً ، وعقل صاف ، وحافظة خارقة ، وشيوخ جهابذة عرفاء ربانيين صلحاء ، وجرت مشيئته الأزلية أن يكون أكمل أهل عصره علما ودينا وورعا وتقوى حديثا وفقها ، أدبا وتاريخا ، كلاما وفلسفة ، غواصا فى المشكلات بحاثة فى الدقائق ، عاكفا على المطالعة ، دائم التفكير ، طويل الصمت ، إذا سأله أحد عن مشكل غامض تهلل وجهه المنير كالبرق وسال كالسيل الجرار ، أو صيب مدرار ، وجمع الله له مع نور التقى حسن وجهه وجماله ينبعث من وجهه النور وحسن أخلاقه ومكارمه ، فجمع الله فيه المحاسن من جمال الصورة وكمال السيرة وحسن الخلق ، فكان يملأ القلب والعين ، لم يكن تحت أديم السماء - فيما نعلم - أعلم وأكمل وأجمع لخصال الكمال منه .

قال فيه حكيم الأمة مولانا الشيخ أشرف على التهانوى : "إن وجود مثله

فى الأمة الإسلامية آية على أن الإسلام دين حق وصدق " ، سمعت هذا من شيخنا العثمانى شبير أحمد صاحب "فتح الملهم" ثم سمعته من أكبر خلفاء حكيم الأمة الشيخ المفتى محمد حسن ، وأول ما سمعته من الشاه عطاء الله البخارى .

وقال فيه مدير دار العلوم الديوبندية مولانا حبيب الرحمن العثمانى : "إنه مكتبة حية ناطقة تمشى على الأرض" ، وقال: إنه الشيخ الثقة الورع التقى الحافظ الحجة المفسر المحدث المتبحر فى العلوم النقلية والعقلية ، رافع لواء التحقيق فى المسائل الغامضة المهمة الخ .

وقال فيه الشيخ السيد سليمان الندوى : هو كالبحر المحيط الذى ظاهره هادئ ساكن وباطنه مملو من اللآلى الفاخرة الثمينة .

وقال فيه شيخنا العثمانى شيخ الإسلام مولانا شبير أحمد شارح "مسلم": فقيد المثيل عديم العديل بقية السلف حجة الخلف ، البحر المواج والسراج الوهاج الذى لم تر العيون مثله فى العهد العام ولم ير هو مثل نفسه ، وقال فى موضع آخر : إن الجهابذة الناقدين يصفونه بأنه آية من آيات الله ، وإنه حجة الله على العالمين .

وقال فيه العارف المحقق مولانا رحيم الله البجنورى من أصحاب حجة الإسلام مولانا محمد قاسم النانوتوى : هو الحبر الكامل المحقق المدقق فخر الأقران وأبناء الزمان .

وقال فيه إمام المناظرين بعصره الشيخ مرتضى حسن الديوبندى : هو شيخ الإسلام والمسلمين مجمع بحور الدنيا والدين .

وقال فيه محقق الهند ومفتيها الشيخ محمد كفايت الله الدهلوى : العلامة الفاضل الكامل أكمل العلماء أفضل الفضلاء النحرير المقدام البحر الطمطام رحلة العصر قدوة الدهر أستاذ الأساتذة رئيس الجهابذة المحدث الوحيد والمفسر

الفريد الفقيه الإمام ماهر العلوم النقلية والعقلية .

ووصفه الشيخ المحقق الأستاذ الكبير محمد زاهد الكوثرى فى " تأنيب الخطيب " (١) بـ : "العلامة الحبر البحر محمد أنور شاه الكشميرى". وذكره متكلم عصره شيخ الإسلام مصطفى صبرى التركى نزيل القاهرة فى كتابه " موقف العلم والعقل والدين " (٢) ما لفظه : رأيت فى " مرقاة الطارم على حدوث العالم " لعالم الهند الكبير محمد أنور شاه الكشميرى رحمه الله ، فذكر المسألة ثم قال : فسرنى أن اتفقنا فى الرأى اه . وكنت قدمت لفضيلته ذلك الكتاب سنة ١٣٥٧ هـ بمنزله بمصر الجديدة ، فقال بعد ما طالعه : ما كنت أرى أن محققاً فى الهند مثله ، وهذه الرسالة أفضلها على هذا الكتاب "الأسفار الأربعة " للصدر الشيرازى ، وأشار إليه وكان بين يديه ، وسمعت الشيخ الكوثرى فى القاهرة بمنزله بالعباسية سنة ١٣٥٧ هـ : لم يأت بعد الشيخ ابن الهمام مثله فى استثارة الأبحاث النادرة من ثنايا الأحاديث ، ثم قال : وهذه برهة من الدهر طويلة . ووصفه الشيخ الكبير شيخه الديوبندى فى إجازته بقوله : قد أعطى فهماً ثاقباً ورأياً صائبا وطبيعةً زكيةً وأخلاقا رضيةً . وذكره العلامة الفقيه المحدث مولانا محمد سجاد البهارى بقوله : علامة الدهر فهامة العصر ، فقيه زمانه ، محدث أوانه ، ثقة فى الرواية ، حجة فى الدراية ، شيخ العلماء الخ .

وذكره الشيخ حسين بن محمد الطرابلسى إذ لاقاه بالمدينة المنورة بـ"الشيخ الفاضل" ، وهو شاب قبل أن يشتهر نبله وفضله ، إلى غير ذلك من آراء أهل الكمال فى كماله وشخصيته ، والذى ذكرنا هو برض من عد . وبالجملة فهذه الكلمات وما إلى ذلك من كلمات الثناء والاعتراف بمفاخره من أهل

(١) ص — ٨٤ (٢) ص — ٣٢٧ ج — ٣

عصره أو مشائخه أو من فى طبقة مشائخه ، برهان على وصوله إلى درجة سامية يقصر عنها شأو أهل العلم والفضل فى هذه العصور ، وإنه كان نظير أولئك الجهابذة من أفذاذ الأمة، لا يأتى أمثالهم إلا بعد قرون متطاولة . وقصارى القول فيه أن الله سبحانه جمع فى شخصيته الفذة أشتات الفضائل من جمال الوجه وحسن السيرة وكرم الشمائل والورع والزهد والتقى والصبر على المكاره ونشأته تربية صالحة فى حياة طيبة ثم جامعية العلوم روايتها ودرايتها ببصيرة نافذة مع عكوفها على المطالعة ليل نهار صباح مساء ، ثم حافظته الخارقة للعادة والولوع بالتحقيق والتدقيق فى كل شئ ، ثم التوفيق إلى سعى متواصل من غير ضجر وسآمة أو تعب وكلال ، وتيسر شيوخ أصحاب فضل واختصاص ربانيين علماء صلحاء عرفاء . فهذه الأمور لا تجتمع إلا فى شخص جرت مشيئة الله الأزلية بأن يكون إماماً فى الأمة وقدوةً ، ويكون كما قيل :

لكل زمان واحد يقتدى به * وهذا زمان أنت لاشك واحده

تأليفه كتاب "عقيدة الإسلام" .

لم يكن من ذوقه وطبيعته أن يشتغل بتأليف أسفار وزبر غير تقييد شوارد من أفكاره أو غرر نقول من مطالعاته فى مذكرته ، إلا أنه كلما اضطر إلى تأليف فى موضوع خاص لأجل تحقيق فى بحث أو مسألة دينية أو فصل خصام بين أهل العلم أو كشف قناع أظلم على أهل العلم فيه وجه الحق تصدى لتأليف ، فرسائله المصنفة وكتبه المؤلفة كلها من هذا القبيل ، وليس هذا محل استيفاء البيان ، وقد أوضحت هذا الموضوع فى "نفحة العنبر" باللغة العربية، وفى مقالتى الخاصة فى كتاب "حيات أنور" باللغة الأردوية. ولما بدت الفتنة القاديانية فى هذه البلاد باسم صاحبها: المرزا غلام أحمد القاديانى (نسبة إلى قرية "قاديان" فى مديرية گورداسپور من بلاد الفنجاب) وتدرج فى دعاويا

فادعى أولاً : أنه مجدد ، ثم ادعى : أنه مثيل المسيح بن مريم ، ثم ادعى المهدوية ، ثم ترقى وادعى : أنه المسيح الموعود الذى ينزل من السماء ، - إلى أن ادعى - : أنه نبي ورسول ، وجعل وحيه كالقرآن ، ثم أعلن بنسخ الجهاد والحج ، وادعى أن الحكومة البريطانية ظل الله فى الأرض ، وكان يتلقف آيات القرآن الكريم ويطبقها على نفسه ، وأخذ فى تعبيراته طريق الباطنية والزنادقة ، واقتدى البابية والبهائية من فرق الملاعنة ، وأراد أن يلبس على العامة أمره ، فدخل فى مسائل لم تكن لها علاقة بموضوعه ، فادعى أن عيسى عليه السلام قد توفى ، وأنه لاينزل ، وجعل الروايات يأولها والآيات القرآنية يحرفها ويضعها فى غير مواضعها ، وجاء بطامات وبلايا ، ودخل فى أودية من الكفر والإلحاد ، كما فصلته فى كتابى " نفحة العنبر " . وذكره الشيخ رحمه الله فى أول كتاب "عقيدة الإسلام" قبل خطبة الكتاب كالمقدمة لكتابه ، ونشأت له عصابة من أتباعه ، وكانت تعيش فى ظل الحكومة البريطانية ، فاستثمرت الحكومة دعاويه وأمانيه وسيلةً إلى الاختلال فى عقائد المسلمين ، فكانت ترشحها بشتى الوسائل ليس هذا محل استقصاء البيان . وبالجملة كانت هذه الفتنة وليدة السياسة البريطانية أو ربيبتها ، تتدرج وتخطو إلى الأمام فى ظل حمايتها ، لم تكن فى هذه البلاد حكومة إسلامية دينية لكى تقطع شأفتها ، فاضطر العلماء إلى القيام بواجبهم وبحفظ سياج الملة والذب عن عقائد الإسلام والمسلمين ، والرد على كل طامة من تلك الطامات إلى أن اجتمع على كل موضوع ذخائر من الكتب والرسائل ، فالشيخ إمام العصر رحمه الله قد أزعجته هذه البلية فقام للقضاء عليها خير قيام ، وشمر عن ساعد الجد لساناً وبناناً توجيهاً وهمةً ، فساحت بطحاء العلم بسيل من علومه ، وأتى بغرر أبحاثه ودرر تحقيقاته فى تآليفه ، وجاء بدقائق العربية وأسرارها فى ضمن شرح آيات التنزيل العزيز ، وجمع من روايات الحديث ما يتعلق بالرد عليها جمعاً مدهشاً بالغاً من مظان

بعيدة عن متناول أهل العلم ، فجمعها فى صعيد واحد ، فأفرد رسالــة فى الأحاديث سماها "التصريح بما تواتر فى نزول المسيح" أجمع رسالة ظهرت فى موضوعها، وأفرد كتاباً بديعاً فى مسألة الإكفار بالإنكار من ضروريات الدين جمع فيها نقول الأعلام من ثنايا كتب وأسفار من كل فن مطبوع أو مخطوط ما يبلغ عددها إلى مئات،وقد أحسن إلى الأمة الإسلامية بتأليف هذا الكتاب البديع ،ونقح فيه مدار النجاة ومناط الإيمان والكفر،ونقح تلك المسائل الدقيقة التى طالما كانت مداحض للأفهام والأعلام ، وجاء بتنقيح مناط تلك الدقائق العلمية بأدلــة من الآيات والأحاديث والآثار وغرر نقول جهابذة الأمة من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين والمفسرين من أقدم عهد إلى عصره، وقدمه إلى أكابر عصره والمحققين من أهل السنة ، فكلهم قرظوه وأثنوا عليه ثناءً بالغاً، ووافقوه على تلك التحقيقات المنقحة ، وكل ذلك فعله لكى تتفق كلمتهم فى ما عليه مناط النجاة الأخروية ، وفى مسألة الإكفاروالتكفير ، وحقق فيـه أن ضروريات الدين والإنكار عنها أو تأويلها كلاهما موجب للكفر ، فكان هذا الكتاب بتقريظاته وآراء جهابذة عصره كالإجماع على الموضوع ، ومن أجل هذا قدمه للقوم للتقريظ ، وكان حضرة المؤلف إمام العصر فى غنى عن الثناء، وكان بعيداً عن ذوقه وعلمه أن يثنوا على كتابه، وإنما اضطر إلى جمع كلمتهم وإتفاق آرائهم وأنظارهم على المسألة ، وعزم إصلاح آراء بعض من التبس عليه وجه الصواب فى تلك المعضلات ، ولا أقول هذا عن حدس أو خرص وإنما سمعته من حضرتــه رحمه الله ، فليكن أمام القارئ الكريم هذه الحقائق التاريخية لكى يقدرها فى جذر قلبه . وبالجملة فهو أجمع كتاب وأبدعه وأهمه ظهرفى هذا الموضوع ،وحقق فيه تلك المشكلات والمعضلات التى طالما أشكل على كثير من أهل العلم حلها .

وكذلك ألف رسالة باللغة الفارسية فى شرح آية خاتم النبيين، جاء بنفائس من أفكاره الرائقة، وبما شرح الله له صدره من تحقيقات وهبية ولكنها دقيقة غامضة، وألف فى عقيدة حياة سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام كتاباً بديعاً حافلاً سماه : "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام"، ثم زاد عليه بتعليقات سماها : "تحية الإسلام"، فهذه إذن خمسة كتب فى ما يتعلق بالرد على "القاديانية" والإلمام بشئ من مزايا هذا الكتاب وتعليقاته موضوع تقدمتى هذه وبالله التوفيق .

هذا الكتاب "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام" وسماه الشيخ أيضاً "حياة المسيح بمتن القرآن والحديث الصحيح"، وأفادنى رحمه الله بأن موضوع كتابى هذا : إثبات حياته بأدلة القرآن الكريم، وإنما جاءت الأحاديث والآثار تبعا لإيضاح الآيات، لم يكن الغرض استيفاء الأحاديث والروايات فى الكتاب، فلا يظن أن الشيخ رحمه الله استوفى الآيات والروايات جميعا كما يظنه كثير من أهل العلم، وإنما استقصى الشيخ رحمه الله الروايات فى رسالة "التصريح" كما سبق، وإنما الغرض الوحيد شرح آيات من التنزيل العزيز ما يتعلق بحياته عليه السلام، نعم إن الشيخ كان من دأبه فى تأليفه أن يتوسع بكل ما له صلة بالمقام من غرر النقول ونفائس الأبحاث، وكان إماماً فى العربية وأسرارها، لو سميناه "سيبويه العربية وخليلها" لم نجازف مجازفة، بل ربما يكون هذا التعبير أدق تعبير وأوفاه لإبراز هذه الناحية من علومه التى خفيت على كثير من أهل العلم وأرباب الفضل، فجاء فى كتابه بمسائل من علوم البلاغة والبيان والعربية ما يقضى العجب والحيرة من تغلغله فى أمثال هذه العلوم وذوقه البديع وملكته الراسخة فى كشف هذه الحقائق، وكلما آخذ أطالع له كتابا فى موضوع زاد إعجابى وحيرتى، بل طالت دهشتى بأنه كيف حوى بكل ما له صلة بالبحث، وكيف أتى بأبحاث رائقة من مظان لا يخطر ببال أحد أنه يكون

هناك علاقة بالموضوع ، وحق لى أن أتمثل بما كان يتمثل به حجة الإسلام الغزالى بقول الشاعر :

ونادتنى الأشواق مهلاً فهذه * منازل من تهوى رويدك فانزلِ
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد * لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

وحق لى أن أقول فى حقه :

ولو أن ثوباً حيك من نسج تسعة * وعشرين حرفا من علاه قصير

وكل محقق ناقد بصير إذا وقف على كتاب لـه فى موضوع اضطر أن يقف مطيته ويلقى عصاه ، ويقول :

فألقى عصاه واستقر به النوى * كما قر عيناً بالإياب المسافر

أو يقول :

هل غادر الشعراء من متردم * أم قد عرفت الدار بعد توهم

قال المحقق الكوثرى فى "مقالاته" (١) : وفى "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام" لمولانا الحبر الكشميرى بسط القول فى وجوه دلالة الكتاب على ما عليه أصل الحق ، فليراجعها من شاء الإستزادة اهـ .

هذا الكتاب وتعليقاته قد أحصيت مآخذه ، فبلغت تلك الكتب والرسائل التى نقل عباراتها ، أو أحال عليها من غير واسطة ثلاثمائة كتاب كل موضوع ، وإن جاء استطراداً فترى فيها الإحالة على الكتب كأنه قضى حياتها المباركة فيه ، وإذا جاءت نوبـة الأخذ من الأناجيل وكتب العهد الجديد أو العهد العتيق وشروحها الكبارى ، أو ما يتعلق بموضوع الرد فلا ترى كتاباً إلا وجاء ذكره ، ولا ترى استنباطاً دقيقاً منها إلا وتجده هناك . ثم من العجيب المدهش أنه إذا

---

(١) ص ٣٥٤

كانت كلمات مبعثرة فى كتاب واحد تتعلق بموضوع واحد فيلتقطها من سائر مجلداتها الضخمــة ولايدع شاؤاً لمستبق ولا مساغاً لأحد ، فهذا كتاب "دائرة المعارف" للوجدى أو للبستانى كأنها صفحة واحدة بين عينيه، استقصى مطالعتهما ، فإذا كان شئ فى أية مادة من المواد ينقله أو يحيل عليه ، وهذا "فتح البارى" وهذه "الفتوحات المكية" وما إلى ذلك من كتب ضخمة فى مجلدات كبيرة لم يترك منها شيئاً يدور حول الموضوع ، ثم يأتى بغرر النقول من كتب لا تكون لها فى الظاهر علاقة بالموضوع. فبالجملة كل موضوع يأتى بما له صلة من بعد أو قرب فيندهش المرء من هذا التبحر الخارق والتغلغل المدهش ، ثم هذا التنبه والتفطن ، ثم هذا التصبر للتصفح والبحث ، ثم هذه الحافظة المحيطة لايمر عليها شئ إلا وتحوط به، فسبحان واهب الفضائل والمزايا، يختص برحمته من يشآء ، والله ذو الفضل العظيم . ثم إنه إذا كان شئ لمعاصريه ينقله أو يحيل عليه ويثنى على إفادته وإجادته بكل سماحة من غير بخس وإخمال، ولو أخذت أسرد هذه الأمور بأمثلتها لطال البحث جداً، والكتاب بين يدى كل باحث نظار إذا أجال فيه قداح فكرته شاهد ما أقول ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

ويقول شيخنا العلامة العثمانى صاحب "فتح الملهم" فى "فوائده التفسيرية على التنزيل العزيز" باللغة الأردوية: إن كتاب "عقيدة الإسلام" لإمام العصر الشيخ أنور شاه الكشميرى كتاب لا نظير له فى موضوعه ، ولم أقف على كتاب على هذا الموضوع ما يدانيه ، وقال فى "فتح الملهم" (١) : وقد حقق معنى "التوفى" وفصل المباحث المتعلقة بحياة عيسى عليه السلام العلامة الشيخ الأنور فى كتابه "عقيدة الإسلام" بما لا مزيد عليه فليراجع اهـ . وكان ذلك البحاثة المحقق النظار الشيخ محمد زاهد الكوثرى من المعجبين بهذا الكتاب ،

(١) ص — ٣٠٢ ج - ١

وكذلك بكتاب "التصريح بما تواتر فى نزول المسيح" ، وكنت قد قدمت الكتابين لفضيلته ، وضاع منه الأخير فطلبنى من القاهرة وكنت فى مضافات بمبائى من بلاد الهند فأرسلته مرةً أخرى بالبريد، ويقول فى "مقالاته" (١) : بل لمولانا المحدث الكشميرى كتاب "التصريح بما تواتر فى نزول المسيح" يسوق فيه سبعين حديثاً تدل على نزوله عليه السلام اهـ . ويقول فى "مقالاته" (٢) : أعلى الله سبحانه منزلة العلامة فقيد الإسلام المحدث الحجاج الشيخ محمد الأنور الكشميرى فى غرف الجنان ، وكافأه مكافأة الذابين عن حريم دين الإسلام ، فإنه قمع القاديانية بحججه الدامغة ، وحال دون استفحال شر معتدليهم و متطرفيهم بالهند بتأليف كتب ممتعة فى الرد عليهم بلغات شتى ، وحقق فى كتابه "إكفار الملحدين" أمر إكفار هؤلاء وأمثالهم آه .

وقد استطرد للمناسبة والعلاقة عدة أبحاث نادرة هى فى غاية الأهمية أو هى من مسائل عويصة ، فمنها تعين اليأجوج والمأجوج ، والبحث عن ذى القرنين ، وتحقيق موضع السد ، وهى مقالة تاريخية بديعة من خصائص هذا الكتاب ، ومنها تحقيق الكناية : هل هى حقيقة أو مجاز؟ وهى من عيون مسائل علم البلاغة ترى فيه غرر النقول من أمهات الفن ومن أساطين هذا العلم ، ومنها بحث البشارة بسيد المرسلين وخاتم النبيين من الأناجيل والعهد العتيق وسيادة خاتم الأنبياء ﷺ ، ومنها تحقيق الدنيا وحدوث العالم ، وتحقيق أنه ليس فى هذا العالم علة ومعلول ، وإنما هو سبب ومسبب وشرط ومشروط ، وأن العالم كله من صنع الله وفعله ، وليس بين العالم وصانعه إلا مبادئ تكون بين الفعل وفاعله ، وكان الله ولم يكن معه شئ ، وقصيدة فى إسراء النبى ﷺ ، وأثبت فيها رؤيته الله سبحانه وتعالى ليلة الإسراء ، ومنها مسألة عرض الأعمال عليه ﷺ ، وأنه كعرض الأسماء

(١) ص — ٣٥٥ (٢) ص — ٣٥٩

على الملائكة عرض إجمالى وليس بعلم محيط . ومنها تفسير آية ختم النبوة ، وجاء فيه شئ ملخص مما بثه فى رسالته المفردة فيها بالفارسية فى خصائصه ﷺ بغاية الحسن والإنسجام ، وما إلى ذلك من أبحاث بديعة وفوائد سامية تضرب إليها أكباد الإبل .

* * *

ضمیمة ،، نفحة العنبر ،،

(امام العصر رحمه الله کے فارسی میں دو اهم تاریخی مکتوب)

حکیم الامت حضرت مولانا اشرف علی تھانوی رحمه الله - جیسا کہ ''نفحة العنبر'' میں عرض کیا گیا ہے - بسا اوقات حضرت امام العصر رحمه الله سے بعض علمی و فقہی مشکلات کے بارے میں مکاتبت فرماتے رہے ہیں - چنانچہ کتاب '' اعلاء السنن '' جو حضرت حکیم الامت کی نگرانی میں جناب مولانا ظفر احمد صاحب عثمانی کی مرتب کردہ حدیث کی اهم کتاب ہے اور حنفی نقطہ نگاہ سے نہایت قابل قدر تصنیف ہے اس کی تالیف کے دوران ایک علمی و فقہی عقدہ پیش آیا تو حضرت حکیم الامت کے حکم سے جناب مولانا حبیب احمد صاحب نے حضرت شاہ صاحب سے - جب آپ ڈابھیل تشریف لے گئے تھے اور دار العلوم دیو بند سے علیحدگی اختیار کر چکے تھے خط لکھکر اس مشکل کا حل دریافت کیا تھا ، حضرت شاہ صاحب رحمه الله نے اس کا جواب فارسی زبان میں تحریر فرمایا تھا - حضرت شاہ صاحب رحمه الله علماء سے اکثر مراسلت فارسی میں کیا کرتے تھے یا پھر عربی میں - ہاں جن حضرات کو عربی و فارسی کا ذوق نہیں ہوتا تھا انکو اردو میں لکھتے تھے - الحمد لله کہ حضرت حکیم الامت رح کا وہ مکتوب اور اس کے جواب میں حضرت شاہ صاحب کا وہ تاریخی مکتوب دونوں مجھے حضرت امام العصر شاہ صاحب کے مسودات میں مل گئے تھے - اس مراسلت و مکاتبت کے شائع کرنے میں متعدد منافع ہیں :

١ - حضرت شاہ صاحب جس زمانے میں دیو بند سے علیحدہ ہو گئے تھے لوگوں میں مشہور تھا کہ حضرت تھانوی رح سے آپ کے تعلقات مکدر ہو گئے ہیں اور قلوب میں سابقہ کیفیت باقی نہیں رہی ہے - الحمد لله اس مراسلت سے یہ سب وساوس ختم ہو جاتے ہیں اور دونوں بزرگوں کے خوشگوار تعلقات پر روشنی پڑ جاتی ہے ، اور ثابت ہو جاتا ہے کہ حضرت حکیم الامت کے قلب مبارک میں امام العصر حضرت شاہ صاحب کی طرف سے ذرہ بھر بھی تکدر نہ تھا -

۲ - حضرت حکیم الامت رحمہ اللہ اگرچہ شیخ الهند رح کے شاگرد تھے اور اس حیثیت سے حضرت امام العصر کے استاد بھائی تھے لیکن باوجود اس کے آپ کا طبقہ حضرت شاہ صاحب کے طبقے سے اونچا تھا - اور جن اکابر سے حکیم الامت کو استفادہ کا موقعہ ملا تھا - حضرت شاہ صاحب ان سے مستفید نہو سکے تھے - لیکن باوجود اس تفاوت کے حضرت شاہ صاحب کی طرف مشکلات میں رجوع کرنا ان کی انتہائی قدر دانی ہے اور کمال حقانیت کا ثبوت ہے - نیز علماء ربانیین کی جو خصوصیت ہے وہ پوری طرح اس مراسلت میں جلوہ گر ہے -

۳ - اس مراسلت سے یہ بھی معلوم ہوتا ہے کہ علمی مشکلات کی کوئی انتہا نہیں اور عالم کتنا بھی محقق ہو پھر بھی بسا اوقات اس کے لئے اپنے علم و تحقیق کا دائرہ تنہا کافی نہیں ہوتا اور آخر تک استاذ و شیخ کی ضرورت رہتی ہے - اور کوئی کتنا ہی بڑا عالم کیوں نہ ہو پھر بھی بسا اوقات اسکو دوسرے کی رہنمائی کی حاجت ہوتی ہے اس لئے کسی بھی عالم کو خواہ وہ کتنا بھی فاضل ہو اپنے آپ کو ہر شخص سے مستغنی نہ سمجھنا چاہئے - حضرت حکیم الامت جیسی محقق اور یگانہ روزگار شخصیت بھی استفادہ و استفسار کی محتاج تھی -

حضرت امام العصر کی وفات پر جو تقریر شیخ الاسلام حضرت مولانا عثمانی نے ڈابھیل میں فرمائی تھی اس میں اس حقیقت کا اظہار فرمایا تھا کہ : ہم یتیم ہو گئے بڑا صدمہ اسی کا ہے کہ اگر ہمیں کوئی مشکل پیش آئیگی تو ہم کہاں جائنگے چنانچہ شب و روز کا یہ معمول میرے سامنے ہے کہ حضرت عثمانی رح کس طرح علمی مشکلات کے متعلق صبح و شام استفسار کرتے رہتے تھے اور استفادہ کیا کرتے تھے - اسی حقیقت کی طرف قرآن حکیم نے اشارہ فرمایا ہے : (و فوق کل ذی علم علیم) -

اس لحاظ سے کچھ غیر موزوں نہ ہوگا کہ حضرت تھانوی رحمہ اللہ کا مکتوب گرامی مع مفصل سوال نقل کر دیا جائے اور پھر حضرت شیخ کا جواب نقل کر دیا جائے - معلوم ہوتا ہے کہ حضرت شیخ کے جواب کے بعد پھر حضرت تھانوی نے کوئی اعتراض وارد کیا ہے پھر حضرت شیخ نے جواب دیا ہے ، یہ دوسرا جواب تو موجود ہے لیکن حضرت تھانوی کا وہ دوسرا مکتوب نہ مل سکا - نیز حضرت شیخ رح کے مکتوب نمبر ۲ کا بعینہ فوٹو شائع کیا جاتا ہے تاکہ حضرت شیخ رحمہ اللہ کے خط نسخ و نستعلیق کا نمونہ بھی سامنے جلوہ گر ہو جائے - و باللہ التوفیق .

—: () :—

سوال أول : "ھدایة" میں ھے : " وإذا التقى الصفان من المسلمين والمشركين فقتل مسلم مسلماً ظن أنه مشرك فلا قود عليه ، وعليه الكفارة ، لأن هذا أحد نوعى الخطأ على ما بيناه ، والخطأ بنوعيه لا يوجب القود ويوجب الكفارة ، وكذا الدية على ما نطق به نص الكتاب" .

نیز "ھدایة" میں ھے : "إذا شهد أربعة على رجل بالزنا فأمر القاضى برجمه فضرب رجل عنقه ، ثم وجد الشهود عبيداً فعلى القاتل الدية . وفى القياس : يجب القصاص لأنه قتل نفساً معصومة بغير حق . وجه الاستحسان أن القضاء صحيح ظاهراً وقت القتل فأورث شبهة ، ولأنه ظنه مباح الدم معتمداً على دليل مبيح ، فصار كما إذا ظنه حربياً وعليه علامتهم ، وتجب الدية فى ماله لأنه عمد والعواقل لا تعقل العمد . وقال فى " فتح القدير" : من قتل انساناً على ظن أنه حربى وعليه علامتهم ثم ظهر أنه مسلم فعليه الدية فى ماله ، لأنه عمد والعاقلة لا تعقل العمد " .

اب دریافت طلب یه امر ھے که ''ھدایه'' کی پہلی عبارت سے معلوم ھوتا ھے که قتل بناءً على الخطأ فى الظن خطا اور موجب کفارہ و دیت ھے ۔ اور دوسری عبارت سے معلوم ھوتا ھے که قتل بناءً على الخطا فى الظن عمد اور موجب قصاص ھے ۔ مگر شبه کی وجه سے قصاص ساقط ھوجاتا ھے ۔ ان دونوں میں وجه تطبیق کیا ھے اور مسائل مذکورہ میں باھمی فرق کیا ھے ۔

سوال دوم : "شرح سیر کبیر" (ج ٣ ص ٢١٥) میں ھے : "ثم بين أنواع الخطأ ، فمن ذلك أن يعتمد بالرمية حين رآه فى صف المشركين وهو يظنه من المشركين ، فإذا هو مسلم ، وهذا عمد فى الحقيقة لأنه قصد شخصاً بعينه وأصابه ، فأما ظنه فليس بمتصل بفعله ، ولكنه خطأ شرعاً عرفنا

بالسنة وهو ما روی أن سیوف المسلمین اختلفت علی الیمان أبی حذیفة وهم یرون أنه من المشرکین فقتلوه فجعل رسول الله ﷺ الدیة فترك ذلك لهم حذیفة".

اس کے متعلق سوال یہ ہے کہ جب اسکو قتل عمد تسلیم کر لیا گیا تو اب اسکو خطا کہنے کی اور دیت و کفارہ واجب کرنے کی کیا وجہ ہے ؟ رہی یہ بات کہ شریعت نے اسے خطا قرار دیا ہے تو اس پر شبہ یہ ہے کہ یمان کے قتل میں کفارہ کا حکم ثابت نہیں ، اور نفس دیت ممکن ہے کہ اس بنا پر ہو کہ آپ نے اسے قتل عمد قرار دیا ہو اور قصاص کو بوجہ شبہ کے ساقط کیا ہو جیسا کہ ''فتح القدیر'' و ''ہدایہ'' میں ہے : ''من قتل رجلاً علی ظن انه حربی و علیه علامتهم ثم ظهر انه مسلم فعلیه الدیة فی ماله،لانه عمد والعاقلة لاتعقل العمد'' پھر اس سے اس کے خطا ہونے پر استدلال کیونکر صحیح ہے .

سوال سوم : جب کوئی مسلمان دوسرے مسلمان کو جہاد کے موقعہ پر کافر سمجھکر قتل کر دے تو دیت قاتل کے مال میں لازم ہوگی ، یا عاقلہ پر ، یا بیت المال میں . اگر اسے قتل خطا قرار دیا جائے تو عاقلہ پر لازم ہونی چاہئے - حالانکہ قصہ قتل یمان سے معلوم ہوتا ہے کہ آپ نے بیت المال سے دیت دینا چاہا تھا اور اس سے معلوم ہوتا ہے کہ آپ نے اسے قتل عمد قرار دیا اور مجاہدین کو قاضی مخطی کے حکم میں قرار دیا کیونکہ دونوں عامل للمسلمین ہیں -

* * *

مکرمی ! السلام علیکم - براہ مہربانی امور مذکورہ کے جواب شاہ صاحب سے لیکر روانہ فرمایا جاوے - عین عنایت ہوگی - ان کو براہ راست اس لئے نہیں لکھا گیا کہ معلوم ہوا ہے کہ ان کے مزاج میں خط کے جواب میں بہت تساہل ہے ، آپ کے توسط سے یہ فائدہ ہے کہ اگر وہ زبانی جواب بھی دیدیں گے تو

آپ اسکو ضبط کر کے روانہ کر سکتے ھیں ، ان سوالات کے جوابات کی سخت ضرورت ھے کیونکہ ''اعلاء السنن'' کا مضمون بلا ان سوالات کے حل کے مکمل نہیں ھوسکتا - والسلام -

المکلف : حبیب احمد

* * *

از اشرف علی بمشفقم قاری مولوی محمد یامین صاحب - السلام علیکم - یہ خط مولوی حبیب احمد صاحب نے میرے کہنے سے لکھا ھے ، ''اعلاء السنن'' کا ایک مقام اٹکا ھوا ھے ان سوالوں کے حل کے ساتھ اس بات کے لکھنے کی بھی ضرورت ھے کہ ان صورتوں میں حنفیہ کا مذھب کیا ھے؟ آیا یہ عمد ھیں اور شبہ کے سبب قصاص ساقط ھوگیا ، اور دیت خاص مال قاتل میں واجب ھے یا یہ صورتیں خطا میں داخل ھیں اور اس لئے دیت و کفارہ دونوں واجب ھیں اور دیت عاقلہ پر ھے ؟ ان سوالوں کا جواب جناب شاہ صاحب سے لیکر بھیجدیا جاوے - جواب کے لئے پیڈ لفافہ ملفوف ھے - اگر آپکو شاہ صاحب کے دینے کا موقعہ نہ ملے تو مولانا احمد بزرگ صاحب کو یا میاں حاج محمد بن موسی کو دیدیجئے اور جواب مفصل ضروری نہیں مجمل کافی ھے -

---

جناب مستطاب ، ادام الله ظله .

السلام علیکم و رحمة الله و برکاته - قتل مسلم بظن حربی باجازت قرآن است ، و قوله : ''الا خطأ'' استثناء متصل است زیرا که در ما قبل عنوان عمد نیست که استثناء منقطع باشد بلکه عنوان: ''وما کان لمؤمن ان یقتل مؤمناً'' هست که مراد ازان قتل بالاختیار است ، و قتل مسلم بظن حربی هم باختیار است نص قرآن آنرا خطا قرار داده . حقیقت خطأ در عرف فقهاء آن دیدیم که فاعل فعلے می کرد بے اختیار وے فعلے دگر شد مانند آنکه زد نشانه را رسید بر آدمی - و قتل مسلم بظن حربی اینگونه نیست بلکه همان کار کرد که می خواست ، ولهذا سرخسی میگوید که این قتل عمد بود - لیکن شرع اورا خطأ نهاد ، لا جرم حنفیه در اقسام قتل از اول جنایات این قسم را قسم مستقل نهادند و تصریح کردند که دیت دریں قسم بر عاقله است . مسئله قتل مسلم بظن حربی و قتل بصورت التقاء صفین در ''هدایه'' یک مسئله است که دوباره ذکر کرده ، و صاحب ''کنز'' بار دوم حذف کرده چه تکرار است .

و آنچه صاحب ''احکام القرآن'' بر بودن این استثناء متصل اعتراض کرده که این قتل در زعم قاتل خطأ نیست لا جرم استثناء منقطع باشد - در جواب آن گفته آید که چون در ذهن قاتل محظور است که اگر این مقتول مسلم بر آمد شرع آنرا خطا قرار دهد. پس بریں تقدیر نزد وے هم خطأ تواند بود و استثناء متصل خواهد بود چراکه مستثنی منه قتل بالاختیار است نه بالعمد .

پس نزول آیت در امثال قصهٔ قتل یمان موجب افراز ایں قسم گردید برخلاف قتل این و قتل مقتضی علیه بالرجم که بے اجازت شرع و بے ضرورت است آن اقسام را عمد که بشبه قصاص ساقط شود قرار دادند . قاتل مقضی علیه بالرجم بجز رقبه هیچگونه عامل للمسلمین نیست بسر خود میکند . قاضی و جلاد خطأ معروف در فقه (که کارے می خواست شد ازان کارے دگر) نکرده اند،ونه داخل نص تحول از بیت المال تا عاقله در باب ''من قتل خطأ ولم تعرف له عاقلة'' از ''موطأ محمد'' باید که چه وسعت دارد . خطأ قاضی و جلاد اگرچه خطأ معروف در فقه نیست تاهم اگر خطأ فی القصد داشته آید نیابت از عامه دارند بر خلاف قاتل مسلم بظن حربی که هیچگونه نیابت ندارد - نیابت از کسے چیز دگر است و عود نفع بسوئے وے چیز دگر. و السلام .

محمد انور عفا الله عنه .

۲۸۶

بعالی خدمت جناب مستطاب مولانا اشرف علی صاحب ادام اللہ ظلہ

[illegible]

عبارت فتح القدیر این است وان قتله عمدا بعد القضاء ثم وجد الشهود عبیدا الی ان قال لانه لما ظهرت الشهود عبیدا تبین ان القضاء لم یصح ولم یصر مباح الدم والی ان قال فصار کمن قتل انسانا علی ظن انه حربی وعلیه علاء منهم ثم ظهر انه مسلم فعلیه الدیة فی ماله لانه عمد والعاقلة لا تعقل العمد وتجب فی ثلاث سنین الی آخر ما قال ضمیر فعلیه الدیة فی ماله راجع بسوی قاتل مقضی علیه بالرجم است نه بسوی قاتل مسلم بظن حربی بهتر آن بود که وعلیه بود گفتندے چنانکه در عبارت ہدایہ از ینجا و عبارت عامہ کتب واقع شده معہذا نه چنان است که صورتی ندارد والہذا بسوی وتجب فی ثلاث سنین تعرض کرده که مسئلہ تمام شود ورنه در مجرد تنظیر حاجت این تتمیم نه بود عبارت تبیین الحقائق وغیره اظہر است و در تبیین فرق صورتین ہم ذکر کرده قتل مسلم بظن حربی نزد حنفیہ خطأ فی القصد است و در تقسیم اقسام قتل چون آنرا داخل خطأ فی القصد داشته اند ہمین تسمیہ که مبنای احکام است زیاده یاد داشتنی است تا در احکام از وجوب دیت بر عاقلہ و یا در مال قاتل تہافت واختلاف نرود سبب تعدد انظار در شیٔ ذی شبہین وزنے ندارد وینز ہمدکہ لشبہة قصاص اندران ساقط شود کلیۂ آن ذکر نه کرده اند وآنچه در ہدایہ وکنز[۴] قبیل فصل جنین است مجموع استقرار جزئی جزئی است

[۴] از قبل ابن

سیاق عبارت ایشان اندرین کافی در تخریج نیست فی الجملہ تشتت عبارات در شیٔ ذی شبہین وزنے ندارد و در احکام ہرچه جزئی جزئی نوشته اند قابل اعتماد است

محمد انور عفا اللہ عنہ

مؤرخ اسلام ادیب زمانہ حضرت علامہ سید سلیمان ندوی رح کا حضرت شیخ رحمہ اللہ کے بارے میں ایک تأثر

"دین و دانش کا مہر انور ۳ صفر ۱۳۵۲ ھ مطابق ۲۹ مئی ۱۹۳۳ ء کی صبح کو دیوبند کی خاک میں ہمیشہ کے لئے غروب ہو گیا - یعنی مولانا محمد انور شاہ صاحب جانشین حضرت شیخ الہند رحمہ اللہ صدر المدرسین دار العلوم دیوبند -

دو برس کی علالت بواسیر اور ضعف ونقاہت کے بعد ۵۹ برس کی عمر میں وفات پائی - مرحوم کا وطن کشمیر تھا مگر تعلیم سے فراغت کے بعد ایک مدت تک مدینہ منورہ میں اقامت کی پھر واپس آکر استاد کی خواہش اور اصرار سے دار العلوم کی صدارت کی ذمہ داری قبول فرمائی جسکو شیخ الہند کے زمانۂ جنگ میں ھجرت کے بعد سے سنہ ۱۹۲۷ ء تک اس طرح انجام دیا کہ چین سے لیکر روم تک ان کے فیضان کا سیلاب موجیں مارتا رہا - ہند اور بیرون ہند کے سینکڑوں تشنگان علم نے اس سے اپنی پیاس بجھائی -

مرحوم کم سخن لیکن وسیع النظر عالم تھے - ان کی مثال اس سمندر کی سی ھے جس کی اوپر کی سطح ساکن ہو لیکن اندر کی سطح موتیوں کے گراں قدر خزانوں سے معمور ہوتی ھے - وہ وسعت نظر قوت حافظہ اور کثرت حفظ میں اس عہد میں بے مثال تھے - علوم حدیث کے حافظ اور نکتہ شناس - علوم ادب میں بلند پایہ - معقولات میں ماہر - شعر وسخن سے بہرہ مند - زہد و تقوی میں کامل تھے - اللہ تعالی انہیں اپنی نوازشوں کی جنت میں ان کا مقام اعلی کرے

(نفحۃ العنبر م — ٤١)

کہ مرتے دم تک علم و معرفت کے اس شہید نے قال اللہ و قال الرسول کا نعرہ بلند کیا ۔

مرحوم کو سب سے پہلے سنہ ۱۹۰۶ ع یا ۱۹۰۷ ع میں دیکھا جبکہ وہ اور مولانا حسین احمد مدنی سرزمین عرب سے تازہ وارد ھند ھوئے تھے ۔ مدرسہ دارالعلوم دیوبند میں میری حاضری کی تقریب پر طلبہ اور مدرسین کا جلسہ ترتیب پایا جس میں انھوں نے میری عربی تقریر کے جواب میں تقریر فرمائی تھی پھر جب حاضری ھوتی رھی یا خلافت اور جمعیت کے جلسوں میں ملاقاتیں ھوتی رھیں ۔

سنہ ۱۹۲۷ ع میں جب وہ پشاور کے اجلاس جمعیۃ العلماء کے صدر تھے میں بھی حاضر تھا ۔ حضرت مرحوم سے ملاقاتوں میں علمی استفادہ کے مواقع ملتے رہے ۔ ھر سوال کے وقت ان کی خندہ پیشانی سے محسوس ھوتا تھا کہ وہ سوال سے خوش ھوئے اھل کمال کی یہ بڑی پہچان ہے کیونکہ وہ مشکلات سے عبور کر چکتا ہے اور جب اس سے سوال کیا جاتا ہے تو شبہ کی اصل منشاء کو سمجھ جاتا ہے ؛ اور جواب دیکر خوش ھوتا ہے ۔

مرحوم معلومات کے دریا ، حافظہ کے بادشاہ اور وسعت علمی کی نادر مثال تھے ۔

ان کو زندہ کتبخانہ کہنا بجا ہے ۔ شاید کوئی کتاب مطبوعہ یا قلمی ان کے مطالعہ سے بچی ھو ۔ میری تصنیفات میں سے " ارض القرآن " ان تک پہنچی تھی اس پر اپنی رضامندی ظاھر فرمائی ۔ مرحوم آخری ملاقاتوں میں زیادہ عربی نصاب کی اصلاح پر مجھ سے گفتگو فرمایا کرتے تھے ۔

(معارف)

ربیع الاول سنہ ۱۳۵۲ ھ ۔ اعظم گڈھ ۔

* * *

رأى مؤرخ الإسلام الأديب البارع العلامة السيد سليمان الندوى فى الشيخ رحمه الله

(معرب من الأردوية)

وقد أفل لغير رجعة فى تربة مدينة ديوبند ذلك الكوكب الأنور شمس سماء الدين والعلم محمد أنور شاه الكشميرى خلف شيخ الهند (مولانا محمود الحسن) المدرس الأول بدار العلوم ديوبند ، وذلك فى صباح الثالث من شهر صفر سنة ١٣٥٢ من الهجرة النبوية ، الموافق لـ ٢٩ مايو ١٩٣٣ م .

توفى الشيخ فى التاسع والخمسين من عمره بعد ما نال منه وأنهكه للغاية داء البواسير الذى استمر به لمدة عامين .

كان مسقط رأس الشيخ رحمه الله منطقة كشمير غير أنه بعد إنهاء دراسته أقام بالمدينة المنورة زمناً ما ، ثم عاد إلى بلاده (الهند) وتولى منصب المدرس الأول بدار العلوم ديوبند حيث رجا منه ذلك شيخه وألح عليه من أجله فأدى هذا الواجب من عهد كفاح شيخ الهند واعتقاله (رحمه الله) إلى ١٩٢٧ م بحيث أصبح سيل فيوضه يتدفق من الصين إلى الروم ، فشفى به مئات من الظامئين غليلهم فى داخل الهند وخارجها .

كان الشيخ رحمه الله قليل الكلام ولكن واسع النظر فى العلم كمثل بحر ترى عالى سطحه هادئاً مطمئناً لا حراك به ، غير أن باطن سطحه يزدهر بكنوز من اللآلى الثمينة الفاخرة . كان الشيخ من سعة الأفق وقوة الذاكرة وكثرة الحفظ على درجة لم يكن يوجد له نظير فيها فى ذلك العصر . كان حافظاً لعلوم الحديث عارفاً لأسرارها الغامضة متضلعاً من العلوم العربية بارعاً

فى المعارف العقلية ذا حظ من الشعر والفكاهة كاملاً فى الزهد والتقوى ، فأعلى الله مقامه فى جنات نعيمه حيث كان قد أعلى ذلك الشهيد — شهيد العلم والمعرفة — راية علم ما قال الله وقال الرسول ، إلى أن وافاه الأجل المحتوم .

وأول ما قابلته رحمه الله فى عام ١٩٠٦م أو ١٩٠٧م حيث كان قد قدم حديثاً هو والشيخ حسين أحمد المدنى من أرض المدينة المنورة إلى الهند، وذلك عندما زرت مدرسة دار العلوم ديوبند ، وقد علق الشيخ على كلمتى التى ألقيتها هناك باللغة العربية فى نادى الطلبة والمدرسين الذى أقيم بمناسبة زيارتى لهذه المدرسة ، ثم كنت أتشرف بزيارته عند حضورى لديه أو فى مؤتمرات الخلافة وجمعية العلماء .

وفى عام ١٩٢٧ م لما كان الشيخ يرأس مؤتمراً لجمعية العلماء فى مدينة "بشاور" كنت حاضراً هناك، وكانت تتاح لى فرص الإستفادة العلمية فى مقابلاتى إياه رحمه الله، فكانت طلاقة وجهه عند كل سؤال يرد عليه تنم عن سروره بما ورد عليه من سؤال، وإن هذا لمن أجل ما يعرف به صاحب الكمال حيث يكون قد سبق له أن خاض مشاكل العلم وعبرها ، فهو يدرك مناشئ الأشكال فى ذهن السائل ويفرح عند حله إياه .

كان رحمه الله بحر المعلومات ، سلطان الذاكرة نادرة زمانه فى سعة العلم، وكان بحق مكتبة حية، قلما يكون قد فاتته قراءة كتاب مطبوع أو مخطوط، وقد وصل إليه من مؤلفاتى " أرض القرآن " فأبدى إعجابه به ، وكان أكثر ما يتحدث إلىّ فى المقابلات الأخيرة عما يتعلق بإصلاح المنهج الدراسى للعلوم العربية .

من مجلة " المعارف "

نفحــــة العنبر

کے متعلق

جناب مستطاب محقق عصر حضرت علامہ مولانا شبیر احمد صاحب عثمانی رحـ

شیخ الحدیث جامعہ اسلامیہ ڈابھیل دامت برکاتھم کا ارشاد گرامی
اور تاثرات عالیہ

بسم اللہ الرحمن الرحیم
(حامداً و مصلیاً)

برادر گرامی قدر مولانا محمد یوسف بنوری ! اللہ سبحانہ و تعالی آپ کو جزاء خیر دے اور اپنے فضل سے ''یرفع اللہ الذین آمنوا منکم والذین اوتوا العلم درجات '' کا مصداق صحیح بنائے ، آپ نے '' نفحۃ العنبر '' لکھکر حضرت شاہ صاحب قدس سرہ کی یاد تازہ کردی ، اور مشام جان کو معطر کردیا ، مین نے اولا اس کو بعض مواضع سے یونھی کیف ما اتفق دیکھنا شروع کیا ، خیال تھا کہ ایک آدھ صفحہ دیکھکر پھر کوئی فرصت کا وقت مطالعہ کے لئے نکالونگا ، لیکن کتاب کے موضوع اور اسلوب جمیل نے مجھکو بالکلیہ اپنی طرف جذب کرلیا پڑھتے وقت بلا مبالغہ یہ معلوم ھوتا تھا کہ گویا مرحوم کی تصویر سامنے کھڑی ھے ، اور خود گویا علامہ مرحوم اپنے خاص لب و لہجہ اور طرز ادا مین اپنے عقیدت کیشوں سے خطاب کر رھے ھین ، مرحوم کی سوانح اگر ارادہ کیا جاتا تو اس سے کہیں زیادہ ضخیم تیار ھو سکتی تھی ، لیکن حق یہ ھے کہ آپ نے ان کی با برکات زندگی کے جن پہلوؤں کو نمایاں کیا ھے اور جن خصوصیات کی طرف نہایت بلیغ اور موجز انداز مین اشارے کر دئے ھین میرے نزدیک اس سے آگے کچھ لکھنا '' سواد فی بیاض '' سے زیادہ وقعت نہیں رکھتا ، یعنی بسط و تفصیل جس قدر چاھے کر لیجئے ، خلاصہ اور مآل پھر یہی رھے گا ۔

مین تو کیا چیز ھوں ، اپنے زمانے کے بڑے بڑے مبصر ناقدین بھی مرحوم کو ''آیۃ من آیات اللہ'' اور ''حجۃ اللہ علی العالمین فی زمانہ'' سمجھتے

رہے ہیں ، آپ نے جس شان سے ان کے علوم ، احوال ، فطری ملکات اور ھدی و سمت کا تذکرہ کیا ہے وہ اس غرض کے لئے بالکل کافی ہے کہ اهل ذوق و معرفت آن کے آثار باقیہ سے مستفید ہونے کی طرف قلبی رغبت و شوق کا اظہار کریں اور علم و دیانت کی اس روح سعید کے تذکار کا نقش اپنے لوح قلب سے محو نہ ہونے دیں -

میرے خیال میں آپ کا یہ رسالہ بھی اوسی مرحوم کے کمالات کا ایک عکس اور اس کے آثار صالحہ میں سے ایک اثر قوی ہے ما شاء اللہ آپ کی علمی لیاقت ، ادبی قابلیت اور دینی صلاحیتوں کا میں پہلے سے معتقد تھا ، مگر اتنا نہیں جسقدر اس کتاب کے مطالعہ کے بعد ہو گیا ہوں -

بجز پر خلوص دعا کے اور کیا صلہ آپ کی محنت کا پیش کروں ، مرحوم کے نیازمند رفیقوں اور عقیدت مند اصحاب کے مہجور و محزون قلوب سے دعائیں نکلتی ہیں کہ تم نے ان کی تسلی کا ایک خاصہ مشغلہ مہیا کر دیا ، جبکہ مرحوم کی مفارقت سے بعض کی زبان حال یہ کہہ رہی تھی :

ہوئی مدت کہ دنیا سے مرا دل اٹھ گیا لیکن
ہنوز ایک شعلہ یاد رفتگاں میں دل سے اٹھتا ہے

ہجوم درد و غم اس دود آہ دل سے ہے ثابت
ورود کارواں ہو تب دھواں منزل سے اٹھتا ہے

الٰہی فرقت مرحوم میں کیونکر بسر ہو گی
نہ دل اٹھتا ہے الفت سے نہ صدمہ دل سے اٹھتا ہے

ہمارے شعلۂ غم کا یقیں تم کو نہیں آتا
تمہیں کیونکر دکھائیں دل میں بجھتا ، دل سے اٹھتا ہے

شبیر احمد عثمانی عفا اللہ عنہ
۴ صفر ۱۳۵٦ ھ

رأى العلامة الشيخ مولانا شبير أحمد العثمانى. شيخ الحديث بمدرسة الجامعة الإسلامية فى دابهيل فى كتاب

نفحة العنبر

(معرب من الأردية)

بسم الله الرحمن الرحيم . حامداً ومصلياً ومسلماً .

أيها الأخ العزيز مولانا محمد يوسف البنورى ، إنك جددت لنا ذكرى الشيخ قدس الله سره وعطرت أرواحنا بتأليفك الكتاب "نفحة العنبر"، فجزاك الله خيراً وجعلك من أولئك الذين صادق فيهم قوله تعالى : (ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات) .

إنى ابتدأت أولاً فى تصفح الكتاب من مواضع اتفقت لى قراءتها منه وكنت أرى تأجيل استيعاب قراءته إلى فرصة أخرى لولا أن جذبنى موضوع الكتاب وأسلوبه الجميل إلى درجة كان يخيل إلى أثناء القراءة — ولا أبالغ — أن صورة الشيخ ماثلة أمام عينىّ، وأن العلامة المرحوم نفسه يقوم خطيباً فينا نحن معشر العشاق المريدين فيمتعنا بما خصه الله به من أساوب الإلقاء وطريق لتوجيه الخطاب .

هذا وكان بالإمكان — إذا أريد — عرض حياة الشيخ المباركة فى مجلد أضخم من هذا بكثير ، غير أنى أرى — والحق يقال — أن الكتابة فى هذا الموضوع بأكثر مما كتبت لن تعدو أن تكون سواداً فى بياض بعد ما وضحت من جوانب حياة الشيخ المباركة ما وضحت ، وأشرت إلى مزاياه بكل أسلوب موجز بليغ ؛ فإنه مهما فصل الكلام وبسط فيه لن يؤول مغزاه إلا إلى ما ذكرته أنت فى الكتاب .

إن أجلاء المفكرين وجهابذة النقاد فى عصرهم — فضلاً عن أمثالى — كانوا يعتقدون فى الشيخ أنه آية من آية الله وحجته على العالمين فى زمانه ، والأسلوب الذى اتخذته فى عرض علوم الشيخ وملكاته الفطرية ونحو

ذلك من الأحوال التى تتعلق بهديه وسمته كفى به أن يعمل على رغبة أهل الذوق والمعرفة فى الإستفادة من تلكم الآثار الخالدة التى خلفها الشيخ ، وأن لا يدعهم تنمحى عن صدورهم نقوش ذكرى تلكم الروح السعيدة روح الديانة والعلم .

وكأن هذه الرسالة التى ألفتها لمرآة صافية تنعكس فيها كمالات الشيخ وأثر قوى من آثاره الصالحة ، وإنى قديماً كنت أعترف لك بالتفوق العلمى والأدبى وألمس فيلك أهلية وصلاحاً للأمور الدينية ، غير أن اعتقادى هذا لم يكن فى درجة وصل إليها الآن بعد ما قرأت لك هذا الكتاب .

وماذا أستطيع أن أقدمه لك من الصلة على هذا المجهود سوى الدعوات التى ملؤها الإخلاص، والتى بمثلها يدعو لك كثير من القلوب لهؤلاء المهجورين المحزونين من رفاق الشيخ المتوسلين وأصحابه المعتقدين حيث هيأت لهم شغلاً للعزاء والسلوة فى الوقت الذى كان لسان حال بعضهم يقول فيه من مفارقة الشيخ (١) :

وإنى لطالما سئمت من الدنيا غير أنه ما زال الفؤاد فى التهاب حتى الآن من ذكريات ذلك الحبيب الذى قد مضى لسبيله .

ومما يدلك على مكابدتى الآلام والأحزان التى تألبت علىَّ هذا الذى تراه من أبخرة مرتفعة من فىَّ أثر التأوهات فإن الدخان لا يرتفع من المنزل إلا بعد نزول الركب فيه .

وكيف لى بهناء العيش (يا إلهى) بعد الذى مضى؟ مع أن القلب لا يسلو عن الغرام ولا انجلاء للهموم عنه .

إن كنت فى شك من النيران التى أشعلتها على الهموم فكيف أريها إياك فإنها لا تشتعل إلا فى داخل القلب ولا تخبوا إلا هناك ؟ .

---

(١) ترجمة ابيات لشاعر هندى .

فهرس أبحاث الرسالة

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية .	ألف
مقدمة الطبعة الأولى فى خطبة الكتاب وإفصاح باعث تأليف الرسالة والصدع بمآثر الشيخ إمام العصر الأنور رحمه الله بالإجمال .	ه
سلسلة نسبه .	١
نشأته وحياته الجملية .	١
ذكر دار العلوم الديوبندية ، ونبذة من مآثر العارف المحقق النانوتوى والقطب المحدث الكنكوهى ، وبيان أنهما كانا فرقدى سماء فى دياجر الهند .	٣-٦
أعمال الشيخ بعد الفراغ وتأسيس المدرسة الأمينية بدهلى .	٧
عود الشيخ إلى كشمير وتأسيس معهد دينى .	٨
رحلته إلى الحرمين وتلاقيه مع صاحب "الرسالة الحميدية" .	٩
عزم تجريده وتفريده .	١٠
افتتاح تدريسه بديوبند .	١١
تأهله بديوبند والإيماء إلى بركاته المثمرة بديوبند .	١٢

الموضوع	الصفحة
تعزله من ديوبند ورحلته إلى الجامعة الإسلامية بقرية دابهيل من بقاع الكجرات .	١٣
ذكر شئ من مآثر الكجرات التاريخية .	١٥
نشأة الجامعة الإسلامية ودعوة ناظمها حضرة الشيخ وبشراه .	١٦
بركات الشيخ فى الكجرات .	١٨
مرض الشيخ ووفاته بديوبند .	١٨
لمحة نظر إلى مآثره .	٢١
صلاح فطرته من بدء نشأته .	٢٢
طفولته وبشارة بعض العرفاء بعاقبته السامية .	٢٣
عهده بمطالعته الشروح وتصديه للإفتاء .	٢٤
استبحاره وحافظته ودقة نظره .	٢٤
ذكر شواهد منها وفوائد أخرى .	٢٦
كلمة ألقاها الشيخ الحبر العثمانى فى خصائص الشيخ .	٣٣
دأبه فى مطالعة كتب القوم .	٣٦
الشيخ ودأبه فى حل مشكلات القرآن والتقاط فوائد من كلماته فيما يتعلق بالقرآن ، وشدة عنايته بالقرآن .	٣٦
فائدة فى تفسير قوله : "وامسحوا برؤسكم الخ" من تحقيقاته ما يدل على وصول الشيخ إلى أقصى ذرى البحث والتحقيق .	٤٢
فائدة فى تفسير قوله تعالى: "قل فأتوا بالتوراة" من علوم الشيخ .	٤٦

الموضوع	الصفحة
الشيخ والحديث .	٤٨
خصائصه فى شرح الأحاديث .	٥١
منها تعيين محط الفائدة وغرض الشارع وأمثلتها .	٥١
ومنها عدم اعتداده بعموم العبارات .	٥٤
ومنها الجمع بين روايات الإمام لتطبيقها بالحديث .	٥٥
ومنها عدم إناطة شرح الحديث بلفظ خاص والإغماض عن لفظه الآخر .	٦١
بيان أن تلك الخصائص لم يصرح بها الشيخ بل أنا تنبهت لها، نعم صرح ببعضها فى بعض دروسه .	٦٦
تذييل هذا المبحث بواقعة للشيخ تدل على كماله وبراعته فى الحديث .	٦٩
قدوم العلامة السيد رشيد رضا المصرى بديوبند وتأثره من تغلغل الشيخ فى مزايا الحديث .	٧٠
مقالة للشيخ ألقاها فى حفلة انعقدت عند قدوم الفاضل المذكور وهى تحتوى فوائد علمية حديثية ونبذة من حال الشاه ولى الله المحدث الدهلوى .	٧٢
بيان تحقيق المناط وتخريجه وتنقيحه .	٧٤
نبذة من حال الشيخ اسماعيل الشهيد والشيخ العارف النانوتوى والقطب الكنكوهى .	٧٦
أصول الأئمة الأربعة فى شرح الأحاديث .	٧٨
مسألة المياه وحديث القلتين .	٧٩

الموضوع	الصفحة
مسألة القراءة خلف الإمام .	٧٩
مسألة رفع اليدين والجهر بالتأمين .	٨٠
نبذة من حال شيخ الهند مولانا محمود حسن .	٨١
الشيخ وأسانيده فى الحديث .	٨٣
الشيخ والفقه وخصائصه فيه وغيرها من الفوائد المتفرقة .	٨٦
الشيخ وسعيه فى خدمة المذهب الحنفى .	٩٢
درجة الشيخ فى سائر العلوم العقلية والعلوم العربية وبعض فوائده ومكابدته فى مطالعة زبر المحققين .	٩٣
ذكر آيتى التوراة بالعبرية فى بشارة نبوة سيدنا خاتم الأنبياء عليه السلام	٩٥
أبيات للراقم فى مآثر الشيخ .	٩٨
الشيخ وخصائص دروسه وشيوع طريقته العذراء فى القوم وغيرها من الفوائد .	١٠٠
الشيخ والتأليف وخوضه فى الحقائق وذكر مؤلفاته وفوائد شتى .	١٠٥
تأليفه " فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب" .	١١١
تأليفه " خاتمة الخطاب" و" عقيدة الإسلام " .	١١٣
تأليفه " تحية الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام " .	١١٤
تأليفه " إكفار الملحدين فى ضروريات الدين"	١١٦
تأليفه " التصريح بما تواتر فى نزول المسيح" و" نيل الفرقدين " .	١١٧
تأليفه " بسط اليدين لنيل الفرقدين " .	١٢٠

الموضوع	الصفحة
تأليفه "كشف الستر عن صلاة الوتر" .	١٢٢
تأليفه " ضرب الخاتم على حدوث العالم " .	١٢٤
تأليفه " مرقاة الطارم لحدوث العالم " .	١٢٦
تأليفه " سهم الغيب فى كبد أهل الريب" .	١٢٧
تأليفه "كتاباً فى الذب عن قرة العينين" .	١٢٨
تأليفه " خاتم النبيين" .	١٢٩
تأليفه " العرف الشذى لجامع الترمذى" .	١٣٠
تكملة وزيادة فى مؤلفات الشيخ الأخرى .	١٣٣
الشيخ وأبحاثه وفوائده .	١٣٩
فائدة فى تفسير قوله تعالى : " وإذ قال ربك الخ " .	١٣٩
فائدة فى عدم نسخ صلاة الليل بالكلية .	١٤٠
فائدة فى بيان التواتر وأقسامه .	١٤٢
فائدة فى تقسيم الصحيح إلى أربعة أقسام .	١٤٤
فائدة فى بيان محل الإيمان وبيان مراتبه مأخوذة من مذكرته المخطوطة .	١٤٥
فائدة فى بيان أن الشريعة متوسطة بين التشبيه والتعطيل والرد على الفلاسفة وتنبيهات أخرى .	١٤٦
فائدة فى بيان أن ما قاله الفلاسفة من عينية صفات البارى سفسطة .	١٥٠
فائدة فى ذكر بعض معانى قوله تعالى : "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له الخ " .	١٥٣

الموضوع | الصفحة

فائدة طويلة فى تعيين سد ذى القرنين والكشف عن يأجوج ومأجوج
وتعيين اسم ذى القرنين وعهده . ١٥٧
تلخيص ما ذكره الشيخ وتنبيهات مهمة من الراقم . ١٦٨
فائدة من باب صدع الحقائق والصدع بمذاهب أهل الحق فى حدوث
العالم وإشارات وتنبيهات مهمة فى الرد على الفلاسفة . ١٧٠
الشيخ والشعر ونبوغه فى شعره . ١٧٦
قصيدة للشيخ فى نعت النبى ﷺ . ١٧٩
قصيدة له فى مآثر العارف النانوتوى . ١٨٢
قصيدة له فى مناقب القطب الكنكوهى . ١٨٤
قصيدة له فى رثاء شيخه المحمود الديوبندى . ١٨٥
قصيدة له دينية وتاريخية وسياسية . ١٨٨
تنبيه من الراقم فى الكشف عن الفصاحة ولطافة الخيال . ١٩٠
الشيخ وتعبيراته الأدبية . ١٩٠
الشيخ والفتنة المرزائية وكشف دسائسها وبركات الشيخ فى إطفاء هذه
النائرة وبيان أن الشيخ كان ربانى هذه الأمة بعهده . ١٩٤
شيء من شعره مما يتعلق بهذه الفتنة . ٢٠٥
الشيخ ونبذة من هديه وشمائله العامة . ٢٠٧
مقالة تاريخية لبعض الأفاضل فى مآثر الشيخ وفوائد جمة استطرادية . ٢١٦
الشيخ وثناء أماثل العصر عليه . ٢٢٤

الموضوع	الصفحة
رأى حضرة شيخه المحمود .	٢٢٤
رأى الشيخ حكيم الأمة التهانوى .	٢٢٥
رأى شيخ الإسلام العثمانى .	٢٢٦
لطيفة بديعة فى كلمة : "لم تر العيون مثله"	٢٢٧
رأى حضرة الشيخ حسين أحمد المدنى .	٢٢٩
رأى الشيخ المفتى محمد كفايت الله .	٢٣٠
رأى الشيخ حبيب الرحمن مدير دار العلوم الديوبندية .	٢٣١
رأى حضرة السيد سليمان الندوى .	٢٣٢
عبرات على ملمة وفاة الشيخ وفذلكة لمآثره المذكورة السالفة .	٢٣٦
بشرى ورؤيا بوفاة الشيخ رحمه الله .	٢٤٧
وفاة الشيخ ومراثى أهل العصر .	٢٤٨
مرثية الشيخ محمد ادريس الكاندهلوى .	٢٤٩
مرثية الأديب الفاضل ميرك شاه الكشميرى .	٢٥٠
مرثية الأديب البارع محمد يوسف الكاملفورى .	٢٥١
مرثية العالم الفاضل محمد يامين السهارنفورى .	٢٥٤
قصيدتان للراقم فى رثاء الشيخ رحمه الله .	٢٥٤
ختام الرسالة ومعذرة للجامع .	٢٦٠
زيادة وتكملة فى ترجمة الشيخ رحمه الله .	٢٦٩

الموضوع	الصفحة
التكملة الأولى : من " يتيمة البيان " .	٢٧٠
خصائصه البارعة .	٢٧٣
التكملة الثانية : من مقدمة " فيض البارى " .	٢٧٩
آدابه العامة فى تدريس الحديث .	٢٨٣
خصائصه فى تدريس " صحيح البخارى " .	٢٨٥
ميزته فى شرح أحاديث الأحكام .	٢٨٧
مؤلفاته فى الحديث .	٢٩٠
أسانيده فى الحديث .	٢٩١
إجازة الشيخ محمود حسن الديوبندى .	٢٩٣
إجازة الفقيه المحدث الكنكوهى .	٢٩٤
إجازة الشيخ حسين الجسر	٢٩٦
التكملة الثالثة : من تقدمة " عقيدة الإسلام " .	٢٩٨
اسمه ونسبه وولادته ونشأته الصالحة ودراسته العلمية .	٢٩٩
أعماله وأشغاله .	٣٠١
خصائصه وشئ من كلمات الأكابر والمعاصرين .	٣٠٣
تأليفه كتاب " عقيدة الإسلام " .	٣٠٦
ضميمة " نفحة العنبر " .	٣١٤
أشكل على الشيخ التهانوى مسألة فى " الهداية " فطلب حله من الشيخ رحـ .	٣١٦

الموضوع	الصفحة
بيان عبارات " الهداية " و " السير الكبير " .	٣١٦
كتاب الشيخ التهانوى إلى الشيخ الأنور .	٣١٨
جواب الشيخ فى حل المشكلة باللغة الفارسية .	٣١٩
صورة كتاب آخر فوتوغرافية للشيخ فى حل مشكلة وإيضاحها .	٣٢٠
كلمة السيد سليمان الندوى على وفاة الشيخ بالأردوية .	٣٢١
ترجمتها إلى اللغة العربية .	٣٢٣
تقريظ للشيخ العثمانى على " نفحة العنبر " باللغة الأردوية .	٣٢٥
ترجمته إلى اللغة العربية .	٣٢٧

*　*　*

قطعهٔ تاریخ تالیف نفحة العنبر

نتیجـــهٔ فکر

جناب مستطاب مولانا مولوی حبیب الله صاحب أستاذ جامعه اسلامیه ڈابھیل

کـــرد تالیف سیرتِ أنور خادمِ خاص حضرتِ انور

مولوی یوسف آنکه در علمش منجلی شد ز صحبتِ انور

نسخهٔ داد تا همـه خوانیم حمدِ خالق ز مدحتِ انور

بست گلدستهٔ که مست شود همـه عـالم ز نکهتِ انور

صورتے بر کشید تا دانی حق نما هست صورتِ انور

مشتے بنمود تا خرد دانـد خرمنِ علم و حکمتِ انور

مشکبارست وضو فگن دائم نفحِ عنبر ز سیرتِ انور

گفت تاریخ او حبیب الله عیسوی سال و هجرتِ انور

فیضِ همرشتـه نفحـة العنبر

۳٦ ء ۱۹

لامـع النـور سیرتِ انور

۵۵ ھ ۱۳